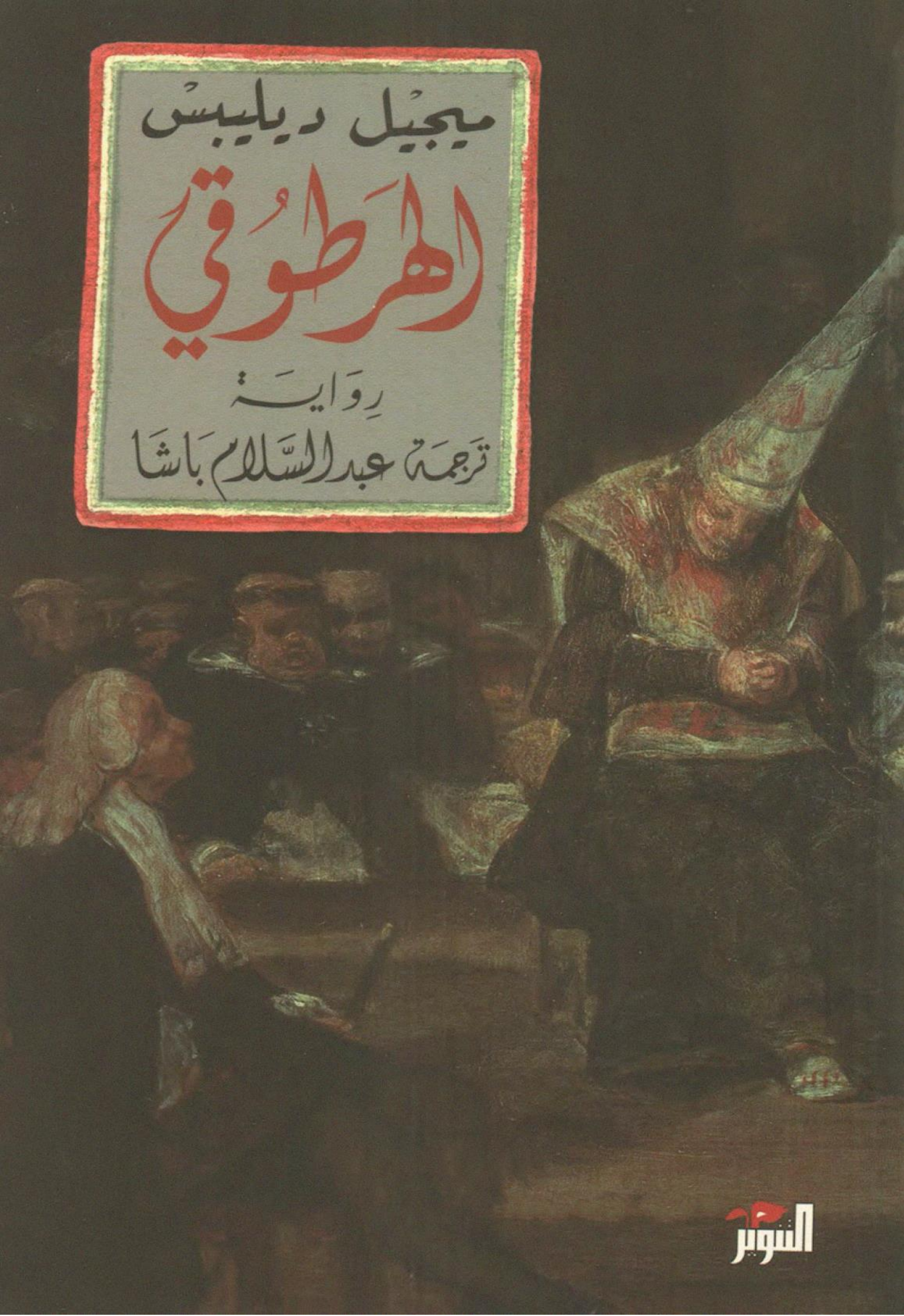
ميجيل ديليبس

الهرطوقي

رِوايـة

ترجمة عبد السلام باشا



التنوير

الكتاب: الهرطوقي / رواية
المؤلف: ميجيل ديلييس
نقلها عن الإسبانية: عبد السلام باشا
عدد الصفحات: 432 صفحة
الترقيم الدولي: 978-977-6483-44-6
رقم الناشر: 2015/17438
الطبعة الأولى: 2015

هذه ترجمة مرخّصة لرواية:

El hereje

Miguel Delibes

عن الطّبعة الثّانية عشرة الصّادرة في يوليو 1999

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الثالث –
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ميجيل ديليبس

الهرطوقي

رواية

نقلها عن الإسبانية:
عبد السلام باشا

إلى بلد الوليد، مدينتي.

كيف نصمُت على كُلِّ أشكال العنف الذي تم ارتكابه باسم العقيدة؟ حروبٌ دينيةٌ، محاكم تفتيشٍ وأشكالٌ أخرى لانتهاك حقوق الأفراد... من الضروريِّ أن تقوم الكنيسة، وفْقًا للمجمع الفاتيكاني الثَّاني، وبمبادرةٍ ذاتيةٍ، بمراجعة الجوانب المظلمة في تاريخها، والحكم عليها في ضوء مبادئ الإنجيل.

(يوحنا الثَّاني في كلمةٍ للكرادلة، 1994)

توطئة

هامبورج سفينةٌ ذات مجدافٍ وشراع، لها ثلاثة صوارٍ، نحيلةٌ، طولها خمس وستون ياردة، تعمل في الملاحة القارية. عبرت فَمَّ الميناء ببطءٍ حتَّى خرجت إلى البحر المفتوح. كانت الشَّمس تُشرق. في بدايات شهر أكتوبر من العام 1557، الطَّقس فوق سطح البحر وثبات السَّفينة يُنبئان بملاحةٍ هانئةٍ، في يومٍ هادئٍ قد يكون حارًا، شمسه ساطعةٌ ورياحه شماليةٌ ناعمةٌ. إنها سفينة شحنٍ صغيرةٍ، يعمل عليها اثنان وخمسون بحَّارًا. وعندما يكون الطَّقس جيدًا يقوم قبطانها هاينرش بيرجر بحسِّه الاقتصادي المرهف، بوضعِ خيمتين صغيرتين على سطحها، في الجزء الخلفي، لإقامة أربعة مسافرين محتملين، من الثقات، مقابل أجرٍ معتدلٍ.

في مواجهة الآتي من المقدمة، في أولى الخيمتين، يسافر رجلٌ ضئيلٌ، مهندمٌ، لحيته قصيرةٌ، على طريقة بلد الوليد، التي ينتمي لها، يحمل قبَّعةً، ويرتدي سروالًا ضيقًا وصدريةً من الجوخ وسترةً من مدينة شقوبية. كان مُتَّكئًا بمرفقيه على حافة السَّفينة اليسرى يرقب الميناء الذي غادره منذ قليل عبر نظارةٍ مقرِّبةٍ. فوق الزَّبَدِ الذي تخلِّفه **هامبورج** يتجمع سربٌ من طيور النَّورس التي تنعق بقوَّةٍ وتتجهَّز للعودة إلى الميناء. بمحاذاة السَّفينة، على الأرض، بدأ الضباب في التَّفكّك وبين بقاياه يُمْكن رؤية أجزاءٍ من السَّماء

الزَّرقاء التي كان هدوء الفجر التَّام يُنبئ بها. عبث الرَّجل الضئيل المهندم بيده الصَّغيرة المتوتِّرة في جيب سترته وأخرج الورقة المطوية التي سلمها له بحارٌ لدى صعوده إلى المركب، وقرأ الرِّسالة القصيرة التي تحويها مُجدَّدًا: «مرحبًا بك على متن السَّفينة. أنتظرك على الغداء في قُمرتي في الواحدة ظهرًا. القبطان بيرجر».

كان الدُّكتور قد حدَّثه بودٍّ عن القبطان في بلد الوليد. ورغم أنهما لم يلتقيا منذ زمنٍ طويلٍ، كانت تجمعه بهاينرش بيرجر صداقةٌ قديمةٌ. كان الدُّكتور يثق به حتَّى أنه لم يقرِّر التَّصريح بسفر أخيه في العقيدة ثيبريانو سالثيدو إلى ألمانيا إلا بعد معرفته بنيَّة القبطان العودة إلى إسبانيا في الخريف. كان الرَّجل الضئيل يتأمَّل البحر بينما يسترجع وجه الدُّكتور، الذي أصبح مؤخَّرًا مغمومًا، كثير المخاوف، بينما يحذِّره من مخاطر رحلته إلى أوربا. الحظر الذي تم تطبيقه مؤخَّرًا على عبور الحدود يخصُّ رجال الدِّين والطلبة، لكن كان من المعلوم أن كُلَّ من يقرِّر السَّفر إلى ألمانيا في هذه الأيَّام سيخضع **لمراقبةٍ بسيطةٍ**. قَالَ الدُّكتور **بسيطة**، لكن ثيبريانو سالثيدو حدس من نبرة صوته أن المراقبة ستكون صارمةً وقاسيةً. ومن هنا حَذَره طوال الرِّحلة: التَّغيير المفاجئ لوسائل الانتقال، التَّدقيق في اختيار النُّزُل أو أماكن اللِّقاء لاجتماعاته، وحتَّى مجرد زياراته لأصحاب المكتبات. كان ثيبريانو سالثيدو يشعر بالفخر لأن الدُّكتور قام باختياره لمهمةٍ بتلك الأهمية. حرَّره قراره من عُقَدٍ قديمةٍ، وسمح له بالاعتقاد بأنه ما زال ذا فائدةٍ، بوجود شخصٍ في العالم قادرٍ على الوثوق به والاعتماد عليه. وكون هذا الشَّخص إنسانًا حكيمًا، ذكيًا، وحذرًا مثل الدُّكتور، أرضى غروره البسيط. الآن كان سالثيدو على سطح المركب ويُفكِّر أن رحلته أوشكت على الانتهاء، وخلال المرحلة قبل الأخيرة على متن هامبورج التي يقودها القبطان بيرجر يمكنه أن ينام مُطمئنًا، وأن تكليفات الدُّكتور قد أُنجِزَت.

سمع أصواتًا على السَّطح. التفت والمنظار في يده الصَّغيرة المشعرة. نصف دستةٍ من البحارة الحفاة يحملون إلى المؤخِّرة ألواحًا خشبيةً والحبال اللَّازمة لربطها. بعد هؤلاء حمل ثلاثةٌ آخرون هيكلًا خشبيًا، على مقاس مؤخِّرة السَّفينة، مَكْتوبًا عليه **دانتي أليجري** بحروفٍ كبيرةٍ مذهَّبةٍ. خلال دقائق قليلةٍ، وبكفاءةٍ تكشف عن ممارسةٍ معتادةٍ، قام الفريق بتعليق الألواح على المؤخرة ورَبْطِ الحبال التي تُثبِّتها بالصَّاري الأخير. قفز بحَّاران إلى السَّقالة، بينما كان الآخرون يتحكمون بواسطة الحبال في انزلاق اليافطة الكبيرة فقام الأولان على السَّقالة بوضعها فوق اسم **هامبورج**. من فوق السَّقالة المُعَلَّقة ثبَّتوا اللَّوحة التي تحمل الاسم الجديد بالمسامير والدعامات، وبهذه الطَّريقة، في ما لا يزيد على نصف ساعةٍ، تم تغيير اسم السَّفينة من دون تَرْكِ أيِّ أثرٍ.

بعد ساعتين، في قُمرة القبطان، بينما كان «مرمطون»[1] يقوم بتقديم الغداء لهم، أوضح بيرجر أن تغيير الاسم كان احتياطًا ضروريًا بسيطًا يتم اتِّخاذه كلَّما تردَّدت السَّفينة على البلاد المعادية لإصلاحات لوثر. لكن، لأن الرَّجل الضئيل المهندم بدا مُتشكِّكًا، فإن القبطان بيرجر، الذي كان يتكلم دائمًا وعيناه شبه مُغمِضَتين كأنه يتفحَّص الأفق باستمرار، أضاف بصوتٍ خشنٍ وحدَّةٍ مُعتادةٍ في الرِّجال الذين عاشوا في البحر:

«يُمْكن تفادي الخطر بسهولة. هامبورج لديها رخصتان، في هامبورج وفي فينيسيا. فكلا الاسمين قانونيّ إذن، نستخدم أيًّا منهما حَسْب حاجتنا».

---

(1) مرمطون، كلمة فرنسيّة، تعني خادمًا أو مساعد طباخ على السفن التجارية.

كانوا جالسين إلى المائدة، ولأوَّل مرَّةٍ توقف ثيبريانو سالثيدو عند الشَّخص الثَّالث، جاره في الخيمة الأخرى على السَّطح، الذي قدَّمه القبطان بيرجر باسم دون إيسّيدورو تييريا. من مدينة إشبيلية، رجلٌ طويل القامة، نحيفٌ، حليقٌ، يتشح بالسَّواد، باح أنه أمضى نصف العام الأخير في جنيف. عندما بدأ القبطان الحوار، التزم الصَّمت ولم يرفع عينيه عن الطبق إلا عندما سأل سالثيدو عن الدُّكتور.

تنحنح ثيبريانو سالثيدو، وتردَّد عندما بدأ في الكلام. إنه الأثر الذي تبقَّى له من الخوف من الأب، من نظرته الثلجية، ومن تأنيبه، ومن سعاله الحاد في الصباحات الشُّتوية. لم تكن لعثمةً، وإنما لجلجةٌ خفيفةٌ في المقطع الأوَّل، كأنها عثرةٌ بلا أهمية:

- «ا... الدُّكتور بصحةٍ جيدةٍ، سيِّدي القبطان. الحقيقة أنه أصبح أكثر نحافةً وحزنًا. الأمور هناك ليست على ما يُرام. إنه يخشى أن يقوم مَجمع ترنتو[1] بإعادة المشكلة إلى جذورها، فلا نصل إلى أيِّ شيءٍ. هذا هو الدَّافع وراء رحلتي: أن أجمع المعلومات. أن أطَّلعَ على الواقع الألمانيِّ عن قُربٍ، ومقابلة فيليب ميلانشتون[2] والحصول على كُتُب».

- «أي نوعٍ من الكُتُبِ؟».

(1) مَجمع ترنتو Trento، عُقِدَ في مدينة ترنتو بإيطاليا، وشهد 25 جلسةً بين 1545 و1563. وتمَّت الدعوة له لغرضين؛ أولهما مواجهة الأفكار الجديدة للبروتستانت وثانيهما توحيد الصفوف إزاء الغزو العثمانيِّ للأراضي الأوربية. أعلن المَجمع أن الكتاب المقدَّس والتقليد المتوارث من آباء الكنيسة هما المصدران الصحيحان للإيمان الكاثوليكيِّ وأن للكنيسة وحدها الحق في تفسيرهما. ورفض المَجمع وجهات النظر البروتستانتية حول الخلاص والخطيئة. ولوقوع الحوار في الرواية في عام 1557، أثناء انعقاد المجمع، يُمكن إدراك المخاوف من قراراته.

(2) فيليب ملانشتون (1497-1560) عالمٌ ورجل لاهوتٍ ألماني. قاد حركة الإصلاح الديني البروتستانتية بعد رحيل مارتن لوثر. لكنه واجه مقاومةً ورفضًا من القطاعات البروتستانتية المتطرفة لعمله على التوفيق بين الكنيسة الكاثوليكية وبين الحركة الإصلاحية.

- «كُتُبٌ من كُلِّ نوعٍ، على الأخصِّ حديثة الصُّدور. منذ زمنٍ لم تدخل كُتُبٌ إلى إسبانيا. محاكمُ التَّفتيش تُشدِّد من رقابتها. في هذه اللَّحظة تقوم بمراجعة قائمة الكُتُبِ الممنوعة. قراءة هذه الكُتُبِ، وبيعها أو توزيعها، يُمثِّل في حدِّ ذاته جرائم خطيرة».

توقَّف سالثيدو مُفكِّرًا أن القبطان لن يقنع بإجابته المُبهمة، ونظرًا لصمته أضاف:

- «والدة الدُّكتور توفِّيت. قمنا بدفنها في دير سان بينيتو بشيءٍ من الاحتفاء، مع مراعاة المظاهر بالطَّبع. ورغم هذا حدث الكثير من اللَّغط والاعتراضات في الجنازة».

استفسر القبطان:

- «دونيا ليونور دي ببيرو؟».

- «نعم، دونيا ليونور دي ببيرو. بشكلٍ ما كانت هي روح الحركة في بلد الوليد في الماضي».

حرَّك القبطان بيرجر رَأسه نافيًا، مُبتسمًا. كان يكبُرُ محاوره باثني عشر أو خمسة عشر عامًا، بلحيةٍ نصفيةٍ حمراء وشعرٍ شديد الشُّقرة، أشهب تقريبًا، يبدو اسكندنافيًا أكثر منه ألمانيًا. ما زال يرقب يديَّ سالثيدو الصَّغيرتين بفضولٍ مُتَّقِدٍ. بعينين شبه مغمَضتين، وببطءٍ، رفع نظرته إلى وجهه الضَّئيل. كانت ملامحه دقيقةً ومتناسقةً أيضًا، وعينان كئيبتين عميقتين. ولكي يهرب من إيحاءات الشَّخصية المواجهة له شرب نصف كأسٍ من نبيذ بورديو من دورقٍ في وسط المائدة، ثم رفع عينيه وقال كأنما يؤكِّد على أَمْرٍ ما:

- «أعتقد أن الدُّكتور كان روح الحركة في بلد الوليد دائمًا، والأم كانت إحدى دعائمها. ربما كانت أكثر المتحمِّسين لعقيدة التَّبرير

بالإيمان[1]. لقد عرفت الدُّكتور في ألمانيا، في (إيرفورت)، عندما كان إيراسمياً[2] ساخطاً. بعد ذلك، عندما عاد إلى بلد الوليد، كان يحمل معه (العدوى)».

كان سالثيدو متوتِّرًا. يحدث له هذا كلَّما اعتقد أنه قال شيئاً يجانبه الصَّواب، ربما كان أثرًا من خوفه الأبويِّ مرَّةً أخرى، فأوضح:

- «في الحقيقة، أردتُّ أن أقول إن دونيا ليونور كانت المرأة القوية، التي تساند الدُّكتور في ساعات ضعفه، وكانت تمنح الحياة والمغزى للاجتماعات».

واصل القبطان بيرجر كأنه لم يسمع:

- «لَمْ أردّ الزِّيارة للدكتور إلا بعد ثمانية أعوام. كانت تلك رحلةٌ لا تُنسَى إلى بلد الوليد. كان لي شرف حضور اجتماعٍ سرِّيّ رَأَسَه الدُّكتور بجانب والدته دونيا ليونور دي بيبيرو. من دون شكٍّ، هذه المرأة كانت تمتلك رؤيةً واضحةً للأمور، وفكرةً صائبةً عما هو جوهريّ، رغم أنها كانت تُبدِي شيئاً من التَّسلُّط في تعاملها».

كان خطُّ البحر الأزرق يصعد ويهبط في الكوّة مع تأرجح السَّفينة الخفيف. ويُسمع صريرٌ دائمٌ من الحاجز الخشبيِّ الذي يفصل حجرة الطَّعام الصَّغيرة عن قُمرة القبطان. قال ثيبريانو سالثيدو موافقاً:

- «كُلُّ أبنائها يبجِّلونها. كانوا مغتبطين بإيمانها. أحدهم، بدرو، قسٌّ

---

(1) عقيدة «التَّبرير بالإيمان» تشير إلى غفران الله عن خطايا المذنبين من خلال الإيمان بتضحية المسيح فقط، وبصرف النظر عن جهودهم أو أعمالهم.

(2) نسبة إلى دسيدريوس إيراسموس روتريداموس (1466- 1536) وهو إنسانوي هولاندي من عصر النهضة الأوربية، كان إيراسموس قسيسًا كاثوليكيًا ومعلمًا وناقدًا اجتماعيًا وعالم لاهوت. سُمِّيَ «أمير الإنسانويين» و«المجد التتويجي للإنسانوية المسيحية».

باستخدام طرق إنسانوية جديدة لتناول النصوص، حضَّر إيراسموس طبعات لاتينية ويونانية من العهد الجديد، طرحت أسئلة أثَّرت في تيار الإصلاح البروتستانتي والإصلاح الكاثوليكي المضاد..

بدروسا، كان يشاركها إعجاب لوثر بالموسيقى لأنه كان يعتقد أن الإيمان والثقافة، لكي يكونا حقيقيَّين، يجب أن يكونا متلازمَيْن».

كان «المرمطون» الشَّاب يقدِّم لهم الآن طبقًا من اللَّحم، وعندما انتهى وضع على المائدة دورق نبيذ بوردو آخر قبل أن يختفي. صَبَّ القبطان نبيذًا في كُوب سالثيدو. لم يكن تيريا قد تذوَّقه بعد، وما زال يراقب بيرجر بفضول عالم حشراتٍ بينما يملأ تجويف غليونه بالتَّبغ. غليونٌ هنديٌّ، من الفخَّار، كان المُهرِّبون يُدخِلونه إلى إشبيلية مع التَّبغ الذي كان استهلاكه قد انتشر بين الشَّعب رغم محاربة محاكم التَّفتيش. انتظر القبطان أن يغلق مساعد الطَّبَّاخ الباب لكي يقول:

- «عندما نَذكُر بلد الوليد لا يجب أن ننسى رجلًا مهمًا، هو دون كارلوس دي سيسو[1]. تجسيدٌ حيٌّ للرَّجل الفيروني: أنيقٌ، وقَوِيٌّ، وذَكِيٌّ، ومُتباه. وَفقًا لمعلوماتي، كان دون كارلوس دي سيسو شخصيةً لا غنى عنها في ظهور اللوثرية القشتالية».

كان ثيبريانو سالثيدو يداعب لحيته القصيرة عكْس اتجاه نُموّ الشَّعر ويُحرِّك رَأسه بالموافقة بشكلٍ آليّ إلى حَدٍّ ما:

- «دون كارلوس دي سيسو رجلٌ مهم، قُرَّاؤه كثيرون، لكن يوجد شيءٌ غامضٌ يَلُفُّ شخصيته: لماذا رحل عن فيرّونا؟ لماذا استقر في إسبانيا؟ هل كان يفرُّ من شيءٍ أم ذهب بدافعٍ تبشيريّ؟».

لَمْ يكن القبطان بيرجر يخفي أيَّ تفصيلةٍ يُمْكن أن تُفَسَّر على أنها جهلٌ بالواقع اللوثري:

(1) كارلوس دي سيسو (فيرونا 1516 -بلد الوليد 1559) كان عمدة مدينة تورو الإسبانية، ويعتبر من نبلاء إسبانيا، عمل في خدمة كارلوس الخامس ملك إسبانيا أثناء حروبه في إيطاليا، فصحبه معه إلى إسبانيا. اشتهر بشخصيته القوية وكبريائه. يعتقد أنه هو من أدخل المذهب البروتستانتي إلى إسبانيا، رغم أن الحركة تطورت بعد ذلك وأصبح لها قادة آخرون.

- «في البداية كان الباباويون يقبلون كارلوس دي سيسو وكانوا يعتمدون عليه. حتَّى أنهم أرسلوه إلى ترنتو، إلى المجمع، برفقة أُسْقُف كالاهورا. شخصٌ سيِّئ النِّية قال إنه ذهب كمترجمٍ فقط، لكن هذا ليس حقيقيًا. الأُسْقُف ذاته قال لـ «كارانثا» عندما كان يُجَهِّز لرحلة العودة إلى إسبانيا، إنه كان في صحبةٍ جيدةٍ مع كارلوس دي سيسو، وإنه كان رجلًا لطيف المعشر، ومثقفًا، وكان يتحدَّث عَنه برضا ومن دون أيِّ شائبةٍ في كُلِّ الدَّوائر الثقافية. وسط كُلِّ هذا تمَّت مقابلته الشَّهيرة مع عالم اللَّاهوت الكبير «كارانثا» في بلد الوليد، لكن لا أحد يعرف بشكلٍ دقيقٍ ما حدث هناك».

بدأت السَّفينة في التَّأرجح قليلًا، وتيريا الذي انتهى من جَذبِ نَفَسٍ عميقٍ من غليونه نظر من الكوَّة مُندهشًا، كأنه كان يلعب الورق وانتبه فجأة إلى أنهم يغشّون في اللَّعب. ومن جانبه كان ثيبريانو ينظر للإشبيليِّ بتوجُّسٍ بادٍ، ذلك الرَّجل الغامض المُتَّشِح بالسَّواد الذي يُدخِّن غليونه من دون التَّدخُّل في الحوار. لكن تَبَسُّط القبطان بيرجر معه والاستخفاف السَّاخر في نظرته له، كانا يُبدِّدان أيَّ ريبةٍ مقدَّمًا. كأن عينيه الرَّماديتين اليقظتين والجادتين تقولان له: تحدَّث من دون خوفٍ، يا صديقي سالثيدو. ضيفنا إيسّيدورو تيريا لديه دوافعٌ تُلزمه الصَّمت أكثر منا. رغم هذا نظر القبطان إلى تيريا قَبْلَ أن يقول باقتضاب:

- «لقد دخلنا القنال».

حمل الدَّورق الفارغ وعاد بآخرٍ. إيسّيدورو تيريا، الذي لم يتذوَّق النَّبيذ، كان ينظر إلى جليسيه بمزيجٍ من الدَّهشة والرِّيبة. وفي المقابل، كان القبطان بيرجر يكتسب المزيد من الطلاقة مع كُلِّ كوبٍ يشربه. قال لسالثيدو:

- «أنا مُهتَّم برحلتك، شراء كتبٍ، البحث عن عونٍ، زيارة ميلانشتون، قلت إن هذه هي أهدافك. هل أنجزتها؟ كيف انتقلت في ألمانيا؟ ما المدن التي زرتها؟».

كان سالثيدو يحني رَأسه موافقًا على كلمات بيرجر، وأجاب:

- «في الثَّالث عشر من أبريل خرجت من بلد الوليد. باستثناء الاتّصال بإشبيلية، الذي يَزدَادُ صعوبةً كُلَّ يومٍ، نحن معزولون منذ شهورٍ. بعد نقاشاتٍ طويلةٍ، اقتنع الدُّكتور أننا بحاَجة لمعلوماتٍ مباشرةٍ. كان شديد الاهتمام بأفكار ميلانشتون بعد رحيل لوثر. لم يكن يعرف بدقَّةٍ إلى أيِّ جانبٍ يَميل».

- و«كيف تدبَّرت أمرك؟».

أسرَّ ثيبريانو، بينما ما زال ينظر إلى إيستيدورو تيريا بريبةٍ:

- «كان أمرًا شديد الصُّعوبة. محاكم التَّفتيش مَنعتْ خروج رجال الدِّين والمثقَّفين من إسبانيا مؤخَّرًا. ولهذا سافرت بالحصان حتَّى بامبلونا، وساعدني خبيرٌ في عبور جبال البرانس. بعد ذلك جمعت بين كُلِّ وسائل الانتقال التي يُمْكن تخيُّلها: عربات، وسفن، ومشيًا، وعلى الحصان. كان من الحصافة ألا أسير في خطٍّ مستقيمٍ، وأن أغيِّر الدَّائم المسكن ووسيلة الانتقال دائمًا. وهكذا عبرتُ جنوبَ فرنسا: بوردو، تولوز حتَّى لوزان. تُوجَد طرقٌ جيدةٌ في فرنسا رغم كثافة المرور.

بدا القبطان نافد الصَّبر:

- «وفي ألمانيا؟».

- «واصلت الالتزام بالحذر. قِيلَ إن هناك الكثير من الجواسيس، لذلك كنت أَظهرُ بأقلِّ قدرٍ ممكن. عقدتُ لقاءاتٍ في المدن المهمة. زُرْتُ هامبورج، وإيرفورت، وأيسليبنَ، وفيتنبرج، معقل اللوثرية، مع رحلاتٍ

سريعةٍ إلى أماكنٍ ريفيةٍ. اشتريتُ الكُتُب وفي النِّهاية أمكنني لقاء فيليب ميلانشتون».

عينا القبطان بيرجر المُحدِّقتان باهتمامٍ كانتا تُشجِّعان وتُحفِّزان سالثيدو على مواصلة حكايته. واصل:

- «أدهشني نشاط الطباعة في فيتنبرج. تُوجد مطابعٌ ومكتباتٌ في كُلِّ مكانٍ. عندما طفت بالمدينة فهمت مقولة «لوثر ابنٌ للمطبعة»، إن نظرنا بتعمّق، سَنرى أن المطبعة هي مصدر قوّته. كان أوَّل مُهَرطقٍ تُتَاحُ له وسيلة تواصُلٍ بهذه الفعالية، بهذه القوَّة، وبهذه السُّرعة. لكن، من جانبٍ آخر أدركتُ أن معظم الطَّباعين كانوا من مُريديه، وكأتباعٍ مُخلصين كانوا يبذلون جهدًا واضحًا في تلك الأعمال التي تهمُ المُصلِح، وفي المقابل، كانوا يتلكَّأون في الأعمال التي تعود لأعدائه ويملأونها بالأخطاء. هناك، في فيتنبرج أمكنني أن أتصفّح كتاب الآلام[1]، هذا الكُتَيِّب الصَّغير المُعادي للباباوية، المُمتلئ بالنُّصوص الرَّكيكة والرُّسوم الفَجّة التي يظهر فيها البابا مثل حمارٍ يتغوَّطه الشَّيطان».

انتهى إيسّيدورو تيريا من تدخين غليونه ونفض التَّبغ المُحترِق في طبقٍ، عندما عارض القبطان بيرجر سالثيدو:

- «تلك الوريقات لا علاقة لها بالإصلاح. لا يجب أن يتمَّ الحكم على الإصلاح بسببها. توجد تجاوزاتٌ في كُلِّ الثورات. هذا أمرٌ لا يُمْكن تفاديه. النَّقد الثوريُّ لا يلتزمُ بأيِّ اعتباراتٍ».

كانت عُقدَةُ لسان سالثيدو قد انفكَّت، تكلَّمَ وتكلَّمَ من دون أيِّ تَرَدُّدٍ، ومن دون حماسةٍ كأنه يقول رَأيًا بديهيًا في أَمْرٍ لا علاقة له بأفكاره:

---

(١) العنوان المذكور في الرواية هو Pasional وكما يرد وصفه لاحقًا داخل الرواية، فهو نص من تأليف لوثر، أقرب للمنشور السياسيّ أو لمقالٍ هجائيٍّ، وكان هذا النوع من النصوص معروفًا في أوربا في ذلك الوقت. وغالبًا ما كانت هذه النصوص تُوقع بأسماءٍ مستعارةٍ تفاديًا للملاحقة.

- «يا قبطان، الوريقات لا علاقة لها بالإصلاح، بل تضرُّه. إزاء هذه الأشياء، قد يتكوَّن لدى الزَّائر الأجنبيُّ لألمانيا انطباع بأن لوثر قد تمادى أكثر من اللَّازم. كان مُحِقًا في اعتبار المطبعة اختراعًا إلهيًا، لكنني أعتقد أنه لم يكن سيوافق على الاستخدام السَّيِّئ لها بعد رحيله. حتَّى كُتُبه الأُولى، «السَّبي البابلي» و«البابوية التي أسَّسها الشَّيطان» لم تكن حكاياتٍ للأطفال».

- «لكن أُنظر إلى إنجيله، لا تنسَ ما هو جوهريٌ».

- «أعرفُ يا قبطان، «الإنجيل» الألماني، عملٌ عظيمٌ، أليس كذلك؟ يرى بعض المفكرين الإسبان أن هذا الكتاب بمفرده يكفي لتبرير العبارة الشَّهيرة التي تقُول «لقد تحدَّث الرَّب بالألمانية». إنه شديد الجمال، وشديد التَّناغم. لوثر وإنجيله جعلا اللُّغة الألمانية الكَنَسيَّة لغةً عالميةً. هذا أَمْرٌ جليٌّ».

اشتدَّ تمايل هامبورج ووضع إيسّيدورو تيريا رَأسَه بين كفيه كأنه يخشى أن ينفصل عن كتفيه في إحدى هذه الأرجحات. الخادم الذي كان قد حمل الأطباق، يقوم الآن بجَمعِ فُتَات المائدة في صينيةٍ، وعندما انتهى، صَبَّ كؤوسًا من (العَرَقِ). كان القبطان بيرجر يتأمَّل إيسّيدورو تيريا بشفقةٍ وانتظر حتَّى خرج الخادم وأغلق الباب الجَرَّار لكي يضيف:

- «استخدام لوثر للموسيقى والمطبعة أمْرٌ له دلالته، يرجِّحه أكثر من اندفاعاته الفظّة. على الأقل يبدو أكثر إقناعًا. وعندما يقول: «لا أريد التَّنصُّل من أيِّ شيءٍ، لأنه ليس من الشَّرف اقتراف أفعالٍ تُناقض أفكار المرءِ» فإنه يتحدَّث عن نظريته وليس عن سبابه وسجالاته».

نظرة القبطان بيرجر الباردة المتفحِّصة كانت تُربِك سالثيدو، كانت تُذَكِّره بنظرة أبيه الجليدية أمام دون «ألبارو كابيثا دي باكا»، عندما كان هذا

يفضحه: «إنه يشرُدُ، لا يمكنني حمله على التَّركيز يا سيد سالثيدو». عقَّب بينما يحكُّ ذقنه:

- «لكن، في «السَّبي البابلي» يُؤكِّد لوثر على أن الأسرار المقدَّسة التي وضعها سيّدنا هما اثنان فقط: المعمودية والقربان. ربما لم يُرِدْ أن يقول أكثر من هذا، لكنه انتهز الفرصة لكي يُطلِق لسانه، لكي يُجدِّف ويُهاجم. حدث أمرٌ مشابهٌ مع «باباوية روما التي أسَّسها الشَّيطان».

رفع القبطان يده اليمنى:

- «من فضلك، اسمح لي بكلمةٍ. سخرية الباباويين من هذه الكُتُبِ ومن زواج لوثر من راهبةٍ أكثر قسوةً من استهزاء لوثر بهم».

كان سجالًا لفظيًا، استمَرَّ فيه سالثيدو لكي يسبرُ أغوار القبطان، ولكي يرى إلى أيِّ مدى يمكنه أن يصل، ولكي يختبر المرونة اللوثرية. لم يَرْدّ عليه لملاحظته أنه لم يَقلْ كُلَّ شيءٍ. نظر بثباتٍ إلى طرْفِ أنفه، وهو ما يجب فعْله مع الأشرار لكي يتقيأوا بكُلِّ ما يَخفُون، حَسْب مقولة الأب أرنالدو في دارِ اللُّقطاء. قال القبطان بيرجر:

- «أصِرُ على أن الإنصاف يستوجب أن نضع في الكفة الأخرى حسَّ المُصلِح المرهف، حُبَّه للفنون الجميلة، استخدامه للموسيقى في التَّرانيم. تحديدًا في أنشودة (إلهنا حِصْنٌ قويٌّ)، التي كان لها صدًى أكثر من أنشودة (من أجلك يا إلهي) في وسط أوربا».

كان صوْتُ القُبطانِ بيرجر يكتسب ارتِعاشًا عاطفيًا، مِثل المُبشِّرين المُبتدِئين، وكان وجهُهُ يحْمرُ. وتعمَّد سالثيدو أن يخفِّف من نبرته:

- «يجب أن يكون لوثر مسؤولًا عن كُلِّ شيءٍ. أيضًا عن اللوثريين، وعن تجاوزاتهم. سيِّدي القبطان، لقد اعتنقت عقيدة التَّبرير بالإيمان، مثل مجموعة بلد الوليد كلها، لأنني أَعتقد أن الأيمان هو الأصل، وأن تضحية المسيح لكي يَفدِيني أهَمُ من أعمالي الطَّيبة، مهما كثُرت».

مثل كلب صيدٍ يتبع أثرًا، لم يكن ثيبريانو سالثيدو يرفع أنفه عن الأرض. أثرٌ يَنتُجُ عن الآخر، وسالثيدو يجد متعةً في تحديد الأثر قبل أن يتبع الأثر الجديد. كانت كُلُّ اعتراضاته تعود إلى الأصل ذاته من دون شكٍّ، لكنه كان يستمتع بتجزئتها ويعزوها لدوافع مختلفةٍ، فيُخرجُ القبطان من أسلوب تفكيره المعتاد الذي يتبعه في نقاشاته العادية:

- «هناك مسألةٌ أخرى يا سيِّدي القبطان؛ هوجة فَلّاحي تورينجيا. بعد مرور عشرين عامًا على (أنبياء تسفيكاو[1])، ما زال العنف يُرفرف هناك. لم يقبلوا التَّغيير الدِّينيَّ من دون تغييرٍ اجتماعيّ. المثال السَّيِّئ أعطاه الأُمراء عندما استولوا على ممتلكات الكنيسة. بالنِّسبة للفلاحين، لا أهمِّيَّة لتغييرٍ دينيّ لا يصحبه تغييرٌ اقتصاديّ».

ترك القبطان بيرجر الكوب على المائدة. وقال بينما يقيس كلماته كأنه يريد أن يجعل كُلَّ شيءٍ واضحًا:

- «الدِّين له طابعٌ اجتماعيٌّ بالضَّرورة. (أنبياء تسفيكاو) كانوا مُصلِحي الإصلاح. كانوا يحطِّمون الرُّموز المقدَّسة ويطمحون إلى المال قبل أيِّ شيءٍ. إنهم بشرٌ، وكانوا يَأملُون أن يكون الدِّين خلاصهم، وكانوا يناضلون من أجل دينٍ عمليّ. لهذا السَّبب أشعلوا الحرب. فرانز فون سيكبينجن، بكُلِّ مكانته، وضع نَفْسَه على رَأسهم، لكن لوثر كانت لديه المقدِرة على أكثر من هذا. لقد هزمهم. ولم يكن هذا لأنه يرى أن تطلُّعاتهم حقيرةٌ، لكن لأن الطَّريق الذي تَمَّ اختياره للوصول إليها لم يكن جيدًا».

- «ولا أنا أوافق على ذلك الطَّريق».

(1) «أنبياء تسفيكاو» كانوا ثلاثة رجالٍ من هذه المدينة في إقليم بافاريا بألمانيا، منتمين إلى الإصلاح الراديكالي، ومن المرجَّح تورّطهم في أحداث الشغب عام 1522. والتي تبعها بعد عامين (حرب الفلاحين الألمانية) 1524-1526، والتي كانت أوَّل ثورةٍ شعبيةٍ في أوربا اعتراضًا على الاضطهاد والظروف المعيشية القاسية.

- «كُلُّ هذا بشريٌّ ويُمكن تَفَهُّمَه. لم تكن هناك عقولٌ كبيرةٌ بين الفلاحين والحرفيِّين وعمال المناجم، لم تكن لديهم سوى أربع أفكارٍ بسيطةٍ، لكنها كانت كافيةً لإشعال غضبهم. وهكذا انتشروا في إقليم الألزاس. الحَقُّ الإلهيُّ قبل أيِّ شيءٍ، هكذا كانوا يقولون لأنفسهم. لكن هذا الحَقُّ يجب أن يقضي على الخدمة الإجبارية، على امتيازات الصَّيد، أو الحَقِّ في اللَّيلة الأولى.... وإجمالًا، على كُلِّ إجحاف الإقطاعيِّين. وفي الوقت ذاته، كانوا يتطلَّعون لاختيار كهنتهم، لتعديل العُشُور التي كانت الكنيسة تَفرضها عليهم، وأن يعيشوا حياةً إنجيليةً. بالنِّسبة لهم، كان كُلُّ شيءٍ له علاقةٌ بالدِّين».

لَمْ تكن أفكار ثيبريانو سالثيدو مُخَالِفةً، لكنه كان يَجدُ لذَّةً في التَّقليل من شأن أطروحَات مُحدِّثِه:

- «حتَّى تلك اللَّحظة كان هذا هو ما حدث. لكن بعد ذلك تغلَّبت السِّياسة».

- «هل تشير إلى المُطالبة بإنشاء برلمانٍ من الفلّاحين؟ هل يبدو لك طموح هؤلاء المحرومين مُفرِطًا؟ هل تعتبر هذا الطموح غير مسيحيّ؟ توماس مينتسير، مُعتَبِرًا نفسه مُلهَمًا، قرَّر تشكيل حكومةٍ دينيةٍ، لكن تمَّ القضاء عليه في فرانكينهاوسين. أكثر من مائة ألف قتيلٍ: مذبحةٌ. ولا يزال هناك من يؤكِّد أن لوثر قام بالتَّوقيع على بياناتٍ «ضد حشود اللُّصوص والقَتلة من الفلاحين»، لكن لم يتم إثبات هذا. لوثر كان يكره العنف، لكنه كان يحبُّ العدل».

- «لكن جماعة (تجديديَّة العماد) كان أمرُها شبيهًا بهذا».

- «لَمْ تَحظ جماعة (تجديديَّة العماد) بالشَّعبيَّة لقيامهم بتأخير تعميد

الأطفال. النَّاس كانت تفزع من (الليمبو)[1]. فيما عدا هذا كانوا مجموعةً مثاليةً، جعلت من الفوضوية هدفها. نقلها هوبماير إلى تورينجيا. لكن، بالإضافة إلى إلغاء الدَّولة، كانوا يتطلَّعون إلى إلغاء الكنيسة، الطَّبقات، الأسرار المقدَّسة والمِلكيَّة الخاصَّة. برنامجٌ ثوريٌّ متكاملٌ. ضع في اعتبارك أنه تمَّ حرق هوتتر في النمسا في تلك الأعوام للأسباب نفسها. في النِّهاية، انتفض الشَّعب نفسه، وقام الكاثوليك والبروتستانت مُتَّحدين بدحرهم في مينستير. بعد كُلِّ هذه الدِّماء، كيف يُمكنك أن تندهش من وجود آثارٍ للعنف حتَّى الآن في تورينجين[2]».

بدأ صوت بيرجر الأجشّ في الانفعال، ودبَّت فيه الحياة. «أحيانًا يبدو كعالم دينٍ ضليعٍ»، هكذا قال له الدُّكتور مازحًا في أحد حواراتهما قبل السَّفر. «رجلٌ طيبٌ، قبل أيِّ شيءٍ رجلٌ طيبٌ، ومُطّلِعٌ»، أضاف، خشيَّةً أن يعطي عن صديقه تصوُّرًا لا يليق به. أدرك سالثيدو أن القبطان يعرف تاريخ ألمانيا الحديث عن ظهر قلب، وايجابيات وسلبيَّات ثورة لوثر، وربما كان يعتبره مجرَّد متطفلٍ بائسٍ، غُرٍّ يفتقد للدِّراسة. واصل المركب حركته، كان يتمايل، أحيانًا بشكلٍ مستمرٍ، ودون إيسّيدورو تيريا الرَّابط الجأش، كان يملأ تجويف غليونه من جديد. توقَّف ثيبريانو سالثيدو. نظر إلى عيني بيرجر الزَّرقاوين وتابع:

- «هذه الأمور، وأخرى على شاكلتها، أشعلت رغبتي في لقاء ميلانشتون. هو ولوثر لم يكونا على اتِّفاقٍ دائمًا، لكن أتباع هذا وذاك يعتبرونه الآن رَأس البروتستانتية. في النِّهاية حظيت باللِّقاء في فيتنبرج. كان لطيفًا وصبورًا معي. حدَّثني عن لوثر بإعجاب شديدٍ، بعاطفةٍ أبويةٍ. تحدَّث

(1) الليمبو أو دهليز جهنم في المسيحية، هو المكان الذي تذهب إليه أرواح من ماتوا ولم يتم تعميدهم، خاصة الأطفال.

(2) بالألمانية Thüringen، أو ولاية تورينجين المستقلة.

عن لوثر المصلح، وعن لوثر الرَّاهب الذي هجر الدَّير، الزَّوج المُخْلِص والأب العطوف. أبدى اهتمامًا بالمجموعات اللوثرية الإسبانية وحَمَّلني تحيةً لهم. وبعد ذلك خضع بتواضعٍ لاستجوابي، استجوابٌ طويلٌ بدأ من «حرب المحارق» في عام ١٥٢١، وانتهى بسقوط الإمبراطور في (إينسبروك) وانقسام أوربا إلى فريقين: كاثوليك وبروتستانت».

- «أَلَمْ يَتحدَّث معك عن مواقفه الشَّخصيَّة؟».

- «بالطَّبع. اعترف ميلانشتون بقيامه بنفسه بتحريض الطلبة في فيتنبرج على حرقِ المراسيم الباباوية، كما أشار بعد ذلك إلى اختلافاته اللَّاحقة مع لوثر في مؤتمرات فورمس وشباير[1] التي لم تنتُج عنها في النِّهاية إلا زيادَّة التَّوتُّر بين الجانبين. ميلانشتون أَبدى موقفًا إنسانيًا وتوافقيًا في تلك الأوقات، لكن لوثر رفض موقفه. وحسبما قال لي صراحةً، بشيءٍ من الأسى، روما وحركة الإصلاح كانتا على وشك الاتِّفاق، حتَّى في أمورٍ شديدة الحساسيَّة مثل زواج رجال الدِّين والمناولة بالنَّوعين، لكن لوثر والأمراء لم يقبلوا بهذه المبادرات».

- «وماذا عن دوره كصانعٍ للنِّظام؟».

- «حدَّثني عن هذا أيضًا، وعن الحاجة لوضع معاييرٍ للإيمان والسُّلوك. لوثر ذاته، الذي كان يمتلك رؤيةً واضحةً للمشكلة، قام بتحرير كتابين للتعاليم، أحدهما رفيع المستوى، للمُبَشِّرين، والآخر للشَّعب، أكثر بساطةً. وكانا شديدي النَّفع. كما كَتَبَ مُباركةً للتَّعميد وأخرى للزَّواج لتَحُلَّ مَحَلَّ السِّرَّين المُقدَّسين للمعموديَّة والزَّواج لكي لا يتسبَّب في صدمةٍ لعامَّة الشَّعب، الذين كانوا يعتقدون أنه مع الطَّقس الدِّينيِّ الجديد، سيصبح الأطفال والزَّوجات من دون غطاءٍ روحيّ، مثل حيواناتٍ بلا

(1) فورمس، وشباير. مدينتان ألمانيتان عُقدت فيهما مؤتمرات حول الإصلاح الديني في القرن 16.

روح. كما أخبرني أنه شخصياً شارك في ترتيب النِّظام الجديد وقَام بكتابة (نِقَاطٌ مشتركةٌ في العقيدة) الذي لقيَ استقبالًا جيدًا. التَّكوين العقائدي كان بسيطًا: المسيح فقط، النُّصوص فقط، الرَّحمة فقط؛ والإيمان يكفي. اللوثرية فشلت في تحويل الكنيسة إلى كيانٍ غير مرئيّ، من دون بِنيَةٍ. مثل هذا الأمر لم يكن مُمْكِنًا وفي هذا الشَّأن تفوَّق عليه زوينجلو وكالفن».

سعل إيسّيدورو تيريا مرَّتين، سعالًا جافًّا وخشنًا بعد مجَّة دُخانٍ طويلةٍ. وبعد صمتٍ طويل لدرجة أن القبطان بيرجر التفتَ إليه مفزوعًا، وكان قد نَسيَ حضوره تمامًا. ها هو صوته الخشن القاتم، المثير للقلق مثل زِيِّه، يرعد في القُمرة الصَّغيرة الآن. قال بينما يتلاعب بغليونه المُشتعل، عارفًا أنه سيدهش مجالسيه:

– «أتفق معك. لوثر بَنَى كنيسةً في الهواء؛ كالفن كان أكثر عَمَلِيَّةً: جعل من جينيف مدينة–كنيسة. سافرت كثيرًا خلال هذه الشُّهور بين جينيف وبازل وباريس. لكن عندما سمعت مزمور (ارفع القلب، افتح الأذنين) لدى مجموعةٍ باريسيةٍ، شعرت أن رحمة الرَّبِّ تشملني. خرجت من إشبيلية لوثريًا وأَعودُ كالفينيًا».

لتَلافي مواجهةٍ مباشرةٍ بين نظرته وعينيٍّ تيريا، عاد القبطان بيرجر لمراقبة يدي سالثيدو الصَّغيرتين المتوتِّرتين اللَّتين كانتا تنقران فوق المائدة. واستفسر:

– «هل تُؤْمنُ بالسُّلطَّة المُطْلقة؟».

– «أُحبُّ النِّظام. كالفن يقبل نعمة الإيمان ويوفِّر لنا نظامًا وكنيسةً وطريقة حياةٍ متقشِّفةٍ، يفرض عليها المجلس الكنسيُّ رقابةً صارمةً».

– «ألا ترى في هذه الرِّقابة الصَّارمة تكرارًا لمحاكم التَّفتيش؟».

كان تيريا يحفظ الدَّرس جيدًا. قال:

- «الإيمان وحده لا يكفي. يجب التَّخديم عليه. في هذا الصَّدد أختلفُ مع لوثر. الكالفينية لها روحٌ تبشيريَّةٌ، وهو ما تفتقده اللوثرية، كما يضع مفهومًا للكنيسة، مع أنه حادٌّ ومتطرِّفٌ إلى حَدٍّ ما».

- «أنت بنفسك تصفه: حادٌّ ومتطرِّفٌ».

- «لا تُسِء فَهمِي، أنا لا أُشير إلى القواعد في حدِّ ذاتها وإنَّما إلى صرامة تطبيقها: كالفِن يُهدِّد كُلَّ من لا يقبل هذه القواعد بالحرمان الكنسي. إفراطٌ؟ ربَّما، لكن الإنسان يجب أن يكون شديد الثِّقة في أفكاره لكي يتَّخذ إجراءً شبيهًا. أعتقد أن الأمرَّ يستحقُّ التَّأمُّل. وقد قَام كالفن طوعًا بتكريس ذاته لهذا التَّأمُّل في ستراسبورج خلال ثلاثة أعوامٍ، وهي الفترة التي أَمضَاها ككاهنٍ للجالية الفرنسية في المدينة. وفي الوقت ذاته كان ينتهز الفرصة للتَّقدُّم في الكِتَاب الذي كان يعمل عليه، المؤسَّسة المسيحيَّة[1]، كتابٌ طويلٌ بقدر ما هو بَنَّاءٌ. في ستراسبورج كان موقف كالفن سلبيًا. مجرد انتظارٍ».

- «هل تعتقد أنه كان ينتظر نداء أهل جينيف؟».

- «سواء انتظره أم لا، ما حدث أن الاستدعاء قد تمَّ. ووضعت جينيف نفسها بين يديه، وخضعت للتَّجربة. كان أبناء جينيف نادمين على طرده. وفي تلك اللَّحظة بدأ كالفن في إنشاء كنيسةٍ. هذا هو ما يهمُّ إنه أمرٌ مثل الإيمان بالنِّسبة لكم، ضمانٌ للخلاص. كالفن ينظِّم ثيوقراطيةً حقيقيَّةً، حكومة الرَّبِّ. ومنذ تلك اللَّحظة، لم يعد هناك في المدينة الصَّغيرة سوى الدَّعوة والأسرار القُدْسيَّة. المؤمن أصبح مُجبَرًا على الورع. العالم وادٍ من الدُّموع ويجب علينا أن نرتِّب حياتنا وفقًا لتصورٍ دينيّ والتزامٍ بالعبادات».

---

(1) عنوان كتاب من تأليف كالفن. العنوان بالكامل هو Institutio Christianae Religionis. مؤسسة الديانة المسيحية.

- «بل يذهب أَبْعدُ من هذا. كُلُّ ما لا يُذكَرُ في «الإنجيل» فائضٌ على الحاجة، يتمُّ تحريمه».

- «هذا حقيقيٌّ، لكن هذه الصَّرامة، بخلاف التُرّهات اللوثرية، هي التي جذبتني مبدئيًّا للكالفينية؛ بعد قليلٍ جاء التَّحوُّل، في باريس. عندما عدت إلى جينيف، ثقَّفتني المدينة. إنها مثل معبدٍ ضخمٍ في مقابل المدن اللوثرية: أسماءٌ إنجيليةٌ للأطفال، تعاليم دِينِيَّةٌ، دِرَاسةٌ، صلواتٌ، عظاتٌ... تمَّ اعتبار المقامرة أمرًا ملعونًا، وتمَّ مَنْع الشَّباب من الغناء والرَّقص. تمَّ فَرْض رَوْح التَّضحية عليهم. بالطَّبع، حدثت بعض الاعتراضات، لكن بعد ذلك، انتصر العقل: لم يُخلق العالم من أجل المتعة. وقَبِلَ الشَّعب، عن رضا، سلطة كالفن».

الضَّوء الدَّاخل من الكوَّة كان يَخْفت. كان ثيبريانو سالثيدو يُفكِّر في إيسيدورو تيريا بشيءٍ من الحنقِ. كان رَأسه يُطحن تحت مخاوف طفولته، حياته الرُّوحية المُحاطة بالخطر، شعورٌ بالتَّشاؤم. كلمات تيريا السَّوداء شتَّتته لدرجة أنه اضطرَّ لبذل مجهودٍ كبيرٍ لكي يندمج في الواقع من جديد، لكي يشعر بتمايُل المركب، صرير القوائم الرَّئيسية والحاجز. بشكلٍ مُشوَّشٍ أدرك أنهم جميعًا، بطريقةٍ أو أخرى، كانوا يبحثون عن الرَّبِّ في هذا الاجتماع العجيب في أعالي البحار. شعر بالرَّغبة في التَّدخُّل. قال، مُتذكِّرًا مُروره بفرنسا:

- «لكن الهوجنوتيون[1] يقومون في فرنسا بتعميد أبنائهم على الكاثوليكيَّة خِفيَةً، وفي الخفاء أيضًا يحضرون القداديس الكاثوليكية في باريس. وهذا يعني أن عقيدة كالفن، ورغم أنه فرنسيٌّ، والفرنسية هي لغته، لم تُوحِّد فرنسا دينيًّا».

(1) الهوجنوتيون هو اللَّقب القديم للبروتستانت الفرنسيين من أتباع جون كالفن خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

عندما يُعارضونه، كان صوت تيريا القاتم يصبح أكثر إبهامًا وتَجهُّمًا بسبب الانفعال. رسم ابتسامةً باهتةً جامدةً وقال:

- «لا يستوي الأمرُ. مدينةٌ صغيرةٌ مثل جينيف لا تستوي مع مملكةٍ كاملةٍ مثل فرنسا. لا تزال فرنسا عالمًا فسيحًا لم يتم غزوه بعد، وكالفن قَبِلَ هذا التَّحدِّي: أَرسل إلى هناك فِرقًا كبيرةً من المُبشِّرين. وهذا مما يُحسب له. بهذه الطَّريقة، وشيئًا فشيئًا، تترسَّخ الكالفينية: فرنسا، اسكُتلندا، البلاد الواطئة... المُثقَّفون الذين درسوا في أكاديميَّة جينيف هم من قاموا بتعليم هذه البلاد. أنا قادمٌ من جينيف، أمضيت هناك ستَّة أشهر، ويُمكِنني أن أؤكِّد لك أن المدينة نموذجٌ للتَّديُّن بالنِّسبة لأيِّ شخصٍ يريد أن يرى هذا من دون أحكامٍ مُسَبَّقةٍ».

كانت بشرة إيسّيدورو تيريا قد شحُبت وعينا القبطان بيرجر شبه المُغمَّضَتين ثابتتين عليه بريبةٍ واضحةٍ. يُمْكن القول إنه كان نادمًا على استضافته في مركبه. حوَّل نظرته إلى الكُوَّة. قال فجأةً، مُنهيًا الاجتماع الذي بدأ يُثقِل عليه:

- «يا سادة، الظَّلام يحلّ».

وقف على قدميه بصعوبةٍ. المقعد الذي كان مُثبّتًا إلى ألواح الأرضيَّة أجبره على ثني ركبتيه لكي يستطيع الخروج. قلَّده ثيبريانو سالثيدو، وعندما أراد إيسّيدورو تيريا بدوره أن يفعل هذا، تعثَّر، أمسك بالمائدة ووضع يده اليمنى على جبهته المبلَّلة بالعرق وقال:

- «هذه السَّفينة تتحرَّك كثيرًا. أشعر بشيءٍ من الدُّوار».

التصق القبطان بيرجر بحاجز غرفته لكي يستطيع ضيفه المُرُور. قال مُصحِّحًا:

- «إنه الوجود في مكانٍ مُغلقٍ مع الغليون. التَّبغ يضرُّ الرَّأس أكثر من البحر. لِمَ هذا الإصرار على تقليد الهنود؟».

كان ثيبريانو سالثيدو يساعد إيسّيدورو تيريا المُترنِّح على الصُّعود إلى السَّطح من فتحة السَّقف القريبة من المقدِّمة. تحت السَّماء يقف بحَّارٌ على المنصَّة المُثبَّتة على الصَّاري. وعلى الجانب الأيسر من السَّفينة، صورةٌ غائمةٌ باهتةٌ للسَّاحل الفرنسي. استنشق إيسّيدورو تيريا الهواء النَّقيَّ بعمقٍ وهَزَّ رأسه يمنةً ويسارًا. قال مُحتجًّا:

- «تُوجد رائحةُ قطرانٍ قويةٍ للغاية، هناك في الأسفل. رائحة قطرانٍ كأنهم انتهوا من سَدِّ ثقوب السَّفينة حالًا».

مع الدُّوار فقد إيسّيدورو تيريا سَمْته الصَّلب. شجَّعه ثيبريانو سالثيدو على الجلوس فوق لفافةٍ من الحبال على السَّطح، لكي يستريح في طريقه إلى المؤخِّرة، حيث توجد الخيمة. يدا ثيبريانو سالثيدو الصَّغيرتان المُشعَرتان القويتان أخذتا بذراع رفيق السَّفر. كان الهلال يلقي ضوءًا شاحبًا، بلا بريقٍ، بين السُّحب الكثيفة. مِزقَةٌ مُنفصلةٌ من قماش الأشرعة كانت تضرب الشِّراع الكبير بعنفٍ متكرِّرٍ. تراجع تيريا عن الجلوس. تغيير الوضع زاد من شعوره بالدُّوار. قال:

- «يُمكنني الوصول إلى فِرَاشي. أُفضِّلُ أن أنام».

ازدادت برودة الطَّقس، وعندما وصلا إلى خيمته دخل تيريا عَبْرَ تجويف الباب واستلقى على فِرَاشه من دون أن يخلع حذاءه. تقريبًا لم يكن هناك ضوءٌ في الدَّاخل وقام تيريا المُستنِد على مرفقيه بإشعال القنديل الموجود بجانب رَأس الفِرَاش. كانت حُزَم الأمتعة مُكدَّسةً إلى جانبه. جلس سالثيدو على الصُّندوق الذي كان يُمثِّل مع الفِرَاش أثاث الخيمة. حملت الرِّيحُ صوت بحّارٍ يغنّي، بعيدًا، في مكانٍ ما. على ضوء القنديل وعلى عكس ملابسه القاتمة، كان إيسّيدورو تيريا شاحبًا، مُفكَّك الأوصال. نهض سالثيدو وانحنى عليه:

- «هل آتِ لك بشيءٍ للعشاء؟».

رفض تيريا:

- «لا يجب أن آكُل. في حالتي هذه لن يكون مناسبًا».

ومَدَّ الغطاء على بطنه ومَعدته. قال ثيبريانو سالثيدو بصوتٍ خفيضٍ:

- «سأتركك ترتاح. سأعودُ بعد قليلٍ».

خرج من الخيمة ثُمَّ دخل خيمته. رأى حُزمة الكُتُبِ في الرُّكن، كانت مُختفيةً تقريبًا وراء حُزَمِ المتاع الثلاث. كان قد أَمضى أَشْهُرًا عديدةً في حياة من الإقامات المؤقّتة المرهقة، وملابسه داخل الحُزَم، من نُزُلٍ لنزُل. كان يحلم برُؤية نَفْسه مُستقرًا في بيتٍ، بثيابٍ نظيفةٍ مكويةٍ، طيّبة الرَّائحة، مُرَتبةٌ داخل دولاب. لم تتبقَّ أكثر من ثلاثين ساعةٍ للوصول وكان يثق في أن «بيثنتي» خادمه لن يخلف الموعد الذي تَمَّ تحديده قبل أربعة أشهر. إن نَفَّذَ «بيثنتي» تعليماته سيجد مقرًّا للإقامة في لاريدو، في نُزُل (فرايلي)، وجَوَادًا وبغلةً للوصول إلى بلد الوليد. تردَّد خلال لحظةٍ في استلقائه على الفِرَاش مثل تيريا، لكنه في النِّهاية تراجع وقرَّر الخروج إلى سطح المركب. بالفعل، كان البحّار الموجود على منصَّة الصَّاري هو من يغنّي، ولا زالت المِزقة تضرب الصَّاريَّ الأكبر، بينما بحَّاران حافيان يتسلَّقان الحبال لإصلاح العطب البسيط. نفخ صدره وامتلأت رئتاه بدُفقةٍ من الهواء المُمَلَّح. سار ببطءٍ على سطح المركب بينما يفكِّر في إخوانه في بلد الوليد، في بيته، في ورشة الخياطة في الحيِّ اليهوديِّ، في أملاكه في بدروسا، حيث لا بدَّ أن صديقه الكاهن بدرو كاثايا، يقوم كُلَّ مساءٍ بنصْبِ الفخاخ في مدخل «لا جاياريتا» لكي يصيد بالبندقيَّة. ولتَواصل الخواطر، فكَّر في الدُّكتور، أخيه، المُكتئب وفاقد العزم مؤخَّرًا، كأنما كان يستشرف كارثةً في عزمه على القيام بهذه الرِّحلة، وحَذَره المُبَالغ فيه. كان سالثيدو مُنشغلًا بألف أَمْرٍ ذلك الشِّتاء، لكنه تأثَّر بثقة الدُّكتور، وتقديمه على بقيَّة أعضاء المجموعة الأقدم

منه. حينئذ عَبَّرَ له عن خوفه من شكِّ محاكم التَّفتيش في وجود الخليَّة. كان الدُّكتور يشعر بالانزعاج منذ فترةٍ بسبب نشاط «كريستوبال دي باديا»، خادم الماركيز «ألكانيثيس»، وتبشيره الطَّائش في تورو وثامورا. بشكلٍ عامٍ كان راضياً عن المجموعة، عن مستواها الثَّقافيِّ الرَّفيع وعن وضعها الاجتماعيِّ وتكَتُّمها، لكنه لم يكن يثق في العوام، بعض الفقراء الأُمِّيِّين، وكان يقول إنهم تَسَّربوا إلى الجماعة. قال لسالثيدو قَبْل أيَّامٍ من رحيله: «ماذا يُمْكن أن ننتظر عندما يقوم هؤلاء الثَرثارون بالتَّبشير؟». في رسالته إلى إيرفورت عاد لذكْر الموضوع نفسه. كان سالثيدو يُشاركه خوْفه إلى حَدٍّ ما، لكن باولا روبيريث، زوجة الصَّائغ خوان جارثيا هي أكثر مَنْ كان يُشعِره بالقلق، رغم أنها لا تنتمي للمجموعة. وهذا حمله على التَّفكير في تيو، زوجته، والفشل العجيب لزواجه، والتَّناقض الجسدي بينهما، وعَجْزه عنْ جعْلها أمًا، ثم انهيارها في النِّهاية. كانت تيو تفتقد لدفء الأمومة، الذي نسبه لها بسذاجةٍ عندما عرفها. وهكذا أصبحت عزلة ثيبريانو أكثر حدَّةً مع الزَّواج. بهدوءٍ، تَقَّبل الانفصال في الفِرَاش، وفي الغُرف، وفي الحياة. ذات يوم حدَّثَ بدرو كاثايا، كاهن بيدروسا عن الأَمْر: لم يكن فقط لا يحبُّ زوجته، لكنه كان يحتقرها. كانت هذه خطيئةٌ كُبرى ولن يتجاهلها الرَّبُّ. مع أبيه، دون برناردو، حدث شيءٌ شبيهٌ. هل يوجد بشرٌ وُلِدوا لكي يكرهوا فقط؟ حينئذ قال له بدرو كاثايا إنه يجب أن يثق في رحمة المسيح، وألا يعطي أهمِّيةً كبيرةً لمشاعره. ضوءٌ جديدٌ ظهر في أفقه المختنق. هكذا لم يكن كُلُّ شيءٍ هباءً، آلام المسيح تُساوي أكثر من أعماله الطَّيِّبة ذاتها، وأكثر من مشاعره الحقيرة. ثم جاء دون كارلوس دي سيسو، وبعد ذلك الدُّكتور، لكي يُعمِّقا الفكرة ذاتها: المَطْهَر لم يكن ضَروريًا إذن. عَرَضْت عليه الطَّائفة أُخُوَّةً لم يعَرفها قَبْلَ تلك اللَّحظة. كَرَّسَ نَفْسه لها ببهجةٍ، وبحماسةٍ. كانت الرِّحلة إلى ألمانيا جزءًا من هذا التَّكريس.

لكن الآن، بينما يسير ليلًا على سطْح «هامبورج»، لم تكن الذِّكرى الرَّقيقة لآنا انريكث تمنعه من الشُّعور بالوحدة والتَّفاهة. كانوا بمحاذاة السَّاحل الفرنسيِّ، ومن حينٍ لآخر يغمز ضوءٌ مرتعشٌ خافتٌ من الأرض، ليَرْسُم حدود البحر الغائمة. كانت السَّفينة تقترب من السَّاحل، بغية العثور على مياهٍ هادئةٍ، لكنها لم تتَّوقف عن التَّمايل. تذكَّر سالثيدو تيريا، ومَرَّ على المطبخ. مُساعدٌ ضخمٌ ورديُّ الوجه، بصدرٍ عارٍ، وثدياه حمراوان، أعطاه تفَّاحتين من أجل «المسافر الإسباني المتوعِّك». أكلهما إيسيدورو تيريا من دون تقشيرٍ بقضماتٍ كبيرةٍ، جالسًا على الفِرَاش، على ضوء القنديل. كان يبدو بحالٍ أفضل من حالته في المساء، وعندما انتهى نفخ في الشُّعلة، والتحف بالغطاء وودَّعها حتَّى الصَّباح التَّالي.

نَهَضَ سالثيدو مُبَكِّرًا. أَول ما لفت نظره كان اختفاء السَّاحل الفرنسي من أمام السَّفينة ورياحٌ هوجاءٌ قادمةٌ من الأرض تَهِزُّ الأشرعة بإيقاعٍ محمومٍ. كان الجوُّ باردًا. وباستثناء خطٍّ طويلٍ أزرق في الغرب، كانت السُّحب الرَّماديَّة المُحمَّلة بالمطر تحجب السَّماء. نصف دستةٍ من البحَّارة الحفاة كانوا يَغْسِلون الجانب الأيمن بالفراشي والمماسح، ومن وقتٍ لآخر يُفرِغون الدلاء فجأةً فتتكوَّن فقاعاتٌ من الماء أمام ثقوب التَّصريف قبل أن تتلاشى في البحر. تمشَّى على السَّطح لكي يفرد عضلاته، وبعد ذلك مَرَّ على المطبخ حيث أعطاه «المرمطون» ذو الثَّديين الحمراوين شرابًا ساخنًا من أجل دون إيسّيدورو تيريا.

وجده مُستيقظًا، وبحالٍ أَفْضل، لكنه رفض النُّهوض. وهو ما حدث أيضًا في ساعة الغداء - حساءٌ وتفاحتان - ما جعل سالثيدو يُفكِّر أن الرِّحلة لو استمرَّت شهرًا، فسوف يظلَّ الإشبيليُّ مُستلقيًا في فِرَاشه بلا حركةٍ. رافقه سالثيدو لبعض الوقت، جالسًا فوق الصُّندوق، ومُصادفةً

اكتشف (العهد الجديد) لبيريث دي بينيدا[1] عند رَأس الفِرَاش، إلى جانب القنديل.

أمضى ثيبريانو سالثيدو الظَّهيرة مُتفقِّدًا أقسام السَّفينة الصَّغيرة: غرف البحَّارة الخالية حاليًا، خزَّان تصريف الماء، البرج، المنصَّة، المخازن، وغرفة القيادة. كان قد أمضى ليلةً سيِّئةً ويشعر بالتَّوتر والعصبية، فقد هجمت عليه مخاوفٌ لا أساس لها، وكُلّما فكَّر فيها ازدادت حدَّتها. على سبيل المِثال، كان يَخشَى ألا يأتي بيثنتي، خادمه، لانتظاره في الميناء في اليوم التَّالي، وأن يجد نفسه بمفرده، من دون وسيلة انتقال، في المَرسَى، بحُزمةٍ من الكُتُب الممنوعة في يده. بعد العشاء أصبح أكثر هدوءًا بينما يتأمَّل غروب الشَّمس، مُقَاومًا فكرة أن هذا النَّجم اللَّامع الرَّطب الذي يستريح على البحر هو ذاته الذي كان يراه من فوق هضاب بيدروسا مع بدرو كاثايا بينما يختفي خلْف الحقول الملتهبة. وفي المساء استند بكوعه على حاجز المؤخَّرة ناظرًا بشرودٍ إلى الخطوط التي تُخلِّفها السَّفينة وتشقُّ البحر، ولَمْ يسمع القبطان بيرجر عندما ظهر بجانبه فجأةً، بيديه العريضتين على الحاجز، مُستَفسرًا بلهجةٍ ساخرةٍ:

– «هل يستريح صديقنا، الكالفيني المثقَّف؟».

أشار ثيبريانو سالثيدو بإصبعه إلى الخيمة الصَّامتة. ثم أخبر القبطان عن دوافع مخاوفه. كان يشعر بالقلق من إمكانية عدم فهْم خادمه لتعليماته ومن ألّا ينتظره في اليوم التَّالي في الميناء. كان يشعر بالقلق أيضًا من إصدار محاكم التَّفتيش لقواعد جديدةٍ لمَنْع تداول الكُتُبِ الخطِرة خلال فترة غيابه. كلا الهاجسين، مُتَّحدَيْن، كانا يُسبِّبان له غَمًّا عميقًا.

---

(1) خوان بيريث دي بينيدا (قرطبة 1500 - باريس 1567) كاتب ولاهوتي بروتستانتي إسباني. شغل منصب مدير مدرسة اللاهوت في إشبيلية، وقام بإحدى ترجمات العهد الجديد.

لَمْ يبدُ أن القبطان بيرجر يعطي أهميةً كبيرةً لمخاوفه. الحرَّاس وموظَّفي محاكم التفتيش يفحصون حمولة السُّفن. يفتحون البراميل والبالات إن ارتابوا بها، لكنَّهم لا يضايقون المسافرين. بعد أن انتهى سأله إن كان يحمل الكثير منها. رفع ثيبريانو سالثيدو رَأسه نحوه واستفسر:

– «كُتُب؟».

– «كُتُب، بالطَّبع».

أَجاب سالثيدو راسمًا تجويفًا بين يديه:

– «تسعة عشر كتابًا. حُزمةٌ صغيرةٌ... لكن الخطر في ما تحتويه: لوثر، ميلانشتون، إيراسموس، إنجيلين، ومجموعة كتاب الآلام الكاملة».

أَمْرٌ غير مُتوقعٍ مَرَّ بخاطِره فجأةً وأضاف بتسرُّعٍ:

– «هل تعرف أن الرَّقابة المفروضة على الأناجيل في بلد الوليد منذ ثلاثة أعوام أدَّت إلى جَمْع أكثر من مائة طبعةٍ مختلفةٍ من كِتَاب الكُتُبِ[1]، معظَّمها لمؤلِّفين بروتستانت؟».

عندما ابتسم القبطان بيرجر كانت أسنانه تلمع في العتمة:

– «قباطنة السُّفن خبراءٌ في هذا الأَمْر. عشنا العشرين عامًا الأخيرة في خوفٍ دائمٍ. أَدخَلْت مائتي نسخةٍ من أحد الأناجيل التي تتحدَّث عنها في برميلين عَبْرَ ميناء سانتونيا في عام ١٥٢٨ لم يَحدُثْ أيُّ شيءٍ. في ذلك الوقت كانت البراميل شيئًا لا يُثير الشُّكوك. اليوم، يُعتَبر إدخال كِتَاب في برميلٍ مثل تصنيع مادَّةٍ متفجرةٍ».

– «وفي أيِّ لحظةٍ تغيَّر الموقف؟».

– «في سنة ٣٠ وصلت عشرة براميلٍ كبيرةٍ بها كُتُبٌ إلى ميناء فالنسيا

(١) المقصود الإنجيل.

على مَتْنِ ثلاث سفنٍ فينيسية. تَمَّ رصدها، والاكتشاف وضع محاكم التَّفتيش في حالة تَرَقُّبٍ. كان بها أجرأ أعمال لوثر، كُلُّ ما كَتَبَ في فيتنبرج، عشرات النُّسخ. عقدت محاكم التَّفتيش مُحاكمةً لا تُنسى. تَمَّ سجن قباطنة السُّفن، وفي ساحة المدينة اشتَّعلت مئات الكُتُبِ في تَلٍ ضخم. لدى محاكم التَّفتيش شَغفٌ بشحنات التَّهريب الكبيرة، لكي تُقام بها عُروضٌ شعبية».

اللَّيل الهادئ، بالنُّجوم اللَّامعة، كان يدعو للبوح. لم يتحرَّك سالثيدو. كان ينتظر أن يقوم القبطان بمواصلة الكلام. كان مُتأكِّدًا من أنه سيفعل هذا، وانتظر ناظرًا إليه. قال في النِّهاية:

- «محارق الكُتُبِ في إسبانيا تحوَّلت إلى تسليةٍ معتادةٍ. لا زال النَّاس يتحدَّثون عن محرقة سلمنقة. أكثر مُدُن العالم ثقافةً تَحْرق وسائل الثقافة؛ هذا لا يُمْكن إلا أن يكون تناقضًا. بعد عامين حصلت محرقةٌ أخرى كبيرةٌ في سان سباستيان... لكن لا تَظْنُنْ أن إسبانيا تفعل هذا بشكلٍ حصريّ. آلاف النُّسَخ من حُرِّية المسيحيِّ، مُتَرجمة إلى الإسبانية، تَمَّ حرقها في أمبيروس بحماسةٍ واحتفاءٍ كبيرين. لقد كنتُ هناك، عِشْتُ الحدث».

صدرت من سالثيدو ضحكةً مكتومةً وقال:

- «محاكم التَّفتيش تبدو كُلَّ يومٍ أكثر تعسّفًا. الآن كهنة الاعتراف يطالبون بإجبار المعترفين على الإبلاغ عن من يخَبِّئون كُتُبًا ممنوعةً. ومن يرفض لا يحصل على الغفران. حتَّى الأساقفة، والملك ذاته لا يَتِمُّ استثناؤهم من هذا الإجراء».

القبطان بيرجر، الذي كان مُستنِدًا على الدرابزين دار نصف دورةٍ ثُم قال:

- «حَسْبَ معلوماتي، كلَّما أدانت محاكم التَّفتيش رجلًا بسبب

كِتَاب، يصبح هذا الكتاب مشكوكًا فيه. ولا أشير فقط إلى أعمالٍ مناهضةٍ للمسيحية. فهرس لوفاينا[1]، على سبيل المثال، قام منذ ستة أعوام بمنع الكِتَاب المُقدَّس والعهد الجديد مُتَرجمين إلى القشتالية. إنه أمرٌ مفروغٌ منه، الشَّعب الإسباني محكومٌ عليه بعدم الاطلاع على كِتَاب الكُتُبِ».

نظر ثيبريانو سالثيدو إلى القبطان بطرف عينه قبل أن يقول:

- «هواية القراءة أصبحت مثيرةً للشَّك لدرجة أن الأميَّة أصبحت أمرًا مرغوبًا فيه ومَدْعَاةً للشَّرف. كونُ الفرد أميًّا يُسَّهل عليه البرهنة على أنه غير ملوَّثٍ وأنه ينتمي إلى الطَّبقة المثيرة للحسد من المسيحيين القدامى».

ساد صمتٌ طويلٌ بين الرَّجلين حتَّى أصبح مُمكنًا سماع الغمغمة الخفيفة لزَّبد البحر تحت النُّجوم. لفتة ثيبريانو سالثيدو بتقريب السَّاعة من عينيه لم تَفُت على القبطان بيرجر، فبادر قائلًا:

- «لقد تأخَّر الوقت».

قال سالثيدو:

- «إنها الثَّانية تقريبًا يا قبطان. ساعةٌ مناسبةٌ للغاية للذهاب إلى الفِرَاش من أجْل الرَّاحة».

كان الصَّباح التَّالي مُحَمَّلًا بالضَّباب. لمح سالثيدو من خيمته إيسّيدورو تيريا على سطح المركب يدخِّن غليونه. كان قد خلع ملابسه السَّوداء وينتعل حذاءً من جلد الغنم يصلُ إلى منتصف السَّاق، وفوق القميص المجعَّد والصَّدرة الضَّيِّقة كان يحمل عباءةً من نسيجٍ سميكٍ. بشكلٍ غامضٍ، بدا أكثر طولًا ونحافةً عن مظهره عندما كان يرتدي ملابس سوداء، ربما بسبب السِّروال، شديد الضَّيق، أو أنه أصبح أكثر نحافةً بالفعل

(1) أول قائمة للكتب الهرطقية الممنوعة. صدرت عام 1546 عن جامعة لوفيانا البلجيكية. وفي عام 1556 تم إدراج الكثير من الأناجيل ككتب محظورة.

بسبب الحِمية القاسية التي اتَّبعها خلال الرِّحلة. اقترب منه سالثيدو وحيَّاه. لقد نام جيدًا، قال له. انتهت الوعكة، كان قد تعافى. لن ينزل من المركب في لاريدو وإنما سيواصل السَّفر حتَّى إشبيلية.

أخذ الضَّباب ينقشع، والسَّاحل، على مَرْمى البصر من جديد، وبدا الآن قريبًا للغاية. كان يَكتسب حيويَّةً وتفصيلاتٍ تحت شمسٍ وليدةٍ. فوق التَّموُّجات الخفيفة للأرض، تنهض بيوتٌ صغيرةٌ متناثرةٌ، محاطةٌ بغابات الزَّان وأشجار المُران وأبقار وأفراس ترعى في المروج المجاورة. كان البحر ينتهي عند المنحدرات، وعلى مسافةٍ قريبةٍ، ينتهي عند شاطئٍ ذهبيّ فسيحٍ، تمتدُّ فوقه القرية بمدفآت البيوت التي تُلقِي بالدُّخَّان.

دارت هامبورج إلى اليسار وشَقَّت مقدِّمتها مياه الخليج حيث الرَّصيف في نهايته. مجموعةٌ من البحَّارة كانت تقوم بطي الأشرعة عن طريق جذب الحبال، وأخذ المركب في الانزلاق بنعومة فوق سطح الماء لكي يتوقَّف بعد دقائق في الميناء، بحذاء الرَّصيف. كان إيسّيدورو تيريا وثيبريانو سالثيدو قد اقتربا من المنصَّة حيث كان القبطان يُلقي أوامره. فجأة دقَّ جرس المدخل، توقَّفت السَّفينة، وقَام بحَّارٌ بتعليق سلَّمٍ على جانبها، صعد عليه المرشد الذي تولّى أمْر الدَّفَّة. ظهرت المجاديف على جانبَيْ المركب وأخذت في الحركة عندما أعطى القبطان بيرجر الأَمْر عَبْر بوقٍ. تقدَّمت هامبورج ببطءٍ حتَّى مدخل الميناء. اقترب القبطان من سالثيدو وأشار إلى مكانٍ خالٍ في الأرصفة الخلفيَّة التي تمتدُّ أمامها مخازن الصُّوفِ، وقال:

- «ها هو مرسانا أمامك».

تهادت السَّفينة فوق سطح الماء وبعد قليل دارت مرَّةً أخرى إلى اليسار لتُصبح بمحاذاة الرَّصيف. كان القبطان بيرجر يتفحَّص المكان

بالنَّظَّارة المُقرِّبة. مركبا سحبٍ كانا يدفعان السَّفينة إلى المَرَسى وأربعة بحَّارة يلقون المصَّدات على الجانب الأيسر بينما تختفي المجاديف منه. عندما كانوا يُثبِّتون المركب إلى مربط الحبال توقَّف القبطان عن النَّظر وابتسم لسالثيدو بينما يعطيه النَّظَّارة، ثمَّ قال:

– «لا يبدو أن هناك أعداءً على الشَّاطئ».

وجَّه سالثيدو النَّظَّارة إلى الرَّصيف وأخذ يبتعد بنظرته حتَّى المراسي: الأشرعة المطوية، القرية، عرباتٌ تجرُّها البغال في طريق الشَّاطئ. عندما وصل إلى غابة الزَّان الصَّغيرة، عادت عيناه شيئًا فشيئًا إلى صفِّ السُّفن الرَّاسية، الرَّصيف، المخازن، وفجأة اكتشفه: رجلٌ ضئيلٌ ضامرٌ أمام البوَّابة رقم 2، يرتدي سترةً متواضعةً من جلد الغنم ونعلًا برباطٍ، كان ينظر بثباتٍ إلى المركب التي انتهت من الرُّسوِّ. كان يمسك في يديه بلجامي حصانين، وخلفه بغلةٌ مربوطة إلى حلقةٍ مُثبَّتةٍ بالمخزن، كانت ترفس الأرض المرصوفة بالحجر بنفاد صبرٍ.

أشار إليه سالثيدو بإصبعه. لم يَحِدْ بنظرته عن القبطان وقال:

– «إنه هناك. هذا الفتى مع الحصانين عند باب المخزن هو بيثنتى، خادمي. هل يُمْكنه أن يصعد إلى متن المركب ليتولَّى أمْر الأمتعة؟».

الكتاب الأوَّل

السَّنوات الأولى

I

تَسْتقرُّ مدينة بلد الوليد، في الثُّلث الثَّاني من القرن السَّادس عشر، بين نَهْري بيسوريجا وايسجبا، كان فيها ثمانيةٌ وعشرون ألفَ نَفْسٍ. مدينةٌ خَدَميةٌ، المحكمة العليا وطبقة النُّبلاء المُسايرة دائمًا لمزاج البلاط كانا يمنحانها تميزًّا اجتماعيًا كبيرًا. أَنْهَارُ الدويرو وبيسوريجا وايسجبا – قبل أن يَتفرَّعَ هذا الأخير لثلاثة أذرع – كانت تحتضن بيوت المتعة للارستقراطية من جانب. وكانت تُوفِّر ما يُشبه الحاجز الطَّبيعيَّ في فترات الأوبئة من جانبٍ آخر. كانت المنطقة الحضريّة مُحَاطةً بحقولٍ وأشجار فواكه (لوز وتفاح وكرز)، هذه بِدَورها كانت مُحاطةً بدائرةٍ أكبر من حقول العنب، التي كانت تمتدُّ في صفوفٍ على الهضاب وعلى الأرض المستوية، لدرجة أن الممرَّات بين أشجار العنب، المُغطاة بالأوراق والبراعم في الصَّيف، كانت تَمْلأ الأفق من هضبة (سان كريستوبال) حتَّى منحدر (لا ماروكيسا). على الجانب الأيسر من نَهْرِ الدويرو، باتجاه الغرب، تَنْتشرُ أشجار الصّنوبر الجديدة، وخَلْف التِّلال الرَّماديَّة، باتجاه الشَّمال، قطاعٌ عريضٌ من حقول الحبوب تربط الوادي بإقليم البارامو، منطقةٌ كبيرةٌ مليئةٌ بالأعشاب وأشجار البلُّوط، يَقْطنُها رعاة أغنام الصُّوف. مثل هذا الموقع كان يُسهِّل تموين المدينة، بلدٌ مُحِب للنَّبيذ والخبز. نبيذٌ أحمر خفيفٌ من

القَطْفات الحديثة، نبيذٌ أحمر قويٌّ من منطقتي ثيجاليس وفوينسالدنيا، والنَّبيذ الأبيض الرَّائع من رويدا، سيرادا ولاسيكا. حَسْب قواعد طائفة منتجي النَّبيذ التي تحتكر هذا المشروب، لا يُمْكن بَيْعُ نبيذٍ من خارج بلد الوليد إلا بعد استهلاَّك الإنتاج المحلِّيِّ. وجود فَرْعٍ أَخْضر على باب حانةٍ يعني قَطْفةً جديدةً. وفي هذه الحالة، يقف خدم البيوت الكبيرة، وخادمات البيوت المتوسِّطة، وفقراء بلد الوليد في طوابيرٍ طويلةٍ أمام باب المَحَلِّ، لكي يتذوَّقوا جودة المشروب الجديد. ابن بلد الوليد في القرن السَّادس عشر كان مُحِبًّا لعصير الكرم، رجلٌ حسنٌ الذائقة، يُميز بين النَّبيذ الجيد والنَّبيذ السَّيِّئ، رغم أنه يُحبُّ كليما، لدرجة أن مُعَدَّل الاستهلاك للرَّأس يبلغ 105 لترات في العام، وهو رقمٌ، مع استثناء النِّساء اللَّاتي لا يَشْرَبن عادة والأطفال والمعتدلين والفقراء، يعني كمِّيَّة مُعتبرة للفرد.

كانت المدينة صغيرة المساحة، محصورةٌ بين نهرين، (كما كان يَقُول أهل ذلك العصر، عندما يرتفع ثَمَنُ الخبز فيها يسود الجوع في إسبانيا)، تُمَثِّل مستطيلًا، لها أبوَّابٌ عديدةٌ للدخول: بوَّابة (بوينتي مايور) في الشَّمال، بوَّابة (كامبو) في الجنوب، بوَّابة (توديلا) في الشَّرق وبوَّابة (رينكونادا) في الغرب. وباستثناء وسط المدينة، الذي كان مرصوفًا بالأحجار الرماديَّة وفِيه نظام ريٍّ قنواته مكشوفة في وسط الشَّوارع، كانت المدينة تبدو مُتربةً قاحلةً في الصَّيف، وباردةً موحلةً في الشِّتاء، قذرةً وكريهة الرَّائحة في كُلِّ الفصول. لكن، بينما تتقلَّص الأنف تقزُّزا، كان النَّظر يستمتع أمام آثارٍ مثل كنائس سان جريجوريو، لاأنتيجوا وسانتا كروث، أو ديرَيْ سان بابلو وسان بنيتو المَهيبَيْن. شوارع ضيقَّةٌ، بواكي على الجانبين، وبيوتٌ من طابقين أو ثلاثة، من دون شرفات، أسفلها متاجر أو وِرَش حِرَفية. كانت بلد الوليد تقدِّم في ذلك الوقت، بحركة عرباتها الصَّاخبة وأَحْصِنتها وبغالها، مظهرًا شبه متألِّقٍ، برخاءٍ بادٍ.

قبل انتقال البلاط، في ليلة 30 أكتوبر من العام 1517، تَوقَّفت العربة التي يشغلها التَّاجر وصاحب الأملاك، دون برناردو سالثيدو، وزوجته الجميلة، دونيا كاتالينا دي بوستامانتي، أمام المنزل رقم 5 في شارع سان بابلو. عندما خرجا من بيت دون إجناثيو، الأشقر، الأمرد، القاضي بالمحكمة العليا وشقيق دون برناردو، حيث قضيا السَّهرة، أَسَرَّت دونيا كاتالينا بلباقةٍ لزوجها بالشُّعور بأَلَمٍ في الكُلَى. وفي هذه اللَّحظة، عندما توقَّفت الأحْصِنة بحدةٍ أمام بوَّابة بيتهما، عادت لتقرِّب شفتيها من أذنه لتخبره بهمسٍ أنها تشعر أيضًا ببَلَّلٍ في ردفيها. دون برناردو، قليل الخبرة في هذه الأمور، لم يُنجب من قَبْل رغم سنواته الأربعين، أمر خادمه خوان دوينياس الذي كان مُمْسِكًا بباب العربة، أن يذهب بسرعةٍ إلى بيت الدُّكتور ألمانيرا، في شارع كاركابا، وأن يُخبِره أن السَّيِّدة سالثيدو تشعر بالإعياء وتطلب حضوره.

كان دون بيرناردو سالثيدو يعتبر الطِّفل الوشيك معجزةً حقيقيةً. يُمَثِّلُ حَمْلُ زوجته غير المُنتظر مفاجأةً لكليهما بعد زواجه قَبْل عشر سنوات. لم يكن آل سالثيدو يتناولون هذه الأمور المُبتذلة. دونيا كاتالينا، المهمومة بسبب عُقْمِ زيجتها، لَجَأَت للدُّكتور فرانسيسكو ألمانيرا. كان دون فرانسيسكو أكثر أطباء النِّساء مكانةً في الإقليم كله. حصوله على ترخيص التَّطبيب في 1505 من المجلس الطبيِّ الملكيِّ بعد اختباراتٍ صعبةٍ، وتدريبه مع الدُّكتور الموثوق به دون دييجو دي ليثا، أديا إلى توكيد الآمال. اليوم، عَبَرَتْ شهرة الدُّكتور ألمانيرا الحدود، وأَكْبر رجال صناعة النَّسيج في شقوبية وأَشْهر تجار بورجوس يلجأون إلى عيادته دائمًا. رغم هذا، كلَّفَ القرار دونيا كاتالينا بوستامانتي دموعًا كثيرةً. كيف تكشف عورتها على شخصٍ غريبٍ، مهما كان قَامةً كبيرةً في عِلْمِهِ؟ كيف يُمْكنها أن تستشير أيَّ شخصٍ في مشكلةٍ شديدة الحميميَّة مثل حياتها الجنسيَّة

مع زوجها، والتي لم تأت بثَمْرتها؟ لكن فضولها غَلَبَ حياءها. رغم أنها لم تكن مُتَلهِّفةً على ابنٍ، إلا أنها كامرأةٍ عمليَّةٍ، كانت تريد أن تَعْرف، لمَ لا يُؤدِّي سلوكها، الشَّبيه بما تأتيه نساءٌ كثيراتٌ، إلى النَّتيجة ذاتها. بَعْد أيَّامٍ قُضِي على شكِّها وتَرَدُّدِها بسبب الهيئة النَّبيلة للدُّكتور ألمانيرا، المُتدثِّر بعباءته المخمليَّة الدَّاكنة، حلية الياقوت المُتدلِّية من عنقه، لحيته الطَّويلة المُدبَّبة والزُّمردة غير المُشذَّبة التي تُزَيِّن إبهامه الأيمن. وساهم سلوك الطَّبيب المُهذَّب في رضوخها، بالإضافة إلى كلماته الخافتة المنطوقة بالكاد، والتَّلميح الذي يَطْلبُ به الوصول إلى أكثر أجزاء جسدها حميميةً. واللَّمسات التي يَتطلَّبها عمله. لمَسات في حَدِّها الأدنى لكنها مُزعجةٌ. أزال الوقت الطَّويل الذي ظلَّا بين يَدَيه أيَّ مخاوفٍ في نَفْسِ دونيا كاتالينا وفَتحَ قَلْب دون بيرناردو لصداقةٍ مُخْلِصةٍ. لكن قَبْل ذلك كان عليها أن تتَحمَّل اختباراتٍ مرعبةٍ، مثْل اختبار الثُّوم، لاكتشاف أيِّ الطرفين سَبَب عُقْم الزَّواج. ولهذا الغرض أَدْخلَ دون فرانسيسكو ألمانير فَصَّ ثُومٍ، مُقَشَر بالطَّبع، في فَرْجِ دونيا كتالينا، قَبْل أن تذهب للفِرَاش. حَذرَها:

– «لا تنهضي من الفِرَاش غدًا حتَّى أصل. يجب أن أكون أوَّل من يَشُمُّك».

استيقظ دون برناردو فَجْرًا. كان يستشعر بغموضٍ أن أَمْرًا خطيرًا مُتَعَلِّقًا بذكورته أصبح على المحكِّ. تجوَّل في البيت طوال ساعاتٍ، وفي التَّاسعة، عندما سمع حدوات بغلة الدُّكتور على باب البيت، رفع ستارة النَّافذة بتوتُّرٍ بادٍ. خادم الدُّكتور الذي كان يُمْسِك بلجام الرَّكوبة، سَاعدَ سيِّده على النُّزول وربطها إلى حلقةٍ في العمود. كُلُّ ما حدث بعد ذلك بدا مُحيرًا وغامضًا لدون برناردو. أمَر دون فرانسيسكو أن تَنْهضَ دونيا كاتالينا، كما هي، في قفزةٍ واحدةٍ من الفِرَاش، وقادها من يدها إلى الحوض، وهناك طَلَب منها بتهذبٍ أن تُطْلقَ زفيرها. بدت دونيا كاتالينا مضطربةً إلى حدٍّ كبيرٍ. سألته:

- «ماذا؟».

أَصَّر الدُّكتور بينما يحني رَأسه على وجه المريضة:

- «الزفير، يا سيدتي، أطلقي زفيرك عليَّ».

وفي النِّهاية أطاعته.

- «مَرَّةً أخرى، إن لم يكن يضايقك».

تنفَّست زوجة دون برناردو أمام أَنف دون فرانسيسكو الذي عقد حاجبيه بجديةٍ. بعد ذلك، كبادرةٍ على خطورة الأمرِ الشَّديدة، انفرد الدُّكتور ألمانيرا مع دون برناردو في مكتبه، جلس إلى المكتب ونظر للسَّيِّد سالثيدو ببرودٍ غَيْر طبيعيٍّ. قال ببساطةٍ:

- «يؤسفني أن أقول لك إن قنوات زوجتك مفتوحةٌ».

- «ماذا تُريد أن تقول يا دكتور؟».

- «زوجة حَضْرتك صالحةٌ للحَبَلِ».

هبطت الدِّماء فجأة إلى قدميّ دون برناردو. بدأ الكلام، لكنه لم يكن قادرًا على المواصلة:

- «هل تعني...؟».

- «لا أُلمحُ بأيِّ شيءٍ يا دون سالثيدو، إنني أُؤكد بكُلِّ ثقةٍ أن زفير زوجتك رائحته ثومٍ. ماذا يَعْني هذا؟ ببساطةٍ شديدةٍ، قنوات الاستقبال في جسدها مفتوحةٌ، غير مسدودةٍ. الحَمْلُ سيكون طبيعيًّا بعد عملية تَخصيبٍ مناسِبةٍ».

بدأ دون برناردو في إفراز العرق وأصبحت حركاته مُتعثرةً ومُستسلمةً:

- «هل هذا يعني أنني سَبَب الفشل في الإنجاب؟».

نظر له ألمانيرا من تحت إلى فوق بشيءٍ من الاحتقار:

- «في الطب اثنان واثنان ليسا أربعةً دائمًا، يا سيِّد سالثيدو. أُريدُ أن أقول إن هذه الاختبارات ليست رياضيةً. يوجد احتمالٌ أن يكون كلاكما قادرًا على الإنجاب، ولسببٍ ما، لا يوجد تناغم بين جهودكما».

- «أي أنه لا يوجد تآلُف بيني وزوجتي».

- «سَمِّه كما تشاء».

التزم السَّيِّد سالثيدو بصمتٍ حذرٍ. كان على درايةٍ بمعارف الدُّكتور ألمانيرا، ونجاحاته الرَّائعة مع أكثر العائلات المرموقة في المدينة، ورؤيته الثاقبة. كما كان معروفًا للجميع أن مكتبته تحوي ثلاثمائة واثني عشر كتابًا، لا تَصلُ إلى ما يُوجَد في مكتبة أخيه إجناثيو، لكنها كافيةٌ لتكوين فكرةٍ عن مقدار عِلمه. لم يكن هناك ما يستدعي نوبة غضب لسبب بسيطٍ كهذا. رغم هذا، أصرَّ مُستفسرًا:

- «ألا يُقدمُ العِلمُ أيَّ اختبارٍ آخر يا دكتور، فَلْنقُل، أقل تخبّطًا، وأكثر دقةً؟».

- «يُمكِننا أن نُخضِع زوجتكم لاختبار البول، لكنه إجراءٌ مقززٌ، ومصداقيته لا تزيد على اختبار الثُّوم».

- «إذن؟».

نهض ألمانيرا ببطءٍ من المكتب. بدا عملاقًا داخل عباءته المخملية الدَّاكنة. لحيته المُدبَّبة كانت تصل إلى الزِّرِّ الثَّالث. أَمْسك بِكُوع دون برناردو بلباقةٍ:

- «بصراحةٍ يا سيِّد سالثيدو، ماذا يُحزنك أكثر؟ ألّا تكون لك ذريةٌ، أَم الاعتراف أمام زوجتك بأنك المسؤول؟».

تنحنح السَّيِّد سالثيدو وقال:

- «أرى أنك خبيرٌ أيضًا بالرِّجال».

- «من يَعْرِف النِّساء جيدًا، ينتهي به الأَمْر إلى معرفة الرِّجال. إنها معارفٌ متكاملةٌ».

رفع دون برناردو عينين فارغتين، حزينتين بشكلٍ عجيبٍ:

- «أَلَن يكون كافيًا، يا دكتور، إخبار زوجتي أن أعضاءنا غير متآلفةٍ، وأن جهودنا، كما قُلت من قبل، لا يوجد بينها تناغمٌ؟».

ابتسم الطبيب وقال:

- «هذا رأيٌّ طيّبٌ. فلنفعل ما تقول. في الواقع أنت لا تطلب مني أن أكذب».

ذلك التَّنازل من الدُّكتور ألمانيرا أنقذ التَّوافق العائليَّ والصَّداقة بين الرَّجلين. لكن، بَعْدَ ثمانية أعوام، ومن دون أيِّ أَمْرٍ مُسْتَجَدٍ في العلاقة الزَّوجية سوى مرور الزَّمن، عندما عاد دون برناردو ودونيا كاتالينا إلى العِيادة، ليَقولا إن الدَّورة لم تأت الزَّوجة مرتين، هنأَّ الدُّكتور نَفْسَه على كتمانه. جعل السَّيِّدة كاتالينا تتمدَّد على فِرَاش الكشف، وقاس نبضها بتركيزٍ شديدٍ. بعد ذلك وضع راحة يده اليمنى على ثديها الأيسر، فوق القلب، وعندما شعر بتوتُّر دونيا كاتالينا، غمغم: اهدئي، اهدئي يا سيدتي، أنت لا تُعانين من الحُمَّى. التفت إلى صديقه مُخبرًا: «لا تعاني من ارتفاعٍ في درجة الحرارة يا سيد سالثيدو». بعد ذلك انحنى، ووضع أذنه على صدر المرأة واستمع لنبضات القلب المتسارعة. عندما انتهى، فتحت يده الخبيرة طريقًا بين المَشَّد والتَّنورة وتفحَّصَ البطن، الطحال والكبد، وأكثر الأمعاء مراوغةً. لكن يده نَزَلتْ قليلًا. انقطع تنفسُ دونيا كاتالينا، كانت على وشك الإغماء، كانت يده اليمنى، التي توجد الزُّمردة في إبهامها، وأحيانًا كانت تشعر في عانتها بنتوءات الحجر النَّاعمة. كان الدُّكتور ألمانيرا يَتصرف بجرأةٍ شديدةٍ في ذلك الصَّباح. في النِّهاية أخرج يده وذهب ليغسلها في الحوض. تحدَّث بينما يجففها:

- «انقِطاع الدَّورة دليلٌ أكيدٌ على الحَبَلِ في معظم الأحوال. لكن مع هذا الوقت البسيط، لا يُمْكن تحديد شيءٍ بالجَسِّ».

نظر إلى سالثيدو وأضاف كأنه يستأنف الموضوع الذي مرَّت عليه ثماني سنوات:

- «هذه الأمور تحدث في الطب. كان يبدو أنه لا يوجد تناغم بيْن جهودكما، وفجأة تحوَّلوا إلى أصدقاء. فلنحتفل بهذا. أنتظركما بعد ثمانية أسابيعٍ».

عاد الزَّوجان إلى العيادة بعد شهرين، لكن، في ذلك الوقت كانت دونيا كاتالينا تقضي أصباحها في غثيانٍ دائمٍ، وفي مناسبتين وصلت إلى القيئ والدوار. قالت هذا للدكتور قَبْلَ أن تتمدَّد على فراش الكشف. استمع الدُّكتور إلى صدرها بتأنٍ، لكن ما إن لمس البطن حتَّى انفرجت التَّجاعيد حول فَمِه. قال بينما تتسع ابتسامه:

- «لدينا هنا رَأس سالثيدو الصَّغير. لقد فُزتما بما كنتما تبغيان».

شهرًا بعد شهرٍ، كانت دونيا كاتالينا تَزُورُ الدُّكتور ألمانيرا بصحبة زوجها. وكان من دواعي فخرها أن تسمع منه التَّأكيد الدَّوريَّ على أمومتها الوشيكة. ومع هذا، بعد ثمانية أشهر من الحمل، سأل الدُّكتور غاضباً: «هل أنتما متأكدان من قيامكما بالحساب جيدا؟». ردَّ دون برناردو بسرعة: «انقطاع الدَّورة لا يكذب يا دكتور. عندما جِئْنَا أوَّل مَرَّة كانت الدَّورة قد انقطعت مرتين، والآن ثمانية بالضبط». علَّق الدُّكتور: «الرَّأسُ صغير للغاية. لا تتجاوز حجم تفاحةٍ.

بعد شهرٍ أكَّد أن كُلَّ شيءٍ يسير جيدًا، باستثناء حجم الجنين، صغيرٌ إلى حَدٍ كبيرٍ، لكن لا يُمْكن فعل أيِّ شيءٍ سوى الانتظار. في النِّهاية، كأنه يُوجِّه أكثر أسئلة العالم براءةً، استفسر من دون برناردو إن كانا يمتلكان في

البيت مِقعدًا للوضع. وأَحْنى دون برناردو رَأسه برِضا. كان يَشْعُر بالسَّعادة لقُدرَته على تلبية رغبات الدُّكتور ألمانيرا، حتَّى في هذه الجزئية الصَّغيرة. وأسهب في تفاصيل أُسْطُول نقل الصُّوف وبصيرة دون نيستور مالونيدا، التَّاجر الشَّهير في بورجوس، عندما قام بإهداء المِقعد لزوجته فور ظهوره في أسواق فلاندرز كتقليعةٍ جديدةٍ. هم من اخترعوه. ابتسم الدُّكتور. لكنه استخدم نبرة احتقارٍ لكي يضيف: «رغم هذا الجهد، ونظرًا لحجمه، لن يَحْتاج سالثيدو الصَّغير إلى مساعدةٍ لكي يلج لهذا العالم».

الآن، كانت دونيا كاتالينا تنتظر الدُّكتور بينما تقطع الصَّالة جيئةً وذهابًا، ومن حينٍ لآخر كانت تُمسك الخوان بكلتا يديها، ويَتقلَّصُ وجهها ويَحْمَرّ من دون أن تَقول كلمةً واحدةً. سأل دون برناردو مهمومًا بينما يستشير ساعته:

- «مرَّةً أخرى؟».

أحنت رَأسها موافقةً، فأضاف:

- «إنها أكثر تواترًا مع مرور الوقت، بالكاد دقيقتين، ربما أَقَل».

في الواقع، كان سالثيدو يشعر بالزَّهو لقِيامه بإثارة كُلَّ هذا الاضطراب. كانت عروقه تنتفض بخيلاء الفحل أكثر من فخر الأب. بعد معاناةٍ كثيرةٍ حصل على ما يُرِيد. كان مُعجبًا بهدوء زوجته ومُندهشًا لملابسها الأنيقة في مثل هذه الظروف، تنورتها الواسعة ذات الهيكل التي تخفي حَبَلَها، الفستان بصَدرِه الدَّائريِّ، مكشوف الكتفين، بشكل موحٍ. ابتسم لنفْسه. يوم ارتدت هذا الفستان لأول مَرَّةٍ لم يَطِقْ صبرًا حتَّى يُعريها. أحيانًا كان يَشْعُر بهذه النَّزعات الجامحة من دون أن يُوَفَّق في معرفة السَّبب. كانت تعتمد على احتياجات جسده أكثر من ملابس زوجته. رغم هذا، كان الفستان الموحي يُثِيره دائمًا، الكتفان الأبيضان الرَّقيقان، ينافسان حرير الرِّداء.

كان وجه زوجته يتقلَّص من جديد بينما تُمسك بالطاولة، وبعد أن مَرَّ الألم قرعت دونيا كاتالينا الجرسَ الفضيَّ بعصبيةٍ. جاءت بلاسا، الطاهية العجوز، تُغمغم بينما تُجَرجر نعلها، برداءٍ من النَّسيج الخشن وشَالٍ على رَأسها. بدأت بلاسا الخدمة في سن الخامسة في بيت جدة دونيا كاتالينا لكي تُلاعب أمّها، حديثة الولادة. بعد ذلك شهدت ميلادها. كانت كياناً داخل البيت. رغم هذا، لم تأتِ بأيٍّ تعليقٍ عندما أخبرتها السَّيِّدة أن ابنها يُعلن عن ميلاده، وطلبت أن تُعدّ الحجرة وأن تُسخِّن الماء في المطبخ. بالنِّسبة لموديستا، الخادمة، من الأفضل ألا نُخبرها بأيِّ شيءٍ. فلتنم. ليس من المناسب، بسنواتها القليلة، أن تجد نَفْسَها مُنغمسةً في هذه الأجواء. بالنِّسبة لخوان دوينياس، الخادم الذي ذهب لإحضار الدُّكتور، لن يَتأخَّر لكن من المناسب أن يظلَّ مُستعدًا من أجل أيِّ عارضٍ خلال اللَّيلة. أولًا، عليه أن يُخرج كرسيَّ الوَضْعِ من غرفة الدَّواليب، حيث بقيَ فوق أحدها خلال عشر سنوات. كانت بلاسا تحني رَأسها الثقيل موافقةً مَرَّةً وأخرى، بجفنيها الثقيلين، سلبيةً تمامًا إزاء العاصفة التي تقترب. نظرت إلى سيِّدتها بعينين مُتعبتين:

- «أيُّ شيءٍ آخر يا سيِّدتي؟».

لكن دونيا كاتالينا كانت تستمع لزوجها الذي كان ينصحها، بنبرةٍ تعليميةٍ، أن تُغيِّر ملابسها، وألّا تُفكر في الولادة بينما ترتدي الفستان والتَّنورة ذات الهيكل. بين التَّوتر والتَّقلصات، لم تكن دونيا كاتالينا قد فكَّرت بَعْد في الملابس المناسبة. دون برناردو قال مُحدِّدًا:

- «ملابس نومٍ، واسعة، مفتوحةٌ بالطَّبع».

سُمِع صوت عربةٍ تقترب. كان السَّيِّد سالثيدو يعرف كُلَّ عثرةٍ، وكُلُّ حجرٍ غير مُستوٍ في الشَّارع، والصَّرير الخاص لعربته عندما تَمُرُّ فوقها. قال:

- «بسرعة، لقد وصل الدُّكتور».

خرجت دونيا كاتالينا من الغُرفة عَبْر الباب الصَّغير الذي يصل الحجرتين، بينما دون فرانسيسكو ألمانيرا، بعباءته المخملية الدَّاكنة وحقيبته السَّوداء في اليد ذات الزُّمردة، يدخل من الباب الرَّئيسي. كان الدُّكتور يعرف أهمية الدُّخول المتفاخر. الطبيب أو القابلة في بيت امرأةٍ بكريةٍ كانا مثْل الإله. اقترب منه دون برناردو، فريسةً لهياجٍ غريبٍ:

- «لقد بدأ الأمْر يا دكتور».

- «هل تشعر بآلامٍ؟».

- «منذ أكثر من ساعة. كُلَّ دقيقتين».

نظر دون فرانسيسكو دي ألمانيرا حوله ولَمْ يَرَ القابلة. اعتذر دون برناردو: «كنت أجهل ألّا غنى عنها». كَتَبَ الدُّكتور اسمين وعنوانين في ورقةٍ وقام السَّيِّد سالثيدو بالنِّداء على خوان دوينياس: أَحضِر الأولى. وفقط، إن لم تكن موجودة، قُمْ بإحضار الثَّانية. بعد ذلك قام بمرافقة الدُّكتور حتَّى غرفة النَّوم، لكن، كرجلٍ غيورٍ على بيته، نقر الباب بمفاصل أصابعه قبْل الدُّخول. بصوتٍ مُختنقٍ قالت دونيا كاتالينا «أدخل». كانت على الفِرَاش مُرتديةً قميص النَّوم وعباءةً منسدلةً على كتفيها. مُستلقيةٌ فوْق وسادتين من الصُّوف. أمسك الدُّكتور ألمانيرا بالباب وتوجَّه لدون برناردو بلباقة:

- «من الأفضل أن تنتظر بالخارج».

رجع دون سالثيدو خطوةً للخلف، شاعرًا بالمهانة. ماذا ينتوي أن يفعل الدُّكتور المخضرم ألمانيرا مع زوجته على انفراد؟ كانت الدَّقائق تمرُّ ببُطءٍ مثيرٍ للغيظ. عَبْرَ الباب البلُّوطيِّ السَّميك، لم تكد تُسمع سوى غمغمةٌ خافتةٌ وعندما سمح له الدُّكتور بالدُّخول، أسرع بالولوج إلى الحَرَم، كما كان يسمي غرفة النَّوم منذ يوم زواجه. أوقفه الدُّكتور وقال:

- «كُلُّ شيءٍ طبيعيٌ. بَدأَ التَّمَدُّد».

وصلت القابلة. كانت امرأةً قصيرة القَامة ونحيفةً، جلدها مدبوغٌ، غارقةً داخل رداءٍ قديمٍ، بغطاءٍ على رَأسها. توجَّه لها الدُّكتور:

- «مساء الخير يا فكتوريا. الأُمُور تسير بشكلٍ جيدٍ، لكن لا يجب أن نركن للرَّاحة. أَعدِّي منقوعَ شيحٍ للوالدة».

كانت موديستا بخطواتها القافزة تسير خلْفها لكن دون برناردو أَوقفها وقال:

- «يجب أن تنامي. سوف تقوم بلاسا بمساعدة السَّيِّدة».

التفت إلى خوان دوينياس الذي كان ينظر له بثباتٍ على مقربةٍ من الباب:

- «إنتظر بالأسفل يا خوان. لا نعرف بَعْد إن كنَّا سوف نحتاجك».

تناولت دونيا كاتالينا المَشروب بطَاعةٍ، ولَمْ يتغيَّر شيءٌ ظاهريًا. رغم هذا كانت التَّقلُّصات تزداد. كانت القابلة تروح وتجيءُ من الصَّالة:

- «التَّمدُّدُ كاف يا دكتور، لكنني لا أرى إرادةً للمشاركة. إنها سلبيةٌ».

- «أعطِها منقوع رواند».

حرَّكت المريضة بطنها بَعْدَ الرواند. كانت تُخفي وجهها بين الوسائد مع كُلِّ تَقَلُّصٍ، لكنها لم تكن تبذل أيَّ جهدٍ. قال الدُّكتور:

- «اضغَطي.»

- «أَضغطُ، أين؟».

ساد الاضطراب.

- «عندما يأتي الألم، اضغطي بقوَّةٍ».

جلس الدُّكتور على كرسي خلْعِ الأحذية. عندما سمع الوالدة تشتكي أدار وَجَهَه لها:

- «اضغَطي!».

- «لا أستطيعُ يا دكتور».

نهض دون فرانسيسكو ألمانيرا ثُم قال: «الرَّأس هنا، إنه صغير. لماذا لا تخرج بحق الشَّيطان؟». لكن مرَّت نصف ساعةٍ ولَمْ يتغيَّر المشهد. كان التَّمدُّد قد اكتمل لكن دونيا كاتالينا لم تُشارك. حينئذ صاح الدُّكتور بقوَّةٍ:

- «فيكتوريا. مِقعدُ الوضع من فضلك».

قام دون برناردو بنَفْسِه بالمُساعدة في إدخاله إلى غرفة النَّوم. كان اختراعًا من الخشب والجلد، المِقعَدة أكثر انخفاضًا من مسندي السَّاقين، وحزامين من الجلد في الذراعين، حيث يجب أن تمسك المريضة لكي تضغط بقوَّةٍ. القابلة وبلاسا ساعدتا دونيا كاتالينا في الجلوس على المِقعد. بساقيها المرفوعتين، ومؤخرتها المعتمدة على المِعقَدة الجلدية، كانت الوالدة الهزيلة تبدو في حالٍ مُزريةٍ ومُثيرةٍ للسخرية.

انتابها الألم فقال الدُّكتور: «اضغطي بقوَّةٍ». وتقلَّص وجهها، لكن عندما اختفى الألم، بدت مُتوترةً وأمرت زوجها بصوتٍ واهنٍ أن يخرج وينتظر في الصَّالة، كانت تشعر بالضيق من مشاهدته تردِّي حالتها. لم يعتقد دون برناردو مُطلقًا أن ميلاد ابنٍ عمليةٌ مزعجةٌ وطويلةٌ إلى هذه الدَّرجة.

في الثَّانية والنِّصف من فَجرِ 31 أكتوبر 1517 كان التَّمَدُّد مُكتملًا بالفعل لكن الطِّفل لا يخرج ودونيا كاتالينا تصرخ لكنها ما زالت لا تُسهم من جانبها بأيِّ شيّء لكي تُكلِّل العملية بالنَّجاح. في تلك اللَّحظة نطق الدُّكتور القدير ألمانيرا بعبارةٍ ستُصبح شهيرةً في المدينة: «هذا الطِّفل مُلتصق». في هذه اللَّحظة تمامًا حدث أَمْرٌ لا يُمْكن تصوُّره: اختفى رَأس الصَّغير من المَخرج، وبدلًا منه، ظهرت ذراعٌ صغيرة براحة يد مفتوحة المهتزة كأنها تُوَدِّع أو تُحيِّي. وبعد ذلك ظلَّت الذراع هناك، ساقطة ومُترهلة

مثل قضيبٍ بين ساقيّ السَّيِّدة المُنفرَجتين. قال الدُّكتور خارجًا عن شعوره:

- «هذا اللَّعين قام بالالتفاف. اعتَنْ بها، بسرعةٍ».

فتحت القابلة سلّتها وأخرجت منها قارورةً من زيت الشَّبث وعلبةً صغيرةً من الزُّبد، دهنت الذراع الصَّغير بكلتا المادتين وبحركةٍ سريعةٍ، محترفةٍ وخبيرةٍ، أعادت إدخاله إلى بطن أمه. استسلمت المريضة بخضوعٍ، وعندما لاحظت أن الدُّكتور يخلع الخاتم الكبير ذا الزُّمردة من إبهامه ويضعه على المائدة، شعرت بفزعٍ كبيرٍ كأنه قام بخلْعِ اليد ويُلقي عليها كُلَّ المسؤولية. لكن، على غير انتظارٍ، حدث العكس تمامًا. شعرت فجأةً بقوَّة ذراعه داخل بطنها. أمسك الدُّكتور بكتفيّ الوليد بأصابعه النَّحيفة، وبمهارةٍ شديدةٍ أداره بحيث وضع الرَّأسَ الصَّغير مُجدَّدًا في مدخل فرجها. دونيا كاتالينا التي فقدتْ تهذيبها أخذت تصرخ وتَسُبُّ كُلَّ الحاضرين، عادت للشعور بقوَّةٍ متراكمةٍ في الحوض، صرخت، وضغطت بكُلِّ قوتها بينما تشجعها القابلة: «هكذا، هكذا». وفجأة، كأنه مَقذُوفٌ، انطلقت قطعةٌ دمويةٌ من اللَّحم الورديّ مُندفعةً بقوَّةٍ، تراجع رَأسُ الدُّكتور لتفادي التَّصادم، وحَطَّ الوليد على الفوطة البيضاء التي تحملها القابلة بين ذراعيها خَلْفَه بقليل. نظرت له مذهولةً وقالت:

- «إنه طِفلٌ! كم هو ضئيل، يبدو قطًا صغيرًا».

دخل دون برنارد مُسرعًا، ونظر له الدُّكتور ألمانيرا بثباتٍ بينما يغسل يديه في الحوض وقال له:

- «ها هو ابنك يا سيِّد سالثيدو. هل تعتقد أنكما قُمتما بالعَدِّ جيدًا؟ من حجمه يبدو أنه (ابن سبعة)».

لكن الجهد والاختناق وتوتُّر دونيا كاتالينا، التي قَامت للمرة الأولى في حياتها بإنجَاز مُهمةٍ شخصيةٍ بنفْسِها، من دون اللُّجوء لأيادٍ مدفوعة

الأجر، كانت لها عواقبٌ مؤلمةٌ. كانت تشعر بالإنهاك، خائرة القوى، وعندما أعطوها الطِّفل في اليوم التَّالي لكي تقوم بإرْضَاعه، أبعدَ الصَّغير رَأسَه عن الحلمة شاكياً ببكاءٍ محموم. الدُّكتور ألمانيرا الذي شهد رَدَّ فِعْلِ الوليد استمع بصبرٍ لصدر دونيا كاتالينا، وضع يده الحاملة للخاتم على ثدي المريضة الأيسر، التفت إلى دون برناردو وأخيه وزوجته، اللذَين جاءا إلى البيت في وقتٍ غير مناسبٍ، ونطق بإحدى عباراته الحاسمة:

- «الوالدة تعاني من ارتفاع درجة الحرارة. يجب البحث عن مرضعةٍ».

مُورِسَ نفوذ عائلة سالثيدو في المدينة وكل القرى المجاورة. دون إجناثيو، القاضي بالمحكمة العليا، حيث تمَّ الإعداد ذلك الصَّباح لاستقبال الملك، أطلق الخبر بين الموظفين الأدنى درجةً: الحاجة مُلحَّةٌ لمُرضعةٍ شابةٍ، لبنها مُختزنٌ منذ عدة أيام، بصحةٍ جيدةٍ، وعلى استعدادٍ للإقامة في بيت الأبوين. تجّار الصُّوف في إقليم البارامو تلقَّوا الرِّسالة ذاتها من دون برناردو: «مطلوب مُرضعة. عائلة سالثيدو تحتاج عاجلًا لمرضعةٍ». في الثَّانية عشرة من اليوم التَّالي تقدَّمت فتاةٌ، كانت طفلةٌ تقريباً، قادمةٌ من سانتوبينيا، أُمٌ عزباء، لديها لبن أربعة أيَّام، فقدت ابنها في الوضع. دونيا كاتالينا، التي لم تكُن الحمى قد تمكَّنتْ منها بَعْد، أُعْجِبت بالفتاة. طويلةٌ، نحيفةٌ، عطوفٌ، ابتسامتها جذابةٌ. كانت توحي بالشُّعور بفتاةٍ مبتهجةٍ رغم كُلِّ المصائب. وما إن استقرَّ الطِّفل في حِجْرِها حتَّى ظَلَّ ساعةً من دون حركةٍ بينما يمتَّص الحَلمة وسقط نائمًا، فتأثَّرت دونيا كاتالينا. عاطفة الأمومة في تلك الفتاة تُلحظ في لمساتها، في عنايتها الفائقة لدى وضْع الصَّغير في فِرَاشه، في تفاهمهما في ساعة إطعامه. مُنبهرةً بهذا الأداء الجيد للغاية، تعاقدت معها دونيا كاتالينا من دون تردُّدٍ، ومدَحتها من دون تحفُظٍ. مينرفينا كابا، من سانتوبينيا، ذات الخمسة عشر عامًا، وأُمٌ ثَكلى،

بهذه الطَّريقة المتعجِّلة أصبحت تُشكِّل جزءًا من خدم عائلة سالثيدو في شارع سان بابلو، رقم 5.

ولَمْ تجد مينرفينا مُقاومةً في المطبخ، حيث كانت بلاسا الطاهية، حجر عثرة في البداية. قَبْلَ ظهور مينرفينا كانت قد أعطت الطِّفل جرعتين من لبن أنثى حمار ذي السُّكر الكثير، مُخففًا بالماء، كما رأت أمها تفعل في أوقاتٍ سابقةٍ، وكانت دونيا كاتالينا تخشى من استقبالٍ عدائيّ. لكن السَّيِّدة بلاسا كانت مُهتمَّة للغاية بأَصْلِ الفتاة، وما إن وجدت نفسها معها على انفرادٍ، حتَّى سألتها إن كانت تعرف في قريتها شخصًا يُدْعى بيدرو لانوثا، أبًا لفتيَين جميلين ومُتهوّرَيْن، ولم تَكدْ تنتهي من توجيه السُّؤال حتَّى انطلقتْ مينرفينا في الضَّحك:

– «العائلة كلها من المُجدِّفين، يا سيدة بلاسا».

– «ماذا تعنين بهذا؟».

– «ما تسمعين، يا سيدة بلاسا، مُجدِّفون، من هؤلاء الذين يقولون إن الرَّبَّ يُفضِّل أن يرى رجلًا وامرأةً في الفِرَاش على رؤيتهما في الكنيسة يُصلّيان باللَّاتينية».

– «هل هذا ما يقولونه في قريتك؟ تلك العائلة كانت غريبة دائمًا».

اجتهدتْ مينرفينا في تذكُّرِ أُمورٍ أخرى لترضي السَّيِّدة بلاسا، لكي تقع منها مَوقعًا طيبًا:

– «كما يقولون إن الرَّبَّ يأتي إليهم بمجردِ جلوسهم لينتظروا. يكفي أن يبقوا ساكنين وينتظروا لكي يَقومَ الرَّبَّ بالتَّجَلِّي لهم. لهذا يُطلقون عليهم أيضًا المُتواكلين».

أحنت بلاسا رَأسها مُوافقةً:

– «كما ترين، هذا اللَّقب ينطبق أفضل من الآخر على بيدرو لانوثا. في حياتي لم أَرَ شخصًا أَكثر إهمالًا وكَسَلًا منه».

- «إن أردت رؤيتهم، فهم يأتون أيام السَّبت إلى بلد الوليد، على الحمارة، إلى بيت امرأةٍ اسمها فرانثيسكا إرناندث وقسٍ يطلقون عليه أيضًا دون فرانثيسكو».

- «وأين تعيش فرانثيسكا إرناندث تلك يا ابنتي».

- «لا أتذكَّر يا سيدة بلاسا، لكن إن كُنْتِ مُهتمةً سوف أسأل في أول يوم أذهب فيه للقرية».

وهكذا امتلكت مينرفينا ناصية بلاسا. أما موديستا، بَسيطة الفهم والخجولة، لكن كثيرة الكلام، فقد قبلت الفتاة برضا. بعد أن اعتادت على العجوز، وجدت في الزَّميلة الجديدة شبابًا، وبعض وجهات النَّظر المتقاربة، وحوارًا سلسًا، غَيْرَ مَعهودٍ في فتاةٍ قرويةٍ.

أمضت دونيا كاتالينا اليوم بهدوءٍ. ظهور مينرفينا، شديدة النَّظافة والمطيعة أيضًا، أدخل عليها الطمأنينة. ولتزيد من سعادتها، جاءت دونيا جابرييلا في منتصف النَّهار، صهرتها، لكي تُطلعها على أخبار الاحتفالات في المدينة: الأربعون ألف غريبٍ الذين وفدوا لرؤية الملك، والشَّوارع المحمومة بالحركة، والأقواس الخشبية المُزَينة بالزُّهور على النَّواصي، واللَّافتات والأبسطة التي تُزيِّن بيوت النُّبلاء. وبعد ذلك العرض العسكري في الممشى الجديد، ووليُّ العهد دون فرناندو، مُحاطًا بكاردينال تورتوسا وأُسقف سرقسطة، يتبعهم حَمَلة الأختام، وفرسانٌ، وخدمٌ وحاملو الصَّولجان. بُحَّ صوت العامة بالهتاف بحياة الملك عندما ظهر دون كارلوس على الطَّريق المرصوف، بمفرده، متأنِّقًا، سائرًا على إيقاع الطبول، والجواهر المُتدلية من حلته تلمع تحت شمس نوفمبر. تسبقه فرقةٌ من عازفي الأبواق والطبول ويحميه من الخلف خمسمائةٌ من حاملي البنادق، وأربعمائةٌ من الألمان ومائة من الإسبان، ويتبعهم موكب شقيقته، دونيا

ليونور، ترافقها نساء الحاشية اللَّاتي يصحبهن النُّبلاء. ولمنع المغازلة، تقوم فرقةٌ من حاملي الرِّماح بالدَّوران فوق الجياد بينما تهتف بحياة قشتالة والملك. دونيا كاتالينا، امرأةٌ سريعة التَّأثُّر، بدأت في الارتعاش تحت الدِّثار وعندما لاحظت دونيا جابريللا تَأثُّرها، انتقلت بالحديث إلى الفيل الكبير الموجود في ساحة السُّوق لإبهاج الأطفال والكبار.

في اليوم التَّالي، من دون أسباب واضحةٍ، ساءت حالة دونيا كاتالينا. وزادت عليها الحُمَّى، وأقَرَّ الدُّكتور ألمانيرا أن الأَمْر قد يَتعلَّق بحُمَّى النُّفاس، وبهدف كسْبِ الوقت، أمرَ الحلاَّق الحجّام جاسبار لاجونا، الذي قام يومًا بإعادة الحياة إلى رئيس المحكمة العليا الذي كان في حالةٍ حرجةٍ، أن يقوم بحِجامة المريضة، وهي المُهمّة التي أدَّاها بمهارةٍ مثيرةٍ للإعجاب. لكن، ولاستمرار دونيا كاتالينا على الحال نفسه في اليوم التَّالي، فتح دون فرانثيسكو ألمانيرا بابًا آخر للأمل باللُّجوء إلى التِّرياق النَّفِيس:

- «يجب إعطاؤها إياه. لا يوجد علاجٌ آخر».

أحنت القابلة رَأسَها موافقةً. دون برناردو، صاغرًا، بحث عن بعض العُملات في جيب سترته من أجْل الدَّواء. لكن الدُّكتور، عندما لاحظ حركته، أخبره أن الأَمْر يتعلَّق بدواءٍ غالٍ. استفسر سالثيدو: «غالٍ إلى أيِّ حَدٍّ؟». حدَّد الدُّكتور: «اثنا عشر دوكادو[1]». انفجر دون برناردو: «اثنا عشر دوكاوا!». وشرح الدُّكتور سبب غلاء السِّعر: «ضَعْ في اعتبارك أنه يُصنع في البندقية فقط، ويدخل في إعداد الوصفة أكثر من خمسين مادةٍ مختلفةٍ.

بينما كانت موديستا تهبط في طريقها إلى دكان كوستوديو، سمعت مرور جيادٍ في الشَّارع، وتلاها عاش الملك وصخب حاملي المَطَارِد[2]

(1) عملة ذهبية.

(2) جمع مَطرد، وهو سلاح يجمع بين الرمح والفأس.

السَّائرين على إيقاع الطبول. فجأة، وكأن سوبرانو يَردُّ على الصَّوت الجهير للباريتون في عَرْضٍ، دوَّت صلصلة جرسٍ صغيرٍ وسط الرَّعد العسكري. رفع دون برناردو ستار النَّافذة. كان قد أوصى بقدَّاس (الجراح الخمس) في دير سان بابلو من أجل صحة المريضة و(مَسحة المريض) إن ساءت الأمور. عن يمينه رأى الأب إرناندو قادمًا بالكأس مُغطَّاة، وإلى جانبه فتى معاون يهزّ الجرس. النَّاس كانت تغرس رُكَبها في الأرض لدى مروره، وعندما ينهضون ينفضون الغبار بقوَّةٍ عن السَّراويل أو العباءات. في السُّلَّم أصبح جرس المعاون أكثر حِدّةً، وصخبًا وحضورًا. اقترب دون برناردو من الأب إرناندو:

- «المسحة كافيةٌ يا أبتِ، لم تعد تدري».

بينما كان الكاهن يبدأ صلواته، سقطت ذقن دونيا كاتالينا على صدرها وظلَّتْ بلا حركةٍ، مفتوحة الفم. تقدم الدُّكتور نحوها، أمسك معصمها ووضع اليد ذات الزُّمردة على القلب. التفت إلى الحاضرين وقال:

- «لقد ماتت».

بعد ربع ساعةٍ، كانت موديستا، بالترياق النَّفيس في يدها، تتعثَّر بخوان دوينياس في مدخل البيت. قال خوان دوينياس بأسى:

- «السَّيِّدة دونيا كاتالينا ماتت».

انفلتت صرخةٌ من موديستا، ثم صعدت السَّلالم ببطءٍ، مُعتمدةً على الدرابزين. كان الموتى يثيرون رعبها وتتطلَّع إلى تأجيل دخولها للبيت. عَبْرَ الباب نصف المفتوح لمحت دون برناردو، وأخاه، وبلاسا والزَّميلة الجديدة يُغيِّرون ترتيب الأثاث في الرَّدهة، لجَعْلِ المكان أفسح. بعد دقائق قليلة بدأت النَّائحات في الوصول وأقاموا مَصْلى الوداع في المكتب. انتهزت موديستا لحظة الارتباك لكي تصل إلى المطبخ. مينرفينا مُنغمسة

في البكاء، جالسةً فوق مقعدٍ بلا ظهر، كانت تُرضعُ الطِّفلَ حديث الولادة، بينما كانت بلاسا الطاهية تقوم بإشعال النَّار، هادئةً، باللَّامبالاة المعهودة في الأشخاص الذين عاشوا كثيرًا، المُنتزَعين مُبكِّرًا من موطنهم. شاركت موديستا في المهام المنزلية. وقامت بتسليم الدَّواء للسَّيِّد. غمغم دون برناردو: «اثنا عشر دوكاو أُلقِيتْ في الشَّارع». وقالت هي بصوتٍ غير مسموعٍ: «آسفة يا سيِّد برناردو؛ ليمنحك الرَّبُّ الصِّحة لترعى رُوحَها».

لكن بدأت جلبة الزِّيارات، والنِّداءات على الباب، والزُّهور، وكانت تُلبَّى من دون تأخيرٍ. كان النَّاس يأتون في مجموعاتٍ صغيرةٍ ويدخلون إلى الصَّالة حيث يستقبلهما دون برناردو وشقيقه. في إحدى المرَّات، أثناء عبورها أمام باب المكتب المفتوح، نظرت خلسةً ولمحت السَّيِّدة فوق مائدةٍ، العينين والفم مُغلقين، شاحبةً، لا مُباليةً وهادئةً. لم تتوقَّف الزِّيارات طوال الظهيرة. كانوا يصلون برؤوسٍ منكسةٍ ويخرجون مُتَخفِّفين، وقد أدوا واجبًا مؤلمًا. تصل باقات زهورٍ فتَحملها موديستا حتَّى المكتب بعينين شبه مُغمَضتين. يرعبها أن تعود لرؤية السَّيِّدة مرَّةً أخرى. بجانب الجثَّة، كانت دونيا جابريللا، صهرة الرَّاحلة، تقود الصَّلوات الجماعية. ومع حلول اللَّيل، عندما رحل الأصدقاء وظلَّا بمفردهما، جلس دون برناردو وشقيقه، مُنَفِّذ الوصية، مُتَجاورَين عِندَ قدمَيِّ الرَّاحلة، كما كان التَّقليد العائليّ القديم، لقراءة رغباتها في الوصيَّة. كرغبةٍ أولى، كانت دونيا كاتالينا تريد أن تُدفن في ساحة دير سان بابلو، لا في داخل الكنيسة. إذ بسبب الدَّفن فيها، توجد داخلها روائحٌ كريهةٌ «تَقضِي على ورعها». اثنتا عشرة امرأة، شابَّاتٍ وفقيراتٍ يُرافقنها إلى مثواها الأخير، أزياؤهن من اللَّونين الأزرق والأبيض، بشمعةٍ مشتعلةٍ في اليد. سيقوم دون برناردو بمنح كُلٍّ منهنّ ريالًا فضيًا مُقَابل صُحبتها. الدَّفن يجب أن يتم بعد قدَّاس جنازةٍ في الكنيسة ذاتها، وتتبعه، في أيامٍ متتاليةٍ، تسعة قداديس يتلوها

شمامسةٌ ومساعدو شمامسةٍ، وقداديس أخرى في كُلِّ مَعبَدٍ بالمدينة في اليوم الثامن لموتها. دون برناردو كان يقرأ هذه الوصايا بصوتٍ متهدِّجٍ، لا لحزنه، وإنما لدرايته بسخاء دونيا كاتالينا الذي كان يخشى أن يتبدّى في كُلِّ خطوةٍ. واختنق صوته المرتعش تمامًا عندما أمرت الرَّاحلة، بخَطِهِا الدَّقيق المعهود، من دون إمكانيةٍ لتفسيراتٍ أخرى، بِوَقفٍ لصالحِ دِير سان بابلو، على أن يكون ريعه ألفين وستمائة وخمسين مارافيدي[1] سنويًا على الأقل. عندما استطاع في النِّهاية أن يقرأ هذا، توقَّف دون برناردو، ونظر إلى شقيقه من فوق الورقة وقال بنبرةٍ اجتهد في تهذيبها:

- «كاتالينا وُلِدَت لتُصبحَ أميرةً».

فكَّر في متجر الحيِّ اليهوديِّ، وفي أراضيه في بدروسا، وفي المُستأجِر بنيامين، ثم أضاف:

- «وَقْفٌ كهذا لن يقلَّ عن ثلاثين فدانًا».

شقيقه إجناثيو، المستشار بالمحكمة العليا، الأشقر، قصير الشَّعر، والأَمرد، شَعَرَ بالضيق، قلَّص أنفه كأنه يشمُّ رائحةً كريهةً وقال:

- «هذا فَرْضٌ. ويُمكِنك دفْع هذا الوقف وأكثر».

كانت علاقةٌ وثيقةٌ تجمع دائمًا بين الشَّقيقين. شديدي الاختلاف فيما بينهما، خاصَّةً في تقدير المال. تناقشا تحت قدمَيْ الجُثَّة، وسط رائحة الزُّهور المسبِّبة للدُّوار، ونعت دون برناردو زوجته بأن (يدها مثقوبة)، لكن دون إجناثيو أنهى النِّقاش بلباقةٍ، مُوضِّحًا لشقيقه أن اللَّحظة غير مناسبةٍ لإطلاق مثل هذه الأحكام.

في الصَّباح التَّالي تقدَّم برناردو وإجناثيو سالثيدو جنازة الرَّاحلة، بالجثمان المُثبَّت بالحبال، والمُستقرِ في العربة التي يقودها خوان

(1) عملة إسبانية تعود لتلك الفترة.

دوينياس. اثنتا عشرة فتاةٍ، طفلات تقريبًا، بوجوهٍ ملائكيةٍ، ومُتشحات بالأزرق والأبيض، كُنَّ يُرافقن العربة، ويُرتِّلن أنشوداتٍ دينيةً بأصواتٍ أنفيةٍ. اصطففن بعد ذلك في البهو الرَّئيسيّ للكنيسة، مُحيطَاتٍ بالجثَّة، ووجوههنَّ الصَّغيرة كانت تنتقصُ من صرامة المراسم. بعد ذلك، وارى رُفات دونيا كاتالينا بوستامانتي الثَّرى في السَّاحة واصطفَّ المرافقون أمام الشَّقيقين، يَشدُّون على أيديهما، ويُقبّلون وجهيهما أو يُوجِّهون كلمات السَّلوى. بعد انتهاء العزاء، وأمام تأثُّر الأصدقاء، قام الأرمل الشَّاب بتوزيع الاثني عشر ريالًا فضيًا المذكورة في الوصية على شابَّات الموكب.

بعد العودةِ إلى البيت، قامت دونيا جابريللا، برفقة الشَّقيقين، بالمرورِ على غرفة الكَيِّ لرؤية الصَّغير ثيبريانو حيث بدا نائمًا، وأمامه ذرفت دمعتين غَضبًا عَنْها. على العكس، كان دون برناردو بجانبها، يتأمَّل الرَّضيع بوجهٍ جامدٍ. علَّقت الشَّابَّة مينرفينا أنشوطةً سوداء من التافتا على رَأسِ الفِرَاش الصَّغير. عَيْنا دون برناردو امتَلأتا بالقسوة. وغمغم:

- «فيم يُمْكن أن يُفكِّر الصَّغير قاتل أمه أثناء نومه؟».

أَمسك دون إجناثيو بكتفه.

- «من فضلك، يا برناردو، لا تهذي هكذا. الرَّبُّ يُمْكن أن يعاقبك».

حرَّك دون برناردو رَأسَه من جانبٍ إلى آخر وانتحب:

- «أما زال هناك عقابٌ أكبر مما أعاني؟».

II

شهد بيت شارع سان بابلو ترتيبًا جديدًا بعد موت دونيا كاتالينا. انضمّ الطِّفل ثيبريانو لحياة الخدم في الغُرف الخشبية بالطابق العلويِّ، بينما ظَلَّ دون برناردو قاطن وسيِّد الطابق الأوَّل، بلا جديدٍ سوى تغيير مكان (الحرم الزَّوجي)، الذي تمَّ نقله الآن، حيث لم يعد حَرَمًا، إلى مكتبه.

كما كان مُتوقَّعًا، لصِغرِ سنه، عاش الطِّفل مُلتصقًا بمرضعته؛ منها كان يرضع كُلَّ ثلاث ساعاتٍ، ومعها كان يمضي اليوم ثاغيًا في غرفة الكَي، ومعها كان ينام في إحدى الغُرف العلوية الحقيرة ، بجانب السُّلَّم. على العكس، لم يشهد الطابق السُّفليُّ أيَّ تغييرٍ. خوان دوينياس، الخادم، ظَلَّ يعيش هناك، في غرفته الصَّغيرة لِصق الاصطبل، مع الجوادَين والبغلتين والعربة الصَّغيرة.

لَمْ تعنِ أيٌّ من هذه المستجدات تغيُّرًا جوهريًا في حياة دون برناردو سالثيدو رغم أنه ظاهريًا دخل في مرحلةٍ من السَّلبية الانهزامية. فتوقَّف عن الذهاب إلى متجر الصُّوف، في الحيِّ اليهوديِّ القديم، ونسيَ تمامًا بنيامين مارتين، مستأجره في بدروسا. وتوقَّف أيضًا عن الذهاب في منتصف اليوم، مع أصدقائه، إلى حانة داماسو جارابيتو والاستمتاع بنبيذِه الأبيض الفاخر. بالفعل، أمضى السَّيِّد سالثيدو بضعة أيامٍ جالسًا في مقعدٍ أمام خصاص

النَّافذة، مُشاهدًا كيف يَطلع الضَّوء ويغيب. لم يكن يتحرَّك تقريبًا حتَّى تُنبِّهه موديستا إلى الطَّعام، وحينئذ، ينهض من المقعد من دون رغبةٍ ويجلس إلى المائدة. لكنه لم يكن يأكل، كان يكتفي بتلويث الطَّبق لكي يخدع نفسه، وأيضًا لكي يُثير قلق الخدم. داخليًا، كان قد حدَّد أسبوعًا للحداد، لكنه وصل إلى درجةٍ من التَّماهي المُطلق بعد سبعة أيامٍ، حتَّى إنه بدأ يستمتع بنعيم الشَّفقة. منذ طفولته، قام دون برناردو سالثيدو بفرض إرادته على أبويه. كان صبيًا متسلِّطًا لا يقبل أوامر من أيِّ نوعٍ. هكذا نشأ، وبعد زواجه، أخضع زوجته دونيا كاتالينا لنظامٍ صارمٍ في الحياة الزَّوجية دائمًا. ربما لهذا كان يعاني الآن، لأنه كان يفتقد شَخصًا يأتمر بأمرِه، ويمارس عليه سلطته. وموديستا، الخادمة، عندما كانت تقدِّم له الوجبات، كانت تفصح عن ألمها بدمعتيْن. ذات يومٍ لم تستطعْ التَّحكم في نَفسِها ولامته قَائلة: «لا تهمل ذاتك. لن تجني من وراء هذا سوى المتاعب». هذه الكلمات البسيطة جعلت دون برناردو يرى أن في العالم مُتَعًا أخرى خَفِيَّةً، بالإضافة إلى ما يبعثه التَّسلُّط: استدرار الشَّفقة، وإثارة العطف. التَّذرُّع بشعورٍ من الألم شديد القوَّة، لم يعرفه أيُّ شخصٍ في العالم، كانت طريقةً أخرى للشعور بالأهمية. هكذا أصبح أستاذًا في هذا الفن، أستاذًا في التَّصنُّع. كان يمضي اليوم أمام المرآة دَارِسًا خلجاتٍ وتعبيراتٍ تُفصحُ عن ألمه. التَّباهي بالألم أصبح هدفه، وكما كان يصطنع الامتناع عن الطَّعام أمام موديستا، كان يُؤكِّد أنه هجر النَّوم ويشكو لياليه الطوال مُستيقظًا لا يغمض له جَفنٌ، بأرقه الذي لا علاج له. لكن في الحقيقة، عندما يغرق البيت في الظَّلام والصَّمت، كان دون برناردو يُشعل مِصباحًا ويبحث في الخزانة والدولاب عن طعامٍ شَهيّ يُعوِّض به حِميته النهارية الخاضعة لملاحظةٍ صارمةٍ. بعد ذلك، كان ينتقل من مكانٍ لآخرٍ، مُسَبِّبًا الضجيج عمدًا لكي يوقظ الخدم ويُؤكِّد على استيقاظه. وهكذا أخذت الشَّفقة بالأرمل الشَّاب في الانتشار.

انتقلت من الخدم إلى شقيقه وصهرته، دون إجناثيو ودونيا جابريلا، ومن دون إجناثيو إلى ديونيسيو مانريكي مدير المتجر، ومن مدير المتجر إلى إستاثيو ديل بابيه، الوكيل في البارامو، ومن إستاثيو ديل بابيه إلى الوكلاء الآخرين في الهضبة وإلى أصدقائه في حانة داماسو جارابيتو. دون برناردو لا يأكل، ولا ينام، لم يكنْ يفعل شيئًا آخر سوى إعطاء بعض التَّعليمات كُلَّ صباحٍ لخادمه خوان دوينياس، والحديث خلال ساعتين في الظهيرة مع شقيقه المستشار. المُستجد الوحيد في الأسبوعين الأولين للأرمل كان سَيْرُه في الصَّالة. مسيراتٍ وقورًا، من دون هدفٍ، كلَّما تعب من الجلوس في المقعد. كان مُعتادًا على النُّهوض بشكلٍ آليّ كُلَّ نصف ساعةٍ، فيقطع البهو في خطى واسعةٍ، عيناه في الأرض، واليدان خلف ظهره، وتفكيره مشغول بطريقة تطوّره كمُمثلٍ. لاحظت مينرفينا شيئًا صادمًا مُتعلقًا بهذه التمشيات: ما إن يأخذ السَّيِّد في الحركة وتبدأ خطواته في الرَّنين على الأرض الخشبية، حتَّى يستيقظ الطِّفل ثيبريانو. ويحدث الأمْر ذاته عندما يصعد دون برناردو للطَّابق العلوي، لا لكي يرى الطِّفل وإنما لكي تراه الفتاة مهمومًا باكيًا. لكن يبدو أن الصَّغير كان يلحظ في نظرته الحادة فوق جفنيه شعورًا مزعجًا بالاقتحام، لأنه كان يستيقظ في الحال، فيمدُّ عنقه الصَّغير المُجَّعد كسلحفاةٍ، ويفتح عينيه، ويمسح الغُرفة بنظرته مُديرًا رَأسه ببطءٍ، ثم يأخذ في البكاء.

كانت مينرفينا تشعر بالضيق من صعود السَّيِّد إلى الطابق العلويِّ من دون تنبيهٍ، ومن النظر للطفل بتلكما العينين المُحتقنتين، الباردتين، المُحمَّلتين بالعتاب. كانت تقول: «الطِّفل لا يحبُّه يا سيدة بلاسا، علينا فحسب أن نرى كيف ينظر له». كلَّما صعد السَّيِّد سالثيدو ليراه أثناء نومه، يظلُّ الطِّفل مُتوتِّرًا بقيَّة اليوم، يصرخ ويبكي من آنٍ لآخر من دون أيِّ سببٍ. كانت الأمور واضحةً لمينرفينا: الولد يبكي لأن أباه يخيفه، عينيه تُفزعانه،

وحِداده، وحزنه الكئيب. وما إن يحلَّ الظَّلام، في ساعة الاستحمام، تُطلِع مينرفينا زميلاتها على المستجدات، بينما يلعب الطِّفل في حوض الاستحمام الدَّائريِّ المعدنيِّ، يقذف الماء بيديه الصَّغيرتين، وكلما ضغطت المُربِّيَةُ الإسفنجةَ فوق عينيه وسالت خطوط الماء على خدَّيه، كان يَشعُرُ بالاختناق والسَّعادة. بعد الانتهاء من الحمَّام، كانت تضعه فوق فوطةٍ، في حِجرِها، تُعطرِّه بعنايةٍ وتُلبسُه ثيابه. في تلك اللَّحظات، أمام جسد ثيبريانو الورديِّ، عندما كنَّ يتحدَّثن في ما بينهن عن حجمه، تعترضُ بلاسا، مرَّةً بعد أخرى، كان الطِّفل ضئيلًا لكنه لم يكن نحيفًا، فبدلًا من العظام كانت لديه أشواكٌ، مثل الأسماك.

حُزن دون برناردو المُصطنَع، ونَأيه الحقيقيُّ عن الصَّغير كانا يؤكِّدان كُلَّ يومٍ على التَّقارب العاطفيِّ مع الفتاة. كانت مينرفينا تستمع برؤية نَهَمِ الطِّفل عندما يمتصُّ حلمتيها الورديتين، وبحركات يديه، وثغائه غير المفهوم، وتَعَلُّقه الشديد بها. عندما تحمل الطِّفل في ذراعيها، كانت تفكِّر أحيانًا أن ابنها لم يمت، وأنه يستلقي آمنًا في حِجرِها، وأنها يجب أن ترعاه.

كانت تقول لنفسها في الحال: «بلهاء! كنت أُفكِّر أنه طفلي».

وباستثناءِ العناية الدَّائمة بالوليد والتَّعليقات التي يُثيرها، الشَّيء الوحيد الذي كسر الرَّتابة اليومية في تلك الفترة كانت الزِّيارات المسائية لدون إجناثيو ودونيا جابريلا. جمال وأناقة الأخيرة كانا يخلُبان لُبَّا موديستا ومينرفينا، ورونق ملابسها كان يُبهرهما. لا تُكرِّر لبس الرِّداء نفسه، وفي كُلِّ ملابسها نزعة واضحة لتحديد خط النَّهدين وليونة الخصر. التَّنُّورات الفرنسية، والعباءات الحريرية المُطرَّزة المفتوحة، الأكمام المنتفخة التي تشُف عن النَّسيج الأبيض للقميص، كلها كانت تُتيح للفتاتين أسبابًا للحوار. بالإضافة إلى هذا، هناك خطوات دونيا جابريلا، واثقةٌ ورشيقةٌ، خفيفةٌ، كأن جسدها ينعم بميزة الطَّفو، ولا يتأثَّر بالجاذبية. مُهتَّمةً بحال

الصَّغير، كانت موديستا ومينرفينا ترافقنها كلَّما صعدت إلى الطابق العلوي لرؤيته. لم تعلِّق دونيا جابريلا مطلقًا على حجم الطِّفل، كانت تحبُّه هكذا، كانت مُتأثِّرةً بِيتْمه، ومُستعينةً بحيلٍ وأحابيلٍ، كانت تحاول التَّكهُن بمشاعر والده تجاهه. كانت تستاءُ كلَّما أخبرتها مينرفينا بجفائه وبدت على وشك الإغماء يوم أخبرتها أنه أطلق على الوليد (الصَّغير قاتل أمه). نظرًا لنفور صهرها من ابنه، وبعد التَّأكد من جَذْبِ زواجها، ذات ظهيرةٍ هادئةٍ حميميةٍ، تلت ترمُّل دون برناردو، عرَضت دونيا جابريلا بشهامة وبصوتٍ مرتعش من فرط التأثر، اقتراحًا على صهرها. عرضت التَّكفُّل بالوليد، من دون أوراقٍ ولا التزامٍ بالتَّبني، اقترحت العناية به فقط، حتَّى يصل إلى عمرٍ مناسبٍ يحدِّده والده. طرفت عينا دون برناردو مرَّتين حتَّى لاحظ بهما دفءَ دمعةٍ وقال بحزم: «الطِّفل طفلي؛ وهذا هو بيته». بلباقةٍ أوضحت له دونيا جابريلا أن الطِّفل، بدلًا من التَّخفيف عنه، سوف يثير لديه ذكريات مُعذِّبة، وأقرَّ دون برناردو أن هذا ما يحدث بالفعل، لكن هذا ليس سببًا للتَّخفُّف من واجباته كأب. كانت عيناه تلمعان، وكان يطرف بجفنيه لكي يوحي بالمعاناة، لكن دون إجناثيو المُنتبه دوما لتعبيرات شقيقه الحزينة، حدَّثه بطريقةٍ حصيفةٍ عن ملاءمة توفير (أم بديلة) للصَّغير، مرتبطةً به عائليًا. وهو ما رَدَّ عليه شقيقه، أنه من دون الحاجة لأواصر، فإن الشَّابَّة مينرفينا، بنهديها الصَّغيرين الغزيرين وحنوّها، تقوم بهذا الدَّور على أكمل وجهٍ. لم يشهد الاختلاف الأخويُّ توتُّرًا أو كلماتٍ غير مناسبةٍ. ببساطةٍ أجاب دون برناردو بالنَّفيِّ.

في بعض الأُمسية، خلال زيارة شقيقه، يلتزم الأرمل بالصَّمت، كأنه مُنوَّمٌ مغناطيسيًا، ناظرًا عَبْرَ النَّافذة المعتمة. كان أحد مشاهده المعتادة، لكن شقيقه شعر بالقلق، فكان يسأله عن أمورٍ، ويحكي له ترهاتٍ لكي يُخرجه من عدميته. كان دون برناردو يسعَد بقلق دون إجناثيو، الشَّقيق

المثقَّف، فخر العائلة. السَّعادة بالشَّفقة عليه كان يشعر بها بشكلٍ خاصٍ من شقيقه، رقم واحد، الحصيف.

غير مُدركٍ تظاهر شقيقه، ظَلَّ دون إجناثيو قلقًا بشأن التغيُّرات عند برناردو. «يجب أن تُحدِّد لنفسِك هدفًا يا برناردو»، كان يقول له «شيءٌ يشتِّت انتباهك، ويبتلعك. لا يُمْكن أن تعيش هكذا، معقود الذِّراعين، بهذا الحزن مُسيطرًا عليك». دون برناردو كان يرُدُّ بأن الأمور تسير بمفردها، ويجب أن نتركها وحالها؛ إن سِرَّ الحياة يكمن في جعْلِ الأمور تسير وترْكها بعد ذلك لكي تتقدَّم بإيقاعها الخاص. لكن إجناثيو يجادل بأنه ترك المتجر مُهمَلًا، وأن ديونيسيو مانريكى يفتقد القدرات لكي يحلَّ محلَّه. وأمرٌ شبيهٌ حدث مع بنيامين مارتين، المُستأجر في بدروسا، الذي يجب أن يزورَه، على الأقل لكي يُنفِّذ وصية دونيا كاتالينا بالوقف. لكن دون برناردو، في البداية، لم يكن يستمع لنصائح شقيقه. وفقط بعد عدة أشهر، عندما بدأ يملُّ من دوره كأرملٍ غارقٍ في الحزن، وافتقد نبيذ حانة جارابيتو، أقرَّ بأن متعة الشَّفقة لا تكْفي لملءِ حياته. حينئذ أخذ يبدو أكثر تجاوبًا ومرونةً مع شقيقه، الذي وصل من جانبه إلى قناعة أن حدثًا غير مُنتَظرٍ أو صدمةً فقط، يُمْكن أن يُخرجا دون برناردو من اكتئابه. وحدثت الهزَّةُ، في هيئة رسالةٍ عاجلةٍ، ذات ظهيرةٍ، بينما كان دون إجناثيو يقوم كالعادة بتحفيز شقيقه على أن يُغيِّر حياته. جاء البريد من بورجوس، كان الأَمْرُ يتعلَّق برسالةٍ من دون نيستور مالويندا، التَّاجر الشَّهير في بورجوس، الذي قام يومًا بإهداء زوجته مِقعد وضْعٍ، يا لها من ذكرياتٍ مريرةٍ. بالنِّسبة لدون برناردو الذي يَكُنُّ للتاجر تقديرًا واحترامًا، كانت هذه الرِّسالة التي تُعلِمُه بخروج أسطول الصُّوف من بيلباو، تَعني خبرًا مُحَرِّرًا. كان الصُّوف مُخزَّنًا في الحيِّ اليهوديِّ منذ شهر أغسطس، وكل صوف قشتالة – باستثناء بورجوس وشقوبية – كان يتعفَّن هناك من دون أن يأخذ أيَّ قرارٍ. رَدَّ حاملَ الرِّسالة بأخرى لدون

نيستور مالويندا، يعتذر فيها عن التَّأخير، ويُعلمه أن القافلة القشتالية سوف تنطلق نحو بورجوس في الثَّاني من مارس، وأنهم سوف يقطعون الرِّحلة في ثلاثة أيام، من دون راحةٍ، وأنه سوف يقود القافلة بنفْسِه.

في الصَّباح التَّالي تعاقد مع أرخيميرو روديثيو على خمس قوافل جَرٍّ، كُلٌّ منها من ثمانية بِغالٍ، وخمس عربات نقلٍ كبيرةٍ، تنطلق في اليوم الثَّاني من مارس. كما نَبَّهَ على ديونيسيو مانريكي وخوان دوينياس أن يستعدّا للرِّحلة، وهو بنفْسِه سوف يقود العربةَ الأولى. لم يقم بهذا سوى مرَّةٍ واحدةٍ طوال حياته، لكنه الآن يدين لدون نيستور بخدمة. من جانبٍ آخر، كان يستشعر أن قيادة ثمانية بغالٍ بخطواتٍ واسعةٍ، سوف تمنحه الاسترخاء الجسديَّ الذي يحتاجه. هكذا، في فجر يوم 2 مارس، بعد تحميل لفَّات الصُّوف، ارتدى دون برناردو ملابس السَّفر، مع قُبَّعةٍ ومِعطفٍ، وعَبَرَ الجسر الكبير، مُتقدِّمًا القافلة. بعده يسير ديونيسيو، المسؤول عن المتجر، بعربةٍ أخرى تَجرّها ثمانية بغالٍ، وسائقان بذيئان تعاقد معهما، وفي آخر القافلةَ المخلصُ خوان دوينياس، الذي درَّبه دون برناردو سالثيدو على أكثر الأعمال تنوُّعًا.

ما إن أصبحوا في الطَّريق المليء بالوحل والعثرات، قام دون برناردو بجَلْدِ البغلين الأوَّلين بالسَّوط، مُجبِرًا العديد من الفرسان والسَّائقين والعربات، القادمين من الاتِّجاه المعاكس، على الابتعاد مفزوعين خارج الطَّريق لكي يتركوه يعبر. بغلا القيادة في عربة سالثيدو كانا مِلكَه، ألاثانا وموريسكا، وكانا يستجيبان لصياحه وضربات سوطه، راكضَين بقفزاتٍ واسعةٍ ركضًا متواصلًا، فكان يبدو للقادمين في المواجهة هجومًا كاسحًا لفرقة فرسانٍ. دون برناندو المسالم الهادئ عادة، أخذ شيئًا فشيئًا في الانفعال، وبدأ يضرب الحيوانات من دون شفقةٍ، وبهذا أَشرَقَتْ الشَّمس عليهم في قريةٍ بالقرب من كوهوركوس. قام بِتغيير أربعة بِغالٍ في خان

(مورال) وأربعة أخرى في نُزُلِ (بيامانكو)، حيث نام اللَّيلة الثَّانية. روفينو، صاحب الفندق، كان معرفة قديمة، فاستقبله بترحابه القروي وسأله: «أين تذهب حضرتك بكُلِّ هذه السُّرعة؟ البِغَالُ مُثخنةٌ بالجراح». ابتسم دون برناردو نِصفَ ابتسامةٍ هادئةٍ، وقال: «كُلٌّ منَّا مُجبرٌ على أداء واجبه يا روفينو. البغلان القائدان مِلكِي، لا تشغل بالك».

مُتَحرِّرًا من تصنُّعه، نام فورًا من دون قلق لأول مرَّةٍ منذ وقوعِ المأساة. لكن في الصَّباح التَّالي، ورغم أن رَأسه كان شديد اليقظة، كانت كُلُّ عظام جسده تؤلمه. عزا هذا لاهتزاز العربة وتأثير حفر الطريق العميقة عليه، والتَّمايل بسبب السُّرعة. وبهذه الطَّريقة، في اليوم الثَّالث، قَبْلَ غروب الشَّمس، كانت القافلة تدخل مدينة بورجوس من بوَّابة كاريتاس. لقوَّة الصَّليل وأصوات السَّائقين وقف المشاة على جوانب الشَّوارع لكي يروهم يمرُّون. عجلات العربات وحدوات البغال، التي كانت تُطلق شررًا على الأرض المرصوفة بالحجر، أصدرت قعقعةً مرعبةً: قافلة سالثيدو تأخَّرت هذا العام، علَّق أحد المواطنين. أمام دير (لاس أويلجاس) ينهض المخزن الضخم لنيستور مالونيدا، الذي كان يستقبل صوف نصف إسبانيا في قافلتين سنويتين. ديونيسيو مانريكي وخوان دوينياس ظَلَّا بجانب العربات لمراقبة التَّفريغ، بينما كان دون برناردو سالثيدو يحجز غرفةً في خان بدرو لواثيس، حيث أقام دائمًا، ويبحث عن ملابس في أفخر محال المدينة من أجل العشاء.

استقبله دون نيستور مالونيدا بترحابٍ. حضور دون نيستور، شديد التَّهذيب، شديد الرُّقي، شديد الثقة بنفسه، كان يكبح دون برناردو دائمًا، كان يقول: «أجد نَفْسي أكثر طلاقةً في حضور الأمير بينما لا أكون كذلك في حضورِ نيستور مالويندا». كُلُّ شيءٍ في العجوز كان يفرض نَفْسَه: ثروتُه، وقامته الطَّويلة المديدة رغم العمر، والوجنتان الشَّاحبتان الحليقتان بعنايةٍ

شديدةٍ، وذلك الشَّعر القصير على طريقة فلاندرز، والعباءة فوق الملابس، وفتحة الصَّدر المربَّعة التي تكشف عن القميص والصَّدرية ذات الفتحات التي تُشبِه طعنات السِّكين، والتي ستصبح موضةً بعد عام. كالعادة، أظهر دون نيستور ترحابًا، وأطلعه على آخر مقتنياته: المِرآة الكبيرة ذات الإطار الذَّهبيِّ في الردهة، وصندوقين من فينيسيا، مُتقابلين بشكلٍ فنِّي في الصَّالون. كان دون برناردو يطأ السِّجاد بورعٍ، وبورع كان يُعجب بالسَّتائر السَّميكة، التي تصِلُ حتَّى الأرض، وتحجبُ النَّوافذ. الأصوات تصبح أكثر مخمليةً تلقائيًّا في قصرٍ ستائره بمثل هذه الفخامة. جزع دون نيستور عندما أخبره دون برناردو أن زوجته قد توفِّيت، وأن الوفاة وتوابعها، كانتا سبب تأخُّره. وقال بعينين دامعتين:

- «كان ابني الأوَّل».

- «هل مات أيضًا؟».

- «الطِّفل؟ لا يا دون نيستور. الطِّفل حيٌّ، لكن بأيِّ ثمنٍ!».

بشكلٍ حتميٍ، طُرِحَ موضوع مِقعَد الوضع، واعترف دون برناردو بكفاءته رغم الذكريات الحزينة.

- «الطِّفل كان محشورًا، لكن المِقعد الفلامنكي سَهَّل خروجه. للأسف لم يستطِع المقعد منْعَ حُمَّى دونيا كاتالينا ولا وفاتها اللَّاحقة».

كان قد أجلسه بين حاملَيْ شموعٍ، ودون نيستور يطرف بعينيه شاعرًا بالضيق، متأسِّفًا من أن المقعد الفلامنكي لم يمكنه منع المأساة. لكن كتاجرٍ ماهرٍ وجد المخرج المناسب في الحال:

- «كُلُّ ما تُخبرني به مؤلمٌ يا صديقي سالثيدو، لكن الرَّبَّ، صاحب البصيرة، أوجد علاجًا لكُلِّ مَآسي هذه الحياة. الرَّجل لا يمكنه أن يعيش من دون امرأةٍ، وإن نظرنا للأمر بدقةٍ، فالمرأة بالنِّسبة للرَّجل ليست سوى شيءٍ يُمْكن استبداله، قطعة غِيارٍ. يجب أن تتزوَّج مرَّةً أخرى».

امتنَّ دون برناردو لهذا الحوار الحميميّ مع التَّاجر القشتالي الكبير، لكنه كان يعذّبه، ويوتّره، فقال بألمٍ:

- «سيقول الزَّمن كلمته يا دون نستور».

- «ولِمَ لا نكسب الزَّمن؟ الحياة قصيرةٌ، والانتظار ليس الطَّريق المناسب؛ لا نمتلك رفاهية عَقْد ذراعينا، ها أنت تراني، ثلاث زيجات في ثلاثين عامًا، ولم تَضْنِنْ عليَّ أيٌّ من النِّساء الثلاث بالذرية. تجارة الصُّوف مع فلاندز مُؤَمَّنَةٌ لثلاثة أجيال».

من دون ترتيبٍ، طرأت على ذهن سالثيدو موضوعاتٌ عدة: مشكلة ذريّته، اختبار الثوم المهين، وصية دونيا كاتالينا، لكنه قال بصوتٍ مكتومٍ:

- «أخشى أنني رجلٌ لامرأةٍ واحدةٍ، يا دون نيستور».

عندما يبتسم، كان وجه دون نيستور يمتلئ بالتَّجاعيد. وعندما تتحرَّك طبقة الماكياج يهرم عشر سنواتٍ.

- «لا يوجد رجلٌ لامرأةٍ واحدةٍ، يا صديقي العزيز. هذه مغالطةٌ. خاصَّةً عندما يوجد مجالٌ للاختيار. في بورجوس عُرِضَ مَهرٌ قدره مائة ألف دوكادو الشَّهر الماضي. الكثير من الثروات الكبيرة بدأت هكذا، بزواج مصلحةٍ».

أخفض دون برناردو عينيه. فبعد شهورٍ من الحبس والعزلة، جاء هذا الحوار في مسكنٍ شديدِ الفخامة، مع مُحاورٍ حكيمٍ وحصيفٍ، وبدا له حُلمًا:

- «سأفكِّر في الأَمرِ يا دون نيستور. سأفكِّر في هذا. وإن غيَّرت رأيي يومًا، سآتي لأستشيرك، أَعِدُك بهذا».

قدَّم له دون نيستور كأسًا من نبيذ رويدا، وشكر له إحضاره الجلود بنفسه، قال دون برناردو بشيءٍ من المباهاة: «وفّرنا يومًا». بعد ذلك أسرَّ له

السَّيِّد مالويندا أن العام الحاليَّ استثنائيٌّ، فالبغال تقطع الطَّريق إلى بيلباو في صفوفٍ من اثني عشر أو خمسة عشر بغلًا، وأن أكثر من سبعين ألف حُزْمةٍ يجب أن تكون في أرصفة موانئ إقليم الباسك. وأنه في هذا العام تمَّت الاستعانة بأكثر من ثمانين ألف بغلةٍ، وهو أمْرٌ لم يحدث في قشتالة منذ العام 1509. كان فمه يمتلئ بأرقامٍ كبيرةٍ واختتم أطروحته الاقتصادية بحماقةٍ:

- «اليوم، يا سالثيدو، أنا في وضعٍ يُمكِّنني من إقراض العرش».

كانا جالسين على طرفيّ المائدة الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز، ينظر كُلٌّ منهما للآخر مثل صندوقَيْ فينسيا في الصَّالون. فكَّر دون برناردو أنه، رغم زواجه ثلاث مَرَّاتٍ، لم يتعرَّف أبدًا إلى أيّ من زوجات دون نيستور. فكَّر أنهن مجرد قطع غيار. لم يُشركهنَّ أبدًا في اجتماعاته التِّجارية. برأيه أن المرأة يجب أن ترافق الرَّجل في اللِّقاءات الاجتماعية فقط، هذه هي وظيفتها. قدَّم لهما خادمٌ زنجيٌّ حساءَ الدِّيك. اندهش دون برناردو عندما لاحظ لونه، لكنه لم يقل شيئًا حتَّى خرج الخادم. حينئذ لم يتكلَّم، لكنه نظر مُستفسرًا إلى مضيفه. فأجاب بمنتهى الأريحيَّة:

- «داميان. إنه عبدٌ من موزمبيق. أهداني إيَّاه كونت ريبادابيا منذ خمسة أعوامٍ. كان بإمكانه إهدائي موريسكي، لكن فعله ذلك كان سيبدو ابتذالًا. أسديت له معروفًا كبيرًا، لا تليق به هديةٌ تافهةٌ. اليوم، عَبدٌ من موزمبيق يُعتبر ترفًا في بيوت الأرستقراطية. قمت بتعميده في الخامسة عشر، واليوم يقوم بخدمتي بولاءٍ نموذجيّ».

كان دون برناردو يشعر بالضآلة مع مرور الوقت. فمعروضات دون نيستور لا يُمْكن أن تكون أكثر إبهارًا لبرجوازيّ بسيطٍ مثله. ربما يُمْكن مقارنة ثروة دون نيستور بثروة كونت بينابنته. وللمال أهميةٌ كبيرةٌ لدى دون برناردو. بعد حساء الدِّيك، قام الخادم بتقديم أسماك (ترويت) ونبيذٍ ممتازٍ

من بوردو. كان يتحرَّك في صمتٍ، لا يترك الأطباق الفضية تُلامس أدوات المائدة ، ولا كؤوس كريستال بوهيميا تلامس حافَّة الدَّورق. كان العبد يسير مثل شبحٍ، يرفع ساقيه عاليًا لكي يتفادى احتكاك خفيه مع البساط. خلال غيابه، أكمل دون نيستور حكايته، وما ينتويه تجاهه:

- «إنه كسولٌ ومراوغٌ، لكنه مخلصٌ. اخترته كمحلٍّ ثقتي لكن بقيَّة الخدم يغارون منه. بالنِّسبة لي، هو عضوٌ آخر في العائلة يا سالثيدو. رغم أنه أسود إلا أن روحه بيضاء مثلنا، قابلة للخلاص. لم أسمح له بالزَّواج حتَّى الآن. تخيَّل فحلًا مثله مطلق السَّراح في هذه الصَّالونات. أمرٌ مقززٌ. لكن، نعم، عندما يكمل أربعين عامًا سأعتقه. ستكون طريقةً للتَّعبير عن الامتنان لخدماته».

الرِّحلة إلى بورجوس، والسَّهرة مع دون نيستور مالويندا، كانتا لهما أثرٌ طيبٌ للغاية على السَّيِّد سالثيدو. نسي إهماله، وتصنُّعه، وتخلَّص في النِّهاية من جثَّة دونيا كاتالينا. وفور عودته إلى بيته، من دون أن يخلع السَّراويل ذات الأزرار المعقودة أو المِعطف من جلد الشَّاه، صعد إلى الطَّابق العلويِّ، حيث ينام ثيبريانو وظلَّ واقفًا عند أقدام الفِرَاش الصَّغير، ناظرًا له بثباتٍ. استيقظ الصَّغير كالعادة، فَتح عينيه وظلَّ ينظر إلى أبيه مفزوعًا من دون أن يطرف. لكن على العكس مما كان متوقعًا، لم يغيِّر دون برناردو من موقفه إزاء نظرته الرَّقيقة. قال مرَّةً أخرى بصوتٍ خفيضٍ:

- «ماذا يُدبِّر قاتل أُمِّه؟».

نظرته كانت جليديَّة وهذه المرة لم يقم الطِّفل بمدٍّ عنقه كالسُّلحفاة وتفحُّص الأفق. بل اندفع في البكاء بحرارةٍ. في عجالةٍ، بجسدها اللَّين متمايلًا، هرعت المرضعة مينرفينا. قالت بينما تحمل الطِّفل في ذراعيها وتداعبه:

- «لقد أفزعته حضرتك».

أوضح دون برناردو أن طفلًا، ذكرًا، عمره شهور، يجب أن يبدي صلابةً ومقاومةً أكثر. بعْد ذلك، ظلَّ ناظرًا إلى جسد الفتاة الجميل مع الطِّفل بين ذراعيها، وقال شيئًا كان سيدهش دون نيستور مالويندا:

- «كيف يُمْكن يا ابنتي، بهذا الوجه شديد الحسن، وهذا الجسد السَّامق، أن تَقُومي بعملٍ شديد الابتذال مثْل إرْضَاع وليدٍ؟».

شعر دون برناردو سالثيدو بالخجل من جسارته. في الظَّهيرة، عانقه شقيقه، المستشار إجنائيو، بفرحٍ كأنه عائدٌ من بلاد الهند الغربية[1]. وجد دون برناردو مختلفًا، مستعدًا لالتهام العالم. بالفعل، بفضل الرِّحلة إلى بورجوس، دخل دون برناردو في مرحلة استشفاءٍ محمومةٍ. بعد أسبوعٍ، في عيد الماشية في (ريو سيكو)، قام بإحدى المهام التي كانت مؤجَّلَةً منذ العام 16 من القرن: الصُّعود إلى البارامو، زيارة (توروثوس) وإعادة ترتيب الوكالات. في الحقيقة، كانت كُلُّ ماشية الصُّوف في بلد الوليد قد رُحِّلت إلى هناك. حول المدينة لا توجد أعشابٌ، وحقول الخضراوات كانت تحتلُّ الأراضي المتاخمة، وتليها حقول العنب والحبوب. لم يتبقَّ سوى الأراضي المرتفعة، حيث تتجاور المراعي مع جبال البلُّوط. مجلس المدينة كان يتطلَّع إلى حصْرِ حقِّ الرَّعيِ في المروج على ماشية الصُّوف والماعز، مع وجود ذَكَرٍ واحدٍ فقط لكُلِّ قطيع. «لأن الأغنام كانت تفقد الأهمية وتضايق الجميع»، كانوا يقولون هذا. لكن بعد ذلك، كان الرُّعاة وصانعو المعاطف يتصارعون على لحومها وجلودها. كُلُّ شيءٍ كان مفيدًا في ذلك الحيوان الغبيِّ الوديع، أيّ أن أهميته كانت أكبر مما ينسبها له المجلس. وعندما أصدرت البلديَّة قرارًا بمنع رعي القطعان أقرب من

(1) إشارة إلى الأراضي والأقاليم التي بدأ اكتشافها عام 1492 في العالم الجديد.

فرسخين في محيط بالمدينة، أصبح انتقالها إلى البارامو أمرًا لا مفرَّ منه ونهائيًا. حينئذ لم تحتل فقط أراضي توروثوس، تخوم بينيافلور، ريو سيكو، ماثاريجوس، توريلوباتون، بامبا، ثيجوينيلا، بيانوبلا وغيرها، وإنما وَجَبَ تأجير مراعٍ أبعدٍ، في أراضٍ مثل بيالاباندو وبينابينتي.

كان دون برناردو سالثيدو يعرف خطَّ السَّير عن ظهرِ قلبٍ. في طريقه إلى ريو سيكو كان يُفكِّر في النُّزُل والخانات وبيوت الضِّيافة وبيوت الأرامل التي تنتظره في الرِّحلة. خطرت على ذهنه الأرملة «بيبكا» في كاسترودينا، حيث كان ينام في سريرٍ حديديّ بحشيَّتين ووسادتين، وتُقدِّم له ثلاث وجباتٍ في اليوم وتعتني بالحصان مقابل ثمانية (مارابيدي). طبيعة الرِّحلة كانت تجبره على تغيير الفِرَاش كُلَّ ليلةٍ وعلى السَّير فرسخين أو ثلاثةٍ كُلَّ يومٍ. كان دون برناردو يتوقَّع الانتهاء من الطواف بالبارموا، من الشَّرق إلى الغرب خلال أسبوعين، لكي يهبط بعد ذلك إلى لا بيجا المواجهة لـتورو، ويتوقَّف في بيدروسا حيث يمتلك ضيعته. كان يُفكِّر في وكلائه بينما يتنفَّس الهواء النَّقي في أعلى المنحدر، عندما لمح أول البيوت الحجرية في بيانوبلا. على يمينه، من دون تغيير الطَّريق، كان بيت ضيافة فلورنثيو الذي استقبله، كما كان مُعتادًا، بتهذيبٍ وكلماتٍ قليلةٍ. الاقتصاد في الكلام كان ميزةً شهيرةً في أبناء البارامو. أحيانًا كان يتحدَّث حول هؤلاء الرِّجال مع شقيقه إجناثيو، وكانا يصلان إلى استنتاجاتٍ تميل إلى الإيجابيَّة: رجال توروثو كانوا خشنين، قليلي الكلام، وعنيدين لكنهم مجتهدون وأُولو عَزْمٍ. في بيانوبلا، باستثناء نصف دستةٍ من السُّكَّان الذين يقومون بمهنٍ مُحدَّدةٍ، كان الباقون يَعيشون على الزِّراعة: قلَّةٌ من أصحاب الأملاك، ودستةٌ من الفلاحين ذوي الحيازات البسيطة، وعمَّال يعيشون على أعمالٍ مؤقَّتةٍ. عموما كانوا أناسًا معوزين فقراء، يقطنون أكواخًا من الآجر العاري، من دون بلاطٍ، على الأرض الطينية.

توقَّف دون برناردو في نُزُل لورينثو وأمضى الظهيرة في الحديث مع إستاثيو ديل بابيه، وكيله في البارامو. الأمور لم تكن سيئةً، أو لم تكن بسوءِ العام السَّابق. قطعان المنطقة زادت إلى ألف ومائتَي نعجةٍ، وأعشاب الموسم الأخير كانت مُرضِيةً. هاجر اثنان من الرُّعاة وتم استبدالهما بأجيرين غير خبيرين، ورغم هذا كانا ماهرين في جَزِّ الصُّوف. أمْرٌ يُعوِّض الآخر. الأمْرُ الوحيد الخطِر في هذه المنطقة هو النُّزوع للهجرة بين العمَّال الذين لا يمتلكون أراضٍ، فيبقون بلا عملٍ خلال شتاء الهضبة الطَّويل، أو يقومون بأعمالٍ موقتةٍ، بسيطة الأجر. بالتَّفكير على المدى البعيد، بيانوبلا قد تُصبح مشكلةً في الغد إن استمرَّت الهجرة بالوتيرة الحالية نفسها. حياة المعوزين، المجبرين على طعامٍ قوامه البقول والخنزير، تبدو رتيبةً، غير صحِّيَّةٍ، تدفع للتَّوحُّش. إستاثيو ديل بابيه، من أصحاب الأملاك البسيطة، من دون طموحاتٍ، بسرواله من الخيش وخفِّه، كان يكشف عن تميُّزٍ في مظهره، مقارنة بالفتيان الذين يعبرون الشَّوارع الموحلة، حفاة، بسراويل قذرةٍ حتَّى الرُّكبة. هذا كان قَدَرَ الرِّجال في البارامو، حيث يُحدَّد التَّميُّزُ الطَّبقيُّ بناءً على ربلة السَّاق: عارية أو بسروال خيشٍ أو بسروالٍ بأزرارٍ مثل الرُّعاة.

غادر دون برناردو بيانوبلا في اليوم التَّالي. الحياة في أعماق الهضبة لم تكن فيها خَيارات كثيرة، ورغم هذا، وجد معرض ريو سيكو في حالةٍ غيْر عاديةٍ من النَّشاط. لم تكن في القرية مستجدَّاتٌ مهمةٌ، باستثناء النُّموِّ، مقارنة ببقيَّة قُرى البارامو. حجم القطعان يتزايد وقصَّاصو الصُّوف كانوا يعدّون أدواتهم من أجل شهر يونيو. المخزون من الخشب والعشب كان جيدًا، وأمضى السَّيِّد سالثيدو ليلةً هادئةً، رغم البراغيث، في خان إيفنثيو رجليرو.

حملت له الرِّحلة في البارامو بعض المفاجآت. إحداها إيجابيَّة: نموُّ القطعان في بينيافلور دي أورنيخا، حيث تجاوزت رقم العشرة آلاف

رَأسٍ. واثنتين سلبيَّتين: الأرملة بييكا ماتت، وإرناندو إثيبث، وكيله في توريلوباتون، أُصِيب بالشَّلل، ورغم أن حلاَّق بيلانوبلا قام بحجامته مرَّتين، إلا أنه لم يتعافَ، وكان هناك، بلا نفعٍ، جالسًا طوال اليوم على مقعدٍ من الخوص في صحن داره. إرناندو إثيبث، بلا أملاك، وكان ينهمر بالبكاء بينما يزوِّده بالأسماء والعناوين لمن يمكِنهم أن يحلُّوا محلَّه.

كما كان دون برناردو سالثيدو يُخطِّط، غادر البارامو مع بداية شهر مايو عَبْر طريق تورو. كان يومًا دافئًا. الشَّمس ساطعةٌ، والجداجد تصرصر على حافتَّي الطَّريق. سقطت أمطار الخريف والرَّبيع بانتظامٍ ما يبشِّر بغلالٍ وفيرةٍ. كما كانت الأفرع مثقلةً بالعناقيد، وإن لم تقسُ عليها الشَّمس، فسوف ينضج العنب على مهل. وبخلاف العام الأخير، يُمْكن جمْع حصادٍ جيدٍ. من فوق منحدرات لافولوتا، ميَّزَ سالثيدو هضبة بيكادو، وفي سفحها قرية بدروسا، بين حقول العنب، على يسار الكنيسة. اليوم كان صحوًا، ومن موتا ديل نينو يُمْكن رؤية ضفاف دويرو، بأشجار الحور والحور الأسود، وخلفها الأخضر الدَّاكن لأشجار الصنوبر، ومنه الصنوبر الحلبيُّ والصنوبر الأسود، المزروعة في الأراضي الرَّمليَّة في بدايات القرن.

عَبَرَ دون برناردو بجوار تَلٍّ فيه طبقاتٌ من الجير المتكلِّس، وجرى أرنبان مفزوعان للاختباء في الجُحرِ. كان المُستأجر، بنيامين، ينتظره. كان رجلًا سمينًا، مثْل كُلِّ أبناء المنطقة تقريبًا، ومثل أبنائه، أصلَعَ مبكرًا، بتقاطيعٍ غليظةٍ شديدة التَّميُّز، كأنه زنجيٌّ، حتَّى أن السَّيِّد سالثيدو يُمكِنه التَّعرُّف عليه وسط ألفِ رجل. السُّترة من النسيج الخشن، والسِّروال من الخيش السَّميك حتَّى منتصف السَّاقين القصيرتين المشعرتين. كان هذا زيّه الدَّائم الذي لا يتبدَّل. كان بنيامين أحد الرِّجال القلائل الذين يُفضِّلون أن يبدوا أقلَّ من حقيقتهم في فترة التَّباهي تلك. دخلُه ووضْعُه الاجتماعيٌّ

كمُستأجرٍ، وكرَجلٍ يَعتمد عليه عمل الأجراء، يمنحانه حقًّا في مظهرٍ خارجيّ مختلفٍ، كان هو وعائلته يحتقرونه. كُلٌّ من لوكرثيا زوجته وأبنائه مارتين وأنطونيو وخوداس تاديو، يرتدون أرديةً وستراتٍ بنيَّةً، تم ترقيعها مرَّةً بعد الأخرى، حيث قامت لوكرثيا بملئِها بالغُرز أكثر من نسَّاجي شقوبية. أكَّد بنيامين لدون برناردو على البشائر الطَّيِّبة: القمح والشَّعير ينموان بشكلٍ جيدٍ. ورغم أن أيَّ حُكمٍ على الكرْم سابقٌ لأوانه، لكن إن لم يحدث أيُّ أمْرٍ طارئٍ، فسوف يزيد محصول العنب بمقدار الخُمس على العام السَّابق. لوثيرو، جواد دون برناردو، كان يصهل نافد الصَّبر على باب البيت الفقير. وفي الدَّاخل، في الصَّحن، حيث يتحدَّثان، كان الجو رطبًا ومعبقًا برائحة الحلبة. كان دون برناردو جالسًا على الأريكة، وبنيامين على مقعد ثلاثيِّ القوائم بجانب الصُّندوق حيث تحتفظ لوكرثيا بالملاءات والبياضات بين أعشابٍ معطَّرةٍ. كان بيت بنيامين بسيطًا. يحوي أثاثًا قليلًا، خاليًا من أيِّ زينةٍ، ولهذا كانوا يحافظون بعنايةٍ شديدةٍ على بساطٍ برسوم تُمثِّل ميلاد السَّيِّد المسيح وعلى النَّاموسية المنقوشة التي كان ينام تحتها مع زوجته منذ خمسةٍ وعشرين عامًا.

هو وابنه البكر مارتين كانا يوحيان بالتَّقشُّف ذاته عندما رافقاه للتَّفتيش على الأراضي. كان هو ممتطيًا بغلًا هزيلًا، بحاشيةٍ بدلًا من السَّرج، وابنه يمتطي حمارًا حقيرًا محنيَ الظَّهر. لاحظ دون برناردو أن بنيامين قام باستبدال الشَّعير بعرائش كرْمٍ جديدةٍ خلْف التَّلِّ: «إن العنب هو ما يُربحنا يا دون برناردو، يجب أن نكون واقعيِّين»، قال له هذا كتفسيرٍ جامعٍ مانعٍ. لكن السَّيِّد سالثيدو كان مهتَّمًا بالتَّعرُّف على المناطق الأكثر جدبًا في ممتلكاته، التي تعطي أقَلَّ محصولٍ: «المحيطة بلامامبلا»، أجابه بنيامين، من دون تردُّدٍ. والآن كانوا يجوبون ممرَّات هذه العرائش، ذات المظهر الطَّيِّب، التي يُمْكن تقدير شحِّها وقت عصر العنب فقط. «هل هذه

هي أقلُّها إنتاجًا؟»، ألحَّ دون برنادرو. قال الآخر: «من دون شكٍّ يا سيد سالثيدو، أقلُّها محصولًا وعصيرها أقلُّ مذاقًا؛ لا أحد يعرف السَّبب».

فقط أثناء عودتهم، قام دون برناردو، وهو فوق جواده، بإخبار بنيامين مارتين، وابنه البِكْر مارتين مارتين، أن دونيا كاتالينا ماتت. تجمَّد بنيامين فوق بغله، رفع القبعة عن رَأسه ورسم الصَّليب أمام وجهه. «فليمنحك الرَّبُّ الصِّحَّة لكي ترعى روحها»، قال بصوتٍ خفيضٍ، بينما الفتى مارتين مارتين، كان خجله أكثر من تألُّمه، فاكتفى بخفض رَأسه.

قدَّمت له السَّيِّدة لوكرثيا الطَّعام في المطبخ، على مائدةٍ من الصّنوبر، وقد جلسوا على أريكةٍ خشبيةٍ أمام الخزانة المليئة بالأواني والأوعية، بقِدرين عميقين مليئين بالماء على كُلِّ جانب. بعد كُلِّ غيابٍ طويلٍ، تقوم لوكرثيا بالاحتفاء به بهذه الطَّريقة، تعدُّ له الطَّعام من دون إخباره، ومن دون دعوةٍ مسبقةٍ. أصبح أمْرًا معهودًا، وعندما جلس دون برناردو إلى المائدة، كان بنيامين، مُعتمدًا على الثقة، يأكل بالفعل. كان يمضغ بقوَّةٍ، وكُلَّ ثماني أو عشر لقمات يحمل يده إلى فمه ويتجشَّأ من دون حرجٍ. بين التَّجشؤ والآخر، يستعرض المُستجدَّات، خاصَّة تلك التي تؤثِّر على ماليَّته. الأجور ترتفع من دون تَوقُّف. اليوم لا يتحرَّك أحد جامعي العنب بأقلّ من عشرين مارافيدي، ولا يُمْكن العثور على عاملٍ بأقل من أربعين، ولا مُشَذِّبٍ بأقلّ من ستين. في هذا الصَّدد، الأحوال سيئة. وما زاد الطِّين بلَّةً، أن المحصول الأخير جاء شحيحًا، وبالتَّالي، وكما يعرف دون برناردو، لم يقم بدفع إيجار عيد الفصح. أوضح له دون برناردو أن انتكاسات الزِّراعة تؤثِّر عليه كما تؤثِّر على المُستأجر، وأن التَّأخّر في دفع الإيجار أبعدُ ما يكون عن الحلّ: «سينتهي بك الحال في يد المرابين، يا بنيامين»، أصدر حكمه مُشيرًا بسبَّابته. لكن بنيامين كان يحتفظ بالأمْر المهم لما بعد الطَّعام، بعد أن أخذ نبيذ تورو القويّ في التَّأثير. رغم حياته البدائيَّة كان بنيامين ذكيًا، وبدلًا من الدُّخول

مباشرة في موضوع استبدال الثِّيران بالبغال، بدأ الحوار بشكلٍ عرضيّ، مُشككًا في إراحة الأرض من الزَّرع، والتي وصفها بالطَّريقة القديمة وغير المُجديةِ. دون برناردو، الذي كانت معارفه ضحلةً بالزِّراعة، كان يُعوِّض جهله بخبرة مُحاوريه في حانة جارابيتو، في شارع أوراتيس، فردَّ بالقول إنه لتجديد وتهوية التُّربة، توجد حاجةٌ لمزروعٍ آخر، القمح الصَّلب، على سبيل المثال، والذي لم يكن مُعتادًا في قشتالة. المستأجر كان ينظر لدون برناردو فاغرًا فيه، وردَّ بأن المخصِّبات العضويَّة كانت مُفضَّلةً على تغيير المحصول، وأنهم في تورو يقومون باستخدام المُخصِّبات منذ عامَّين، ونتيجتها أفضل من تغيير المحصول. مارتين مارتين، الجرو الذي تمَّت تربيته على الخضوع، كان يؤيِّد أباه بنظرته، لكن دون برناردو، الذي كان يضيق ذرعًا بكذب الأب والابن، سألهما إن كان من الممكن معرفة أين يتمُّ الحصول على سمادٍ عضويّ في تورو، حيث إن الشَّيء الوحيد المتوفِّر في قشتالة هي النِّعاج، وما تحتاجه الحقول هو الرَّوث، وليس فضلات الأغنام الضَّئيلة، والرَّوث القليل المتوفِّر يتم استخدامه في حقول الخضراوات. اتَّبع الحوار المجرى الذي أراده بنيامين، الذي استشهد بالسِّماد العضويّ، وأوضح أن الطُّرق الحديثة في الزِّراعة، تقوم باستبدال الثَّور بالبغل، لأن الأخير يأكل أقلَّ، وهو أنحف وأكثر خفةً وأسرع، خاصَّةً في الحرث. دون برناردو الذي كان يشعر بثقل الحوار والنَّبيذ الأحمر، ردَّ بأن البغل حيوان يفتقد للقوَّة ولا يكاد ينبش الأرض، ما يجعل عمله عديم الفائدة، بينما الثَّور بسبب قوته، يقوم بحرث تجاويفٍ أعمق، وهو ما يجعل البذور أكثر تحمُّلًا. وردًّا على هذا، جادل المستأجر بأن الثَّور يأكل أكثر، وأن العلف الذي يتغذَّى عليه صعب المنال وغالي الثَّمن، لكن دون برناردو، بدلًا من الاستسلام، حاول أن يوضِّح له أن تدهور الزِّراعة في أماكنَ أخرى بإسبانيا سببه بالفعل استبدال الثور بالبغل. بنيامين مارتين، الأكثر عمليةً،

أشار إلى أن اثنين فقط من الفلاحين في بيانوبلا ما زالا يستخدمان الثِّيران في الحرث. لكن دون برناردو، المُحقُّ إلى حدٍّ كبيرٍ، تساءل حول المثال، إن لم تكن بيانوبلا القرية الوحيدة المتدهورة في البارامو. لم يُقرّ المستأجر بهذا، لكنه أشار إلى صعوبةٍ جديدةٍ: التَّقسيم المبالغ فيه للأرض كان يتطلَّب نقلًا سريعًا للنير، ومن الثيران يُمْكن انتظار كُلَّ شيءٍ عدا السُّرعة. الدَّوارق بنبيذ تورو الدَّاكن أخذت تفرُغ فوق المائدة، ودون برناردو، المتَّكئ على سطحها، بأذنين حمراوين ونظرة تائهة، وصل في النِّهاية لحلٍ حكيمٍ: يُمْكن التَّجريب؛ المستحدثات تتطلَّب التَّجربة. هكذا تتطوَّر العلوم. على سبيل المثَّال، يُمْكن تغيير ثورَي أحد المَقارِن[1]، والإبقاء على الآخرين. الكفاءة والزَّمن سيتحدَّثان. البذور ستقول إن كانت سرعة وطعام البغال تُعادل العمل الجيد للثَّور، أو أن الثور، على العكس، لا يزال مُتفوِّقًا على الفضائل المنسوبة للبغل.

دون برناردو كان مُتعبًا. فطوال أيامٍ كثيرةٍ غرق في مناقشاتٍ تافهةٍ، والمناقشات التَّافهة كانت أكثر ما يرهقه. من جانبٍ آخر، كان المحاورون الأُمِّيُّون يُخرجونه عن طوره. كان الوقت ليلًا تقريبًا عندما غادر بيت المُستأجرين برَأسٍ مُثقلٍ وغائمٍ. القرية كانت تغرق شيئًا فشيئًا في الظَّلام وأمسك السَّيِّد سالثيدو بلجام لوثيرو وقاده حتَّى بيت أرملة باروكيه، حيث فكَّر في قضاء ليلته كالعادة. الشَّارع خالٍ من الحياة، وخرجت الأرملة إلى باب الشَّارع بقنديلٍ في يدها. تركا لوثيرو في الحظيرة وسألته إن كان سيتناول العشاء. دون برناردو كان يُفضِّل ألا يتعشَّى. الغداء المُكوَّن من لحوم الخنزير والفاصوليا الدَّاكنة أصابه بالتُّخمة؛ وتركه ممتلئًا. عندما خَلَعَ ثيابه المُتَّسخة وتمدَّد عاريًا

---

(1) جمع مقرن وهي خشبة تربط إلى ثيران الحرث.

على الملاءات المكوية، تنهَّد مستمتعًا. كانا أسبوعين من تغيير الطَّعام والإقامة كُلَّ يومٍ في مكان مختلف.

في الصَّباح الباكر دفع للأرملة وعَبْرَ الطَّريق المُختصر لـ (بيبيرو)، خرج إلى طريق ثامورا. قفز أرنبٌ بريٌّ من حقول العنب، وجرى مائة مترٍ متعرِّجًا أمام الجواد. بعد ذلك وخز دون برناردو الحصان، وبخببٍ قصيرٍ اتَّجه إلى توردِيسياس. شخصيَّته المنظَّمة الرُّوتينيَّة لم تجعله يُغيِّر طريقه. لثوانٍ فكَّر في ابنه، وفي مظهر مينرفينا حاملةً إياه بين ذراعيها. ابتسم. بعد أن تجاوز توردِيسياس نغز لوثيرو وعَبْرَ أراضي بيامارثيل وثيريا، وحاذى سيمانكاس، عَبَرَ النَّهر على الجسر الرومانيّ، وفي منتصف النَّهار كان يدخل بلد الوليد من بوَّابة كامبو، تاركًا ماخور المدينة على يمينه.

III

من دون أن يلحظ، وجد دون برناردو نَفْسَه مُنغمسًا مرَّةً أخرى في حياته العادية. قبْل شهورٍ وصل إلى التَّفكير أنه يُمْكن أن يموت من الملل، لكن الآن، كأنها كانت عاصفة كاذبةً، فكَّر أن مخاوفه كانت مُبالغةً. تجاوز حالة دخوله الاكتئاب، كما كان يُطلق بِتباهٍ على شهور شروده. وهكذا عاد ليمسك بلجام بيته وتجارته. في الصَّباح، بعد الإفطار الشَّهيِّ الغزير الذي تُقدِّمه موديستا، كان دون برناردو يتَّجه إلى المتجر في الحيِّ اليهوديِّ القديم، المتاخم للجسر الكبير، وهناك كان يلتقي بديونيسيو مانريكي، عامله الوفيِّ، الذي حدا به التَّفكير قبْل شهورٍ أن السَّيِّد سوف يموت ويجب إغلاق المتجر. تخيَّل نفْسَه من دون عملٍ، عاطلًا، متسولًا بين الأطفال الذين تغطِّيهم التَّقيُّحات ويملأون شوارع المدينة، شتاءً وصيفًا. الآن، فجأةً، من دون معرفة السَّبب، خرج السَّيِّد سالثيدو من كبوته، وعاد لتَحمُّل المسؤولية. الرِّحلة إلى بورجوس كانت البداية لبَعْثِه. كان يجلس في مكتب دون برناردو ذاته، على مائدةٍ موازيةٍ من خشب (سوريا[1])، وبكثيرٍ من الصُّعوبة، كان يتولَّى حسابات قوافل البغال التي تهبط من البارامو، ولفافات الأصواف المُخزَّنة في العنبر الشَّاسع في الحيِّ اليهوديِّ.

---

(1) مدينة إسبانية

«أتيلا»، الكلب الشَّرس الذي تلقَّاه كهديةٍ جروًا صغيرًا، كان يجري نابحًا بين السُّور والمبنى وينام بعينٍ مفتوحةٍ في مدخل بيته. كان كلبًا مرهف السَّمع، عنيفًا، ويقضي اللَّيالي، خاصَّةً المُكتملة القمر، عاويًا في العنبر. لم يُعرف أيُّ إفراطٍ قام به الكلب، لكن دون برناردو وتابعه الأمين ديونيسيو، كانا يفخران أن أحدًا لم يحمل لفافة صوفٍ منذ أن صار «أتيلا» يحرس المخزن.

كان مانريكى روح المتجر، بلا مساعدين سوى فيدريكو، فتى خالع العذار في الخامسة عشر، أبكمَ منذ ميلاده. المكتب، والمائدة، وواقي الذِّراع كانوا غطاءً لأكثر الأنشطة تنوعًا. من جانبٍ كان ديونيسيو يُدَوِّن كميات الصُّوف التي تخرج وتدخل، لكن من جانبٍ آخر، من تلقاء نَفْسِه، كان يقوم بالمعاونة بمهارةٍ في كُلِّ ما يلزم. على سبيل المثال، كان ديونيسيو يخرج مع فيدريكو إلى السَّاحة، المُوحلة دائمًا تقريبًا، كلَّما وصلت حمولةٌ، وبالاشتراك مع السَّائق، كانوا يُفرغون الأجولة من دون اللُّجوء لاستئجار الأجراء، حيث يقومون بتخزين الجلود بنظامٍ. كما كان ديونيسيو، مثلما حدث في الرِّحلة إلى بورجوس، يُسرع من دون تَرَدُّدٍ إلى أخْذِ المِعْطف والسَّوط ليقود بنفْسِه عربةً حتَّى مخازن دون نيستور مالويندا في لاس أويلجاس، أو إلى حيث تقتضي الحاجة. ما إن يبدأ عملًا لا يتذمَّر من أيِّ شيءٍ، يأكل على طاولة البيع مع السَّائقين أو ينام في الغُرَف الجماعيَّة في المخازن لكي يُوَّفر على سيِّده بعض العملات.

في التِّجارة الصَّغيرة التي يقوم بها دون برناردو مع مصنْع معاطف كاميلو دورادو، في شقوبية، كان مانريكى ذاته هو من يستأجر البغال ويقودها عَبْر الطُّرق الصَّخريَّة المُختصرة التي لا يعرفها سواه. دون برناردو، الذي كان على درايةٍ بتعدد مهارات ديونيسيو وتفانيه، كان يصف مرؤوسه بطريقةٍ خاصَّةٍ، لا تخلو من لمحة احتقارٍ، كرجلٍ يصلح لأداء أيِّ شيءٍ.

الأيَّام الأولى من الصَّيف كانت فترةً من الحركة المحمومة في المتجر. والنَّشاط الجامح الذي مارسه دون برناردو ساعَد على شفائه من التُّخمة لإفراطه في الطَّعام، شفاءٌ ساعد فيه من دون شكٍ الحجامة التي قام بها جاسبار لاجونا، الذي عالج ذات يومٍ زوجته من دون نجاحٍ. لكن سالثيدو لم يكن رجلًا يحمل ضغائن. كان يكره الإهمال ويحترم العمل المُتقَن حتَّى إن لم يُكتب له النَّجاح. لم يكن يفقد ثقته في الأشخاص الذين يُقدِّرهم لأنهم فشلوا ذات مرَّةٍ. كان دون برناردو ينطلق من قاعدة عدم الكمال البشريِّ، وهكذا، عندما طلب الحلاَّق-الجرَّاح، أظهر أنه لم يكن حانقًا عليه. لكن، في الوقت ذاته، استقبله بهذه الكلمات: «لنر إن كان حظُّنا أفضل من دونيا كاتالينا التي توجد في الأمجاد السَّماوية، أيها الصَّديق لاجونا. وهو ما أجبر الحلاَّق على الاجتهاد بكُلِّ علمه ومهارته».

في الثَّانية عشرة من منتصف اليوم يغادر دون برناردو المتجر. كانت أسابيع من الحَرِّ، والشَّوارع تمور بروائح القمامة والفضلات. الأطفال، بوجوهٍ مليئةٍ بالتَّقيُّحات والالتهابات، كانوا يخرجون في طريقه طالبين الإحسان، لكنه كان يتجاهلهم.

كان يُفكِّر: لديهم شقيقي، هل يوجد شخصٌ في بلد الوليد يعمل من أجل الآخرين أكثر من أخي إجناثيو؟ كان يسير متمهِّلًا، متفاديًا قنوات الصَّرف، متنبِّهًا إلى صيحة «احذر الماء» الصَّادرة من النَّوافذ، حتَّى يصل إلى حانة جارابيتو، في شارع أوراتيس، بالفرع الأخضر الذي لا غنى عنه بجانب اللاَّفتة، حيث اعتاد ثلاثة أو أربعة أصدقاء على اللِّقاء لتذوقِ النَّبيذ الأبيض من رويدا. أوَّل أيَّام ذهابه، بعد غيابه الطَّويل، عبَّروا له جميعًا عن افتقادهم له. كانوا من نوعيَّة الأصدقاء العابرين، غير حميمين، حضروا جنازة دونيا كاتالينا، كما يجب أن يكون، لكنهم لم يجرؤوا على وضْعِ قدمٍ في بيته. بالنِّسبة لدونيا كاتالينا كانوا رفاق اللَّهو، ولَمْ تكن تجد تعبيرًا أكثر

دقَّةً لوصفهم. لكن رفاق اللَّهو احتفلوا ببعض الأكواب بعودة دون برناردو إلى اللِّقاءات الصَّباحيَّة. حدَّثهم عن مروره بالاكتئاب، ورغم أن أحدًا منهم لم يكن يعرف ماهية هذا المرض، سألوه، بتكرارٍ معهودٍ في الثَّملين، كيف استطاع التَّخلُّص منه. دون برناردو، الموهوب بالفصاحة، نظر إلى مجموعة أصدقاء اللَّهو واحدًا تلو الآخر، وقدَّم لهم التَّفسير الذي أعدَّه في البيت قبل أسبوعين: لقد أشفاني بريدٌ عاجلٌ من بورجوس. ضحك الأصدقاء، وربَّتوا على ظهره، وأخبروا أصدقاء آخرين، واتَّفقوا جميعًا على أنه مع زقٍّ نبيذ لاسيكا، الذي انتهى داماسو جارابيتو من فتْحِه، سوف يكتمل شفاؤه.

هناك، في الحانة، كان دون برناردو يتخلَّى عن القواعد والتَّكَلُّف: يُقْسِم، ويطلق كلماتٍ بذيئة، ويضحك على قصصٍ ماجنة، فهذه التَّجاوزات كانت تُخفِّف عن روحه وتعدُّه لمواجهة مساء المدينة بروحٍ أفضل. أحيانًا كان يبحث أيضًا عن النَّصيحة في حانة جارابيتو، كما حدث مع تيوفيلو رولدان، من أصحاب الأراضي من توديلا، الذي كان يعبر نهر الدويرو مرَّتين أسبوعيًا برفقة جواده، في قارب هيريرا، لكي يعتني بضعيته. كان تيوفيلو رولدان يشرب من صحنٍ فخاريّ، لأنه يعتبر أن النَّبيذ الأبيض يفقد جزءًا كبيرًا من خواصه في زجاجٍ شفَّافٍ. استمع لحكاية دون برناردو عن مستأجره، وعندما سأله أيهما أفضل، أن يكون التأجير بحصَّةٍ من الحصاد أو بأجرٍ ثابتٍ، ردَّ عليه دون تيوفيلو، الذي يلهمه النَّبيذ، أن هذا يعتمد على الحصَّة. أبدى دون برناردو صراحةً تامةً: «لِنَقُلْ ثلث المحصول». ردّ دون تيوفيلو كان سريعًا، اندفع قبْل أن ينتهي دون برناردو من الكلام: «في توديلا نعطي أكثر». احمرَّ وجه سالثيدو قليلًا؛ فقد كان جلده ناعمًا ويظهر عليه التغيّر: «لا يُمْكننا أن نقارن. توديلا قريةٌ مزدهرةٌ بينما بدروسا فقيرة». بعد ذلك أشار إلى أن عائلةً يُمْكن أن تعيش بشكلٍ كريمٍ بالثلث في قريته، بل

وأن تصنع ثروةً، لكن هذا صعْب إن كان المستأجر أُمّيًا، لا يعرف الحساب ويتجشّأ طوال الوقت أمام سيِّده. وأضاف: «هذا يشبه إقناعه بالتَّخلُّص من فكرةٍ تمكَّنت من عقله المسكين». كان تيوفيلو رولدان يشرب من دون توقُّفٍ. وكان قد وصل إلى تلك النُّقطة الحالمة التي يفقد فيها الجسد ثقله ويشعر المرء أنه يطفو. سأل مُترنِّحًا: «أيُّ فكرةٍ؟ إلى أيِّ فكرةٍ تشير، يا سالثيدو؟». ردَّ دون برناردو: «أشير لإقناعه، من دون الحاجة لعملياتٍ حسابيَّةٍ، أن الثَّور في الحقل حيوانٌ أكثر ربحيةً من البغل». انحنى رولدان عليه حتَّى اصطدم برَأسه تقريبًا: «هل تفكِّر هكذا بالفعل؟». شعر دون برناردو بالحيرة وسأل: «أنت لا تفكر هكذا؟». رد دون تيوفيلو: «حسْب طبيعة العمل والأرض». دون برناردو، من دون أيِّ سببٍ، باستثناء زيادة وتيرة الشرب، بدأ يشعر بالتَّفاؤل. فجأة لم يعد يشغله الثَّور والبغل وربحيَّة أحدهما أو الآخر؛ فقط كان مُهتَّمًا بسماع صوته، أن يشعر بنفْسِه حيًّا وتذوُّقِ النَّبيذ الجيد من لاسيكا. قال: «أعمال حرثٍ. أشير إلى أعمال حرثٍ. البغل لا يحرث، وإنما ينبش، ويترك البذور لكي يأكلها الحمام والغربان». قال رولدان مُتلعثمًا بينما يضع يدًا على كتفه: «كُلُّ الطُّيور تأكل البذور». ابتسم دون برناردو نافيًا برَأسِه: «لكن، ليس دائمًا يا صديقي العزيز. الثَّور يفلح عميقًا ويحمي البذرة». عيْنا دون تيوفيلو أصبحتا عكرتين: «لـ.. لـ.. لكن، هل لديك السُّلطة الكافيةَ لتعطي أوامر للمُستأجر؟». أوضح السَّيِّد سالثيدو: «إنه يسمح لي بهذا. يتخلَّى لي عن سُلطاته بإرادته، لأنه لا يفهم في الأوراق».

انغمس دون برناردو ببهجةٍ في الحياة القديمة. كان يذهب يوميًّا إلى حانة شارع أوراتيس بجانب بيت المجانين، أو إلى أيِّ حانةٍ أخرى حيث يظهر فرعٌ أخضر بجانب لافتة المحل. كان لهذا مغزى. من دون اتِّفاق كان أصدقاء اللَّهو يتصادفون دائمًا في المحل الذي يفتح زِقًّا أو بِرميلًا في ذلك

اليوم. عادةً كان النَّبيذ يدخل المدينة من بوَّابة «الجسر الكبير» أو من بوَّابة «سانتياسبان»، قبْل مرور خمسة أشهر على تخميره كما كان معهوداً، ويتم تدوينه في سجلَّات الدُّخول لمعرفة كَمَّ الاستهلاك. النَّبيذ الأحمر يكون خفيفًا عادةً، غير مُكتمل الاختمار وقليل القيمة، لكن المُتذوِّق الجيِّد يَنتظر المفاجأة دائمًا.

بعد تناوله، كأصحاب ذائقةٍ مُجرِّبين، كانوا يُعلِّقون على فضائل ونقائص العصير الجديد. وقد ظهر صديق لهوٍ آخر، أَقلّ إقبالاً من الآخرين، كان سمع شيئاً عن مرض دون برناردو وسأله عن شفائه. سالثيدو، الذي كان يعتبر إجابته من أكثرها ألمعيَّةً في الأوقات الأخيرة، كان يأخذ في الضَّحك ويرُدُّ: «بريدٌ عاجلٌ من بورجوس قام بشفائيٍّ، رغم أنك لن تصَّدق هذا». وكان الصَّديق يضحك معه، ويربِّت على ظهره بحماسةٍ لأن النَّبيذ الجديد كان يحتوي على نسبة كحولٍ أعلى من المتوقَّع.

عند الساعة الثَّانية، يرجع دون برناردو إلى البيت بالمزاج الرَّائق الذي تمنحه حانة جارابيتو. اعتادت موديستا على الثَّرثرة بلطائف الطِّفل الجديدة بينما تُقدِّم له الطَّعام. لم تكن تفهم كيف يُمْكن لأبٍ أن يُبدي لا مبالاةٍ إزاء نموِّ ابنه، لكن الواقع أن سالثيدو لم يكد يسمعها، وكان يسأل نفْسَه ألف مرَّةٍ، ماذا يشعر في أعماقه نحو هذا الصَّغير. أثناء عودته من بدروسا تخيَّل دون برناردو أن مشاعره نحو الصَّغير تتأرجح بين الانجذاب والرَّفض. رغم هذا، في بعض الأوقات، كان يصعد إلى السَّطح، وعندما يرى ابنه يعترف أنه لم يشعر مطلقًا بالحب تجاهه. في أفضل الأحوال، مجرَّد فضولٍ، كعالِمِ أحياءٍ. حينئذ كان يُمْكنه أن يمضي سبعة أيامٍ من دون العودة للطَّابق العلويِّ. بعد أسبوعٍ يعود للشُّعور بهذا الانجذاب الغريب، الذي كان يُوجَد في خياله فقط، وكان يَدخل السطح فجأةً. مينرفينا تكوي أو تُبدِّل غيارات الطِّفل، بينما تصاحب حركتها بأغانٍ بصوتٍ خفيضٍ أو

كلماتٍ حنون. كان دون برناردو ينظر إلى الفتاة من دون تَوقُّفٍ: لديه قناعةٌ أن البقول والخنزير، الطَّعام الثَّابت للعوام، يُنتجان أشخاصًا عريضين قصيرين. لهذا تُدهِشه هذه الفتاة الطَّويلة النَّحيفة من سانتوبينيا. يَكتشف فيها كُلَّ يومٍ فتنةً جديدةً: العنق الطَّويل الرَّقيق، الثديين المكوَّرين النَّاهضين تحت الفستان الرَّديء، المؤخِّرة الصَّغيرة التي تنهض كلَّما انحت فوق مائدة الكيِّ. كلها جمال وتناسق. نوعٌ من التَّجلِّي. بعد شهرٍ أدرك أمرًا آخر: الطِّفل لم يكن يُثير فيه انجذابًا أو نفورًا، وإنما النفور فقط، أما الانجذاب فيعود إلى مينرفينا. حينئذ صحَّح ما قال لدون نيستور مالويندا، إنه لم يكن رجلًا لامرأةٍ واحدةٍ، وإنما لزوجةٍ واحدةٍ. مع مرور الوقت كانت أَبسْط غرائزه الشَّهوانيَّة تشتعل كلَّما رأى الفتاة. لكنها كانت تُبْدِي بروداً ولا مبالاةٍ إزاء نظراته، وأحيانًا عتابًا، حتَّى إنه لم يجرؤ على تجاوزِ التَّأمُّل. رغم هذا، ذات يومٍ قائظٍ في الصَّيف، اقترح على الفتاة أن تَنْزِل للنَّوم في الطَّابق الأوَّل، حيث كان الحرُّ أكثر احتمالًا قالت مينرفينا مُتحفِّظةٌ:

- «والطِّفل؟».

- «مع الطِّفل، بالطَّبع. أنصحك بهذا مُفكِّرًا في صحَّة الصَّغير».

نظرت إليه مينرفينا من فوقٍ إلى تحت بعينيها البنفسجيَّتين المُظلَّلتين برموشٍ كثيفةٍ، ثم نظرت إلى الطِّفل ورفضت برَأسها، لتؤكِّد رفْضَها بعد ذلك:

- «نحن هنا بحالٍ جيدةٍ يا سيِّدي».

منذ تلك العثرة الصِّبيانيَّة لم تفارق صورة المرضعة رَأسه. ومسحورًا بمفاتنها، كان يتجسَّس عليها نهارًا وليلًا. عارفًا أن الطِّفل يرضع كُلَّ ثلاث ساعاتٍ، كان يتوخَّى الاستعلام عن الرَّضعة الأخيرة لكي يفاجئها في التَّالية وهي مكشوفة الصَّدر. وكلَّما حاول ذلك كان يصعد السَّلالم على

أطراف قدميه، بِيدَين مُرتعشتين وقلب خفَّاق. لكن، إن سمعهما يضحكان ويلعبان في الغُرفة المجاورة قبْل أن يفتح الباب، كان يعود إلى الصَّالة. كما أن مينرفينا أصبحت تتوخَّى حذرها إزاء كثرة زياراته، لكن ذات مساءٍ، عندما لم تكن تنتظر، فاجأها عبْر فرجة بالباب والطِّفل في حِجْرها، الذراع الأيمن خارج الرِّداء والثدي الصَّغير الصَّلب النَّاهض، بحلمةٍ محمرةٍ، في انتظار أن يأخذها الصَّغير. يا إلهي، غمغم دون برناردو مأخوذاً بكُلِّ هذا الجمال، لاصقًا عينه بالشَّقِّ. قالت الفتاة:

- «ألا تُريدُه اليوم يا كَنزي؟».

وابتسمت بشفتيها النَّضرتين الممتلئتين. ونظرًا لعدم اهتمام الطِّفل أمسكت ثديها بإصبعين وداعبت فم الرَّضيع بطرف الحلمة، وبعد التَّحفيز المباشر، التقط الطفل الثدي بنهمٍ شديدٍ، مثل سمكة التروتة التي تمْسِك بالدُّودة التي يقدِّمها الصَّيَّاد في طرف الخيط. دون برناردو، لم يستطع كبْح لهاثه، ابتعد عن الباب وهبط السُّلَّم خائفًا من افتضاح أمْرِه. كرَّر المغامرة في الأيام التَّالية. ذِكرى ذلك الثَّدي المكشوف ببراءةٍ كانت تُحِيله مجنونًا. في المتجر لم يكن قادرًا على التَّركيز، كان قليل الإنجاز، يترك معظم المهام في يد مانريكي. بعد ذلك في حانة جارابيتو كان يَسْكَر من النَّبيذ الجديد، وعندما يصل إلى البيت يستلقي في الفِرَاش مُتحجِّجًا بالصُّداع. بخار الكحول يأخذ في التَّلاشي لكن، على العكس، صورة ذلك الثَّدي الصَّغير العاري تعود إلى رَأسه. كان يحسب الرَّضعات ويصعد للطَّابق العلويِّ نحو السَّادسة، الرَّضعة الرَّابعة في اليوم. لكن ذات ظهيرةٍ قائظةٍ في نهاية سبتمبر، كانت أبواب الطَّابق العلويِّ مفتوحةٍ على مصراعيها، لكن دفقةٌ من الرِّياح السَّاخنة أغلقت باب مينرفينا بعنفٍ وظهرت السَّيِّدة بلاسا فجأة في آخر الطرقة.

- «هل تحتاج حضرتك لشيء؟».

شعر دون برناردو بحرارةٍ شديدةٍ وقال:

- «صعدت لأرى الطِّفل. لم أره منذ أيَّام».

دخلت السَّيِّدة بلاسا غرفة مينرفينا وعادَت للخروج في الحال. كانت تجاعيد الجبهة الأفقيَّة أكثر بروزًا، ظاهرةٌ تحدث عندما تطرأ فكرةٌ في رَأسها. في الوقت نفسه، كانت الثنيات بجانب الفم توحي بعبوسٍ مُتهكّمٍ:

- «إنه يرضع يا سيِّدي. مينرفينا سوف تهبط به فور أن ينتهي».

نزل السَّلالم ببطءٍ، خَجلًا، كأنما فُوجئ أثناء السَّرقة. لكن في اللَّيل، في زيارته اليوميَّة لشقيقه إجناثيو اعترف له:

- «الآن أفكر أنني لم أقلْ الحقيقة لدون نيستور مالويندا، يا إجناثيو. ألا تعتقد أنه يُمْكن للرَّجل أن يكون لزوجةٍ واحدةٍ لكن لأكثر من امرأةٍ؟ الجسد يلحّ عليَّ، يا إجناثيو، يضغط عليَّ؛ تمرّ أيامٌ لا أفكر بأمْرٍ آخر. يبدو لي أنني أفتقد امرأةً بجانبي».

كان ينتظر أن يقوم شقيقه، الأصغر منه بثماني سنواتٍ، بإعطائه نصيحةٍ أو حتَّى فرصة لكي يحكي له وَلَهَه الوليد بمينرفينا، لكن إجناثيو سالثيدو، المستقيم العادل، قضى مبكرًا على آماله:

- «من قال إنك رجلٌ لزوجةٍ واحدةٍ يا برناردو؟ أنت بحاجةٍ لزوجةٍ أخرى. هذا هو كُلُّ شيءٍ. لماذا لا تطلب من الأب إرناندو أن يساعدك في البحث عنها؟».

تركه مُشتتًا. لم يكن الأمْرُ مُتعلِّقًا بالحديث مع الأب إرناندو، لكن بإقناع مينرفينا بأن تلهو معه على الفِرَاش في السَّطح، بين رضعةٍ وأخرى للصغير ثيبريانو. لم تكن المشكلة إذن في ترتيب زيجةٍ وإنما في تسهيل وصوله للفتاة، وإشباع رغباته الجسدية معها. لن يوافق الأب إرناندو على هذا مطلقًا، وأكثر منه، شقيقه إجناثيو، شديد الاستقامة، وشديد الورع. لمن يلجأ إذن؟

ذات ظهيرةٍ، فاجأته موديستا صارخةً أن الطِّفل يمشي. أتمَّ تسعة أشهر ولَمْ يكد يزن خمسة عشر رطلًا، رغم أنه أعطى دلائل كثيرة على الخفّة. أحيانًا كان يقف على رَأسه في فِرَاش مينرفينا لكي تَضْحك الفتاة. وفي مَرَّاتٍ أخرى يقفز فوق حاجزِ فِرَاشه بخفَّةٍ واضحةٍ ويظلُّ واقفًا على قدميه من دون حركةٍ لفترةٍ، من دون الاعتماد على شيء، يُراقب الأشياء المُحيطة به، كما اعتاد أن يفعل عندما يفتح عينيه. الآن، دون برناردو الذي فوجئ بهذا أثناء قيلولته، لم يهدر فرصة العودة لرؤية الفتاة، وصَعد سلالم الطَّابق العلويِّ بتثاقل. تعثَّر بابنه ماشيًا في الطّرقة بمفرده ومُتَّجهًا إلى السُّلَّم، بينما مينرفينا، المبتسمة، تتبعه مُنحنيةً، بذراعيها مفتوحتين خلْفه، لِتَحْميه. وموديستا والسَّيِّدة بلاسا تسيران خلفها في فرحةٍ عارمةٍ. قالت الطَّاهية بصوتٍ مُبتهجٍ:

- «هل ترى يا سيِّدي، الطِّفل يمشي».

لكن دون برناردو، مُصنعًا غضبًا لم يكن يشعر به، انتهز الظَّرف لكي ينتقد إهمال مينرفينا، ويُعنِّفها. طفلٌ عمره تسعة أشهر لا يُمْكن وضْعه على قدميه إن لم ترغبي في تقويس ساقيْه بقيَّة حياته. ساقا طفلٍ صغيرٍ في هذا السِّن تُشبهان العجين، لا يُمكِنهما تَحَمُّل ثقله من دون تضرُّر. أخذ يرفع صوته، وعندما لاحظ أن عيني مينرفينا البنفسجيَّتين تغرقان في الدُّموع، شعر بمتعةٍ غريبةٍ، كأنه يجلد ظهْر الفتاة العاري بسوطٍ. لكن، رغم حنقه البادي، منذ تلك الظَّهيرة أصبح من المستحيل الإبقاء على ثيبريانو في فِرَاشه. كان يهبط منه بسهولةٍ مدهشةٍ ويهرول في الطّرقة مثل طفلٍ في الثَّانية أو الثَّالثة من عمره. وثيبريانو لم يكن يسير فقط وإنما يجري، كأنه أمضى حياةً في التَّدرُب، وإن حاول أحدٌ منعه، كان يَملُص من ذراعيه ويواصل ويركض. يُمْكن القول إن الصَّغير تأثَّر بنظرات أبيه الجليدية، عندما كان صغيرًا ويُثير فيه الإحساس بالبرد ويشعر بالرَّغبة في الفرار.

في بعض الأحيان كان العم إجناثيو ودونيا جابريلا يصعدان لزيارته. في الأيَّام الأولى كانت مهارات الطِّفل بمثابة فقرةٍ في عرضٍ فنيّ. لكن جابريلا لم تُدارِ خوفها: «أليس الصَّغير ضعيفًا إلى حدٍ كبيرٍ؟». لم تكن تُشير إلى العمر وإنما إلى الحجم. لكن مينرفينا، التي كانت تنظر بشغفٍ إلى التَّطريز والأزرار في معصم رداء دونيا جابريلا، خرجت للدفاع عنه بحماسةٍ: «لا تظنّي هذا سيدتي، فرغم أنه ضئيلٌ، ثيبريانو ليس طفلًا ضعيفًا؛ فهو يفيض بالقوَّة». لكن، بعد أن فَقَدَ الأمْرُ جدَّته بدأ دون إجناثيو ودونيا جابريلا في تقليل زياراتهما، وواصل دون برناردو زياراته لشارع سانتياجو. كان مُنغمسًا في حياته العادية والتزاماته، لكنه لم ينسَ مينرفينا. رغم هذا، قلَّل ظهور الطاهية، عندما رأته يتلصَّص على غرفة الفتاة، من اندفاعه.

مُهتاجًا، كان يُفكِّر في فِرَاشه ليلًا حول حظوظ رجلٍ ثري يريد أن يحمل إلى الفِرَاش امرأةً فقيرةً قرويةً، وبالإضافة إلى هذا هي في الخامسة عشر من عمرها. كان يَعتَقد أن حظوظه كبيرةٌ، لكنه كان يَعتقد جُرأة الرَّجل الثريّ ومينرفينا ما كانت خاضعة خضوع المرأة الفقيرة. الفتاة، بلا كلماتٍ كبيرةٍ ولا أداءٍ ميلودراميٍّ، أوقفته عند حدِّه حتَّى تلك اللَّحظة. لكن، مُتشجعًا بأنه يمتلك ناصية الأمر، ذات يومٍ أخذ دون برناردو قرارًا ذكوريًا: سوف يقوم بالهجوم مباشرةً، وسوف يجعل الفتاة ترى حاجته لخدماتها.

وفقًا لهذه الخطَّة، ذات ليلةٍ في نهايات سبتمبر، صعد سلالم الخدم، بقميص النَّوم. بيده مصباح وقدميه حافيتين ليتفادى صرير الخشب، وتَوَقَّفَ أمام باب مينرفينا. خفقات قلبه كانت تخنقه. صورة الفتاة المستلقية بعفويَّةٍ على الفِرَاش كانت تثيره. فتح الباب ببطءٍ والمصباح في يده، وفي الظلال ميَّزَ الطِّفل نائمًا في فِرَاشه وبجانبه مينرفينا، نائمةٌ أيضًا، تتنفَّس بانتظامٍ. عندما جلس في الفِرَاش استيقظت الفتاة. عيناها الكبيرتان كانتا مُندهشتين أكثر منهما غاضبتين:

- «عمَّ تبحث يا سيِّدي في غرفتي في هذه السَّاعة؟».

تنحنح دون برناردو بتكلُّفٍ:

- «بدا لي أني سمعت الطِّفل يبكي».

غطَّت مينرفينا فتحة الصَّدر بغطاء الفِرَاش:

- «ومنذ متى يهتَّم سيِّدي ببكاء ثيبريانو؟».

بيده الخالية، أمسك دون برناردو بيد مينرفينا بسرعةٍ كأنها فراشةٌ.

- «أنت تعجبينني يا صغيرة، لا يد لي في هذا. ما الضَّرر في أن نقضي معًا بعض الوقت بين حين وآخر؟ ألا يُمْكنك أن تُقسِّمي حنانك بين الأب والابن؟ سوف تعيشين مثل ملكةٍ يا مينرفينا؛ لن ينقصك شيءٌ، أؤكِّد لكِ هذا. فقط أطلُب منكِ أن تمنحي هذا الأرمل المسكين بعضًا من دفئك».

خلَّصت الفتاة يدها الحبيسة. الغضب كان يلمع في عينيها البنفسجيَّتين على ضوء القنديل. قالت له بينما تَعضُّ على كلماتها:

- «اذهب... من... هنا. اخرج في الحال يا سيِّدي. أُحب هذا الطِّفل أكثر من حياتي، لكن، سأرحل عن هذا البيت لو قمت بوضْعِ قدمك في هذه الغُرفة مرَّةً ثانيةً».

عندما نهض دون برناردو مهزومًا لكي يخرج، استيقظ الطِّفل فزعًا. فكَّر أن عينيَّ ثيبريانو تفضحانه وحينئذ وضَعَ القنديل بينه وبين الفِرَاش، فتح الباب وخرج للطُّرقة. لم يتبادلا كلماتٍ عنيفة، ولا حتَّى مواقف مُهينة، لكن هذا لم يَمنعه من الشُّعور أنه مراهقٌ وتافهٌ. لم يكن ذلك موقفًا لرجلٍ في عمره ومكانته. دخل فِرَاشه مُحتقِرًا نفسه، احتقارًا لا يرجع لأسبابٍ مهمة، لكنه كان يتزايد كلَّما فكَّر في شقيقه إجناثيو وفي دون نيستور مالويندا. ماذا سيُفكِّران إن رأياه يهين نفسه بتلك الطَّريقة أمام خادمةٍ في الخامسة عشر من عمرها؟

رغم هذا، كان إلحاح الشَّهوة يطارده عندما خرج من البيت في اليوم التَّالي في طريقه للحيِّ اليهوديِّ. قرَّر زيارة ماخور المدينة، بجانب بوَّابة كامبو، حيث لم يذهب منذ عشرين عامًا تقريبًا. هذا قرارٌ جيدٌ، قال لنفسه مُبرّرًا. ماخور المدينة يَتبع (جماعة لا كونسبسيون و لا كونسولاسيون)، وبأرباحه يتم الإنفاق على مستشفياتٍ صغيرةٍ ومساعدة الفقراء والمرضى بالمدينة. إن كان لماخورٍ أن يخدم تلك الأعمال، فما يتِم داخله يَجِبُ أن يكون مُقدَّسًا، قال لنفسه.

على جانبَي الشَّارع، مثل كُلِّ يومٍ، طفلاتٌ فقيراتٌ بأعمار أربع أو خمس سنوات، بوجوهٍ مغطاةٍ بالتَّقيُّحات، كن يطلبن صدقةً. وزَّع بينهنّ حفنةً من المال. لكن بعد ساعاتٍ، عندما كان يَتحدَّث مع كانديلاس في الماخور، في غرفتها الصَّغيرة اللَّطيفة، عادت لتظهر أمامه العيون الحزينة للطِّفلات المتسوِّلات، والتَّقيُّحات الطَّافحة على وجوههن. عندما وجد نفسه بين تلك الجدران الأربعة، انطفأت جذوته. رأى الفتاة تتجهَّز لممارسة فنون غوايتها. قال لها: «لا ترهقي نفسَك يا كانديلاس، لن نفعل شيئًا. جئت فقط لكي أتحدَّث لبعض الوقت». جلس لاهثًا على مقعدٍ كبيرٍ، وهي على طرف الفِرَاش، مندهشةً. قدَّر دون برناردو أنه مُجبرٌ على الإيضاح: «إنه الزّهري، أَلَمْ تلاحظي؟ المدينة أتلفها الزّهري، تموت من الزّهري. أكثر من نصف السُّكَّان يُعَاني منه. أَلَمْ تريَ الأطفال في شارع سانتياجو؟ كُلُّهم مغطَّون بالتَّقيُّحات والبثور. بلد الوليد تربح جائزة الأمراض المُقزِّزة». استند بمرفقيه على فخذيه مُحبَطًا. لا زالت كانديلاس مندهشةً. عمَّ يَبْحَث ذلك الفارس في ماخور المدينة؟ شعرت بالتَّحدِّي. سألَت: «لماذا بلد الوليد؟ العالم كُلُّه مليءٌ بالأمراض المقزِّزة. وماذا يُمكِننا أن نفعل؟». تمدَّد ووضع ساقًا فوق ساقٍ. نظر لها بثباتٍ: «ألا تشعرين بالخوف؟ أنتن تتعرَّضن لهذا كُلَّ يومٍ، لا توجد

لديكنّ أيُّ وسيلةٍ للوقاية». تعلَّلت هي: «بطريقةٍ ما يجب عليَّ أن أعيش وأن أجلب الطَّعام للفقراء». دون برناردو، المتوجِّس، كان يرى الآن أيضًا بثور الطِّفلات ذاتها تحت طلاء وجه كانديلاس: «أريد أن أسأل إن كان المجلس يوفِّر لَكُنَّ طبيباً، إن كانت المدينة تهتم بصحَّتكن وصحَّة زبائنكن». ضحكت بفتورٍ، نافيةً. ونهض. كان لديه شعورٌ أن التَّقيُّحات والبثور لم تكن في النِّساء وإنما في الجوِّ. مدَّ يده لها قائلًا: «سُررت بمعرفتكِ». ووضع دوكاو في يدها البيضاء وأضاف: «سأعود لرؤيتكِ». ثم أحنى رَأسه وخرج مُسرعًا من الماخور من دون توديع المديرة. في طريقه إلى البيت فكَّر في ديونيسيو، ديونيسيو مانريكي، القادر على أداء كُلِّ المهام في المتجر. مانريكي كان أعزبًا، محبًا للمرح وشهوانيًا. رغم أنه متديِّنٌ؛ لكنه كان يحمل شهرة المقبل على العاهرات، وقضاء أوقات راحته في إشباع غرائزه. رغم هذا لم يتبادل مع دون برناردو كلمةً واحدةً حول هذا الموضوع. كان سالثيدو يرى في مانريكي شخصًا جبانًا، لا زال في سن الزَّواج ومطيعًا. وكان مانريكي يرى في سالثيدو رجلًا مستقيمًا. تجسيدًا للتقاليد الطيبة، معتدلًا في ممارسة سلطته. ومن هنا دهشته عندما ترك ربُّ عمله مائدته ذلك الصَّباح واتّجه إليه بنظرةٍ متَّقدةٍ وقال من دون مداراةٍ:

- «لقد زرت ماخور المدينة في اللَّيلة الماضية يا مانريكي. كُلُّ رجلٍ لديه احتياجاته، وبسذاجةٍ فكَّرت في إشباعها هناك. لكن، هل رأيت حال شوارع المدينة بالمتسوِّلين تغطِّيهم التَّقرُّحات وتورُّمات الغدد؟ برأيك، من أين تظهر كُلُّ هذه الآلاف من المصابين بالزّهري؟ هل يمكُننا تَجنُّب أن يقضي المرض اللَّعين علينا؟».

ديونيسيو مانريكي، الذي أمهله الوقت أثناء كلام دون برناردو لكبح ارتباكه، نظر إلى رئيسه ووجده مهمومًا، حائرًا. وحاول أن يواسيه:

- «يتمُّ فِعْل شيءٍ في هذا الأمَرْ يا دون برناردو. وشقيقك يعرف. العلاج بالحرارة يأتي بنتائج. في مستشفى سان لاثارو تتمُّ ممارسته، ابنة أخي هناك. الطَّريقة لا يُمْكن أن تكون أكثر بساطةً: حرارةٌ وحرارةٌ ثم حرارةٌ. لهذا يتم غلْق الأبواب والنَّوافذ وإغراق الغُرفة في دخَّان خشب النَّبيِّ. وتتم تغطية المرضى بالأغطية، وتُشْعَل مدفئاتٌ ومواقد حطبٍ بجانب الأفرشة لكي يعرقوا ما بوسعهم. يُقال إنه بالحرارة والطَّعام المتوازن لثلاثين يومًا من العلاج. تختفي التَّقيُّحات».

تنهَّد ديونيسيو براحةٍ، لكنه لاحظ أن هذه ليست الإجابة التي كان دون برناردو ينتظرها، قال الأخير:

- «نعم، لا شك أن الطِّب يتقدَّم. لكن، كيف يُمْكن اليوم إقامة علاقةٍ جسديةٍ مع امرأةٍ من دون المخاطرة بسلامتنا؟ لا أفكِّر في الزَّواج مُجدَّدًا، يا مانريكي، لست رجلًا يحب أن يسير في هذا الطَّريق نفسه مرَّتين. كيف يمكنني إشباع رغباتي من دون مخاطرةٍ؟».

كان ديونيسيو يطرف بعينيه، دلالةً على إعمال العقل:

- «الأمان الذي تَنشده حضرتك له حلٌ واحدٌ. أن تفعل هذا مع عذراءٍ؛ معها فقط».

- «وأين يعثر المرء على عذراء في هذه البلدة الزَّانية؟».

تواترَ طَرْف عيني الموظف:

- «هذا ليس صعبًا يا سيِّد برناردو. من أجل هذا توجد الوسيطات. نساء البارامو أرخص وأكثر مدعاةً للثِّقة، على الأرجح لأنهن يُعَانين العوَز أكثر من نساء الأرض الواطئة. مع ميزةٍ، إن وجدوا في الزُّبون شخصًا محترمًا، يمكنهم أن يستأمنوه على بناتهن. إن لم يكن لديك مانعٌ، سأرتب لقاءً مع إحداهن».

بعد ثلاثة أيامٍ جاءت إلى المتجر ماريا دي لاس كاساس، الوسيطة الأشهر في البارامو. كانت تقدِّم نفسها كوسيطةٍ للخادمات، لكنها في الحقيقة، كانت قوَّادة. خرج ديونيسيو من المكتب لكي يَتحدَّث رئيسه بلا تحفظاتٍ. ماريا دي لاس كاساس لم تكن تصمت. حدَّثته عن ثلاث فتياتٍ عذراواتٍ في البارامو، اثنتان في السَّابعة عشر، والثَّالثة في السَّادسة عشر. وصفتهن بدقَّةٍ: كلهن قوياتٌ (كما تعرف حضرتك أن الشَّخص الذي يبقى على قيد الحياة في البارامو لا بدَّ أن يكون قويًا)، ومطيعاتٌ. كلارا ريبرا أكثر صحّةً وجاذبيةً من الأخريين، لكن، في المقابل، آنا دي ثيبيكو تجيد الطَّهو أكثر من المحترفين. وكما حدَث في ماخور المدينة، بدأ دون برناردو سالثيدو يشعر بالتَّقزُّز من نفسه. كان ذلك حوارًا شبيهًا بحوار مُربِّي الماشية قبل عقد الاتِّفاق. من جانبٍ آخر، كانت ماريا دي لاس كاساس تُدير رَأسه بثرثرتها. كان يُفكِّر في رقَّة مينرفينا، صورتها كانت تسيطر عليه ويهزُّ رَأسه لكي يبعدها. اختتمت:

– «نظيفةٌ، وأكثر من نظيفةٍ، لا يوجد من يفوق ماكسيما أنتولين، من كاستروديثا؛ بيتها وجسدها مثل شلاَّلات الذهب. أتوقَّع أن تقضي مع أي منهنّ أوقاتًا طيبةً يا سيد سالثيدو».

مثبَطًا أكثر منه مسرورًا. اختار دون برناردو كلارا ريبرا. في الفِرَاش كان يفضِّل الفتاة المليئة بالحيويَّة، الجريئة، بل وخالعة العذار. إن كان الأمر هكذا، أضافت ماريا دي لاس كاساس، مع كلارا، ستجد نفسك راضيًا. اتفق السيِّد سالثيدو مع الوسيطة أن ينتظرها الثلاثاء التَّالي، لكن على أن يكون واضحًا أن لا التزام. عندما حضرت ماريا دي لاس كاساس مع الفتاة إلى المتجر بعد أربعة أيامٍ، انقبضت روح دون برناردو. كلارا ريبيرا كانت حولاءَ بشكلٍ واضحٍ، وكانت تعاني من تشنُّجٍ في الفم، مثل تقلُّصٍ متقطعٍ في الجانبِ الأيسرِ، وهو ما كان يُصعِّب من تركيز العشيق المحتمل. أينَ يُمْكن تقبيلها؟

- «هذه الفتاة عصبيَّةٌ أكثر منها مليئةً بالحيويَّة، يا ماريا. قبْل أيِّ شيءٍ تحتاج لعلاجٍ، لأن يراها طبيب».

رفعت ماريا دي لاس كاساس الرِّداء وأرَته فخذًا أبيض، ممتلئًا، شديد التَّرهُّل والرَّخاوة لفتاةٍ صغيرةٍ لهذا الحدِّ.

- «أُنظر أيُّ لحمٍ شهيّ، يا سيِّد سالثيدو. أكثر من شخص يُقدِّم ثروةً لفضِّ بكارتها».

كانت كلارا ريبيرا تنظر إلى التَّقويم على الحائط، ومدفأة الفحم بجانب حذائها، والنَّافذة التي تؤدِّي إلى الصَّحن، لكن أيا كانت الرَّشاقة التي تُبديها في مسْح المتجر بعينيها، لم تكن حدقة العين اليسرى تثبت. بدا أن شيئًا مما يتم النِّقاش حوله لا يتعلَّق بها. ماريا دي لاس كاساس بَدَأت تفقد صبرها:

- «أول ما يجب أن تفعله حضرتك هو أن تكون صريحًا في هذا الأمْر: هل تريد فتاةً للتَّقلُّب معها في الفِرَاش مرَّتين في الأسبوع أو للإبقاء عليها كمحظيَّةٍ؟».

بدا أن السُّؤال أهان دون برناردو سالثيدو:

- «محظيَّةٌ بالطَّبع، اعتقدت أن ديونيسيو أخبرك بهذا. لديَّ بيتٌ تحت تصرفها. أنا شخصٌ جادٌّ».

بدَّلت ماريا دي لاس كاساس موقفها. إجابة دون برناردو فتحت إمكاناتٍ جديدةً. فكَّرت في تيتا، من توريلوباتون، في الجميلة الغجريَّة أجوستينا، من كانيثارث، في إلويتريا، من بيانوبلا. نظرت مُتشجِّعةً إلى دون برناردو وقالت:

- «بهذا تُصبح الأمور أسهل، رغم أن المرء لا يُمْكنه أن يقضي حياته في الصُّعود والهبوط. من الأفضل أن تصعد حضرتك وتختار».

- «أصعدُ، إلى أين يا ماريا؟».

- «إلى البارامو، يا دون برناردو. أجمل فتيات الرِّيف موجودات في البارامو. إن أمكنهن الظهور في النُّزل والحانات، فلتكن حضرتك متأكِّدًا أنه لن تَبقى عذراءٌ واحدةٌ. كما يَجِبُ أن ترى **اللَّذيذة**، في ماثاريجوس، فتاةٌ لا تنتمي لهذا العالم».

- «أُفضلُ ألا تحملن ألقابًا، يا ماريا دي لاس كاساس. فتياتٌ أقَل شهرةً، قليلات الخروج. أما الألقاب، فلنتحدَّث بوضوح، ليست تعريفًا جيدًا للبغايا».

في اليوم التَّالي امتطى دون برناردو جواده لوثيرو، وللمرَّة الثَّانية في نصف عامٍ، صعد إلى البارامو عبر طريق بيانوبلا. تواعدت معه ماريا دي لاس كاساس في كاستروديثا، ومن هناك، سوف ينطلقان إلى بقيَّة القرى. رغم هذا، في كاستروديثا، رأى دون برناردو بترا جريجوريو، فتاة خجولًا، عيناها زرقاوين ساذجتين، وجسدًا لينًا، ملابسها بسيطةٌ وجديلة شعرٍ لامعةٌ على رَأسها، تبرز وسط فقر الأثاث. راقت العائلة لدون برناردو، واتَّفق مع ماريا دي لاس كاساسا على تأثيث البيت خلال أسبوع، وفي الأسبوع التَّالي، سوف يصعد لأخذ بترا.

مع نهاية نوفمبر، صعد دون برناردو إلى كاستروديثا، وبعد ساعةٍ من وصوله، قبل حلول المساء، أخذ طريق العودة، وعلى الكفل بترا جريجوريو وجرابها الذي يحوي حاجيَّاتها البسيطة على حجرها. القطعان كانت تعود نحو القرية، وعلى مبعدة فرسخٍ تقريباً من ثيجونيولا، طار سرب من الغربان من شجرة رتَمٍ. حاول دون برناردو أن يجعل بترا جريجوريو تكْسر صمتها ثلاث مَرَّاتٍ، من دون نجاح. الفتاة كانت راكبةً جيدةً، وتتأقلم بمهارةٍ مع حركات المطية، ومن آن لآخرِ، تَصدر عنها تنهيدةٌ حارّةٌ. في سيمانكاس

حلَّ اللَّيل تمامًا، وهو ما كان يبغيه دون برناردو، وعندما عبرا الجسر فوق نهر بيسويرجا سأل الفتاة إن كانت تعرف بلد الوليد. لم تدهشه الإجابة حين أخبرته أنها لم تأتِ إليها من قبْل، ولَمْ يدهشه أن تعترف الفتاة بعد قليلٍ أن عمرها ثمانية عشر عامًا. نجح دون برناردو في كسْر خَرَسها، وعندما ترجَّلا في ساحة سان خوان وأشار إلى البيت على ضوء القنديل، لم تَتَوَقَّف الفتاة عن التنهُّد. لم تكن خائفةً، اعترفت أمام دون برناردو بكُلِّ صلابةٍ، وهذا خفَّف عنه. بعد ذلك أجلسها على مقعدٍ صغيرٍ وساعدها على خلْع المِعْطَف الذي ارتدته من أجل السَّفر. دون برناردو كان يجتهد منذ فترةٍ لكي يُستثار؛ فحتَّى تلك اللَّحظة لم يكن قد شعر بشيءٍ نحو الفتاة سوى الشَّفقة. شديدة الطَّاعة، شديدة الصَّمت، شديدة الإذعان، كان دون برناردو يسأل نَفْسَه عمَّا تشعر به الفتاة في تلك اللَّحظات، إن كان حزنًا، حنيناً أم إحباطًا. وجهها لم يكشف عن أيِّ مشاعرٍ وعندما أخبرها دون برناردو أن في المبنى جيرانًا آخرين، في الأعلى، والأسفل وعلى الجانبَين، ابتسمت وهزَّت كتفيها. بعد ذلك قام دون برناردو بمحاولةٍ مرتبكةٍ لاحتضانها، لكن جمود بترا ورائحة العرق جعلاه يَتَرَاجع. ولهذا، حملها إلى الغُرفة حيث يوجد حوض الاستحمام المعدني وشرح لها كيف يُستخدم. قال لها: «من الأفضل أن تستحمِّي مرَّةً في الأسبوع على الأقل؛ ومن دون إهمالٍ، يَجِبُ غسْل القدمين والمؤخِّرة كُلَّ يومٍ. الفتاة كانت تحني رَأسها موافقةً من دون أن تَتَوَقَّف عن التنهّد. دلّها برناردو على خزانة الطَّعام وتركها بمفردها.

في الظَّهيرة التَّالية عاد ليراها. كان يعتقد أن بترا جريجوريو قد تخلَّصت من أشجانها، لكن دون برناردو وجدها بملابس اليوم السَّابق نفسها، تبكي بحرارةٍ على مقعدٍ في المطبخ. لم تأكل. الطَّعام في الخزانة لم يُمَسّ. شجَّع سالثيدو الفتاة على الخروج إلى الشَّارع لكنها كانت تلتحف بالشَّال مثل عجوزٍ:

- «إنه يُذكِّرني بقريتي يا دون برناردو. لا يمكنني فِعْل شيءٍ إزاء هذا».

حدَّثها دون برناردو بشكلٍ جاد، قال إنهما لا يمكِنهما المواصلة على هذا الحال، وإنها يجب أن تبتهج، وعندما يحدث هذا سوف يقضيان معا أوقاتًا لطيفةً. لكن، عندما عاد لرؤيتها في اليوم التَّالي، وجدها مُمعنةً في البكاء بحرقةٍ في المكان ذاته حيث تركها. حينئذ بدأ دون برناردو في الاعتراف أنه أخطأ وعاجلًا يجب أن يرسل بريدًا لماريا دي لاس كاساس لكي تعود بها.

رغم هذا، في الظَّهيرة التَّالية، وجد تغيّرًا لدى بترا. تَوَقَّفَت عن البكاء وأصبحت تَرُدُّ على أسئلته بحيويَّةٍ. كانت قد تعرَّفت إلى الجارة المقابلة، كانت من بورتيو، ومتزوجةً من مساعد نجّار. وتذكَّرتا معًا أمورًا من قريتيهما ومَرَّ الصَّباح في لمح البصر. بل إن بترا جريجوريو بدَت أقلَّ جمودًا ونفورًا عندما حاول دون برناردو مُداعبتها. شجّعها، مرَّةً أخرى، على الخروج إلى الشَّارع، وزيارة المتاجر، وحضور أعياد سان بابلو المليئة بالمرح. وفي بادرة حنوٍّ مفاجئةٍ، أعطاها خمسة دوكادو لامعة لكي تشتري ملابس. تلك اللَّفتة كان لها تأثير حاسم. ركعت بيترا وراحت تقبّل اليد الكريمة مَرَّةً وأخرى. ساعدها دون برناردو على النُّهوض، وقال: «يَجِبُ أن تشتري تنُّورةً جديدةً، وصداراتٍ جميلةً ورداء بعنقٍ شفافٍ؛ وأيضًا خواتم، وأساور، وقلادات، لتزيِّن جسدك الجميل». عينا بيترا جريجوريو الزِّرقاوان كانتا تلمعان، العينان اللَّتان كان دون برناردو يخشى خلال الأيَّام السَّابقة أن تذويا من الألم. في النِّهاية، كانت بترا جريجوريو مثل كُلِّ النِّساء، فكَّر دون برناردو. في لحظةٍ ما رآها شديدة البهجة والفرج حتى أنه فكَّر في حمْلها إلى الفِرَاش الكبير الذي اقتناه من أجل العلاقة الجديدة. لكن بعد ذلك رأى أن من الأفضل الانتظار لليوم التَّالي؛ ربما بالملابس الجديدة والحلى، ستصبح الفتاة أكثر انفتاحًا ورقَّةً.

وجدها ترتدي رداءً بسيطًا، واسع الصَّدر، بعنقٍ شفَّافٍ، يترك منبت النَّهدين مكشوفًا. كانت تتزيَّن بقلادةٍ كبيرةٍ، وقرطين رخيصين، وأساور فيها مُعلَّقاتٍ. رفعت ذراعيها مُبتسمة عندما رأته يدخل كأنّما تستقبله. يبدو أن العجوز الشَّهواني، الذي غاب خلال الأسبوع الأخير، عاد يتملَّك من دون برناردو مُجدَّدًا. «هل أنتِ بخيرٍ يا صغيرة؟»، سألها بينما يترك مِعْطَفه القصير في يد الفتاة. أمسك بخصرها، «أنتِ جميلةٌ للغاية يا بترا. تبدين شديدة الأناقة». وسألته إن كانت تعجبه، ونادته بحضرتك. قال: «أوه، حضرتك! يَجِبُ أن تنْسي الألقاب. سوف تناديني برناردو». كانت الفتاة تبتسم بسذاجةٍ وخطرت على باله فكرةٌ لامعةٌ: «ما رأيك في أن يُعلِّمك (بابي) استخدام حوض الاستحمام؟». وقالت إنها استحمَّت بالفعل في اليوم السَّابق. «لا يهم، لا يهم، بل الاستحمام كُلَّ يومٍ ليس مضرًّا، يا ابنتي، وليقُل الأطباء ما يريدون. حَمَلها من خصرها عبر الطّرقة وتَوَقَّفَ في المطبخ. أشار إلى طستٍ مليءٍ بالماء بجانب الخزانة وطلب منها أن تُسخِّن ربعه. بعد إعداد الماء، قَام دون برناردو باستخدام طريقة لم تفشل إطلاقًا خلال سنوات شبابه في تعرية فتاةٍ. أولا خلع عنها زينتها، التي أخذ يضعها على مائدة الموقد، وبعد ذلك القميص الطَّويل ، ثم التَّنورة والصَّدرية. انتظر لبرهةٍ قبْل أن يخلع عنها الملابس الدَّاخليَّة. كان يعاملها كطفلةٍ، ويُطلق على نفسِه (بابي). الآن (بابي) سوف يخلع العنق المُنشَّى، لكن قبل ذلك يجب أن تدخلي الحوض. دَخلت بيترا حوض الاستحمام خائرة القوى. عاريةً، بين ذراعيه، قبَّلَها قبْل أن يُجلسها في الحوض. أثناء الاستحمام قبَّلَها مُجدَّدًا بقوَّةٍ أكبر. الفتاة كانت تزداد استثارة ، كانت تعضّه، ذراعاها يقبضان بقوَّةٍ على عنقه. الآن ستكوني مطيعةً وتتركي (بابي) يغسلك جيدًا، كان يَقُول بعذوبة، بينما يدلّك ثدييها اللَّذين كانا ينزلقان بين أصابعه مثل سمَكَتين. شفاههما

كانت تلتقي وسط الرَّغوة مثل مجنونَين، وفي وسط العمليَّة، قام بوضْعِ الفتاة على حجره، فوق المنشفة البيضاء الكبيرة، ونهض بها. مَشى حتَّى الغُرفة بالحمل الثَّمين، وعندما أصبحا في السَّرير، سألها إن كانت المرَّة الأولى الذي تذهب للفِرَاش مع رجلٍ، وردَّت بيترا جريجوريو بالإيجاب بصوتٍ ناعم.

IV

«أعيش هادئ البال، نعم. ماذا يُمْكن أن أطلب أكثر من هذا؟».

هكذا، مُبتسمًا، أجاب دون برناردو سالثيدو على أصدقاء حانة داماسو جارابيتو الذين سألوه عن صحته، وعلى الرُّعاة والوكلاء الذين يهبطون من البارامو ويجدونه متجوِّلًا في المدينة، أو على المعارف، المعتادين في حلقات السَّمر في ساحة السُّوق والشَّوارع المجاورة، الذين كانوا يقتربون منه لكي يصافحوه. منذ أَشهُر يعيش من دون مشاغلٍ كبيرةٍ، سعيدًا إلى حدٍّ كبيرٍ. بترا جريجوريو، التي يوشك عقدها مع الوسيطة ماريا دي لاس كاساس على الانتهاء، كشفت عن عاشقةٍ فريدةٍ. لم تكن جميلةً ومرِحةً فقط، وإنما جذَّابةٌ وجريئةٌ. أسبوع التَّأقلم، الذي تلا وصولها إلى المدينة، شديد الصُّعوبة والتَّوتُّر، تمَّ تجاوزه. الآن تبدو بترا جريجوريو ماجنةً، تخلَّت عن كل خجل ومطيعةً. لكنها لم تكن مذعنةً جاهزةً لتلبية رغبات راعيها، وإنما امرأةٌ مندفعةٌ، مبدعةٌ، كانت تستمع كثيرًا بامتلاك زمام المبادرة. ومن هنا، رغم أن دون برناردو كان يُقرُّ أمام أصدقاء اللَّهو أنه يعيش هادئًا، كان عشُّ الحبِّ الذي أقَامه لبترا في ساحة سان خوان مليئًا بالانفعالات. كان يزورها كُلَّ ظهيرةٍ، ومن النَّادر ألّا تستقبله بترا بمفاجأةٍ ما. دون برناردو كان يتباهى بأستاذيته. في خمسة أيَّامٍ جَعل من قطَّةٍ أليفةٍ نَمرةً شبقةً. كانت

أكثر بكثير مما تخيَّل: معجزةٌ حقيقية في فنون الحب. في ظهيرةٍ تستقبله عاريةً، تتغطَّى بغلالةٍ شفافةٍ. وفي الظَّهيرة التَّالية تختفي في الغُرفة الخلفيَّة، مُرتديةً قطعًا حميمةً شديدة الصِّغر، تم شراؤها من متجر الملابس الدَّاخليَّة في شارع توبار، وما إن تسمع خطواته تستقبله بمواءٍ هادئٍ، تخلع تلك الملابس وتجري عاريةً في البيت، برشاقةٍ، وتضع الأثاث بينها وبين مطاردها الذي كان يرجوها لاهثًا أن تَتَوَقَّف. «لن تستطيع الإمساك بي يا (بابي)، لن تستطيع الإمساك بي»، كانت تصرُّ. كانت تطلق عليه (بابي) كما خلع على نفسه هذا اللَّقب يوم فاز بها. مرحبًا يا (بابي)، إلى الغد يا (بابي)، لماذا لا تشتري عقدًا من العقيق للطِّفلة يا (بابي)؟ دائمًا (بابي). سالثيدو كان يهتاج لمجرَّد سماع هذا اللَّقب. في بترا سذاجةٌ طبيعيَّةٌ، تحوِّلها هي إلى إغواءٍ عاصفٍ بمجرَّد حركةٍ بسيطةٍ. وبعد أن يصل إلى هذا الحال، يبدو دون برناردو رجلًا كريمًا، يُطلق المال بسخاءٍ، وهو موقفٌ غريبٌ بالنِّسبة له، حيث ظَلَّ شديد الحرص طوال حياة دونيا كاتالينا. لكن بترا جريجوريو كانت تستخدم المال بشكلٍ فطنٍ، بل إنها كانت تنفقه بحرصٍ وحكمةٍ. كانت تشتري ملابس وزينة، وتقتني أثاثًا جميلًا، وتزين البيت بستائر بديعة. كان دون برناردو يُقرُ أن بترا هي العاشقة التي تمنَّى امتلاكها دائمًا. حتَّى أنها طلبت منه يومًا تغيير البيت، لأن هذا الحيّ لا يليق بك (بابي)، «لا يعيش فيه إلا حرفيون وأناس فظاظ». وأدرك أن بترا كانت في هذا الحيِّ مثل الوردة في مَجمَع النَّفايات. حملها إلى شارع مانتيريا، إلى مسكنٍ جديدٍ في بيتٍ تقطنه عائلاتٌ. بهذا كانت بترا تخرج رابحةً، ليس فقط في الطَّبقة الاجتماعية وإنما في المساحة والنُّفوذ. كان شارعًا ضيقًا مثل كُلِّ شوارع المدينة تقريبًا، لكنه كان شارعًا رئيسيًا، مرصوفًا، سكّانه من عُلية القوم. مواهب بيترا في الغواية تضاعفت في المنزل الجديد. سالثيدو كان يقضي ساعات كاملةً في مطاردة ظبيةٍ هائجةٍ أو مُستجيبًا لصرخاتٍ

مثل «بابي، بابي، لقد تهت!». القيلولة الجالبة للرَّاحة، التي كان يَتحدَّث عنها في الحانة، كانت في الحقيقة تمارين جسديَّة حقيقية كُلَّ ظهيرةٍ.

أحيانًا، بمفرده في بيت شارع سان بابلو، كان يَسْعد بتَذْكُّرِ حيل بيترا، وأسلحة خيالها الشَّبقي. وعندما يقارنها بخجل وحياء الفتاة التي عرفها في كاسترودوثا، كان يصل إلى نتيجة أنه مُعلِّمٌ خبيرٌ في أمور العشق، وهي تلميذةٌ نجيبةٌ. وبهذه الطَّريقة فقط كان يُمْكن فهْم أن السَّاذجة التي هبطت من البارامو على كفْل جواده، متنهدةً، وَصَلَت بعد ثمانية أشهر، ليس فقط إلى الدَّرجة الحاليَّة في المجون، وإنما إلى الذَّوق الرَّفيع الذي تكشف عنه في بعض الأحيان. دون برناردو كان شديد الزَّهو بنفسه. وهكذا، لعدم قدرته على إبقاء مغامراته وسلوك الفتاة الفاجر في الظِّلِّ، قَام ذات يومٍ بمصارحة مرؤوسه في المتجر ديونيسيو مانريكى. استمع ديونيسيو لبوح رئيسه بشبقٍ به شيءٍ من عدم الاكتراث، كَزِير نساء عتيدٍ، لكنه احتفظ بملاحظاته حول الموضوع. وهكذا استطاع دون برنادو زيادة عدد ساعات متعته، ببساطةِ عبْر الكلام عن هذا. مجرَّد الإشارة لملاعبات بيترا، التي لا بدَّ أن تنتهي في الفراش، كانت توقد شعلته من جديد، وكانت تجهزه للزِّيارة التالية، بينما كان ديونيسيو يسمعه فاغرًا فاه، وقد امتلأ باللُّعاب. فيدريكو، الأبكم الذي يقوم بالمساعدة، الذي كان على علْمٍ بفسْق مانريكى، كان يسأل نفسَه عمَّا يتحدَّث هذان الرَّجلان ويؤدِّي إلى ذلك اللّمَعان المنعكس في أعينهما وحركاتهما المرتبكة.

في مقابل هذا، مع شقيقه إجناثيو، الذي اعتاد على لقائه يوميًا مع حلول المساء، لم يُبدِ برناردو هذه الثقة. على العكس، كان يجتهد لكي يبدو أمامه بالوقار والاحترام اللَّذين ميَّزا عائلة سالثيدو دائمًا. إجناثيو كان المرآة التي تحب المدينة القشتالية أن تنظر إليها. قاضٍ، ومستشار في المحكمة العليا، مالك أراضٍ، لم تُبعده ألقابه وأملاكه عن المعوزين.

عضوٌ في جماعة (الرَّحمة)، يتكفَّل سنويًا بدراسة خمسة أيتام، لأنه يعتقد أن مساعدة الفقراء على الدِّراسة تعني ببساطةٍ الاقتداء بسيِّدنا المسيح. لكنه لم يكن يقدِّم نقوده فقط، بل أيضًا جهده الشَّخصيّ. إجناثيو سالثيدو، أكثر شبابًا من دون برناردو بثمانية أعوامٍ، وجهه ورديٌّ أمرد، يزور المستشفيات شهريًا، وخلال اليوم يقوم بإطعام الفقراء، ويرتِّب أفرشتهم، ويُفرغ المباول، وخلال ليلةٍ كاملةٍ يسهر على رعايتهم. فضلًا عن هذا، كان دون إجناثيو سالثيدو أكبر رعاة دار ومدرسة الأطفال اللُّقطاء، التي تتمتع بسمعةٍ طيِّبةٍ في المدينة وتقوم على تبرعات السُّكَّان. لكنه، غير مُكتفٍ بهذا، لأن دون إجناثيو، بسبب طبيعة عمله في المحكمة وأعماله الطيبة، كان أكثر سكَّان بلد الوليد اطّلاعًا على الأخبار، ليس فقط المحليِّة البسيطة، وإنما الأحداث الوطنيَّة والأجنبيَّة. كانت الأخبار شديدة الغزارة مؤخرًا، حتَّى أن دون برناردو كُلَّما جاب شارعيّ مانتيريا وبيردوجو، في طريقه إلى بيت شقيقه، كان يسأل نفسَه: «ماذا حدث اليوم؟ هل نحن جالسان على فوَّهة بركانٍ؟». لأنه كان مباشرًا في تعبيراته، ولَمْ يكن يخفِّف منها إطلاقًا. من هنا كان دون برناردو، الذي لا زال يبدي اهتمامًا قليلًا بالسِّياسة والمشاكل العامة، على إطلاعٍ دائمٍ بالواقع الإسباني المخزي. القلق المتزايد في المدينة، والعداء الشَّعبي نحو الفلامينكيين، وعدم التَّفاهم مع الملك.. كانت حقائق واضحة. إنها أحداثٌ مثل كُرات الثَّلج التي تأخذ في الدَّوران ويزداد حجمها مُهدِّدةً باجتياح كُلِّ ما تجده في طريقها. حتَّى انفجرت إحداها ذات مساءٍ ربيعيٍّ. ومهما حاول صوت دون إجناثيو ألّا ينفعل بينما يشير إلى الأحداث:

«قتلوا رودريجو دي تورديسياس نائب البلاط في شقوبية. كان وثيق الصِّلة بالفلامينكيين. خوان برابو يترأَّس المتمرِّدين ويقوم بتنظيم

(مجالس شعبيَّة)[1] في المدن القشتالية. يوجد تمرُّدٌ وشغْبٌ في كُلِّ مكان. الكاردينال أدريانو يريد أن يجمع هنا، في بلد الوليد، مجلس الوصاية على العرش، لكن الشَّعب يرفض.

كان دون برناردو يتنفَّس بصعوبةٍ واضحةٍ. منذ أسابيع أخذ يلاحظ كيف يتشكَّل نطاقٌ من الدُّهون فوق معدته. نظر إلى إجناثيو كأنه ينتظر منه حلًّا، لكن شقيقه لم يكن متنبِّهًا له. في المساء التَّالي أطلعه على لافتةٍ تم التقاطها من باب سان بابلو: «إعانات، لا. الملك في بيته والفلامنكيون إلى بيوتهم». الكثير من العظات في مختلف كنائس بلد الوليد كانت تدور حول الأمْر ذاته: الملك يجب أن يبقى في إسبانيا، والفلامينكيون يجب أن يرحلوا إلى بلادهم؛ المدن يجب أن تواصل تعامُلها المباشر مع الملك، من دون وساطة القساوسة والنُّبلاء. «إنها مطالبٌ قاسيةٌ. هل تدرك هذا يا أخي؟»، قال دون إجناثيو.

بعد أربعٍ وعشرين ساعة لم تكن الأخبار الجديدة جديرةً بهذه الصِّفة، ودون برناردو ودون إجناثيو يعودان إلى اللِّقاء في بيت الثَّاني:

- «قام الملكيُّون بإشعال النِّيران في ميدينا. هذا الصَّباح، في ساحة السُّوق، سارت مجموعة من النَّاس مُردِّدةً هتاف عاشت الحرية! يوجد بعض النُّبلاء بينهم، لكن معظمهم قضاة، وبرجوازيُّون ومثقَّفون. كالعادة لم يتم طلب رأي الشَّعب، لكنه يستمع إلى هؤلاء ويغلي بالحنق».

(1) إشارة إلى (الجمعيات الشعبية) خلال التَّمرُّد الشعبي المسلَّح الذي شهدته إسبانيا بين عامَيْ 1520 و 1522 والذي عُرِف باسم «حرب الجمعيات القشتالية». هذا التَّمرُّد وقع بسبب وصول الملك كارلوس الخامس إلى إسبانيا عام 1517 لتولية العرش. وكانت الأعباء الضريبية هي العامل الحاسم في نشوب التَّمرُّد الشعبي المسلح. التناول التاريخي لهذه الأحداث كان يختلف من فترة لأخرى. وحتَّى القرن التاسع عشر، كانت الرواية التاريخية الرسمية تعتبره تمرُّدًا على الشرعية. لكن، بعد إرساء الديمقراطية في إسبانيا، وبعد رحيل فرانكو، أصبح 23 إبريل، الذي هو يوم هزيمة المتمرِّدين عام 1521، هو العيد القومي لإقليم قشتالة وليون، وتم الاحتفاء بشخصيات مثل خوان برابو، أحد قادة التَّمرُّد.

في اللَّيلة ذاتها، قَامت العوام الجاهلة، التي تم تأجيج مشاعرها، بحرق بيوت أعضاء البلاط الذين أقروا مساعدات الملك للفلامينكيين. كانت ليلةً من الصَّخب والاضطراب. دون برناردو نزل للشَّارع في الوقت المناسب ليرى كيف يشتعل بيت دون ردوريجو بوستيجو، وكيف يفرُّ هذا من الباب الخلفيِّ، على حصانٍ سريعٍ للغاية، مُطلقًا شررًا على أحجار الشَّارع. في الفجر حضر إلى بيته شقيقه إجنائيو، وميجيل ثامورا، وقضاةٌ آخرون ليطلبوا منه جياده من أجْل المعركة الوشيكة. قام كونت بينابينتي بالتَّصعيد مع قريتَي ثيجاليس وفوينسالدانيا، ويُخْشَى من وقوع المواجهة. كان دون برناردو متردِّدًا، متثاقلًا. لماذا يزج بلوثيرو، جواده الأصيل النَّبيل، في هذا المأزق؟ «يَجبُ أن نفعل شيئًا يا برناردو، أيُّ شيءٍ قبل أن نسمح بأن يعتدوا علينا». دون برناردو الذي كان يشعر بخجلٍ شديدٍ من جُبنه، قَبِلَ في النِّهاية أن يحملوه. عاد لوثيرو قبل الغروب، لكن فالينتي، جواده الآخر، مات بين أعناب ثيجاليس. عاد إجنائيو بلوثيرو، وعلى كفل الجواد ميجيل ثامورا، وصعدا إلى بيت برناردو وشربا بعض أكواب نبيذ على مهل لكي يتخلَّصا من التَّوتُّر. كان من المستحيل السَّيطرة على العوام الذين لم يفهموا سوى تهديدات كونت بينابينتي. لم يهتموا بمكانته أو ثروته أو نفوذه. تعرَّض قصره في ثيجاليس للاقتحام والنَّهب من قِبَل العوام. وقَامت الجماهير الغاضبة بحرق اللَّوحات والسَّتائر والأثاث الثَّمين في الخلاء. في أطراف القريَّة وقع تبادلٌ لإطلاق النَّار مع فرقة تابعة للكاردينال، وفالينتي (الشُّجاع)، الذي كان اسمًا على مسمّى، سقط في المعركة.

كان دون برناردو يسمع تلك الرِّوايات التي تؤثر عليه مباشرةً منقبضًا. لم يكن رجلًا شجاعًا. والكلمات الحماسيَّة كانت تحبطه بدلًا من أن تؤجّجه. في اليوم التَّالي كان يحكي آخر الأخبار لبترا جريجوريو. في اللَّحظات الحاسمة، مثل اقتحام القصر، كانت الفتاة تصفِّق كأنها تشاهد

معركةً بين أطيابٍ وأشرارٍ. كانت تنطق دائمًا ضِدَّ الفلامنكيين. برناردو المندهش، سألها ما الذي يجعلها تناصبهم العداء. كانت تقول: «يريدون أن يكون لهم الأمْر والنَّهي هنا، حتَّى الأحجار تعرف هذا». أن تتحدَّث بيترا في هذه الموضوعات المهمة بصدرٍ عارٍ يبدو غير مناسبٍ، بالكاد عليها عقدٌ مصنوعٌ من الكهرمان والعقيق، أهداه لها من قبْل. لكن الحكاية كانت تتكرَّر بلا كلل كُلَّ يومٍ في البيتين: إجناثيو يُثقله بالأخبار والتَّقارير في بيته، وبرناردو بدوره يفرغها بشكل أقَلَّ صرامةً في بيت عشيقته.

وهكذا علم دون برناردو بطردِ نبلاء سلمنقة على يد مالدونادو، وبتأسيس المجلس المقدَّس في أبيلا لتوحيد الحركات الشَّعبية، وبالزِّيارة غير الرَّسمية للملكة الأم في torديسياس من جانب باديا، وبرابو ومالدونادو، وعَلِمَ باستقبالها الودود. لكن، ببطءٍ، أخذت الأخبار في الاتِّجاه لما هو أقَلّ تفاؤلًا: الملك رفض استقبال وفد من المتمرِّدين في ألمانيا، وعاد هؤلاء وقد شعروا بالاحتقار والمَهانة. دبَّت الخلافات بين الجمعيات، حتَّى أن الأندلسيين انفصلوا عنها ووضعوا أنفسهم في خدمة الملك... دون برناردو كان يستمع إلى شقيقه من دون تأثُّرٍ، ويُفكِّر: «اليوم، كالعادة، افتقدنا النِّظام، الأفكار المثاليَّة مرتبكةٌ، وغير مُحدَّدةٍ. وضعت المدن نفسها في يد نبلاءٍ من الدَّرجة الثَّانية، أما نبلاء الدَّرجة الأولى فقد تصرَّفوا بانتهازية. هل ضحَّيت بجوادي النَّبيل فالينتي من أجل هذا؟».
لكن إجناثيو العنيد كان يواصل الإسهاب في تفاصيل المأساة: «المجلس المقدَّس، بعد تقديم عريضة تظلُّماتٍ أمام الملك، كان يحاول إخراج دونيا خوانا من torديسياس، وشُنِق أعضاء اللَّجنة في ميدينا. المتمرِّدون وأتباع الملك تواجها في معركة بيالار، وانهزم أولئك. مذبحةٌ كبيرةٌ: أكثر من ألف قتيلٍ. باديا، وبرابو ومالدونادو تم ذبحهم.

غرقت المدينة في الحزن. الجنود يعودون جوعى بجيادهم الجريحة.

والمشاة في حالٍ مزريَةٍ بثياب رثَّةٍ، يمرون بالشَّارع في طريقهم إلى دير سان بابلو. كانوا كالتَّائهين. منهارين. لقاء الحرفيِّين في ساحة السُّوق بدا صامتاً في تلك الظَّهيرة والنَّاس يسيرون في الشَّارع برؤوسٍ خفيضةٍ، لا يعرفون من يلومون على الهزيمة. بينهم كان يسير برناردو سالثيدو حزيناً، لكنه راضٍ لأن ذلك الأمْر وصل إلى ذروته، وانتهى. وجد بيترا جريجوريو على حالٍ غريبةٍ: واقفة أمام الباب، ترتدي فستانًا تنُّورته مفتوحةً من الأمام، وفتحة الصَّدر الواسعة عاريةٌ، من دون عُقدٍ. كانت عيناها تدمعان عندما قالت له:

- «(بابي)، لقد انهزمنا».

احتضنها برناردو سالثيدو بحنانٍ. غارقًا في شبقٍ لا نهائي، كان دون برنادرو يُبدي عطفًا غير معهودٍ. فجأة خلع المعطف القصير الذي كان يرتديه ووضعه على ظهر المقعد. اتَّجه إليها وقال:

- «أوه، النِّساء الجميلات لا يجب أن يتدَخَّلن في هذه الأمور شديدة القذارة».

احتضنها من جديد وانْتَهَزَت قُربه لكي تُخرج ساقها العارية من فتحة التَّنُّورة وتضعها بين ساقَيْ سالثيدو القويّتَين.

قال دون برناردو المندهش:

- «ماذا تفعلين؟ ماذا تبغين؟».

أطلقت ذراعه وتخلَّصت من الفستان بإخراجه من الرَّأس. لم تكن تضع صدريَّةً ولا قميصًا تحته. كانت عاريةً. أرخت خصر التَّنُّورة التي انزلقت حتَّى قدميها. أخذت تضحك بينما تجري برشاقةٍ عبْر الممر وتقول:

- «(بابي)، هكذا يَجبُ أن نتعرَّى من همومنا. أتستطيع أن تمسك بي؟».

كان يجري بارتباكٍ، متعثرًا في الأثاث، رغم أن رغبةً متقدةً تملَّكت منه، لم يستطِع التَّوقف عن التَّفكير في ثرثرة الفتاة. هل بكت حقيقةً، أم أنها اكتفت بإثارته؟ وتساوره الشُّكوك مرَّةً أخرى حول شخصية بيترا جريجوريو. هل كان يعرفها جيدًا؟ أم كان يعرف فقط أنها غير مفهومةٍ؟ عادا للعب الاستغماية، وعندما أمسك بها أخيرًا في الغُرفة الخلفيَّة، وطرحها على الأرض المغطاة بالخشب، بين الأغراض المنزليَّة، استسلمت من دون مقاومةٍ.

الشَّبق الذي كانت بيترا توقظه ألهى سالثيدو عن شغفه السَّابق بمينرفينا. كان يراها قليلًا، وأقَلَّ منها ابنه ثيبريانو الذي أتم ثلاثة أعوامٍ. لكن في الخامس عشر من مايو 1521، في البيت رقم 5 بشارع سان بابلو، وقع حدثٌ غير منتظرٍ، جعله يتواصل مُجدَّدًا مع الفتاة، من دون تدبيرٍ. مينرفينا الشَّابَّة، المرضعة الكفء ذات الثَّديين الصَّغيرين، انقطع عنها اللَّبن فجأةً. أسبابٌ؟ لا يبدو أن هناك أسبابًا. مينرفينا نامت جيدًا، كانت قد تَناولت العشاء كالعادة، لم تقم بأيِّ جهدٍ جسديّ. من جانبٍ آخر، الأحداث الخطيرة في الشَّارع لم تؤثِّر عليها، كما لم تُعانِ من انفعالاتٍ قويةٍ تفسِّر الظاهرة. ببساطةٍ كان الطِّفل يرفض تَناوُل الحلمة، وعندما ضغطت الثَّدي لاحظت أنه جفَّ. حينئذ أخذت تبكي، أعدَّت للطِّفل بعض الحساء بالخبز، أطعمته إياه، غسلت عينيها بمياه الإبريق وخاضت اللِّقاء مع دون برناردو. قالت بمذلةٍ:

- «لديَّ أمرٌ مهم لأخبر حضرتك به. ما بين ليلة وضحاها، انقطع عني اللَّبن».

كانت تعرف أن اللَّبن هو سبب التَّعَاقُد معها في حياة الأم الرَّاحلة. كان يقرأ كتابًا جديدًا، أغلقه ووضعه على المائدة عندما سمع صوت الفتاة وردَّ:

- «اللَّبن، نعم، اللَّبن، بالطَّبع».

ثم أضاف بحيرةٍ:

- «لكن أعتقد أن هناك طرُقًا أخرى لتغذية الطِّفل».

مينرفينا فكَّرت في الخبز المُبلَّل الذي أعطته إيَّاه وقالت ببساطةٍ:

- «بالطَّبع، ولتعرف حضرتك أنه في قريتي لم يمت أيُّ طفلٍ من الجوع، رغم عدم وجود أطباءٍ ولا حلاَّقين يعتنون بهم».

عاد دون برناردو للإمساك بالكتاب من المائدة. من جانبه كان الموضوع منتهيًا. لكن عندما رأى الفتاة تنتظر كلماته، رفع رَأسه مُبتسمًا وأضاف:

- «أبدلنا مرضعةً بمربِّيةٍ. هذا هو الأمْر».

عادت مينرفينا إلى المطبخ بوجهٍ مشرقٍ. «لَمْ يتغيَّر شيءٌ. لن أرحل يا سيدة بلاسا، سأظلُّ مع الطِّفل. السَّيِّد تفهَّم الأمْر». أخذت بيدي الطِّفل وحرَّكته على إيقاعها بينما تدندن بأغنية. بعد ذلك انحنت وغطَّت وجهه بقبلاتٍ صاخبةٍ. بهذا الشَّكل استمرَّت حياة ثيبريانو كما كانت. في الأصباح، في الطَّقس الجيِّد، يخرج للتَّنزُّه مع المربِّية، غالبًا في وسط المدينة، والتَّجوُّل في سوق الخضراوات وواجهات المتاجر، وأحيانًا إلى المنتزه بجوار النَّهر أو مرج ماجدالينا ليتريَّضا. أيَّام الخميس، في منتصف النَّهار، كانت عربة خيسوس ريبيا تحملهما، مع مسافرين آخرين، إلى سانتوبينيا، وهناك كانوا يمضون اليوم مع والدي مينرفينا. كان الطِّفل ينبهر بتلك الرحلات في عربة العوام، واهتزازاتها، والحركة الثَّقيلة للبغال، والحفر العميقة في الطَّريق عندما يتدحرج حتَّى شبكة الخيش في آخر العربة بينما يصرخ فرحًا. إحدى المسافرات من القرية كانت تنظر له بخوف، لكن مينرفينا كانت تهدئها قائلةً: هذا الطِّفل نصف لاعب سيرك.

وتضحك لكي تُفقِدَ الموضوع أهمِّيَّته. بعد ذلك، في القرية، في بيت مينرفينا، كان ثيبريانو يلعب مع أطفال الجيران. كان معجبًا بتلك البيوت ذات الطَّابق الواحد وبالأرض الطينيَّة الصلبة، لكن النظيفة، بالقليل من الأثاث، على أقصى حدٍّ كرسيان، وخزانة، ومائدةٌ من خشب الصّنوبر للطعام، وفي الغُرَف الدَّاخليَّة، سُرُر عريضةٌ من الحديد الأسود، يتقاسمها أفراد العائلة في النَّوم.

اندهشت أم مينرفينا لحجم الطِّفل في أوَّل يومٍ وقالت: «هذا الفتى شديد النَّحافة لا يبدو من بيتٍ ثريّ». لكن الفتاة غضبت، ودافعت عنه كأنه يخصّها: «ليس نحيفًا يا أمي، لديه أشواكٌ بدلًا من العظام، كما تقول زميلتي». بعد ذلك، عندما بدأ الصَّغير في التَّقافز كلاعبي السِّيرك في الأركان، كانت الفتاة تؤكِّد بتباهٍ شديدٍ: «إنه قويٌّ يا أمي. في الشَّهر الخامس كان ينهض في حجري لكي يمسك بالثَّدي، وفي الشَّهر التَّاسع كان يمشي. لم أر شيئًا كهذا من قبل».

كان ثيبريانو يشعر أنه حرٌّ وسعيدٌ في القرية. مع أصدقاء من عمره، يجري في كُلِّ مكانٍ، وأحيانًا، كانوا يقتربون من بيت بيدرو لانوثا، المطلي بالأصفر، ويدقُّون الأوعية ويقولون بأصواتٍ صارخةٍ «مهرطقين ومجانين». وبنات بيدرو لانوثا، خاصَّةً أولبيدو، كنَّ يبرزن من الباب ممسكاتٍ بالهاون ويهدِّدنهم بطحنهم ضربًا. بعد العودة للبيت في العربة الشَّعبيَّة، كان الطِّفل ومينرفينا يحكيان تلك الأمور في المطبخ، والسَّيِّدة بلاسا تسأل: «أما زال بيدرو لانوثا يهبط أيَّام السَّبت حيث فرانسيسكا إرناندث؟». أوضحت مينرفينا: «لكن، فلنر يا سيِّدة بلاسا، افهميني، هم ليسوا أشرارًا، لكن ديانتهم هكذا». وأضافت بلاسا: «ذات يوم سأذهب إلى بيت السَّيِّدة تلك لكي أراهم».

فطام ثيبريانو، كما كان مُنتظرًا، أثَّر على جسد مينرفينا. ثدياها الصَّغيران

في الأصل، تقلَّصا بعض الشَّيء، اكتسبا صلابةً، بينما أصبح جسدها أكثر نحافةً واستعادت أعضائها ليونة القطط التي فقدتها مع الرَّضاعة. لم يمر هذا التَّغيُّر الخفيف مرور الكرام على دون برناردو، المهووس بالجنس، نظرته كانت تنساق وراء الفتاة عندما تظهر في مجاله ويتبعها باستمرارٍ بعينيه مستمتعًا. أحيانًا، عندما تحمل بين يديها وعاءً هشًّا من الفخَّار أو البورسيلين، وتخاف انسكاب محتواه، كان وقْع أقدامها يصبح غير ملحوظٍ، وإيقاعها لطيفٌ، مع تموُّجٍ خفيفٍ لردفيها. كان الطِّفل يتبعها في كُلِّ مكانٍ. منذ بدأ يمشي لم يعودا يقضيان ساعاتٍ كثيرةٍ في السَّطح، حيث ينامان، كما كان الأمر في البداية. وكان هذا يزيد من احتمالات مصادفة أبيه، وكلما حدث هذا، كان الطِّفل يختبئ خلف رداء الفتاة كأنه رأى الشَّيطان. بعد ذلك كانت مينرفينا تسأله في المطبخ: «ألا تحب بابا؟». فيَردُّ: «لا، يا مينا، يصيبني بالبرد». «أيُّ أشياءٍ تقول! بردٌ كثيرٌ؟». والطِّفل يعترف أنه بردٌ كثيرٌ كالذي يحدث عندما تتجمَّد نافورة المتنزَّه التي يصعد إليها ليتزلَّج.

انجذابه للفتاة والنُّفور من ابنه قضيا على حساسيَّة دون برناردو. بعد زمنٍ فكَّر أن تصرُّفه عندما انقطع اللَّبن عن مينرفينا لم يكن ذكيًا. لم يبالِ للخبر وتصرَّف برخاوةٍ، لم يعرف كيف ينتهز الموقف. بشكلٍ مبالغٍ فيه بدا أبويًا ولطيفًا. لهذا، كلَّما رأى الطِّفل يختبأ خلف رداء الفتاة الآن، يُفكِّر أنه يجب أن يفرض إرادته عليه كأب وعليها كسيِّد. الفتاة كانت تستأثر بالصَّغير، ويجب فرض النِّظام عليها. محتقنًا بغيظه، كان دون برناردو يُفكِّر بأفضل قرارٍ يُمْكن اتِّخاذه. كزير نساءٍ خجولٍ قاسٍ، كان يحلم بقرار خيالي يسبِّب ألمًا للفتاة. وهكذا، ذات صباحٍ، بينما كانت الفتاة تغيِّر ماء الزُّهور في الصَّالون، والطِّفل ملتصق بفستانها، اتَّخذ هيئةً جادَّةً لكي يسألها إن كانت تعتبر أن أحد واجباتها أن تفصل الطِّفل عن أبيه. تركت مينرفينا المزهرية والزُّهور فوق المائدة واستدارت مندهشةً:

- «ماذا تريد أن تقول حضرتك؟ الطِّفل يشعر بالحنان تجاه من يهتم به».

تنحنح دون برناردو. ونظر إلى الفتاة التي كانت تخفي الطِّفل خلفها، بنظرةٍ جامدةٍ مُتسلِّطةٍ، وقال:

- «لماذا تجتهدين إلى هذا الحدِّ في تلك المهمَّة الفظيعة بإبعاد ابنٍ عن أبيه؟ بالطَّبع الظروف التي وُلِد فيها هذا الطِّفل لم تكن مناسبةً لإيقاظ مشاعري نحوه. بطريقته، قَام بالتَّخلُّص من أمه. لكن يُمْكن للأب أن ينسى كُلَّ شيءٍ إن حاول الابن أن يُظهر حُبَّه بشكلٍ ما. لماذا تَقُومين مع الطِّفل بعمل مؤامرة عليَّ؟».

مينرفينا، التي لم تكن تفهم كلمات السَّيِّد سالثيدو تمامًا، اغرورقت عيناها بالدُّموع. الطِّفل الذي ملَّ من وقوف الفتاة ثابتة، أطلَّ من طرف الفستان. فقالت الفتاة:

- «أعتقد أنك مخطئٌ. أنا أتمنَّى الخير للصَّغير، لكنَّني أعتقد أنك لا تفعل أيَّ شيءٍ من جانبك لجذبه».

- «جذبه. أجذبه أنا؟ هذا الفعل الجيِّد ليس مسؤوليتي. أنتِ من يجب أن يرشد الصَّغير إلى أفضل طريقةٍ لتوجيه مشاعره، إلى ما هو جيدٌ وما هو سيِّئٌ. لكنكِ اكتفيتِ باستبدال حساء الخبز بالصَّدر، وهذا لا يكفي».

بكت مينرفينا من دون مداراةٍ. أخرجت من كمِّ فستانها المزركش منديلًا صغيرًا للغاية ومسحت به عينيها. شعورٌ داخليٌّ بالانتصار كان يغزو دون برناردو. مال نحو الفتاة من دون مغادرة المقعد:

- «هل حاولتِ تعليم هذا الغرَّ الصَّغير كيف يحترم أباه؟ هل تعتقدين حقيقةً أن هذا الشَّيطان الصَّغير يُبدي احترامًا بسلوكه ذلك؟».

نهض في النِّهاية من الكرسي مُتصنِّعًا غضبًا لم يكن يشعر به. أمسك بأذن ابنه وجذبه نحوه:

– «تعال هنا، أيها الفارس الصَّغير».

الطِّفل الذي أصبح خارج مخبئه، كان يرى مينرفينا تبكي. لكن، ما إن أدار عينيه إلى وجه أبيه الملتحي، حتَّى ظلَّ من دون حركةٍ، متصلبًا، مرتعشًا. ومينرفينا أيضًا كانت تنظر نحوه مشفقةً، لكنها لم تجرؤ على أن تتقدَّم للدفاع عنه. دون برناردو واصل جذْب الصَّغير:

– «هل ستخبرني، أيها الفارس الصَّغير، لماذا تكره أباك؟».

قامت الفتاة بجهدٍ كبيرٍ وصرخت:

– «لا تعذِّبه هكذا. الطِّفل يخاف منك. فلماذا لا تجرِّب أن تشتري له حلوى؟».

سؤال الفتاة البسيط ترك دون برناردو مجرَّداً من أسلحته للحظات. أثناء تردُّده القصير جرى الطِّفل نحوها، ركعت مينرفينا وتعانقا باكيين. كان دون برناردو يشعر بالضَّعف أمام الدُّموع، المشاهد الميلودرامية كانت تصيبه بالتَّقزُّز، وكلمات الاعتذار تصيبه بالغثيان، خاصَّةً عندما تؤدي إلى تخفيف انفعال مشهدٍ كان يرغب في رفع توتُّره. اختار نهايةً مسرحيةً. من دون التَّوقُّف عن النَّظر إلى المتحابين المتعانقَين، الرَّاكعَين على البساط، عَبَرَ الصَّالة في خطوتين واسعتين، دَخَل المكتب وأغلق الباب بعنفٍ. كانت مينرفينا تعانق الطِّفل، وتخلط بين الدُّموع وهمساتٍ في أذن الصَّغير: «يجب عليك أن تحبَّه قليلاً. إن لم تفعل سيطردنا من البيت». تشبَّث الصَّغير بعنقها بقوَّةٍ وسأل: «وهل نذهب إلى بيتك؟ أريد أن أذهب إلى بيتك يا مينا». نهضت حاملةً الطِّفل بين ذراعيها؛ همست في أذنه: «والدا مينا فقيران، يا كنزي، لا يمكنهما إطعامنا كُلَّ يومٍ».

من جانبه، شعر دون برناردو بالرِّضا من المشهد. إبكاء عينين قَامتا باحتقاره من قبل عَنيَ له انتقَامًا. رغم ذلك، عندما حكى هذا لإجنائيو، لم

يقدمه هكذا، وإنما قَام بإضفاء الفضيلة على انتقَامه. قال له: «مع هذا النَّوع من النَّاس لا يفيد الالتزام بالوصيَّة الرَّابعة». إجناثيو المُنصف والمُندفع، أَلمَح إلى بروده مع الطِّفل منذ ميلاده، وعاد دون برناردو للإصرار على أنه، سواء شاء أم أبَى، لم يكن ثيبريانو سوى قاتلٍ لأمه. ألحَّ إجناثيو على عدم إثارة غضب الرَّبِّ، وأضاف أمرًا مُقلقًا لم يَتحدَّث عنه من قبل: ميلاد ثيبريانو الصَّغير في يوم الإصلاح اللوثري لم يكن فألًا حسناً.

الجدل الدِّينيُّ الذي كان أبناء مدينته يهوونه، لم يكن له مكانٌ تقريباً في عالم دون برناردو. لا ديونيسيو مانريكي في متجر الحي اليهوديِّ، ولا أصدقاء اللَّهو في حانة داماسو جارابيتو، ولا وكلاء البارامو، ولا بيترا جريجوريو في عشِّ الحبِّ النَّاعم في شارع مانتيريا، كانوا يدخلون في مثل هذه النِّقاشات المعقَّدة. لهذا، عندما أشار شقيقه الآن إلى لوثر شعر برغبةٍ قويَّةٍ في الكلام عنه، وسأل:

– «أتعرف أن الأب جامبوا قال يوم الأحد في سان جريجوريو إن الوفاق بين لوثر والملك قد انتهى؟».

أمام شقيقه الأكبر، كان إجناثيو يشعر بحريَّة عندما يتنَاول هذه القضايا، أكثر من تلك المتعلِّقة بابن أخيه وأمور الخدم. كان مُطَّلعًا على ثورة لوثر، كان يلتقي بالمثقَّفين والجنود العائدين من ألمانيا، يقرأ كُلَّ نوعٍ من الكتب والأوراق المتعلِّقة بالحركة الإصلاحية. رجلٌ مؤمنٌ، مؤيِّدٌ للبابا، كان وجهه الأحمر الأمرد يتَّقد عندما يتنَاول هذه الموضوعات:

– «إنهم يسحبون الأرض من تحت أقدامنا، يا برناردو. يزدرون أكثر ما نحترم. لوثر هاجم البابا الذي كلَّف الدومينيكان بالتَّبشير بالغفران، لكنه في الواقع يريد أن يقول لنا، إن الغفران والنُّذور لا فائدة منهما، ولا حتَّى التَّوبة. يعتقد أن الشَّيء الوحيد الذي يُنجينا هو الإيمان بتضحية المسيح».

برناردو كان يستمع بانبهارٍ. كان يشعر بفضولٍ تجاه ذلك العالَم الغامض الذي يُقِرُّ بتفوُّق شقيقه فيه. قال:

- «مشكلة الخلاص كانت دائمًا معضلة الإنسان الكبرى».

استند إجناثيو بكوعيه على فخذيه ليقترب من شقيقه:

- «لوثر يتجنب النِّقاش. هدفه هو التَّدمير، والقضاء على البابا، الذي أطلق عليه صفة حمار ينتحل شخصية المسيح. وما أن يتم القضاء على البابوية، سيكون المجال مفتوحًا لأتباعه. اللوثرية أصبحت حركةً لها وزنها. محاولة التَّوفيق في (إيك) انتهت إلى الفشل. لوثر لا يتراجع عن أيِّ شيءٍ. يَقُولُ إنه لكي يُقِيم حوارًا، يحتاج لبابا أكثر تأهيلًا. ليون العاشر أدان عقيدته وحرمه كَنَسيًا، وقَام الإمبراطور في (فورمس) بتأييد هذه العقوبة. هرب لوثر إلى فيتنبرج، ومع أنه مسجون في قلعة الأمير، لم يتوقَّف عن كتابة كُتُب محرضةٍ تنشر الطَّاعون في أوربا».

شرب دون برناردو رشفةً من نبيذ. الزِّيارات المسائيةَّ لشقيقه كان فيها تلك الميزة: كان يكرم الضُّيوف بأفضل نبيذٍ في البلاد. قبو نبيذه ومكتبته، ذات خمسمائة وثلاثة وأربعين مجلَّدًا، كانا الأكثر شهرةً في المدينة. وبالإضافة إلى تناول نبيذٍ جيدٍ، كان يقدمه في كؤوسٍ من أرقى أنواع الكريستال، التي كانت جابريلا زوجة أخيه، تَحْتَفَظ بها شديدة النَّظافة مثل ثيابها التي كانت تجذب موديستا ومينرفينا بشدَّةٍ. كانت زيجة إجناثيو، أكثر زيجات بلد الوليد التي لا تمتلك أبناءً استقرارًا. ورغم أن دون برناردو كان يسمح لنفسه أحيانًا بمزحةٍ حول تديُن شقيقه، ورغم أن يكبره بثمانية أعوامٍ، كان يشعر نحو شخصه وآرائه باحترامٍ ظاهرٍ وباطنيٍّ عميق. ومن هنا، كلَّما أدت الظروف إلى تواجههما، لا يجد دون برناردو في متناوله ذريعةً مناسبةً سوى الخبرة أو العمر. هذا ما حدث، على سبيل

المثال، بعد شهرين من الحوار حول الاصلاح البروتستانتي، عندما قَام دون إجناثيو سالثيدو، خارجًا عن طوره، باستقباله بعبارةٍ ملتويةٍ غامضةٍ، مغزاها يفوق إدراكه. لكن نظرًا لخطورة تعبيراته ونبرة الصَّوت التي كانت توحي بالغضب حين قال:

- «بلد الوليد تستمتع وبرناردو سالثيدو يقوم بدفع الحساب. ماذا تبدو لك هذه العبارة الصَّغيرة التي أسمعها يومياً في كُلِّ مكانٍ؟».

نظر له دون برناردو بريبةٍ، وباحتقانٍ خفيفٍ:

- «ماذا دهاك؟ هل أنت منفعلٌ؟ ماذا تريد أن تقول بهذا بحقِّ الشيطان؟».

شحب وجه دون إجناثيو، ويداه وخاتم الزَّواج كانا يرتعشان. فحسبما يتذكَّر، لم يصل تأثُّره إلى هذا الحدِّ من قبْل:

- «إن محبوبتك تَقُوم بخداعك أنت والمدينة بأكملها. كُلُّ النَّاس غارقةٌ في النَّميمة على حساب هذه الفتاة الانتهازيَّة».

بدا كأن دون برناردو صُدم:

- «كيف تجرؤ على الكلام معي هكذا؟ يُمْكنني أن أكون أباك الثَّاني!».

- «لَمْ أكن لأقول شيئاً آخر لأبي الأوَّل، صدقني يا برناردو. لست أنت أو أنا اللذين على المحكِّ، إنما لقب عائلتنا».

- «ومن أين خرجت تلك الشَّائعات الكاذبة؟».

- «لا توجد شائعاتٌ في المحكمة يا برناردو. ما يُقَال في المحكمة العليا كلامٌ لا غبار عليه. لماذا لا تجرِّب أن تزور تلك الفاسقة فجأةً؟ فقط بعد أن تتحقَّق مما أقول لك، سأواصل مناقشتك في أمْرٍ مخزٍ كهذا».

عندما فتح دون برناردو باب الشَّارع كان مُقتنعًا أن شقيقه يقول له الحقيقة. بيترا جريجوريو كانت تتلاعب به منذ أول يومٍ. البراهين تتراكم. لم يكن أستاذًا في فنون الحب، وهي ليست تلميذةً نبيهةً. ببساطة كانت عاهرةً، وهو نبت له قرنَان. لم تُغيرّ سلوكها حتَّى وصلتها العملات الأولى. بعد ذلك، تغيرّ البيت، ملابسها، فخامة القصور في المسكن الجديد. كيف لم يُفكّر من قبل أن مخصَّصاتها لا تكفي كُلَّ هذا البذخ؟ ماريا دي لاس كاساس خَدَعَته، ومن الممكن أيضًا أن يكون جسده حاملًا لمرضٍ مقزِّزٍ في هذا الوقت. في المدخل، على ضوء القنديل، نظر إلى ظهْر يديه، لمس وجنتيه بأصابع مرتعشةٍ، لم تكن هناك تقرّحات ولا التهابات. يُمْكنه أن يشعر بالهدوء حتَّى الآن على الأقل. كان قد ترك بيترا منذ أقلّ من ساعتين، لكنه أخذ شارع بيردوجو وسار حتَّى بيتها. شبق الفتاة الجنسيّ، فكَّر، لا يُمْكن أن يُخترع ولا يخضع لدروسٍ حديثةٍ. كانت للمحظيَّة خبرةٌ جنسيةٌ كبيرةٌ قبْل لقائه. الفتاة التي كانت تتنهَّد مرَّةً بعد الأخرى على كفْل لوثيرو ليلة هبوطه بها من البارامو لم تكن فتاةً ساذجةً وإنما ممثّلةٌ خبيرةٌ. ما العمل؟ كيف سيجدها؟ كيف يجب أن يتصرَّف رجلٌ نبيلٌ أمام سُبَّةٍ كهذه؟ هذا ما كان يشغل بال دون برناردو لحظة إدخاله المفتاح في القفل. سأل نفسه: «هل توجد طريقة لإصلاح الضَّرر من دون مخاطرٍ وبكرامةٍ؟». كان قد صعد القطاعين الأخيرين من السُّلَّم بسرعة وهو الآن يلهث أمام الباب. حاول أن يُهدِّئ من نفسِه: لكن لماذا أصدق إجناثيو بأعينٍ مُغمَضةٍ؟ لم يكن حقيقيًا أن ما يصدر من المحكمة حقائقٌ موثقةٌ فقط. المحكمة تُخطئ مثل الجميع وهو سيبرهن على هذا. بيدٍ مرتعدةٍ فتح باب المسكن. نور القناديل المرتعش الذي يصل للرَّدهة كان صادرًا عن غرفة النَّوم الخلفيَّة. نعلا دون برناردو لم يكونا يُصدران صوتًا بينما يتقدَّم عبْر الممرِّ. كان يشعر بقلقٍ إزاء الصَّمت المتزايد في البيت، لكن عندما أطلَّ على غرفة

بيترا جريجوريو رأى ميجيل ثامورا، القاضي، يرتدي ثيابه فوق البساط، بساقَين متأرجحتَين في الهواء. أغطية الفِرَاش كانت مُبعثرة لكن بيترا لم تكن هناك. ميجيل ثامورا يلبس سرواله، وقد انزعج لرؤيته. شعر بالخجل، لأنه تمت مفاجأته بالملابس الدَّاخليَّة، وليس لخيانته:

- «ماذا تفعل هنا في هذه السَّاعة؟».

- «ألهذا ائتمنتك على جوادي، يا ابن العاهرة؟».

حاول ميجيل ثامورا إدخال السَّاق اليمنى في السِّروال من دون نجاحٍ. فقال مُتلعثمًا:

- «لا علاقة بين الأمرين يا سالثيدو».

جذبه دون برناردو بقوَّةٍ من الصَّدريَّة المطرَّزة بخيوطٍ فضِّيةٍ ورفعه قليلًا عن الأرض. كان منظر ميجيل ثامورا قبيحًا، بعد أن وقف بالسَّاقين المشعرتين العاريتين. قال دون برناردو مُقرِّبا شفتيه من طرف أنفه:

- «عليَّ أن أقتلك هنا».

- «بيترا ليست زوجتك. لن تحظى بتعاطف المحكمة».

- «لكنَّني سأحظى بمتعة قتلك بيديّ».

- «سيكون فعلًا له عقابه يا سالثيدو. القانون ليس في صفِّك».

كانا يتحدَّثان بصوتٍ خفيضٍ، على مسافة إصبعين، وعندما أفلته دون برناردو باحتقارٍ، بالكاد كان صوته مسموعًا بينما يغمغم: «خنزيرٌ، قاضٍ حقير». بعد ذلك، بصوتٍ أوضح، عندما كان يغادر الغُرفة صاح:

- «أنت وأنا لسنا سوى مغفَّلين لا نعرف أين نخفي أطراف قروننا».

خرج للطُّرقة لحظة خروج بيترا أيضًا من باب المطبخ. كانت تحمل صينيَّةً من الفضَّة، عليها طعامٌ معدٌّ على عجلٍ، وكانت تتمايل في سيرها

على الأرض الخشبيَّة، لكن، مع الصَّفعة القويَّة لدون برناردو طار كُلّ شيء في الهواء مصحوبًا بضجَّةٍ، باستثناء بيترا جريجوريو، التي فقدت توازنها وسقطت على الأرض. قال دون برناردو مُنهيًا الموقف:

- «أعدِّي لوازمك. ستعودين غدا إلى الأرض الخراب التي جئتِ منها».

في اليوم التَّالي، دبَّر ديونيسيو مانريكى لقاءً في المخزن مع الوسيطة، ماريا دي لاس كاساس:

«وَعَدْتِ بعذراءٍ وأعطيتِ عاهرةً. ما رأيك في المقايضة؟».

ركعت ماريا دي لاس كاساس. عبثًا حاولت تقبيل طرف مِعْطَفه:

- «تمَّ خداعي مثل حضرتك. أقسم بأمواتي».

كانت تنظر إليه من أسفل مُتوسِّلةً. لكن دون برناردو لم يلِن؛ كان شديد الحنق، فقال محذِّرًا:

- «اسمعيني يا ماريا دي لاس كاساس، إن حدث ذات يومٍ، وندعو الرَّبَّ ألا يحدث، وأصبتُ بالزُّهريّ بسببك، سوف آمر بضربك من دون رحمةٍ، وبعد ذلك سوف أُدخلك السِّجن حتَّى تتعفَّني. أخي في المحكمة العليا. لا تنسي هذا. يمكنك الذهاب».

V

من دون أن تدري، كانت الشَّابَّة مينرفينا متَّفقةً مع مجمع ألكالا دي إينارث الذي يرجع للعام 1480[1]، وترى أن التَّعليم الدِّينيّ والمدرسة هما الشَّيء ذاته. أمُّها في سانتوبيبنيا، قبل عشرين عامًا، كانت تعتقد أيضًا أن تعلُّم القراءة والكتابة يَعْني دراسة العقيدة. وساعدها الكاهن الطَّيِّب دون نيكاسيو ثيليمين الذي كان يدقُّ الأجراس في القرية كُلَّ يومٍ في الحاديَةَ عشرة صباحًا، لنيَّةٍ مبهمةٍ، يفسِّرها كُلُّ مواطنٍ على هواه: إنهم يدقُّون جرس المدرسة، يقول البعض، بينما آخرون، أكثر وَرَعًا، عندما يسمعون القرع كانوا يقدِّمون تفسيرًا آخر: دون نيكاسيو ينادي على دروس العقيدة، هيًّا؛ إنها ساعة دروس الدِّين. على أيِّ حالٍ، كان سكَّان سانتوبيبنيا في بدايات القرن، يخلطون التَّعليم والتَّعاليم الدينيَّة، وهكذا خرج جيلٌ، تنتمي له مينرفينا، يرى أن التَّعليم والتَّوجُّه للرَّبِّ هما الشَّيء ذاته. كان هذا المفهوم راسخًا لدى الفتاة، حتَّى أنها كانت تخصِّص ساعةً يوميًا للتَّربية

(1) مجمع ألكالا دي إينارث 1480 هو أول المجامع التي استمرت حتَّى 1501 من أجل مواجهة ضحالة معلومات رجال الدين من جانب، وأيضًا لتشجيع ودعم تحويل العرب واليهود إلى المسيحية قبل طردهم من الأراضي التي يتم استعتدتها الى الكاثوليكية. وكانت الفكرة الرئيسية في هذه المجامع التوفيق بين التعاليم الدينية والكنسية، وبين المدرسة كمكان للدراسة الدنيوية.

الدِّينيَّة للصَّغير، قبْل أن يتم ثيبريانو سبعة أعوامٍ. في البداية تقبَّل الطِّفل الأمر الجديد كإزجاءٍ للوقت. خلْف بابٍ مغلقٍ في الغُرفة التي ينام فيها ثيبريانو، أمام المائدة الممتدَّة تحت فتحة الإضاءة في السَّقف، كانت مينرفينا تعلِّمه. أوَّل شيءٍ علَّمته كيف يرسم الصَّليب أمام وجهه، وإشارات دينيَّة كانت تَصْعُب على مينرفينا قبل عشرين عامًا، لكن لم تكن بها أيُّ صعوبةٍ لثيبريانو:

- «تفعل هكذا وهكذا، وبالأصابع ترسم رمز الصَّليب. هل تفهم؟».

قال الطِّفل مُبتسمًا:

- «نعم، رمز الصَّليب».

كان ثيبريانو يدرك معنى العلامات على أكمل وجهٍ، وعندما قَالَت له الفتاة إن الصَّليب على الجبهة يفيد في طرد الأفكار الشرِّيرة، وعلى الفم لتفادي الكلمات السَّيئة، وعلى الصَّدر لإبعاد الرَّغبات الشِّرِّيرة، فهم هذا رغم أنه لا يميِّز بين الأفكار الشِّرِّيرة، والكلمات السَّيِّئة، وبين الأفعال الشِّرِّيرة، والطَّيب منها. بعد الرُّموز المسيحية، اتَّبعت مينرفينا قواعد دون نيكاسيو ثيليمين، الذي علَّق على أحد جدران الكنيسة، في أوَّل يومٍ، لوحةً تقول «دليل تعليم القراءة للصِّبية». وقامت بتعليمه الصَّلوات: **أبانا الذي في السَّموات، السَّلام عليك يا مريم، أؤمِّن بالرَّبِّ القادر، وأنشودة مريم**. كانت الفتاة تُغني معه مرَّةً بعد الأخرى، والطِّفل يحفظ بسهولةٍ مدهشةٍ. أحيانًا كان الصَّغير يقاطعها:

- «أنا مرهقٌ يا مينا. هيا بنا نلعب لعبة الجنود».

لكنها كانت تفرض إرادتها:

- «يجب أن نقوم بهذا حتَّى إن لم يعجبنا، يا كنزي. من دون الصَّلاة لن ينقذك أحد، ومينرفينا ستذهب للجحيم إن لم تساعدك في إنقاذ نفسِك».

كانت تكرِّر تعبيرات دون نيكاسيو ثيليمين لكنها كانت واثقةً تمامًا في تلك اللَّحظة أن ثيبريانو إن لم يتعلَّم الصَّلاة بسببها، فسوف ينتهي به وبها الأمر إلى نيران الجحيم. كان يحرِّكها مزيجٌ من الرَّغبة والخوف: الذِّهاب للسماء، مُلتقى كُلِّ الخيرات، هو الهدف، بينما كان الجحيم يمثل بالنِّسبة لها وأيضًا للطِّفل، العقاب الأبديَّ، عاقبة كُلِّ شرٍّ، وخطرًا يجب تفاديه.

- «وإن لم أصلِّ، هل سأذهب للجحيم يا مينا؟».

- «افهمني. يجب عليك أن تتعلَّم التَّفرقة بين الخير والشَّرِّ، وبعدها أنت حرٌّ في فعْلِ ما تشاء».

الطِّفل كان يُردِّد العبارات التي تنطقها مينرفينا مُنغِّمةً، ويطيعها لأنه كان يعرف أن هذا لخيْره، وأنها كانت تنقذه، وتفعل من أجله أقصى ما يُمْكن أن يفعله شخصٌ من أجل الآخر. رغم هذا، ذات صباحٍ، كان ثيبريانو مُنهمكًا في ألعابه، حتَّى أنها لم تجد طريقةً للتعامل معه:

- «بعد قليل يا مينا. لا أريد الصَّلاة الآن».

تلك اللَّيلة تأخَّر في النَّوم. عندما استطاع النوم في النِّهاية، قُرْب الفجر، ظهرت له صورة الرَّبِّ، طافيةً في السَّماء، بين السُّحب. صورة رآها من قبْل في مكانٍ ما، ربما في كتابٍ ما، لكنها الآن بملامح دون برناردو: وجه ممتلئ، ولحية وشعر كثيف ناعم ونظرة ثلجية جارحة تقاطعت في لحظةٍ مع نظرته. أغلق ثيبريانو عينيه، وانكمش خوفًا، وأراد الاختفاء من العالم، لكن الرّبّ أمسك بإحدى أذنيه وقال له:

- «هل ستقول لي أيها الفارس الصَّغير، لماذا لا تريد الصَّلاة؟».

استيقظ ثيبريانو فزِعًا. رأى المربَّع المرصَّع بالنُّجوم فوق رَأسِه عبْر كوَّة السَّقف، لكنه لم يجد في نفسِه قوَّةً للصراخ. قلبه كان يصدر ضجيجًا في صدره وغمر الضِّيق معدته. حينئذ نهض من الفِرَاش وركع على الأرض

وبدأ في غمغمة الصَّلوات التي ضيَّعها في الصَّباح. صلَّى وصلَّى حتَّى نام على مسند القدمين، ساقطًا بجانب الفِرَاش. فوجئت به مينرفينا هكذا في الصَّباح، أدخلته معها في الفِرَاش وأمدَّته بالدِّفء. بصوتٍ مُتقطِّعٍ أخذ الطِّفل يحكي تجربته:

- «وجاء الرَّبُّ، لكنه كان أبي يا مينا، وجذبني من أذني وقال لي إنني يَجِبُ أن أصلِّي دائمًا».

- «هل أنت متأكِّدٌ أن أباك كان هو سيِّدنا؟».

- «متأكِّدٌ يا مينا. كان له العينين ذاتهما واللِّحية ذاتها».

- «وهل كان شديد الغضب؟».

- «شديد الغضب يا مينا. جذبني من أذني وناداني بالفارس الصَّغير».

لَمْ يستهجن دون برناردو قيام المربِّية بتلقين الطِّفل التَّعاليم الدِّينيَّة. أدهشته تربية مينرفينا ووافق على طريقة دون نيكاسيو ثيليمين كبدايةٍ. رغم هذا، كانت معارف الفتاة محدودةً للغاية والوقت يمر من دون أن يتقدَّم الطِّفل. بعد الوصايا، علَّمته مبادئ العقيدة، أعداء الرُّوح، الفضائل الإلهيَّة والتطويبات الثَّماني، لكنها لا تعرف أكثر من هذا. كتاب (تعليم القراءة للصِّبية) لا يذهب أبعد من هذا، ولا نظام التَّلقين لدون نيكاسيو. حينئذ فكَّر دون برناردو في الاستعانة بمُعلِّمٍ. كان في المدينة مُعلِّمون جيِّدون في ذلك الحين، وكانت العائلات الكبيرة تأتمنهم على أبنائها. المُعلِّم يعني تقدُّمًا دراسيًّا شبه مؤكَّدٍ. لكن، بالإضافة إلى هذا كان دلالةً على التَّميُّز الاجتماعيِّ الذي يُقرِّبه من طبقة النُّبلاء، حلمٌ خفيٌّ لدون برناردو منذ امتلك وعيًا. السَّيِّد سالثيدو كان يعرف أنه خلف التَّطويبات يوجد عالمٌ فكريٌّ مختلفٌ أكثر رحابةً، لسوء الحظِّ لم يعرفه: حروف علَّة، حروفٌ ساكنةٌ، إمكانيَّةٌ لضمِّ المقاطع، حروفٌ وجملٌ لاتينيَّةٌ. القراءة باللَّاتينيَّة

والكتابة بالرومانثية[1]، كان يقُولُ لنفسه سرًا، هذا هو الطَّريق. الطِّفل أصبح كبيرًا ولم يعد من المستحَبِّ ترك تعليمه في أيدي مربِّيات، خاصَّةً مع الأخذ في الاعتبار مكانتَه الاجتماعية. ما زالت بعيدةً مرحلةُ جدول الحساب سيِّئة السُّمعة، البعيدة عن المنال، التي كان يرغب أن يتعلَّمها ثيبريانو رغم محاذير الفترة. إذن لا غنى عن المُعلِّم. لكن، هل سيكون مُعلِّما مقيمًا؟ لم يكن دون برناردو من أنصار فتْح بيته لمُعلِّمٍ معتادٍ على دخول البيوت. الفكرة ذاتها كانت تحبطه وتجعله يشعر أن جهله، الذي لا يكاد شقيقه إجناثيو يلحظه الآن، سيُكشف أمام مربٍّ يشاركه الطَّعام والجلسات بعده. هكذا وصل إلى قرار التَّعَاقد مع مُعلِّمٍ يأتي في الصباح، ويغادر البيت في الثَّانية عشرة ظهرًا.

حضور دون ألبارو كابيثا دي باكا، بمِعْطَفه حتَّى الرُّكبة، والرَّثُّ إلى حدٍّ كبيرٍ، وبتفصيلةٍ فرنسيةٍ، وسرواله الأسود، الضَّيق، أخاف ثيبريانو ولم يبهر دون برناردو. كان الأمْر سهلًا رغم هذا للوصول إلى اتِّفاقٍ، لكن بالنِّسبة للصَّغير كانت الضربةَ القاسيةَ هي استبدال الطَّابق الأول بالعلوي، وغرفةٍ مجاورةٍ لأبيه بغرفته ذات السَّقف المائل، والانفصال لأوَّل مرَّةٍ عن مينرفينا.

دون ألبارو، النَّحيف، الصَّارم، بوجنتين بارزتين ولحيةٍ خفيفةٍ، وضَع مسافةً بينه وبين تلميذه منذ اليوم الأوَّل. رغم هذا، كان الطِّفل يُجيب بسرعةٍ وذكاءٍ، حتى قبل أن يكمل سؤَّاله. وأثناء تناول الأمور المعهودة مرَّ كُلُّ شيءٍ بلا مفاجآت. ومع هذا، شعر ثيبريانو بالخوف. عاش مفزوعًا لقرْب والده في الغُرفة المجاورة. وكلَّما سمعه يسعل أو يسحب الكرسي كان وجهه

(1) هي اللغات المحليِّة في بلدان أوربية عديدة، خاصة جنوب أوربا، وتعتبر المرحلة الوسطى بين اللغة اللاتينية الكلاسيكية واللغات المحلية الحالية. ويمكن القول إنها اللغة الدارجة في كل بلدٍ بعد أن أصبح لها قواعد للقراءة والكتابة في ذلك الوقت.

يشحب، ويظلَّ جامدًا ورَأسه أجوفٌ، مترقبًا. السَّبع عشرة عطسةً المتتابعة لدون برناردو في ساعات الصَّباح الأولى التي حفظها. كان يطلقها بطريقة تجعل كُلَّ عطسةٍ كانفجارٍ صغيرٍ، الأشياء ترتعش وأساس البيت يهتزُّ. فكرة قرْب أبيه فرَضت نفسها على أيِّ اعتبارٍ في ذهن ثيبريانو. كان يعيش مُترقبًا لأصواتٍ مفاجئةٍ، شخيره الغليظ، سيره، عطسه. بعد كُلِّ زفيرٍ للأب كان ثيبريانو يتخيَّل وجهه، ونظرته الجليديَّة، ولحيته المُضمَّخة بالزَّيت، وتقطيب حاجبيه القاسي. لكن دون ألبارو لم يدرك شرود الصَّغير حتَّى انتهى من (منهج الصِّبية). من دون تَعَمُّدٍ، كان ثيبريانو يقاوم الانتقال لآفاقٍ جديدةٍ. أَكثَرُ من الرَّفض، كان هناك مانعٌ ماديٌّ من سماع شروح المدرِّس، للتركيز في كلماته. كان الطِّفل ينظر باستمرارٍ إلى ساق المُعلِّم السَّوداء، لكن رَأسه كان ينتقل من دون توقُّفٍ إلى ما وراء الحائط. ماذا تعني السَّعلة التَّسلُّطية لدون برناردو التي سمعها الآن؟ لماذا سحب المقعد إلى الخلف ونهض؟ إلى أين سيذهب؟ كُلُّ مخاوف الطُّفولة الأولى هجمت عليه فجأةً. من دون مينرفينا إلى جانبه، كان يشعر أنه إنسانٌ ضعيفٌ. كان دون ألبارو يَتحدَّث إليه من دون توقُّفٍ، بنبرة صوتٍ خفيفة الخشونة، والعينان خلف وجنتيه:

- «هل فهمت يا ثيبريانو؟».

يعود ثيبريانو للواقع في الحال. ينظر له كأنما يَقُولُ أجهل من أين خرجت وإلى أين أنت ذاهبٌ، لا أدري عمَّا تحدِّثني، لكنه يكذب: «نعم يا سيِّدي».

حينئذ يتقدَّم دون إلبارو قليلًا حتَّى يدرك أن ثيبريانو لم يكن يسمعه، وأن عقل الفتى ظلَّ متوقِّفًا عند (منهج الصبية). حينئذ، بصبرٍ، مرَّةً بعد مرة يعود للبدء. أمرٌ من اثنان: إمَّا أن دون ألبارو كان يمتلك ثقةً عمياء في قدرته التعليمية أو أن الرَّاتب المُتَّفق عليه مع دون برناردو كان مُعتبرًا. ما حدث أن التَّصنُّع استمر شهورًا، دون ألبارو ينتظر أن يستيقظ تلميذه، وثيبريانو

يترقَّب ما يحدث في الغرفة المجاورة. وهكذا وصل الطِّفل إلى قراءة اللَّاتينيَّة بقدرٍ من السَّلاسة لكنه كان يخطئ في التَّصريف. كان عصيًا عليه حتَّى أن دون ألبارو، المحبَط، قام ذات يومٍ، بالتَّطرُّق للموضوع مع دون برناردو بعد نهاية الدَّرس. اللِّقاء كان قصيرًا وسخيفًا:

- «بعد ذلك لن نحصل على شيءٍ يا دون برناردو. الطِّفل يُفكِّر في أمْرٍ آخر».

- «في أمْرٍ آخر؟ الصَّغير لم يعرف شيئًا آخر. من الصَّعب أن يُفكِّر في شيء إن لم يعرفه».

- «إنه يشرد. لا يمكنني أن أجعله يركِّز».

دون برناردو الذي كان مرتديًا ملابس الخروج لكي يذهب إلى المتجر بدا متعكِّر المزاج:

- «هل تُلمِّح أن الولد أبله؟».

قال دون ألبارو:

- «من فضلك! الفتى ذكيٌّ مثل سنجاب، لكنه ذكاء من دون فائدةٍ. إنه لا يركِّز معي، لا يسمعني، لا يهتم بما أقول له».

اضطرَّ دون برناردو للإقرار بأن المُعلِّم لم يكن الوسيلة الأفضل لتعليم ابنه، الصَّغير قاتل أمه. توجد حلولٌ أخرى، لكن كرجلٍ يحمل ضغينةً، ارتجل حلًا بسرعةٍ: مدرسةٌ. مدرسةٌ داخليَّةٌ صارمةٌ ومن دون إجازاتٍ. حانت ساعة إبعاده عن المربِّية. يعرف دون برناردو أنه لا يوجد في المدينة مركزٌ مدرسةٌ جديرةٌ بهذا الاسم. لكن شقيقه برناردو كان أكبر رعاة الأكثر شهرة من بينها: دار ومدرسة الأطفال اللُّقطاء، الذي تديره جماعة (سان خوسيه ونويسترا سنيورا دي لا أوو)، والمخصَّص لتعليم الأطفال المهجورين.

تألَّم شقيقه لهذا القرار:

- «هذه المدرسة ليست لأناسٍ من طبقتنا يا برناردو».

دون برناردو كان يغازل الآن فكرة تلقين الأرستقراطية درسًا، وفتْح عينيها:

- «لقد حدَّثوني عنها. تتمتَّع بثمانية وعشرين سريرًا للمكفولين، ويمكن لابني أن يدفع إقَامته، بالإضافة لخمسة زملاءٍ إن كان هذا ما يَجِبُ فعْله لكي يفتحوا الباب له».

وضع دون إجناثيو يديه على رَأسه:

- «مدرسة الأطفال اللُّقطاء تعيش على الصَّدقة يا برناردو. وأن تعرف أن الأطفال الذين تخلَّى عنهم أباؤهم ليسوا أناسًا يُنصح بمعاشرتهم. إنها مدرسةٌ جادَّةٌ لأن أعضاء مجلس الجماعة اجتهدوا في هذا، ووضعنا لإدارته مُعلِّمًا كفوئًا. على دقات الأجراس، يفد أولادٌ من كُلِّ الطَّبقات إلى دروس العقيدة في الصَّباح، بل وفي بقيَّة الدُّروس يقبَلون طلَّابًا مقابل أجرٍ. ألن يكون هذا هو أفضل حلٍّ لثيبريانو؟».

رفض دون برناردو بعناد:

- «يجب على ابني أن ينضج. مربِّيته دلَّلته بإفراطٍ. وقد انتهى هذا. سيذهب إلى المدرسة الدَّاخليَّة ولن يستمتع حتَّى بإجازاتٍ؛ لكن من أجل إلحاقه بالمدرسة أحتاج إلى معونتك. هل أنت على استعدادٍ لمساعدتي؟».

من ناحية القدرة على التفكير كان دون إجناثيو يفوق أخاه بمائة ذراعٍ، لكنه كان يفتقد للقدرة على فرض رأيه. في اليوم التَّالي زار الجماعة التي تدير المركز، وعندما حدَّثهم عن العرض السَّخيِّ لشقيقه، لم يجد سوى كلمَّاتٍ طيِّبةٍ، وهو ما حدث أيضًا في اجتماع أعضاء المجلس في الخميس التَّالي، الذي صوَّت على قبول الصَّغير. بهذا الطَّريق، وبالالتزام بدفع

تكاليف ابنه وكفالة ثلاثة زملاءٍ والمساهمة بسخاءٍ في صندوق الصَّدقات، تم قبول ثيبريانو في الدار.

بكت مينرفينا حتَّى جفَّت عيناها عندما تم إعلامها بالخبر، لكن للمرَّة الأولى، لم ينتقل بكاؤها للصَّغير. الخوف الذي كان أبوه يشيعه في نفسه كان أقوى، وفكرة الابتعاد عن بيته والحياة مع صبيةٍ آخرين، بدت له جريئةً ومرغوبةً. قرار والده بعدم رؤيته ولا حتَّى في الصَّيف كان يزيد من رغبته في الابتعاد عن تلك العينين الحادَّتين اللَّتين عكَّرتا طفولته. من جانب آخر، حديث دون برناردو عن الحفاظ على مينرفينا في وظيفتها، بثَّ فيه طمأنينةً، بأنه لم يقطع الطَّريق على فكرة التَّراجع. عادت الفتاة لذرف الدُّموع في المدبغة، وبجانب النَّهر، وأمام المدرسة. قبَّلت ثيبريانو واحتضنته مرَّاتٍ قبل أن تتركه يرحل، بجراب في كُلِّ يدٍ، ويختفي خلف الباب. عندها شعرت أنها فقدته إلى الأبد.

مبنى المدرسة لم يكن كبيرًا، لكن كانت له ثلاثة ملحقاتٍ فسيحةٍ: المصلى، غرفة النَّوم وفناء اللَّعب. ما إن وضع ثيبريانو قدمه فقد أمْرَين جوهريَّين: المظهر والاسم. لم يعد يرتدي ملابس مميَّزة تجهِّزها مينرفينا كُلَّ أسبوعٍ بعنايةٍ، واعتاد على الزِّيِّ الموحَّد الإجباريِّ في المركز، بطابعه الرِّيفيِّ الواضح: سروالٌ من الخيش الخشن حتَّى أسفل الرُّكبتين، وقميصٌ بسيطٌ، ومِعْطَفٌ في الشِّتاء وحذاءٌ من جلد الخروف مفتوحٌ وعالٍ يُغلَق على السمَّانة بأربطةٍ تنتهي إلى عقدةٍ. الشَّيء الثَّاني الذي فقده ثيبريانو لدى التحاقه بالدار كان الاسم. لم يسأله أحد عن اسمه، لكن، في لحظة قرع الجرس للنداء على درس العقيدة اقترب منه كورسيل[1] وقال له:

- «اقرعه أنت يا نحيف، فأنت الجديد».

(1) لقب يطلق على الجواد النبيل خفيف الحركة.

كورسيل كان فتى طويلًا، ضخم القدمين، أطرافه غير متناسقةٍ، يميل قليلًا إلى الجانب الأيسر، وكان من الواضح أنه يتمتَّع بالهيمنة في المركز. قَام ثيبريانو بهزِّ الحبل بحماسةٍ، كان الجرس يرن بينما تيتو ألبا، بعينيه المحدِّقتَين، المذهولتَين، برموشٍ قصيرةٍ، يستجوبه:

- «هل أنت لقيطٌ يا نحيف؟».

- «لـ.. لا».

- «وفقيرٌ؟».

- «كـ.. كلا».

- «إذن ماذا تفعل هنا؟».

- «أتَعَلَّم. أبي يريد أن أتَعَلَّم مثلكم».

- «يا للفكرة! هل تعرف كورسيل؟».

- «أمرني أن أقرع الجرس».

اندهش ثيبريانو لتردُّد صوته في الإجابات الأولى. الاتِّصال بشخصٍ مجهولٍ كان يوتِّره. كان يشعر بانفعالٍ غريبٍ، وخوفٍ من التَّواصل. لكن، ما إن يتغلَّب على التَّردُّد الأوَّلي حتى يسير الحوار بسلاسةٍ، من دون تعثُّراتٍ. فكَّر في أنه لم يلحظ هذا من قبل، واستنتج أن عالمه الصَّغير كان ينتهي في مطبخ بيت أبيه، وفي زياراته القصيرة إلى سانتوبينيا. كان التَّعامل مع أطفالٍ آخرين لعبةً من الأسئلة والإجابات الآلية، من دون تفكيرٍ مُسبَقٍ، وبالتَّالي، لم يكن هناك سببٌ للتَّلعثم.

في حصَّة العقيدة كانوا يرتلون الصَّلوات والأسئلة والإجابات للتَّعاليم الإسبانية-اللَّاتينيَّة بنبرة الصَّوت ذاتها التي كانت مينرفينا تستخدمها، وهي ذاتها التي كان دون نيكاسيو ثيليمين، كاهن سانتوبينيا، يستخدمها قبْل عشرين عامًا. وبهذا يُمْكن لأكثر الأطفال سذاجةً حفْظ التَّعاليم، وكان

هذا هو الهدف. لكن عندما انتهى دون لوثيو، المُعلِّم من قراءة قوى الرُّوح وسأل المجموعة المُكوَّنة من سبعةٍ وخمسين فتى من يعرف الفضائل الإلهيَّة، لم يرفع أحد يده سوى ثيبريانو. قال:

- «إ.. إيمانٌ، ورجاءٌ، ومحبةٌ».

مع العقيدة، كانت الدِّراسات تمتدُّ إلى اللَّاتينيَّة، والكتابة بالرومانثية، وقواعد الحساب. التَّغيير الذي حصل لثيبريانو مدهش: حماسته المفاجئة لتوسيع أفق معارفه، ورغبته في التَّعلُّم، بالتَّوازي مع اهتمامه الوليد بالمشاركة في الألعاب التي يمارسها زملاؤه أثناء الرَّاحة في الفناء.

في الثَّانية والنِّصف، بعد الغداء في غرفة الطَّعام الصَّاخبة على مائدتين كبيرتين، يترأسهما المُعلِّم من فوق المنصَّة، كان اللُّقطاء يخرجون للنُّزهة بصحبة المشرف بالطَّبع. كانت نزهةً للتَّريُّض، لكن المجلس الذي يدير المدرسة كان يطمح من وراء هذا النَّشاط الجماعيِّ إلى شيءٍ أكثر من هذا بالطَّبع. كان المُعلِّم يجعلهم يتوقَّفون أمام مَشَاهد الشَّارع وأنشطة السُّكَّان، وأمام واجهات المحال، ويوجّه لهم أسئلةً، ويقوم بنفسه بتوضيح إجاباتها الخاطئة أو الغامضة:

- «كليمنثيو، ماذا تريد أن تصبح عندما تخرج من المدرسة؟».

لَمْ يتردَّد كورسيل:

- «حوذيٌّ».

- «هل تستطيع التَّمييز بين دابَّة التَّحميل ودابَّة جرِّ العربة؟».

همس له الزُّملاء: «هي نفسها، هي نفسها»، لكن الضَّخم، ربما لأنه لم يسمعهم، وربما لمجرّد مخالفة الآخرين، ردَّ من دون تردُّدٍ:

- «دابَّة جرِّ العربة مهرة».

- «يجب أن تُحسِّن معارفك إن كنت تريد حقيقةً أن تُصبح حوذيًّا».

كانوا يسيرون بخطى بطيئة، في صفوفٍ زوجيَّةٍ، بزيّهم الرِّيفيِّ الموحَّد. النَّاس الذين يعبرون أمامهم كانوا ينظرون بتعاطفٍ ويغمغمون: «ها هم اللُّقطاء». بالفعل ، كان سكَّان المدينة يسهمون بصدقاتهم في دعم المركز الذي يشعرون بالفخر بسببه. كانوا يجوبون المتنزَّه القديم، ويحاذون المتنزَّه الجديد، المجاور للجسر الكبير، وما إن يعبرونه، يصعدون تلّة كويستا دي لا ماروكيسا، التي يعيش أناس معوزون في كهوفها وأكواخها. في طريق بيانوبلا يرون أزواجًا من البغال قادمةً، ومتسوِّلين وبعض الفرسان المتعجِّلين. لدى النُّزول من التَّلِّ، قام تيتو ألبا بلكز زميله في الصَّفِّ، ثيبريانو، بالكوع وقال له بصوتٍ خفيضٍ:

– «انظر، ها هو الكورسيل يستمني. دائمًا يستمني في النُّزهة ذلك القذر».

رأى الكورسيل منحنيًا مختنقًا، اليد اليمنى تتحرَّك تحت قميصه. نظر له ثيبريانو بسذاجةٍ:

– «مـ.. ما الاستمناء؟».

شرح له تيتو ألبا. كان ثيبريانو يستمع مستخدمًا حواسَّه الخمس، بفضولٍ مساوٍ لسماعه كلمات المُعلِّم. وأدرك أنه باستثناء علاقاته البسيطة بصِبيةِ سانتوبينيا، كان قد نشأ في برجٍ عاجيّ، ولا يعرف الحياة. مينا، بنيَّاتها الطيبة، قَامت بعزله عن العالم. كانوا يهبطون الشَّارع المؤدّي للميدان القديم، عندما أعلن لهم المُعلِّم، الذي كان يعرج قليلًا على ساقه اليمنى بعد مسيرة نصف فرسخٍ، أنهم سيزورون زميلًا قديمًا. لم تكن الجماعة تهمل الأطفال الذين درسوا في فصولها. في الميدان الصَّغير، في الطَّابق الأرضيِّ للرَّقم ستَّة عشر، توجد ورشة نجَّار. معظم زملاء ثيبريانو كانوا يعرفون أهمِّيَّة الزِّيارة، فشكَّلوا مجموعاتٍ حول النَّافورة. النَّجَّار، بلحيته

الطَّويلة المهمَلة، كان يُشكِّل عصا على المخرطة اليدويَّة التي يحرِّكها فتى في الخامسة عشر تقريبًا. وكانت تنتشر رائحة غراءٍ ونشارة خشبٍ. اقترب النَّجَّار بتهذيب من المُعلِّم، وبعد تبادل بعض الكلمات معه، أدخلهما إلى المكتب وتركهما على انفرادٍ. من النَّافذة المغطاة بخيوط العنكبوت يُمْكن رؤية فناءٍ مليءٍ بألواحٍ وجذوع أشجارٍ متراكمةٍ. جلس المُعلِّم على مِقعد النَّجَّار وتوجَّه للفتى بصوتٍ خفيضٍ هامسٍ:

- «هل تسلك سلوكًا جيدا يا إليسيو؟».

- «نعم يا دون لوثيو».

- «هل تعمل بكُلِّ جهدك؟ وتساعد دون موسى؟».

- «نعم يا سيِّدي، كلَّما طلب مني شيئًا».

- «هل يقدِّمون لك الطَّعام حسْب الاتِّفاق؟».

رسم إليسيو ابتسامةً واسعةً:

- «أنت تعرفني يا دون لوثيو؛ أنا لا أمتلئ أبدًا».

- «والأجر؟».

- «المتَّفق عليه، كُلَّ أحدٍ».

- «وهل تتعلَّم؟ هل تعتقد إنك تتعلَّم؟»

- «نعم، نعم يا سيِّدي. إن صَدَق دون موسى، فسوف يجعلني «أسطى» في العام 29».

- «بهذه السُّرعة؟».

- «هذا ما يقُول».

بعد ذلك، في شارع تينيرياس، بالقرب من المدرسة، زار المُعلِّم طالبًا سابقًا آخر، صبي دباغٍ. في الشَّارع تنبعث رائحةٌ كريهةٌ من

الأصباغ والجلود. اللِّقاء كان شبيهًا بسابقه، باستثناء أن الصَّبيَّ، في هذه الحالة، كانت يمتلك قائمةً كبيرةً من المآسي: كان يأكل بشكلٍ سيِّءٍ، ولا يغيِّرون أغطية فِرَاشه، ولا يعطونه الأجر المتَّفق عليه. ذهنيًا، كان المُعلِّم يحتفظ بما يقول الصَّبيُّ، وقال له إن كُلَّ شيءٍ سيصبح على ما يرام، وأنه سيتحدَّث مع أعضاء مجلس الطَّائفة الذي يحتفظ بنسخةٍ من العقد.

بعد شهرين من دخول المدرسة، تمَّ تعيينه جامع صدقاتٍ طوال أسبوعٍ. بالنِّسبة لمركزٍ يقوم أساسًا على الصَّدقات، كانت مهمَّةً صعبةً ومعقَّدةً. في الشُّروق، أعدَّ ثيبريانو عربة الجمعيَّة الصَّغيرة وربط بلاس، الحمار العجوز، إلى العربة وخرج مع الطِّفل وكلاوديو، السَّمين، ليجوبوا شوارع المدينة. الطِّفل لفت انتباه ثيبريانو منذ اللَّحظة الأولى. قَالَ هذا لكلاوديو، السَّمين:

- «ا... الطِّفل له وجه طفلةٍ».

- «نعم، له وجه طفلةٍ، لكنه ولدٌ طيبٌ».

كُلَّ صباحٍ كان يقود العربة من المدرسة حتَّى الفناء الخلفيِّ لمستشفى (ميسركورديا) من دون تَوَقُّفٍ. ميجيل كان يعرفهم والمينينو، الذي كان على الباب ومستودع الجثث، يقول بصوته الحاد:

- «اليوم لا يوجد أمواتٌ، يا فتيان. أنتم في إجازةٍ إذن».

أو يقُول:

- «يوجد فقيرٌ وشخصٌ آخر تمَّ شنقهما، هل تحملون الاثنين؟».

كان ثيبريانو يضعهما على كتفه من دون أدنى اعتراضٍ، ويتركهما فوق سطح العربة. وكان يفعل الشَّيء ذاته مع النَّعش، المجراف والمعول. كلاوديو، السَّمين، اندهش لقوته:

- «أنت، يا نحيف من أين تأتي بكُلِّ هذه القوَّة؟ لم أرَ في حياتي شخصًا أنحف منك».

أدخل ثيبريانو إصبعًا في بطنه المليئة بالدُّهون:

- «إ... إن كانت القوَّة في الدُّهون لكنت بطلًا. ساعدني».

كان قد رفع كُمَّ قميصه وظهرت العضلة ذات الرَّأسين، عضلةٌ جيِّدة التَّكوين، كأنها لبطلٍ رياضيّ.

- «أنظر، لديه عضلةٌ كالكرة، هل رأيت يا طفل؟ النَّحيف لديه عضلةٌ كالكرة».

كثيرًا ما كان ميجيل، المينينو، يلفت نظرهم بهدوءٍ:

- «هيا بنا يا فتيان. لا تضيّعوا وقتًا أكثر من هذا. الدَّفن اليوم في ردهة سان خوان. هيا بنا».

كان الطِّفل يمسك باللِّجام والعربة المتأرجحة تصعد حتَّى شارع أمبريـال، القريب من الحيِّ اليهوديِّ. ما إن يصلوا يقفز ثيبريانو من العربة، يضع المنصَّة في وسط الشَّارع ويضع الجثتين فوقها. كانت لهم طريقةٌ مجرَّبةٌ بسبب الاعتياد، لكي يجذبوا عطف المارَّة، وثيبريانو كان يُطبقّها على أكمل وجهٍ:

«أيها الأخوة. أمامكم جسدان تعيسان، عبرا لحياةٍ أفضل من دون نعمة الصَّداقة. لا تحرموهم الآن من حقِّ الدَّفن. الرَّبُّ أمرنا أن نكون إخوةً للفقير، والعاصي، وفقط، إن رأينا فيهم الرَّبَّ، سنعرف غدًا جائزة المجد. ساهموا في دفن هذين التَّعيسين».

بعض المارَّة كانوا يعبرون الشَّارع ويتركون بعض العملات في الوعاء، بجانب العربة. الطُّلاَّب الثَّلاثة كانوا يتناوبون النِّداء لاستجلاب عطف السُّكَّان. أحيانًا كما كان يحدث مع ثيبريانو، كانوا يدرجون في

النَّصِّ عباراتٍ جديدةٍ، مدهشةٍ، ذات أثرٍ بالغٍ: لم يتمتَّعوا بحب أقرانهم. وأيضًا: لم يسمعوا أبدًا صوت الرَّبِّ. وأيضًا: عاشوا مهجورين كالكلاب.

أدرك ثيبريانو أن العبارة الأخيرة التي تقارن الأموات بالكلاب تُحرِّك قلوب النِّساء أكثر من الرِّجال، وعلى العكس، كان هؤلاء يتأثَّرون أكثر بأنه لم تُتح لهم فرصةٌ للتَّعرُّف على صوت الرَّبِّ. من حينٍ لآخر، كان الطِّفل، كلاوديو السَّمين وثيبريانو، المصطفون خلف العربة، يشتركان معًا في الدُّعاء المكرَّس للأموات. كلاوديو السَّمين، كان يتلوها والآخران يردَّان عليه:

- «يا مريم القدِّيسة..».
- «صلِّي من أجلنا».
- «يا أم الرَّبِّ القدِّيسة..».
- «صلِّي من أجلنا».
- «يا عذراء العذارى القدِّيسة..».
- «صلِّي من أجلنا».
- «يا سان مايكل..».
- «صلِّ من أجلنا».[1]

بعد الانتهاء، كانوا يتركون برهةً من الوقت تمرُّ في صمتٍ، مصطفين خلف المنصَّة. إن رأى ثيبريانو مجموعةً من النِّساء تقترب، كان يُخرِج الصَّوت من بطنه ويصيح:

«أيها الإخوة، صدقةٌ من أجل هؤلاء التُّعساء الذين لم يذوقوا عسل الأخوَّة وعاشوا مهجورين كالكلاب».

---

(1) باللاتينية في الأصل.

النِّساء كن يتوقَّفن جماعةً، ويتركن بعض العملات القليلة في الصِّينية. ولهذا، كان كلاوديو السَّمين، مُتشجعًا بالتَّبرُّع يعيد النِّداء من جديد:

«أيها الإخوة، صَدَقةٌ من أجل هؤلاء التُّعساء».

بعد مرور وقتٍ طويلٍ على الوقفة الأولى، يعود ثيبريانو لوضْع الجثث فوق العربة، وتحت قيادة الطِّفل، يقومون بوضْع المنصَّة في شوارع هويلاجاس، ثورادوريس، المُتنزّه القديم، لكي يكرِّروا الطَّقس ذاته. بعد الانتهاء، كانوا يدفنون الموتى في الكنيسة التي حدَّدها القزم ميجيل، وبعد العودة إلى المدرسة يودِعون التَّبرُّعات في صندوق صدقات المصلى.

طالِبو الصَّدقات كانوا ينهون عملهم بعد حلول اللَّيل، مع الجرس الأخير في اليوم. قرْع الأجراس، البطيء والحزين، يقود كُلَّ أجراس المدينة، في السَّاعة التي يطلق عليها المؤمنون «ساعة الأموات».

عادةً كان ثيبريانو يسقط مُنهكًا في فِرَاشه. عنبر النَّوم طويلٌ، بصفَّين من الأسِرَّة الضَّيِّقة، كان يُضاء بقنديلٍ يطفئه المُعلِّم قبل أن يخرج. النَّوافذ من دون ستائر ما كان يسمح بدخول بريقٍ أبيضٍ من النَّهر. وفي الشِّتاء، يكون البرد قاسيًا لدرجة أن كلاوديو، السَّمين، أقسم أنه عندما استيقظ وجد نُدفَ ثلجٍ بين شعر حاجبيه. باستثناء كورسيل، كان الطُّلاَّب يصلون شديدي التَّعب، فما أن يضعوا القمصان البيضاء حتَّى يسقطان نيامًا على الأسَرَّة. ومن هنا كانت مفاجأة ثيبريانو في ليلته الأخيرة كجامع صدقاتٍ، إذ عندما سمع همسًا كالشِفرة في طرف الغُرفة، وأخذ ينتقل من فِرَاشٍ لآخر. وبوضوحٍ سمع تيتو ألبا، في الفِرَاش المواجه يهمس:

- «يا طفل، الكورسيل يطلبك».

سمع كلاوديو، السَّمين، يتقلَّب إلى جانبه ويكرِّر الرِّسالة:

- «يا طفل، الكورسيل يطلبك».

مرَّ ظِلٌّ عبر ضوء النَّوافذ الخافت في اتجاه الصَّوت الأوَّل. بعد ذلك صرير فِرَاشِ الكورسيل في الزَّاوية، بينما تصدر تعليقاتٌ ساخرةٌ وضحكاتٌ مكتومةٌ في الصَّالة الكبيرة. بعد فترة، عاد الظِلُّ لعبور الغُرفة في الاتِّجاه المعاكس وساد الصَّمت.

في الصَّباح التَّالي سأل ثيبريانو تيتو ألبا عمَّا يفعله كورسيل مع الطِّفل في الغُرفة. نظر له تيتو بعينيه الجاحظتين، قصيرتي الرُّموش:

– «يا نحيف، هل أنت ساذجٌ أم أنك تتظاهر بهذا؟».

لَمْ يقل له شيئًا آخر، لهذا لجأ ثيبريانو إلى كلاوديو، السَّمين وكانت إجابته:

– «يمكنك أن تتخيَّل. عندما تلحُّ عليه الرَّغبة يلجأ كورسيل للطِّفل. إنه أقرب ما يوجد في المدرسة للمرأة».

خوسيه، الفلاح، أخبره بكُلِّ شيءٍ في النِّهاية. الفلاح قادمٌ من أرض بينارس ولا يستطيع أن يخفي مظهره الرِّيفيَّ ولا فقره. كان شخصًا بدائيًا وساذجًا. يصعب عليه تذكُّر الصَّلوات وفي الإملاء بالرومانثية، بالكاد كان يكتب أربع كلماتٍ متتاليةٍ. لكن كزميلٍ، كان صريحًا واجتماعيًا. سأله ثيبريانو لماذا يسمح الطِّفل باعتداءات كورسيل. وجْه الفلاح كان ينطق بكُلِّ شيءٍ، ثم شرح:

– «إنه صاحب الأمْر هنا. ألَمْ تلاحظ أنه بعد المُعلِّم، يكون الأمْر هنا لـ كورسيل؟».

في حصَّة اللَّاتينية، سرى الهمس أن اليوم التَّالي لن تكون هناك دروس عقيدةٍ لأن لديهم دفنًا. كانت صلوات اللُّقطاء تحظى بالتَّقدير في المدينة. أصواتهم، التي فقدت النَّبرة الطُّفولية، ولم تصل بعد لأصوات البالغين، ويقودها المُعلِّم بتناغمٍ جيدٍ، كانت جواز المرور الذي يرغب به الكثير من

سكَّان المدينة من أجل الرِّحلة. كثيرًا ما كانت الوصايا تنصُّ على حضور طلاَّب المدرسة الدَّفن مقابل تبرُّعٍ. واللُّقطاء، بزيِّهم المُوحَّد، وبالأحذية من جلد الخراف، ينتظمون في صفَّين بشعلةٍ في اليد، ويرافقون المتوفِّي حتَّى مثواه الأخير.

«يوم الغضب، ذلك اليوم

عندما تتحوَّل القرون إلى رمادٍ:

كشهود الملك دافيد وسيبيلا

كم من الرُّعب سيوجد في المستقبل

عندما يأتي القاضي

ليحكم على كُلِّ شيءٍ بعدالةٍ

البوق ينثر صوتًا مُثيرًا لإعجاب

أموات كُلِّ الممالك

سيجمع الكُلَّ أمام العرش».

بانتهاء القُدَّاس، وحسْب مراسم دفْن الجثَّة، يقوم اللُّقطاء، من مكانهم خلف المذبح، بتلاوة الابتهالات التي تطلب شفاعة كُلِّ القدِّيسين، يقودهم صوت تيتو ألبا القويُّ العذب:

- «يا قدِّيس بطرس..».

- «صلِّ من أجلنا».

- «يا قدِّيس بولس..».

- «صلِّ من أجلنا».

- «يا قدِّيس أندراوس..».

- «صلِّ من أجلنا».

- «يا قدِّيس يوحنا..».

- «صلِّ من أجلنا».

- «يا كُلَّ الرُّسل القدِّيسين والإنجيليين..».

- «صلُّوا من أجلنا».

كان النَّاس يقدِّمون العزاء للأقارب بينما اللُّقطاء يختمون ابتهالهم. في الكنيسة تسود رائحةٌ كريهةٌ، خليطٌ من عرق المصلين، ودخَّان المشاعل، ورائحة تحلُّل المدفونين داخلها. لكن، فوق كُلِّ شيءٍ، يصدح صوت تيتو ألبا الرَّنَّان:

- كما منحتنا الحياة وجعلتنا في خدمتك.

- نرجوك أن تسمعنا.

- وكما تمنح الأرض ثمارها، وأنت تحفظها وتوزِّعها.

- نرجوك أن تسمعنا.

- كما منحت الرَّاحة الأبديَّة لكُلِّ المؤمنين الرَّاحلين.

- نرجوك أن تسمعنا

- كما استجبت لصلواتنا.

- نرجوك أن تسمعنا.

ينتهي ترتيل الطَّلبة، وكخاتمةٍ يتلو الكورال وخدم الكنيسة الدُّعاء الأخير:

«نجِّني يا ربِّ من الموت الأبديِّ، في يوم الهلع هذا، عندما تهتزُّ الأرض والسَّماء، عندما تأتي لتحاكم العالم بالنَّار».

قَام اللُّقطاء، من مكانهم في المذبح، بانحناءةٍ شديدةٍ كتحيَّةٍ لأهل دون توماس دي لا كولينا قبل الخروج من الكنيسة واحدًا تلو الآخر، بالمشاعل فوق رؤوسهم. لم يكتشف ثيبريانو عمَّه إجناثيو حتَّى مرَّ بجانبه وشعر بيده

فوق كتفه. ارتعد عندما لمسه. دون إجناثيو كان بالنِّسبة له قريبًا صامتًا لا يجرؤ على مواجهة عينيّ أخيه مطلقًا. كان حنونًا، لكن لا يُمْكن انتظار أيٍّ شيءٍ من جانبه. لم تفت عليه نظرة التَّواطؤ مع المُعلِّم. وعندما أطفأ زملاؤه المشاعل ووقفوا في صفوفٍ من أجل العودة للمدرسة، سار على مبعدةٍ منهم بصحبة عمه. انحنى دون إجناثيو عليه قليلًا:

- «هل أنت سعيدٌ في المدرسة؟ هل تحبُّ التَّعلُّم؟».

أحنى رَأسه موافقةً من دون كلماتٍ لكي يتفادى التَّلعثم. لم يرَ أسبابًا للوثوق به. على الأرجح هو مبعوثٌ من أبيه. أصبح صوت دون إجناثيو أكثر نعومةً:

- «لا أدري إن كنت تعرف أنني أترأَّس مجلس الأمناء الذي يدير هذه المدرسة وعضوٌ في الطَّائفة التي أنشأته».

- «هـ.. هذا ما يقُولونه، نعم يا سيِّدي».

- «لكنك لا تعرف أنهم أعطوني في الاجتماع الأخير تقارير طيبة عنك. الأوَّل في العقيدة، واللَّاتينيَّة والكتابة، ومُميَّزٌ في الحساب. لا غبار عليك في السُّلوك والنِّظام. هل تعتقد أن هذا يُمْكن أن يتحسَّن؟».

هزَّ الفتى كتفيه. وواصل عمه:

- «كُلُّ هذا مُهمٌّ يا ثيبريانو. أمام وضعٍ كهذا لا يمكنني إلا أن أتحدَّث مع أبيك وأعرض عليه الموقف. هل تريد أن تترك المدرسة وتعود للبيت؟».

اندهش دون إجناثيو لقرار الولد:

- «لا. أنا أحبُّ المدرسة. ولديَّ أصدقاء هنا».

- «هذا ما يشغلني، يا بني. زملاؤك أطفالٌ من دون آباءٍ، بلا تهذيبٍ، ولا تعليمٍ. فضلًا عن هذا فأنت تعرف ما ينتظرك. عامان آخران من

الدِّراسة في فصولها وبعدها العمل في مهنة تختارها حتَّى الموت. هذا هو مستقبلك».

اعترض الفتى:

- «أيضًا يمكنني الالتحاق بمدرسة اللُّغات التَّابعة لكاتدرائية كابيلدو. كُلُّ شيءٍ يعتمد على درجاتي».

- «هذا حقيقيّ يا ثيبريانو. أرى أنّك تقصيت جيدًا. ولا تنسى مركز اللُّغة اللَّاتينية إن قرَّرت أن تصبح كاهنًا. هل تحبُّ أن تكون كاهنًا؟».

كان الفتى يضرب الهواء بعصا المشعل وبعد ذلك يستخدمها كعكَّازٍ. في البداية نفى برَأسه ثم قال بحسمٍ:

- «لا».

- «وأن تحصل على شهادة القانون؟ لديك رأَسٌ جيد، تتقن اللُّغة اللَّاتينيَّة، وتكتب الرومانثية بسلاسةٍ.. يمكنك أن تكون قاضيًا جيدًا في الغد. سوف يترك لك أبوك ثروةً كبيرةً وأيضًا سيكون لك ما أمتلك اليوم. لكن يجب أن نجعل المال أكثر نُبلًا. المال في حدِّ ذاته لا أهميَّة له، خاصَّةً إن لم يكن من عرق جبينك».

كانا قد خرجا من باب كامبو، ويهبطان نحو حيِّ تينيرياس الجديد، الذي توجد المدرسة في نهايته. كانت هناك رائحةُ جلود وأصباغ قويَّةٌ، وبين السُّور والحيِّ يُمْكن رؤية نهر بيسويرجا جاريًا بعد أن ملأه المطر. رفع ثيبريانو عينيه وتأمَّل جلد عمِّه الورديَّ الأمرد، ونظرته متردِّدةٌ، لكنها ثابتةٌ عليه. قال في النِّهاية:

- «لا أعرف. لا زال هناك وقتٌ كثيرٌ. يجب عليَّ أن أفكِّر في هذا».

- «هذا أمرٌ جيدٌ. التَّسرع ليس مفيدًا لكن يجب أن تفكِّر في الموضوع.

عامان يمرَّان بسرعةٍ، قبل أن تنتبه، وحينئذ من المناسب أن تكون قد اتَّخذت قرارًا.

عند النَّاصية الأخيرة قال دون إجناثيو في عجالةٍ:

- «سأطلب منك شيئًا يا ثيبريانو: لا يَجِبُ أن يعرف أبوك بلقائنا ولا بحوارنا. لا يَجِبُ أن يعرف شيئًا من هذا. هل يكتب لك؟».

قال ثيبريانو:

- «لا».

تردَّد دون إجناثيو لدى وداعه. لم يعد طفلًا لكي يقبّله، كما أنه كان تقريبًا شخصًا غريبًا بالنِّسبة للفتى. أمسك بكتفيه، انحنى قليلًا، ثم رفع رأسه وأطلقه ومدَّ يده ذات الخواتم. أعتَقَدَ أن هذا أفضل:

- «إلى اللِّقاء يا ثيبريانو. استمرّ في الدِّراسة. استفد من تعلّيم دون لوثيو، إنه مُعلِّمٌ كبيرٌ. لن تندم على هذا».

VI

للعام الثَّاني على التَّوالي منذ التحاقه بالمدرسة، في شهر أغسطس، شارك ثيبريانو في احتفال البَذْر، بصحبة زميلين وعضوين من جماعة الثَّالوث المقدَّس. الطلاب، مُقسَّمين إلى مجموعتين، كانوا يزورون الأراضي المحيطة بالمدينة ويدعون الرَّبَّ من أجل «سنابلٍ ممتلئةٍ وحبوبٍ غزيرةٍ». كان الفتيان يبتهجون للتَّعامل مع المزارعين: البذْر، سَوْط البغال، امتطاء الجحش والشُّرب من الجرَّة. بعد صلاة (أبانا) وابتهالات المناسبة، كان الفلاحون يعطوهم أجْوِلةً صغيرةً من القمح، يقومون لدى عودتهم للمدرسة بإيداعها في صندوق الصَّدقات، وفي اليوم التَّالي، في السُّوق، يحوِّلونها إلى مالٍ عَدًا ونقدًا. ثيبريانو، مع تيتو ألبا وزميلٍ جديدٍ يطلقون عليه «جايبوفا»، كان يسبق أفضل مجموعةٍ بأميالٍ وأثنى عليه المُعلِّم في بداية الدَّرس.

في ذلك الحين، بدأ ثيبريانو يُعَاني من وساوس الضَّمير. كان ينغمس بحواسِّه الخمس في دروس العقيدة والدِّين، لكن اهتمامه لم يؤدِّ إلى هدوءٍ روحانيّ. على العكس، بدا له أن تربيته الدِّينيَّة لا قيمة لها. حدَّثهم الأب أرنالدو عن الصَّلاة المنطوقة والصَّلاة الذِّهنية، وكان يميل للأولى طالما كان تركيز المُصلِّي كاملًا. لا يجب أن نترك سيِّدنا بمفرده، قال الأب

أرنالدو لهم. يمكنكم انتهاز الرَّاحة لزيارته. بدأ ثيبريانو في زيارة الكنيسة أثناء الرَّاحة. يتعلَّق الأمْر بعادةٍ قديمةٍ يقوم بها بعض الطُّلاب. كان يحبُّ فراغ وصمت المعبد، حيث لا يكاد يصل صخب زملائه في الفناء. راكعًا على ركبتيه، فوق المقعد الخشبيِّ، يوجد طلبان مُلحان على طرف شفتيِّ ثيبريانو: مينرفينا، ومستقبله بعد الانتهاء من فترة الدِّراسة.

أثناء الصَّلاة، كان يشعر بالسَّكينة. وما إن يذهب ليتناول الماء المبارك من الوعاء بجانب باب الكنيسة، حتَّى تبدأ الشُّكوك في الظُّهور: بينما كان يُصلِّي ويرسم الصَّليب، هل فكَّر في تضحية الرَّبِّ أم في لعبة السِّيقان الخشبية التي تنتظره في الفناء؟ يصبح الشَّكُّ أكثر استحواذًا. إن نحَّاها جانبًا لكي ينغمس في اللَّعب، لا تبرحه الشُّكوك بقيّة اليوم. حينئذ كان يقرِّر العودة إلى الكنيسة والتَبرُّك مرَّةً أخرى بالماء المقدَّس، ببطءٍ شديدٍ ومتأملًا ما يفعل. لكن هذه المبادرة لم تكن تطمئنه، وعندما يخرج للفناء تعود الشُّكوك حول تركيزه ويرجع إلى الكنيسة لتناول الماء المقدَّس ورسْم الصَّليب ببطءٍ، متوقفًا بورعٍ في الحركات الأساسية الأربع. لكن، لاسترشاده دائمًا بعظات الأب أرنالدو، وصل إلى نتيجةٍ مفادها أن طلباته كانت أنانيةً إلى أقصى حدٍّ: كان يطلب من أجل نفسه، لكي يمهِّد لحياته يوم غدٍ، ويطلب من أجل مينرفينا، الكائن الوحيد الذي أحبَّه في هذا العالم. حينئذ قرَّر أن يطلب أيضًا من أجل كورسيل، كي لا يستمني في النُّزهات، ولا يجبر الطِّفل على الذِّهاب إلى فِرَاشه كلَّما رغب به. ومن أجل تيتو ألبا، الذي بدأ يشعر بمحبَّته، وشيئًا فشيئًا أخذ يضيف طلباتٍ (من أجل الفلَّاح لكي تُفتح مداركه، ومن أجل المُعلِّم لكي يعرف كيف يقودهم بحكمةٍ، ومن أجل إليسيو، الزَّميل السَّابق الذي يعمل في المصبغة، لكي يَفي صاحب العمل ببنود العقد)، وهكذا أصبحت زياراته للكنيسة تدوم وقت الرَّاحة. وبهذا لم يعد ثيبريانو يجد وقتًا للتَّرويح عن نفسه. ويوم السَّبت، في

اعترافات الأب توفال، الذي كان يتلقّى الاعترافات في غرفتين مواجهتين، ويحجب وجه التّائب بمنديلٍ أبيضٍ ناصعٍ، كان يقرُّ بأن طلباته من الرَّبِّ لا زالت أنانيةً، ببساطة لأنه لم يكن يسعى لسلام أو سعادة زملاءه وإنما لراحة ضميره. كان الأب توفال يحثّه على المواظبة، وعلى التّقليل من التّفكير في نفسه وفي الأسباب التي تقف وراء أفعاله، وذات يومٍ، لكي يساعده، قَام بعمل اختبارٍ سريعٍ له عن طريق الوصايا. لكن عندما وصل للرّابعة، إكرام الأب والأمّ، قال ثيبريانو للأب توفال إن أمّه ماتت لدى ولادته، وأن أباه كان يكرهه بكُلِّ قواه ومشاعره. وهكذا وجد قسُّ الاعتراف مادةً خطيرةً، ورغم أن ثيبريانو حدّثه عن نظراته المرعبة وكرهه، لم يقبل نفوره من أبيه. الأب قَام بإنجابنا ومن أجل هذا فقط يستحقُّ تقديرنا. كيف نحبُّ أبانا في السَّماء إن لم نحب أبانا في الأرض؟ الوساوس الغامضة لثيبريانو كانت تتحدَّد الآن: لم يكن يجب أن يصلي من أجل كورسيل وإنما من أجل أبيه ومشاعره تجاهه. ترك غرفة الاعتراف بأذنين حمراوين ومذهولًا. بعد ذلك كان يذكر أباه في زياراته للكنيسة أثناء الرَّاحة، لكنه كان يفعل هذا بشكلٍ آليّ، ليس لأنه يحبّه وإنما لأن الأب توفال أخبره بهذا. عذاب ضميره كان يشتد: «لا يمكنني أن أحبَّ شخصًا وأكرهه في الوقت ذاته»، كان يقول لنفسه. عندما يُفكِّر في أبيه كان يرى نظرته الشِّرِّيرة، الجارحة، ويدرك أن صلاته من أجله بلا معنى. لم يعد يذهب للتّناول. صديقه تيتو ألبا لاحظ تغيُّره، وأثناء إحدى النُّزهات في المدينة، سأله عن السَّبب. «ا... الكره خطيئة، أليس كذلك يا تيتو؟». «بالطَّبع»، قال هذا. «وكره الأب خطيئةٌ أكبر، أليس هذا حقيقيًا؟». هزَّ تيتو ألبا كتفيه: «أنا لا أعرف ما الأب»، قال. «وماذا يمكنني أن أفعل أن كان الكره يولد في قلبي بمجرَّد التّفكير فيه؟». قال تيتو: «حسنًا، صلِّ لكي لا يحدث هذا». «لكن إن كان يحدث رغم كُلِّ شيءٍ ولا يمكنني تفاديه، هل سأخلد في الجحيم؟». تلعثم تيتو

ألبا. عيناه الجاحظتان، برموشٍ قصيرةٍ، كانتا رغم هذا دافئتين وهادئتين. لا تُشبهان عينَي دون برناردو. قال بصوتٍ خفيضٍ: «تكَلَّم مع الأب توفال». ردَّ ثيبريانو بسرعةٍ: «أفعلُ هذا كُلَّ سبتٍ». تيتو ألبا كان مهمومًا لاغتمام صديقه. وجد عزاءً في النَّظر للزَّميلين اللَّذين يسبقانهما. قال: «انظر، ها هو القذر كورسيل يستمني. يجب أن تصلِّي من أجله». هز ثيبريانو يديه متوترًا. «لكن لا يُمْكن أن تشغل نفسك بكُلِّ خطايا العالم، وكلّ قذارته، أليس كذلك؟».

كما لاحظ الأب توفال حيرته أيضًا. تحدَّثا عن المعاصي التي لا تسبِّب متعةً وإنما ألَمًا، مثل الكره والحسد. حتَّى أن الأب توفال قال له أن يُقدِّم للرَّبِّ معاناته من الكراهية كتطهُّرٍ، لكن ثيبريانو لم يقتنع. «سـ... سيصبح خداعًا للنَّفس، يا أبتِ، كأنني أخدع نفسي وأخدع الرَّبَّ أيضًا. تقديم معاناتي للرَّبِّ سيصبح تحقيرًا لنفسي».

العام الثَّالث في المدرسة كان عصيبًا على ثيبريانو. رغم العلاقة الطَّيِّبة مع معظم الطَّلبة، ونبوغه في الدِّراسة لم يكن يشعر بالرِّضا. ولم يكن عذاب ضميره فقط هو ما يثقل عليه. بدأ يتعذَّب بسبب الظُّلم البشريِّ، فدون برناردو كان قادرًا على دفع تكاليف ثلاثة زملاءٍ، لكي يستطيع هو الدِّراسة؛ والطِّفل يجب أن يلبِّي نداءات كورسيل حتَّى إن لم يرغب بهذا، وأن يقبل المهانة بشكلٍ دوريّ لأنه يفتقد للقوَّة؛ وجسده يبدأ في الاستيقاظ، ويشعر بقوَّةٍ غريبةٍ تمور داخله وأن رغباته تفرض نفسها على إرادته. حينئذ بدأ يتفهَّم الكورسيل، رغم أنه كان يكره العنف الذي يمارسه على الطِّفل، لكي يشبع رغباته. هذه المستجدَّات كانت تُغيِّر من شخصيته، وكان يشعر بنوباتٍ من العدوانية، ويعيش في سخطٍ دائم على نفسه. أحيانًا كان يندهش لقيامه بدور مقيم العدالة الذي لم يطلبه منه أحدٌ، مثل اللَّيلة التي أوقف فيها الطِّفل في عتمة غرفة النَّوم، عندما كان يلبِّي نداء كورسيل بخضوعٍ. قال:

- «كورسيل، لا تنتظره. الطِّفل لن يأتي إليك اللَّيلة».

فجأةً، حدثت جلبةٌ كبيرةٌ في طرف الغُرفة. على انعكاس الضَّوء الخافت الصَّاعد من النَّهر لمح كورسيل، في قميصه، يجري بين صفَّيْ الأسِرَّة لكي يدخل في النِّهاية في فِرَاشه. شعر بأنفاسه الوحشية، وكلماته البذيئة، وانتصابه الذُّكوريّ، وذراعاه الطَّائشان يطوِّقانه. وحينئذ قام ثيبريانو، بهدوءٍ شديدٍ، بثني ساقه، وركَلَه ركلةً قويةً في خصيتيه ودفعه بكُلِّ قوته حتَّى ألقاه خارج الفِرَاش. خلال دقائق سمعوا أنين كورسيل على الأرض، كأنين كلب مضروبٍ. ساد توتُّرٌ حادٌ في الغُرفة. ونهض كورسيل ببطءٍ وقال لثيبريانو في العتمة، بيديه على بطنه:

- «غدًا، في وقت الرَّاحة، أنتظرك في الفناء».

في الفناء، في الزَّاوية التي يشكِّلها مع صالة الرِّياضة البدنية، بعيدًا عن النَّظرات المُتلصِّصة، تتم تصفية الحسابات بين طلبة المدرسة بالعراك. كُلُّ التَّلاميذ اجتمعوا هناك، يحيطون بالمتصارعين. وإن كانت عوامل الجذب قليلةً، فقد كانت المرة الأولى التي يتشاجر فيها أحد مع كورسيل في المدرسة. لم يجرؤ أحدٌ من قبل على مواجهته. أسلوبا المتصارعين ذلك الصَّباح كانا متباينَين. بينما كان كورسيل بذراعيه الطَّويلتين غير المتناسقتين، يتطلَّع إلى الإمساك بعنق النَّحيف ليلويه، كان هذا ينتظره على مبعدةٍ، ولا يتركه يقترب. كانت رشاقة ثيبريانو تعطيه ميزةً، بينما يرفع كورسيل ذارعًا، قبضتا سالثيدو القويَّتان الصَّلبتان مثل الحجر كانتا تنطلقان ثلاث مَرَّاتٍ على أنف منافسه. الزُّملاء كانوا يتابعون المعركة بصمتٍ. أحيانًا يُسمع تعليقٌ: هل ترى كيف يضربه النَّحيف؟ وحاول كلاوديو السَّمين أن يشرح لهم جميعًا، واحدًا تلو الآخر، أن النَّحيف يحمل موتى مستشفى الرَّحمة من دون مساعدة أحدٍ، وأن لديه عضلاتٍ فولاذيةً. أطلق ثيبريانو قبضته اليمنى مرَّةً أخرى على الوجه الأبله لكورسيل، وبَدَأت

أنف هذا في النَّزيف. كلاوديو السَّمين، عاد ليكرِّر أن النَّحيف يمتلك قوَّةً كبيرةً، وهذا كان يقوم بالدَّوران حول الضخم، وينحني لتفاديه، كلَّما حاول الإمساك بعنقه. تحمّل كورسيل ضربتين أخريين. المشهد يشبه رؤيةً متأخِّرةً لتجسيد الفارق بين داود وجالوت. فداود كان ذلك الفتى الضَّئيل، قصير القَامة بالنِّسبة لعمره، لكن لديه رشاقةً مبهرةً وصلابةً كالرُّخام. أخذ قميص كورسيل يمتلئ بالدِّماء، وبالسباب كان يثير غريمه مُطلقًا عليه صفات القزم والتيس الحقير، لكن النَّحيف لم يقع في الفخِّ، بل كان يتفادى الهجوم العشوائيَّ عليه ويحافظ على المسافة. كانت ضرباته مثل لسعات حشرةٍ مثيرةٍ للضِّيق، وتَقُوم بتفتيت معنويَّات الآخر. وعندما قَام كورسيل بعد خمس دقائق بالتَّخلي عن حماية نفسه وهاجم عدوَّه بشكلٍ مفتوحٍ، مُتشجِّعًا بضخامته في مقابل ضآلة خصمه، استقبله ثيبريانو بقبضةٍ على الصَّدغ الأيمن جعلته يترنح. ومع الضَّربة التَّالية غرس كورسيل ركبةً في الأرض، لكن، خجلًا من ضعفه، نهض في الحال ورمى بذراعه الأيمن إلى الأمام مُحاولًا اقتناص عدوه. لكن ثيبريانو انحنى، وارتدَّ في الوقت المناسب، وبينما كان كورسيل يتعثَّر بعد محاولته الفاشلة، عاد ثيبريانو لسحقه بضربتين في الأنف. وابتعد كورسيل لاهثًا وهو يحاول إيقاف الدَّم بيديه. لم يَتحدَّث أحدٌ. لكن، بدا أن كورسيل لا ينتوي استئناف الصِّراع، اقترب منه تيتو ألبا وقال له:

- «كورسيل، اذهب لتغيير القميص قبل أن يراك المُعلِّم».

ورافقه حتَّى غرفة النَّوم، بينما راح ثيبريانو يعدل هندامه. بعد أن ابتعد كورسيل بمساعدة تيتو ألبا، التفَّ حوله الزُّملاء وسألوه عن قوته، كانوا يلمسون العضلة البارزة، وهو يرفع ساق السِّروال الخيش، ويشدُّ السَّاق ويريهم عضلات الفخذ القويَّة الطَّويلة مثل الحبال.

يوم السَّبت التَّالي اعترف النَّحيف بمعصيته:

- «يا أبتِ، ضربت زميلًا حتَّى نزف».

- «هل هذا ممكن يا بني؟ ألا تعرف أن أحقر النَّاس يُعتبر تجسيدًا حيًّا للرُّوح القدس؟».

- «كان يؤذي الآخرين يا أبتِ؛ إنه بلطجي».

- «ومن زميلك هذا؟ هل هو من المدرسة؟».

- «لا يمكنني أن أقول أكثر من هذا».

في درس العقيدة التَّالي، أشار الأب أرنالدو إلى مهمَّته كمُعلِّم، ووجوب تعلُّم الطُّلاب لدروسه لكي يستطيعوا مساعدة الضَّالِّين. تقريبًا، كانت ذات الكلمات التي استخدمتها مينرفينا عندما علَّمته الصَّلاة. إن أُدنت لعدم معرفتك، فسوف أدان لأنني لم أعلِّمك. قبل عشرين عامًا، كانت هي ذاتها كلمات دون نيكاسيو ثيليمين في سانتوبينيا. وعندما سمع ثيبريانو موعظة الأب أرنالدو، فكَّر في كورسيل. نسيَ كرهه لأبيه، وانشغل عقله بالوحدة المرعبة التي يُعَاني منها زميله. لم يكن أحدٌ يحبُّه. قرَّر البحث عن اللَّحظة المناسبة، التَّقرُّب منه وديًّا ومساعدته. وذات يومٍ، في نزهة المساء، رجا الفلاح أن يذهب بجانب تيتو ألبا، ويترك له كورسيل كرفيقٍ. قال له هذا لدى رؤيته بجانبه:

- «ماذا تريد الآن؟».

- «الحديث معك يا كورسيل. أن أطلب منك العفو على ما حدث ذلك اليوم. لم أكن أرغب في إيذائك».

- «وفيمَ يهمك أمري؟ اغرب عن وجهي!».

- «يهمني كُلّ البشر يا كورسيل. يجب أن يساعد كُلٌّ منا الآخر».

امرأتان شابَّتان، مُحمَّلتان بسلتين كبيرتين، عبرتا أمام صفوف الطَّلبة. تمعَّن كورسيل فيهما وأدار وجهه بوقاحةٍ لكي يتأمَّلهما من الخلف، ناظرًا إلى مؤخِّرتيهما المستديرتين. بعد ذلك التفت إلى ثيبريانو:

- «أتعرف ماذا أقول لك يا نحيف؟».

سأله ثيبريانو بنظرةٍ مُحَمَّلة بالأمل:

- «ماذا؟».

- «فلتذهب لكي ينكحوا مؤخِّرتك؛ أريد أن أستمني».

أبطأ ثيبريانو خطاه، وأخذ يتراجع، ورغم هذا قال بخجلٍ:

- «سأعود للبحث عنك يا كورسيل. إن احتجْت لي يومًا، نادني».

في الأسبوع التَّالي امتلأت المدينة بالقساوسة، والكهنة، وأعضاء الرَّهبنات، وأساقفةٌ. في اليوم الأوَّل وصل أربعون أو خمسون، في اليوم الثَّاني مائةٌ وستُّون، وعلى هذه الوتيرة، بلغوا ألفًا وخمسمائة. اللِّقاء الأوَّل للقطاء مع رجال الدِّين خلال إحدى النُّزهات كان له وقعٌ كبيرٌ. الطَّلبة كان يلتزمون بالعادة المهذَّبة بتقبيل أيادي من يجلُّونهم كدلالةٍ على الاحترام، لكن في تلك المناسبة كانت هناك أياد كثيرة للتقبيل، وشفاه كثيرة تتطلَّع للقيام بهذا، حتَّى وقع تكدُّسٌ في شارع سانتياجو، واستغرق وقتًا حتَّى انفَضّ. ما إن وصلوا إلى المدرسة حتَّى أشاد المُعلِّم بسلوكهم، لكنه ناشدهم بإلحاح أن يتخلَّوا عن مظاهر الاحترام هذه في أثناء انعقاد المؤتمر. كانت المرَّة المائة التي يسمعون فيها عن المؤتمر. كان المؤتمر هو كُلَّ شيءٍ. أمام مجموعاتٍ كبيرة العدد من رجال الدِّين الذين يحومون في كُلِّ مكان، كان المارَّة يقولون: إنهم ذاهبون للمؤتمر، أو إنهم قادمون من المؤتمر. حقيقةً كانت الاجتماعات كثيرةً، واللِّجان كبيرة العدد، فكانت أسراب رجال الدِّين تجوب الشَّوارع في كُلِّ ساعةٍ، قادمةً من المؤتمر أو ذاهبةً إليه بالطَّبع. خلال أشهر ملأ المؤتمر كُلَّ شيءٍ. لم تعد بيوت الرُّهبان وأديرة المدينة تتَّسع لكاهنٍ واحدٍ آخر.

كانت النِّقاشات اللَّاهوتية التي تُعقَد في سان بابلو، وسان بينيتو، أو سان جريجوريو تمتدُّ إلى ساعاتٍ متأخرةٍ من اللَّيل، أو كما كان السُّكَّان

يقولون، لم يكن لها نهايةٌ. النِّقاشات في ساحة السُّوق بين الفلاحين والحرفيِّين كانت تنحو إلى الحدَّة بسهولةٍ كبيرةٍ. وفي وسط كُلِّ هذه الإشكالات والنِّقاشات، والكلام الكثير واللَّغط، كانت هناك الشَّخصية المثيرة للجدل، إيراسموس نوتردام، فهو ملاكٌ بالنِّسبة للبعض، وشيطانٌ عند آخرين. قسَّم قلم إيراسموس العالم المسيحيَّ، ولهذا، وبمناسبة المؤتمر، تشكّل جانبان في المدينة: الإيراسميون وغير الإيراسميين. لكن هذا الانقسام لم يكن حاضرًا فقط في المدارس والأديرة، وإنما في كُلِّ الهيئات، والصِّناعات، والمتاجر، وعائلات المدينة، وكلَّما اجتمع أكثر من شخصين. كما لم تنجُ مدرسة الأطفال اللُّقطاء من الانقسام، ليس بين المُعلِّمين فقط وإنما بين الطَّلبة أيضًا. كان معروفًا للجميع أن الأب أرنالدو معادٍ للإيراسمية، وأن الأب توبال كان إيراسميًا رغم أنهما كانا يحرصان بشدةٍ على عدم البوح بميولهما. الأوَّل كان يقول إن لوثر رضع من صدر إيراسموس. من دونه لم يكن الوصول لذلك الوضع ممكنًا، بينما كان الأب توبال يعتقد أن إيراسموس دي نوتردام كان المصلح الذي تحتاجه الكنيسة تمامًا. لكن لم يقع بينهما أيُّ احتكاكٍ. كانا يقومان بالتزاماتهما بالدِّقَّة المعتادة، لكنهما لم يتواجها مطلقًا. هذه النَّظرة المتباينة للأفكار الإيراسمية، التي كانت تفرِّق بين البالغين، فرضت نفسها أيضًا بين الطُّلاب الذين كانوا قبل أسبوع يجهلون وجود إيراسموس، لكن خلال الوقت الذي استغرقه المؤتمر، بدا أن الأبوين أرنالدو وتوبال هما المكلَّفان بنقل آخر أخباره إلى المدرسة، كُلٌّ منهما يوجِّه الأخبار إلى جانبه بشكلٍ غير مباشرٍ:

- «المعادون للإيراسمية وضعوا جواسيس في المكتبات لكي يوجِّهوا الاتِّهام بالهرطقة إلى القرَّاء».

قال بيرويس في المؤتمر: «إن مانريكي، القاضي في محاكم التَّفتيش، والإمبراطور، من المؤيدين لإيراسموس».

انقسمت المدينة التي تحتضن المؤتمر. كانت تتناقش، وتحتدُّ، وفي ساحة السُّوق، بجانب أماكن بيع الخضراوات، بالإضافة للنِّقاش العام الكبير، تُرتَجَلُ نقاشاتٌ أخرى بين مثقَّفين زاعقين ومنفعلين. البلاط، المقيم مؤقتاً في المدينة، جعل الإيراسميين يشعرون بالحماية. في نزهات الظَّهيرة، كان اللُّقطاء يتقاطعون مع مجموعات القساوسة. مجموعاتٌ كبيرةٌ تعلِّق على أحداث المؤتمر بأصواتٍ صارخةٍ، تخرج بالخلافات من الكنائس إلى الشَّارع. ذات صباحٍ، ارتكب الأب أرنادلو حماقة دعوة الطَّلبة للصَّلاة من أجل هداية إيراسموس. اعترض الإيراسميون وغيَّر الأب أرنالدو الغرض من الصَّلاة قائلًا: «لكي ينير الرَّبُّ طريق كل من يشارك في المؤتمر».

ثيبريانو، بتعاطفٍ فطريّ نحو إيراسموس، تدخَّل بحماسةٍ في الدِّفاع عنه. لدى الخروج من الكنيسة، سأله كلاوديو السَّمين:

- «من يكون إيراسموس هذا؟»

- «عالم لاهوتٍ، وكاتبٌ، يَعتقد أنه يجب إصلاح الكنيسة».

في الطَّرف الآخر من الفناء كان الفلاح يصيح: «إيراسموس إلى المحرقة». عامّةً، كانت النِّظريات المناهضة لإيراسموس تنهض على أن لوثر لم يكن سيوجد لو لم يكن إيراسموس موجوداً.

في وسط المؤتمر، اعتقد اللُّقطاء أن الأطروحات الإيراسمية تهيمن على المناقشات وأن أعداءها، المُعلِّم مارجالو، وفراي فرانثيسكو ديل كاستيو، وفراي أنطونيو دي جيفارا، كانوا يتراجعون مُنهزمين. لكن بعد أيامٍ، أعلن الأب أرنالدو أنه تتمُّ مناقشة الطَّلاق، الذي كان إيراسموس يدافع عنه، والذي كان المؤتمر والشَّعب يعارضانه. لكن حينئذ قفز إلى الصَّدارة المُعلِّم ثيرولو، الذي حاز لمكانته ولقَبه على شعبيةٍ كبيرةٍ، وأعلن

أنه يقرُّ بوجود بعض الأخطاء لدى إيراسموس دي نوتردام، لكن كُتُبه، في المجمل، ألقت ضوءً كثيرًا على الأناجيل الأربعة والرُّسل ورسائلهم. ونَجَمَ عن المؤتمر توتُّرٌ كبيرٌ وبدت المدينة صندوقًا مُصوِّتًا. لكن عدو إيراسموس الأساسيُّ كان نُظُم الرَّهبنة التي سخر منها في كتابه الدَّليل (دليل الفارس المسيحيِّ). كانت قراءته توَلِّد احتقاناتٍ بين الرُّهبان، والاعتراضات من فوق المنابر كانت تتزايد، ولهذا كان الهياج يزداد يومًا بعد آخر والجماهير الجاهلة كانت تطالب بإلقاء أعمال إيراسموس في المحرقة. اشتدّ النِّزاع إلى حدٍّ العنف عندما قام المُعلِّم مارجاليو ذات صباحٍ بإدانة رضا بيرويس عن إيراسموس، وأنه يقوم بإخباره في رسالةٍ يوميةٍ، بتطورات المؤتمر. دافع بيريوس عن حقه في الاتصال بالهولندي محل الجدال، وبهذا التَّصريح الواضح، توتَّرت النُّفوس.

وصل الأمر بطلاب المدرسة، من الجانبين، إلى الاشتباك بالأيدي ذات يومٍ في الرَّاحة، حيث كان البعض يهتفون بالحياة والموت ويطالبون بالمحرقة لأصحاب الموقف المناقض. كان العراك شديد العنف، ومنه خرج ثلاثة طلاب بجروحٍ في الرَّأس، ليذهبوا إلى العيادة. حدَّثهم الأب أرنالدو والمُعلِّم في اليوم التَّالي عن الاحترام وقبول الآخر وزجرهم. كان هناك انطباعٌ، رغم ذلك، أن الكفَّة تميل إلى جانب إيراسموس، وضد لوثر، والنَّتيجة كانت مرضيةً للبابا والإمبراطور. وعندما قَام الإيراسميون، وخصوصا كارنثا دي ميراندا، بنبوغٍ، بدحض أطروحات الرُّهبان حول الجبرية والغفران، معتمدين على أعمال إيراسموس، والإنجيل ونصوص الآباء القدِّيسين، وانتهى النِّقاش.

خلال تلك الأيَّام شعرت بلد الوليد بانزعاجٍ ناتجٍ عن قلقٍ طبيعته مختلفة: أحد خدم ماركيز فروميستا، وكان يُعَاني من تقيُّحات الطَّاعون، نقل العدوى لثلاث خادمات لدى الماركيز، كلَّهن فتيات، ومات الأربعة

بعد أيام قليلة. في الوقت ذاته، أعلنت الصِّحة عن وجود مريضٍ بالطَّاعون في هيريرا ديل دويرو وامرأةٍ في دوينياس. وفي ساعاتٍ قليلةٍ، على نواصي الشَّوارع، بزغت محارقٌ من الزَّعتر وإكليل الجبل والضرم، من أجل تنقية الهواء رغم أن النَّاس كانوا يسيرون منذ أيام بينما يغطون أفواههم بالمناديل. قام المجلس بتعيين لجنة من المفوَّضين لكي تَقُوم بمتابعة الحالة الصِّحية في المدينة والقرى المجاورة وتم اللجوء إلى أموال ضرائب النَّبيذ والخبز لتنظيم مكافحة المرض. وبعد ذلك طُبع بيانٌ، قام المنادون بإذاعته، للمطالبة بالنَّظافة في البيوت، ومنْع أكل الشَّمَّام، والقرع والخيار، «لأنها تتشبَّع بسهولةٍ بأبخرة شرِّيرة». وتمَّ تنظيم العناية الصِّحية، والدَّوائية والغذائية من أجل الفقراء، حيث إن الجوع يُسهِّل العدوى بالمرض. على العكس، كان الأغنياء يُسرعون في جمْع مقتنياتهم وأغراضهم الثَّمينة، وخلال اللَّيل، يغادرون المدينة خفيةً في عرباتهم، ليقيموا في الرِّيف، أو في بيوتهم المُخصَّصة للمتعة، بجانب الأنهار، بانتظار انحسار الطَّاعون. وصل الطَّاعون إلى المدينة مُجدَّداً. وكانت المدينة تعدّ نفسها من أجل حصارٍ طويلٍ. وضعت رسالةٌ من البابا كليمنت السَّابع نهايةً للمؤتمر الشَّهير بعد أشهر عديدة من النِّقاشات. في الوقت ذاته انتقل البلاط إلى بالنسيا وانتقلت المحكمة العليا إلى أولميدو. ومع هذا، في البداية كانت حالات الطَّاعون قليلةً في المدينة: ستة موتى. ولكي لا يعمَّ الذُّعر، أشاع مجلس المفوضين أن ستة موتى من الطَّاعون كان «أمرًا مثيرًا للسُّخرية»، وأن الوباء يجب أن يكون شيئًا مختلفًا، حيث أن «الطَّاعون يقتل الكثيرين». تذكَّر آخرون غزارة حالات الحصبة في الخمسة عشر عامًا الأخيرة من القرن، ومن هذه الواقعة خرج المواطنون باستنتاجاتهم: لم يكن طاعونًا ما يعانون منه، وإنما حصبة، رغم أن الحصبة تعتبر دائمًا كمقدِّمةٍ للوباء.

الواقع أن الحالة كانت تزداد سوءًا، والمرض ينتشر بسرعةٍ شديدةٍ. لم

تكن هناك كفايةٌ من الأطباء للعناية بكُلِّ هؤلاء المرضى، ولا من القساوسة لتقديم المساعدة الرُّوحية. الموتى متراكمون في الشَّوارع، يتم حملهم إلى باحات الكنائس لدفنهم. فتح المجلس أربعة مستشفياتٍ جديدةً على الضِّفَّة اليمنى لنهر بيسويرجا. اثنان، هما سان لاثارو ولوس ديسامبارادوس، كانا للمرضى في حالةٍ خطرةٍ. واستعان بالقوى الفاعلة، من بينها مدارس اللُّقطاء. كانوا أطفالًا تقريبًا، بالكاد مراهقين، لكن يُتْمَهم تركهم من دون حمايةٍ عائليةٍ. في أقصى أيام الطَّاعون تلك، قَامت المدارس بتأدية أكثر مهامها إنسانية: دفْن الموتى، ونقْل المرضى، ومراقبة عزْل المدينة، وإقَامة نقاط تَحَكُّمٍ في الجسور وغلْق المباني التي يكثر بها المصابون. كان الطَّلبة يقومون بدقِّ ألواحٍ لسدِّ أبواب البيوت التي وصلتها العدوى. وتخصَّص ثيبريانو في مهمةٍ دقيقةٍ وهي تحريك حجارة الأسقف من أجل إطعام المحبوسين خلف الجدران. بعربة المدرسة، التي يجرُّها بلاس، الجحش الضامر، كان ثيبريانو يتحرَّك من مكانٍ إلى الآخرِ، يوزِّع أكياس طعامٍ بين المعوزين أو يقيم نقاط تفتيشٍ في جسور هيريرا ديل دويرو، حيث يصل عددٌ كبيرٌ من المهاجرين من الجنوب. كان الفتى يطلب منهم تقارير حول أماكن رحيلهم، والحال الصِّحية في القرى على الطَّريق ويقودوهم بعد ذلك إلى مستشفى للعزل بجانب النَّهر.

بعد عدة أشهر، ظهرت بوادر البرد، وتنفس النَّاس الصَّعداء. كانت هناك قناعة أن الطَّاعون ينتج عن الحرِّ وبالتالي فإن البرد والمطر يخفِّفان من أثره. بعد أيامٍ عاد الدفء، وعاد الوباء ليضرب القرى والمدن القشتالية. في هذه الموجة الثَّانية بدأ الكلام عن وباء عام 1506، الذي كان أخطر من وباء عام 1518 رجل البنوك دومينيكو نيللي، كان يُهدِّئ من روع زملائه في ميدينا قائلًا لهم إن معظم المتوفين من جراء الطَّاعون كانوا فقراء، ولهذا، لم تكن لهم قيمةٌ. لكن النَّاس كانت تصرُّ على أن الطَّاعون

ينتج عنه تقيُّحات، مثل طاعون بدايات القرن. كان أسوأ من ذلك في عام 1518، كانوا يؤكِّدون. حينئذ بدأوا في تنظيم تضرُّعات في كنيسة سان روكيه وكنسية عذراء سان يورنتي، طلبًا لأمطار الخريف. لكن عدد الفقراء كان في ازديادٍ، ووجدت البلديَّة نفسها مضطرَّةً لاتخاذ إجراءاتٍ حاسمةٍ: الإجراء الأوَّل، فصل المتشرِّدين عن الفقراء المحترمين، وطرد أولئك. والثَّاني، المطالبة بخروج العاهرات اللَّاتي لم يولَدن في المدينة. لكن طرد فئاتٍ اجتماعيةٍ لم يحلّ شيئًا. على العكس، بدأ المهاجرون في التَّفوق على المُهجَّرين واضطرَّ المجلس لتوفير إقَامةٍ لهم على الجانب الآخر من النَّهر. لكن عدد المعوزين كان في ازدياد ويزيد معه انتشار الطَّاعون، ولهذا استدعى العمدة الفقراء الأصحّاء على الجانب الآخر من الجسر من دون تأخيرٍ. كان غرضه أن يقوم بعض المفوَّضين بطردهم بعد تزويدهم بأطعمةٍ كافيةٍ من أجل الطَّريق. لكن الفقراء رفضوا الذهاب. في المدينة كانوا يتلقَّون الأدوية مجَّانًا، نصف رطلٍ من اللُّحوم ونصف رغيف من الخبز لكلِّ شخصٍ كُلَّ يومٍ، ولا يضمن لهم أحدٌ أن يتلقَّوا تلك المساعدات في القرى المجاورة، كما كانوا لا يعرفون الوضع الصِّحي فيها. حينئذ، كانوا يختبئون في أركان ممشى البرادو، وأثناء اللَّيل، مع بعض نزلاء مستشفيات العزل، كانوا يعبرون نهر سويجرا في قواربٍ أو سباحةً أو سيرًا في الأماكن المعروفة بقلة العمق، ليعبروا السُّور.

من جانبهم، ثيبريانو واللُّقطاء، كانوا يبذلون قصارى جهدهم لمساعدة أبناء مدينتهم. أحيانًا، ولعدم وجود مهام أكثر إلحاحًا، كانوا يشعلون محارق من الزَّعتر وإكليل الجبل لمواجهة الانبعاثات الضَّارة ويواصلون حمْل الطَّعام إلى المحتجَزين خلف الجدران عبر ثقوب الأسقف. أحيانًا يموت أحد المرضى في البيوت المغلقة، ويصبح من الضَّروري خلْع الألواح الخشبية من الأبواب وإخراجه للدَّفن.

في تلك الأيَّام، في آخر مراحل الوباء، جاء عمه إجناثيو سالثيدو إلى المدرسة. أتى ليودِّعه قبل الانتقال إلى أولميدو مع المحكمة العليا. في أثناء الحوار أخبره أن دون برناردو، أباه، كان في حالةٍ خطيرةٍ من المرض. وأنه منذ أيامٍ أُصِيب بعدوى الطَّاعون رغم أنه اعتقد دائمًا أن هذا الدَّاء هو مرض الفقراء فقط. وكان منذ طفولته يكره الأمراض المقزِّزة، والآن يُعَاني من أكثر صورها بشاعةً، جسده مغطًّى بالتَّقيُّحات المفتوحة، الطَّافحة، كما كان الأمر في طاعون العام السَّادس. ولَمْ يكن هناك مفرٌّ من تركه في رعاية الخادمات والدُّكتور بينيتو هويدورو. لم يكن يطلب منه أن يزوره، حفاظًا على سلامته ولكي لا يهين شقيقه، لكن أن يكون حاضرًا في موكب اللُّقطاء إن انتهى الأمر بالوفاة. تردَّد، كما حدث في اللِّقاء السَّابق في ساعة الوداع، وانتهى إلى الشَّدِّ على يده، والترَبيت على كتفه، وقال له إنهما سيتحدَّثان مستقبلًا عن تعليمه إن قضى شقيقه نحبه.

لَمْ يحزن ثيبريانو للخبر. فلَمْ تكن لديه شعرةٌ من الحب تجاه أبيه. وفي الوقت ذاته كان إيقاع حياته شديد السُّرعة، فلم يكن لديه وقتٌ للتَّفكير في الأمر. الجفاف ما زال مستمرًا – فعلياً مرَّ عامٌ من دون أن تُمطر– ومؤخرًا كانوا يحرقون البيوت الأكثر إصابةً بالعدوى بعد نقل السُّكَّان المرضى إلى مستشفيات خارج الأسوار. بعد تسعة أشهر من مشاركتهم في العمل، تعرَّض اللُّقطاء لحالتي وفاة: تيتو ألبا وجايوفا. حملهما ثيبريانو بنفسه في عربة المدرسة، إلى مستشفى ميسركورديا. كانت دموع ثيبريانو تتساقط بينما يحثّ الجحش الذي يجرُّ العربة. تيتو ألبا مات بعد أسبوع، وجايوفا مع بداية الشَّهر التَّالي.

بين الوفاتين أسلم دون برناردو سالثيدو رُوحه. ارتدى ثيبريانو أقلَّ أرديته اهتراءً واجتمع مع زملائه عند الباب رقم 5 في شارع سان بابلو. قام بنفسه بمساعدة خوان دوينياس على وضع الجثَّة في العربة وربطها، وبعد

ذلك، رافقه بصمت. المشعل متّقد في يده، بينما يسمع أناشيد الكورال. ما أن أصبحوا في الكنيسة، حضر الجنازة، وقام المساعدون بتلاوة الصَّلاة الأخيرة:

- «حرِّرني يا إلهي من الموت الأبديِّ...».

حينئذ لمح مينرفينا راكعةً على أحد المقاعد وحاول الاقتراب منها لكن المُعلِّم حثَّهم على الخروج ليتحلَّقوا حول اللَّحد، حيث يجب أن ينشدوا ابتهال القدِّيسين. بعد الانتهاء كانت مينرفينا قد رحلت واقترب المُعلِّم منه بوقارٍ، شدَّ على يده وقال:

- «باسمي واسم زملائك أقدِّم لك أعمق تعازينا».

التَّطورات والمهام لم تسمحا لثيبريانو بالتَّأمُّل في يتمه. بعد العودة إلى المدرسة، تلقَّى الأمر بالذهاب إلى هيريرا دي دويرو للبحث عن مجموعة من اللَّاجئين. كان هناك حديثٌ عن موتى في الحقول ونقاط الاستراحة في الطُّرق، وعن نقص الأطباء في القرى، حيث يقوم على رعاية المرضى الحلَّاقون والمطببُّون، وأحيانًا الجيران أنفسهم. وكان هذا حديث كُلِّ يومٍ.

مرت أشهُر كثيرةٌ وطويلةٌ للغاية منذ بدء الطَّاعون، حتَّى ظنَّ أبناء بلد الوليد أنه وباءٌ دائمٌ. لم يروا مخرجًا. كانت الأشهُر تمرُّ من دون أن تعطي تقارير المفوضين أي خبرٍ مفرحٍ، بينما تتكرَّر أرقَام الموتى من دون تَوَقُّفٍ. بشكلٍ غير منتظرٍ، مع بدء الخريف الجديد، بعد حصادٍ هو الأسوأ، وطقسٍ قاسٍ، أعلن مجلس المفوضين عن موت عشرين شخصًا فقط من بين الألفين الموجودين في المستشفيات خلال الشَّهر الأخير. في نوفمبر أصبحت حالات الوفاة بسبب الطَّاعون اثنتي عشرة، وأعداد الخارجين من المستشفيات بلغت أربعمائة وثلاثًا وتسعين. كأنه تحرُّرٌ من سحابةٍ مظلمةٍ بعد عامٍ ونصف العام من دون رؤية الشَّمس. عاد النَّاس للخروج إلى

الشَّارع لاستنشاق روائح الزَّعتر وإكليل الجبل لتهوئة رئاتهم، والاقتراب من الممشى الجديد بجانب النَّهر، وعادوا للحوار والضَّحك. المعجزة وقعت. وعندما ارتفعت حالات الخروج من المستشفيات إلى ثمانمائة وثلاث وأربعين، وانحصر الموتى من الوباء في اثنين، انفجرت المدينة بالفرح، وتمَّ تنظيم مسيرات شكرٍ إلى مقام سان روكيه وأعلن المجلس عن ألعاب مبارزةٍ ومصارعة ثيران في الرَّبيع. لقد انتهى الطَّاعون.

بعد حلول الرَّبيع، في يوم إجازة، ظهر العمُّ إجناثيو في المدرسة. كانت بشرته أكثر حمرةً من المعتاد بسبب الحياة في الرِّيف. كلمات عمّه الأولى كانت لتهنئته على أدائه خلال الوباء. بين الأوسمة التي تعدُّ لها بلدية المدينة، يوجد وسامٌ لطلَّبة مدرسة الأطفال اللُّقطاء. كانت الإشارة الوحيدة للماضي. بعد ذلك، حدَّثه عمه عن مستقبله. قبِل ثيبريانو فكرة الحصول على شهادة القانون ووافق على الحياة في بيت عمه حتَّى يبلغ سنَّ الرُّشد ويتسلَّم ممتلكاته. لم يقبل فكرة تبنّي عمه له. نفور ثيبريانو من الجنس البشريِّ، وتجربته الحزينة مع أبيه، جعلته يميل إلى القبول بعمّه كوصيّ. بعد ذلك قَالَ له عمه إجناثيو إنه بمجرد عودة المحكمة إلى المدينة، سوف يقوم بإخراجه من المدرسة، نظرًا لمنصبه العالي بها، وقام بحل موضوع الأوراق المزعج مقدَّمًا.

في بيت عمِّه، العمة جابريلا، والخدم، والحياة العائلية، مثَّلوا لثيبريانو تغييرًا غير مريحٍ. كان يفتقد زملاءه، والنُّزهات، والدُّروس الجماعية، والألعاب، والحوارات، والعادات المكتَسَبة. وظهور المُعلِّم، دون جابرييل دي سالاس، لم يُحسِّن الوضع. فذكرى المدرس السَّابق في بيت أبيه، و»الخوف وراء الجدران»، عادا للظهور مُجدَّداً بشكل آليّ. كانت دونيا جابريلا تتفانى في رعايته، لكي تجعل حياته أكثر بهجةً. وبحدس نسائيّ مرهفٍ سألته ذات يوم إن لم يكن يفتقد مينرفينا. أحنى ثيبريانو رأسه

موافقةً. غياب مينرفينا جعل عودته للبيت بلا معنى، كانت الشَّخص الوحيد الذي أحبَّه، وهي التي لاذ بها دائمًا. من جانبٍ آخر، كان اكتشاف بيت عمه يريح ثيبريانو. لم يكن، كما يُمْكن الاعتقاد، البيت الفخم لبرجوازيّ كبيرٍ، وإنما سكنٌ جذابٌ وهادئٌ لرجلٍ مثقَّفٍ. كان ثيبريانو يقضي ساعاتٍ طويلةٍ في المكتبة التي يصطفّ فيها أكثر من خمسمائة مجلَّدٍ، بعضها مطبوعٌ في بلد الوليد، وترجماتٌ بالرومانثية لجوفينال وسالوست والإلياذة. كُلّ شعراء اللَّاتينيَّة تقريبًا كانت كتبهم موجودة، وخطوةً فخطوة، أخذ ثيبريانو في اكتشاف متعة القراءة، ومتعة فضّ بكارة كتابٍ في صمتٍ حميميّ. ومن جانبٍ آخر كانت في البيت لوحاتٌ جيدةٌ، ونسخٌ متقنةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ من أعمالٍ شهيرةٍ، وبعض اللَّوحات المجسَّمة الصَّغيرة. قُدوم ألونسو دي بيروجيتي مؤخرًا إلى المدينة أعطى دون إجناثيو فرصةً لكي يكلِّفه بعمل لوحةٍ خشبيَّةٍ منقوشةٍ، وهو ما كان الفنَّان يطلق عليه (لوحةٌ مُجسَّمةٌ)، لزوجته دونيا جابريلا. كان عملًا عالي الجودة، لتكلفته المرتفعة أكثر من شبهه بالأصل. كانت اللَّوحة في الغُرفة الصَّغيرة المؤدِّية إلى المكتبة، ودون إجناثيو، الرجل شديد التَّديُّن، شديد الاحترام تجاه الفنّ، فكان يكشف رَأسه عندما يمرُّ أمامها كأنها نقشٌ مقدَّسٌ. هذه الأجواء الجديدة من الفن والذوق الرَّفيع كانت تحفِّز ثيبريانو. تأقلم مع دون جابريل دي سالاس، وكان تقدُّمه في اللَّاتينيَّة وقواعد اللُّغة والقانون ممتازًا.

ذات يومٍ، لدى خروجه من الدَّرس وجد مينرفينا في الصَّالون. ما زالت تَحْتفظ بليونتها، الخصر الرَّشيق ذاته، وذات العنق الطَّويل النَّحيف، والفم بشفتين ممتلئتين. كانت دونيا جابريلا تقف خلفها مبتسمةً، ولم يعرف ثيبريانو ماذا يفعل ولا ماذا يقول. بادرت مينرفينا بالكلام لتقول له إنه كَبُرَ، وأصبح رجلًا، وهذا كان يؤلمه.

مرَّت الأيَّام ولم تُستأنف تلك العلاقة الحميمة بين مينرفينا وثيبريانو.

ارتفع بينهما حاجزٌ مانعٌ من الحياء. حتَّى كان يوم خميس، حينما خرج عمَّاه وكانت زميلات مينرفينا في إجازة، عندما رآها ثيبريانو جالسةً، بظهرٍ مُنتصبٍ على أريكة الصَّالون الكبير، الثديين صغيرين، بالكاد يُمْكن لمحهما من الرِّداء ذي الصَّدر المربَّع، شَعَر بالانجذاب اللَّانهائيِّ والبريء ذاته الذي كان يشعر به في طفولته، اتَّجه نحوها وعانقها وقبَّلها، بينما يقول لها «أ..أهلًا مينا» و«أحبُّك كثيرًا، هل تعرفين هذا؟». تهاوت مينرفينا عندما شعرت بثدييها بين راحتي يديه، السَّعيُ المحموم لشفتيه المتَّقدتين على فتحة صدرها:

- «أوه، يا كنزي، لا تكن مجنونًا!».

- «أحبُّك، أحبُّك؛ أنتِ الشَّخص الوحيد الذي أحببته في هذه الحياة».

كانت مينرفينا تبتسم مفزوعةً، وكانت تستسلم.

- «تؤلمني بلحيتك، لقد أصبحت رجلًا يا ثيبريانو».

كانا يتقلَّبان مثلما كانا يفعلان في طفولته، يتعانقان، ويتبادلان القبلات، لكن الفتى لاحظ عنصرًا جديدًا في علاقتهما، إذ عندما تقلَّبا على البساط الوثير وخلع أزرار الرِّداء، حاولت مينرفينا المقاومة، لكن كان هذا هباءً.

في اليوم التَّالي، ذهب ثيبريانو للأب توبال:

- «لـ... لقد ضاجعت مُرضعتي، يا أبتِ، المرأة التي أطعمتني من صدرها».

ردَّ عليه الأب توبال:

-«هذا يشبه مضاجعة أمِّك ذاتها، يا ثيبريانو. لم تمنحك الحياة، لكنها منحتك جزءًا من حياتها عندما لم تكن قادرًا على البقاء حيًّا بمفردك».

أصبح ثيبريانو يتجوَّل في البيت كأنه يسير أثناء نومه. بالكاد كان يجرؤ على النَّظر لوجه مينرفينا في حضور عمِّيه. كان يُقلِّب اعترافه في رَأسه. لم يكن صريحًا تمامًا مع الأب توبال. من جانبٍ آخر، كان مستاءً لتبرير مشاعر شديدة الحميمية. كيف يُمْكن للأب توبال أن يصل لفهْم علاقته بالمرأة؟ وإن لم يفهمها، كيف يمكنه أن يحكم عليها؟

الخميس التَّالي، عندما أصبحا بمفردهما، لاذ ومينرفينا، كُلٌّ منهما بالآخر، كأكثر أمور العالم طبيعيةً. من دون الاعتراف لها بهذا، كان ينتظر تلك اللَّحظة نافد الصَّبر. وبفطرتها، قَامت بالاستسلام له، بإعطائه ثديها، وهو كان يقبض عليها كطوق نجاة. كانا يضطجعان عاريين في فِرَاشها الضَّيق، وطبْع مينرفينا الخجول كان يُعلي من شأن الفعل. أخذها ثلاث مَرَّات، وعندما انتهيا، شعر باستياءٍ من نفسه، مفكرًا أنه يجعل من الفتاة عاهرةً. كان واعيًا بحبه، بنقاء مشاعره نحوها. لكن، بعد كُلِّ شيءٍ، لم يتوقَّف عن التَّفكير في المغامرة الدَّنيئة للسَّيِّد الذي يستغل الخادمة. ذهب إلى أب اعترافٍ مجهولٍ في سان جريجوريو:

- «أ.. أعترف، يا أبتِ، بامتلاك مُرضعتي، لكن لا يمكنني النَّدم على هذا. حبي أكثر قوَّةً من إرادتي».

- «هل تحبها أم ترغب بها؟».

- «إن كنت أرغب بها، فلأنني أحبها. لم أعرف شخصًا مثلها في الحياة».

- «لكنك ما زلت صغيرًا. لن تتزوجها، بالطَّبع».

- «لديَّ أربعة عشر عامًا يا أبتِ. الوصيُّ عليَّ لن يتفهَّم هذا».

تردَّد القس. وفي النِّهاية قال:

- «لكن، إن لم يكن هناك ندمٌ، لا يمكنني أن أبرِّئك يا بني».

- «أدركُ هذا يا أبتِ. سأعود لزيارتك مُجدَّدًا».

أصبح اللِّقاء الإجباريُ بين العاشقَين يوم الخميس. لقاء لا يُمْكن تفاديه، خاصَّةً مع وجود الجنس. التَّجسيد الحيّ للهو الماضي بين الطِّفل ومرضعته. وأثناء التقاط أنفاسهما كانا يتكلَّمان. كان يحدِّثها عن سنواته في المدرسة، وعن انحراف كورسيل، وعن فقدانه البراءة. وهي تحدُّثه عن حبِّها الأوَّل نحو فتى من القرية، والسُّقوط، والحمل، والولادة. وعندما تتحدَّث عن هذا كانت تبكي وتقول له: «أنت ابني الذي فقدته، يا كنزي». لكن، في الحال كانا يعودان بسرعة إلى نفسيهما، ليكتشف كُلٌّ منهما الآخر، للحب. علاقات أيام الخميس، الآن في غرفة ثيبريانو، أصبحت أطول وأكثر اكتمالًا، واستمرت خلال أربعة أشهر تقريبًا. بسبب العودة غير المُنتظرة لدونيا جابريلا ودون إجناثيو إلى البيت، في إحدى ليالي الشِّتاء، انهار كُلُّ شيءٍ. اكتشفتهما دونيا جابريلا عاريين في الفِرَاش، متضاجعَين. ولم تكن قادرةً على فهْم أيِّ شيءٍ:

«لقد قمتِ باستغلال الطِّفل وثقتي يا مينرفينا؛ لقد دنَّست شرف هذا البيت ودنَّست شرفنا جميعًا. ارحلي ولا تعودي مرَّةً أخرى!».

استقلَّت مينرفينا عربة خيسوس رابيا إلى سانتوبينيا في الصَّباح التَّالي من ساحة السُّوق، بالجرابين اللذَين جاءت بهما قبل خمسة أشهر.

الكتاب الثّاني

الهرطقة

VII

ببلوغ سنِّ الرُّشد، حصل ثيبريانو على شهادة القانون، وصار متجر الحيِّ اليهوديِّ وأراضي بدروسا في حوزته، وانتقل هو ليعيش في شارع سان بابلو، في بيت أبيه القديم، المغلق منذ موت دون برناردو. بعد سنواتٍ من تحقيق هذه الأهداف، رسم ثلاثة أهداف أخرى شديدة الوضوح والطُّموح: العثور على مينرفينا، والوصول إلى مكانةٍ اجتماعيةٍ، وتوطيد موقفه الماليِّ حتَّى يصل لمستوى التُّجَّار الكبار في البلاد.

فشل في الهدف الأوَّل، العثور على مينرفينا، الذي كان يظنه أكثرها بساطةً. لم يستطِع أن يعثر على شخص يتذكَّر الفتاة في سانتوبينيا. أبواها ماتا وهي - كما قالوا - رحلت عن المكان. «تزوَّجت»، قال أحدهم، لكن شخصًا ثانيًا صحَّح: «مينرفينا لم تتزوَّج مطلقًا؛ رحلت مع شقيقها إلى موخاداس حيث لها عمَّةٌ عجوز. ذهب ثيبريانو إلى موخاداس على جواده الجديد رلامباجو. لكن لا أحد يعرف شيئًا عن الفتاة هناك؛ ولا حتَّى سمعوا باسمٍ شديد الغرابة كهذا من قبل». كان يصرُّ: «مينرفينا، مينرفينا كابا». لكن لم يخبره أيُّ شخصٍ بشيءٍ. لم يعرفوا فتاة بهذا الاسم مطلقًا. ثيبريانو الذي لم يكن يتقبَّل فكرة الحياة من دون الفتاة، بحث عنها في القرى المحيطة. بلا جدوى. بعد رحيل أبيه، ولجهله بمكان بلاسا وموديستا، أعاد البحث

بادئًا من جديد من البداية: سانتوبينيا. التقى أولبيدو لانوثا، المجدِّفة، التي فقدت عقلها قليلًا وقالت إن مينرفينا انضمَّت إلى خدم دون برناردو سالثيدو في المدينة. لم يجد من يقدِّم إشاراتٍ أخرى عن الفتاة، باستثناء عجوزٍ مريضةٍ تجاوزت المائة عام، ليونور باكيرو، التي أخبرته أنها تزوَّجت من عامل نسيج من شقوبية. حمله رملامباجو إلى شقوبية خلال يومين. لكن، من أين يبدأ البحث؟ سأل في كُلِّ ورش النَّسيج في المدينة، واحدة تلو الأخرى، لكنهم كانوا يطلبون اسم الزَّوج لأن اسم الزَّوجة لم يكون موجوداً في كشوف الأجور. عاد سالثيدو إلى بلد الوليد يائسًا. الآمال الأخيرة كانت تتلاشى. العثور على مينرفينا الذي بدا له دائمًا مهمةً سهلةً، كان يبدو له الآن وهمًا غير قابلٍ للتحقّق. قرَّر التَّوقُّف، والانغماس في الرُّوتين اليوميِّ، ثم التَّحرُّك فقط عندما يجد معلوماتٍ موثَّقةً تمكّنه من النجاح.

ديونيسيو مانريكى، الذي قام خلال عشر سنوات بإدارة متجر الحيِّ اليهوديِّ تحت إشراف دون إجنائيو، تلقَّى براحة بالٍ اضطلاع ثيبريانو بالعمل. هذا المبنى العاري الخاوي معظم أجزاء العام، من دون وجود شخصٍ سوى الأبكم فيديريكو، أصبح كريهًا لا يطاق. لهذا، تلقَّى مانريكى وصول ثيبريانو كهديَّةٍ من السَّماء. كان أوَّل أعماله مراجعة المعاملات مع آل مالويندا، في البداية مع دون نيستور، التَّاجر الشَّهير، وبعد ذلك مع ابنه جونثالو. فكَّر ثيبريانو أن أولى خطواته في التِّجارة ربما يجب أن تكون الاتِّصال ببورجوس، والتَّعرُّف على الآمِر الجديد، ومحاولة تحسين شروط التَّعَاقُد معه، مع الأخذ في الحسبان أنه يُورِّد له سبعمائة ألف لفافة صوفٍ من قشتالة القديمة كُلَّ عامٍ. كان يحبُّ ركوب الخيل وأيُّ سببٍ كان يبدو له معقولًا لكي يمتطي رلامباجو. ولهذا، في بدايات أكتوبر عَبرَ الجسر الكبير. مرَّ على كوهوركوس ودوينياس في الصَّباح، وبعد يومين كان يلتقي جونثالو مالويندا في لاس أويلاجاس.

استقبله جونثالو مالويندا بترحابٍ شديدٍ. كان يَتحدَّث من دون توقفٍ، ليبدو رجلًا مرحًا، ويربِّت على كتفه، وكثيرًا ما كان يشير إلى أبيه دون نيستور:

- «قام بإهداء أبيك أوَّل مقعدٍ للولادة في إسبانيا. أمٌّ حضرتك كانت أوَّل من استخدمه».

أقرَّ ثيبريانو:

- «هـ... هذا ما حدث. الأمور لم تكن على ما يرام، والدُّكتور ألمانيرا، الشَّهير في ذلك الوقت، اضطرَّ للاستعانة به».

انفجر جونثالو مالويندا في الضَّحك وربَّت على كتفه مَرَّاتٍ عديدةً:

- «وهكذا تصبح أنت أوَّل أبناء المِقعد الإسبان».

لَمْ يرُق مالويندا الصَّغير لثيبريانو. كان يضيق بسخريته، وتجاوزاته التَّي كان يظن أنها مرحةٌ، ويزعجه تربيته المتكرِّر على الكتف. ردَّ عليه:

- «في الواقع أنا ابنٌ لأمِّي. المقعد الفلامنكي لم يفعل شيئًا سوى مساعدتها على إحضاري لهذا العالم».

عندما رأى فشل مزحته، تخلَّى جونثالو مالويندا عن سخافاته. رجلٌ غير واثقٍ من نفسه، من دون شخصيةٍ واضحةٍ، لم يعتبره ثيبريانو الشَّخص المناسب لإدارة تجارة الصُّوف مع فلاندز. بدا له الابن التَّقليدي من الجيل الثَّالث لعائلات التُّجَّار، الذين، في وقتٍ قصيرٍ، يفقدون الثَّروة التي قام أجدادهم بجمعها بجهدٍ كبيرٍ. لم يندهش لضحك جونثالو مالويندا وهو يخبره باستيلاء القراصنة على سفينتين من قافلة الصُّوف. كأنها مزحةٌ مسلِّيةٌ.

- «خرجتا عن القافلة. لم تكونا تُبحران في منطقةٍ آمنةٍ».

- «لـ... لكن، كان مؤَمَّنًا عليهما».

- «كان، لكن لخروجهما من المنطقة الآمنة، قَام المؤَمِّن بإخلاء مسؤوليته. أمرٌ طبيعيٌّ. كُلٌّ يبحث عن مصلحته».

عاد ثيبريانو سالثيدو إلى بلد الوليد بإحباطٍ شديدٍ. ربُّ التِّجارة الجديد في بورجوس لم يكن على مستوى الظُّروف. بدا له عديم الخبرة مُتهوِّرًا، والاستيلاء على سفينتين كان تحذيرًا لأخذ ما يُستجدُّ في الاعتبار. كان سالثيدو واعيًا بأن أخطاء جونثالو مالويندا ستؤثر عليه لا محالةٍ. رَبَط هذه الفكرة بعزْمه على زيارة شقوبية، مدينة النَّسيج في قشتالة القديمة. عندما زارها قبل شهورٍ، اندهش لنشاطها، ورغم أن مينرفينا كانت تشغل كُلَّ أفكاره في ذلك الوقت، لم تفت عليه ملاحظة أن شقوبية مدينةٌ صغيرةٌ تشتهر بالنَّسيج، وتنمو انطلاقًا من مواردها الذاتية. كانت تعرف الاستفادة موادِّها الخام وتحويلها بحيث يبقى رأس المال في الموضع نفسه. لماذا لا تحاول بلد الوليد القيام بنشاطٍ شبيهٍ؟ لماذا لا تقوم المدينة باستغلال السُّبعمائة ألف لفافةٍ من الصُّوف التي تُصَدِّرها سنويًا إلى فلاندز كما يفعل رجال الصِّناعة في شقوبية؟ ألا يُمْكن أن يكون هو، ثيبريانو سالثيدو، مَنْ يحقِّق هذا؟ الرِّياح المقبلة على وجهه، التي يشعر بها أكثر بسبب الخبب الطَّويل لرلامباجو، كانت تُثير خياله. فكَّر: مدينة البلاط الإسباني مذعنةٌ لوضعها كمدينة خدمات، بلد الوليد مدينةٌ خاملةٌ، حيث كانت أقصى طموحات الفقير أن يأكل من الطَّعام الذي توزعه الأديرة، والغني يطمح أن يعيش من الإيرادات. لم يكن هناك من يتحرَّك.

أخبر ديونيسيو مانريكي بأفكاره لدى وصوله. لم يرُق له جونثالو مالويندا. كان شخصًا مستهترًا، يعتبر أسْر القراصنة لسفينتين أمرًا مسليًا. يجب أن نأخذ حذرنا. زلَّة قدمٍ من مالويندا سوف تؤثِّر جدِّيًا على تجارة الصُّوف في قشتالة. لماذا لا تحاول بلد الوليد أن تقوم بما تفعله شقوبية؟

عينا ديونيسيو مانريكي كانتا تتسعان جَشعًا. كانا على وفاقٍ. كان واضحًا أن عصر آل مالويندا قد انتهى. دون جونثالو كان كسولًا ومُقامرًا، وهي رذائلٌ سيِّئةٌ في التَّاجر. يجب التَّفكير في اتِّجاهٍ جديدٍ لتجارة الصُّوف: دعم القوافل، أو ربما، تجربة نقلها عبر أراضي نافاررا[1]. تحمَّس ثيبريانو لتأييد مانريكي له. اتَّفقا على التَّفكير في هذا، وفي تلك الأثناء، قرَّر ثيبريانو زيارة بدروسا: كان يطمح لإبراز لقبه. لقب دكتور في القانون لم يكن ذا قيمةٍ كبيرةٍ إن لم يصحبه بلقبٍ نبيلٍ. الولوج للأرستقراطية من القاعدة سيصبح مناورةً ذكيةً لتدعيم مكانته الشَّخصيَّة.

كان ثيبريانو يعرف مارتين مارتين، ابن بنيامين مارتين، المُستأجِر الجديد، وتيريزا زوجته، وأبناءه الثَّمانية، الصِّغار، الرَّشيقون مثل فئرانٍ. رافق عمُّه إجناثيو في رحلةٍ سابقةٍ إلى بدروسا. لفت انتباهه البيت العاري الفقير، من دون بلاطٍ. وعلى النَّقيض، النَّاموسيَّة المُطرَّزة التي تزيِّن فِرَاش الزَّوجية. قال مارتين مارتين، كأنه يقدِّم تفسيرًا:

– «إنه الميراث الوحيد الذي تلقَّيته عن أبي الفقير الذي يسكن الأمجاد السَّماويَّة».

ذهب دون إجناثيو وثيبريانو إلى بدروسا عبْر الطَّريق المعهود مرورًا بأرويو، سيمانكس وتورديسياس، الطَّريق الذي كان يأخذه الرَّاحل دون برنارد. وفي هذه الرِّحلة، قام ثيبريانو ساليثدو، المُحبُّ للمغامرات، بالتَّوصُّل لفكرة السَّفر بمحاذاة التِّلال، مرورًا بأراضي خيريا، ثيجونيولا، سيمانكس، بيابييخا وبيالار. لم يكن هناك طريقٌ مُحدَّدٌ، لكن رلامباجو كان يرسمه الآن، في رحلته الثَّانية، بخببٍ طويلٍ، بينما يسحق أعشاب القندول في السُّفوح. يقود ثيبريانو الجواد ببراعةٍ شديدةٍ، ويسيطر عليه،

(1) إقليم في شمال إسبانيا.

وفي كُلِّ رحلةٍ يُعلِّمه مهارة جديدة. كان شهر يونيو، وأزواج الحجل تطير بأفراخها من حقول العنب إلى المنحدرات، بخفقاتٍ معدنيةٍ تجعل الجواد يرتجف.

منذ شهورٍ كان ثيبريانو يسعى إلى لقب نبيلٍ. مارتين مارتين، الذي يحصل على ثُلث ثمار الأرض، كان تابعًا من دون قيدٍ أو شرطٍ. وسمع أكثر المُعمِّرين في المنطقة يتكلَّمون على نحوٍ جيّد عن دون برناردو، المدافع الأخير عن الثَّور في أعمال الزِّراعة، وعن دون أكيلينو سالثيدو، الجدِّ، الذي أمضى السَّنوات الأخيرة من القرن في بدروسا. لم يكن لدى أيّ منهم مفهومٌ جيدٌ أو سيِّئٌ عن أصحاب الأملاك. لكن، نعم كانت لديهم فكرةٌ مشوَّشة، أن في هذه الحياة من الأفضل الاقتراب من غنيّ عن الفقير. من جانبه، كان دون دومينجو، الكاهن العجوز، يحتفظ في سجلِّ الكنيسة بأوراق آل سالثيدو، حيث تم تدوين الصَّدقات والتَّبرّعات الممنوحة للقرية في الظُّروف الصَّعبة مثل وباء عام 1506 وضباب عام 1490، الذي لم يسمح بالدَّرس ونموِّ الحبوب في الأراضي التَّابعة للقرية. وإن لم يكن هذا كافيًا، كان بإمكان ثيبريانو سالثيدو البرهنة على نقاء الدَّم حتَّى الجدِّ السَّابع.

بعد وصوله بقليل، تبادل سالثيدو الآراء مع مارتين مارتين حول هذا الموضوع. سبعةٌ وثلاثون مواطنًا، من بين تسعة وثلاثين، كانوا على استعدادٍ للشَّهادة أن عائلته تتحدّر من النبلاء في بيدروسا منذ قرنين. دون دومينجو، الكاهن العجوز، من جانبه، سوف يرفق بالتَّقرير نسخًا من مستندات سجلِّ الكنيسة، التي توثِّق الدَّعم السَّخيّ لآل سالثيدو. لم يكن ثيبريانو يجهل أن لقبه كدكتورٍ في القانون، مرتبط بلقب «هيدالجو» النَّبيل، ليصبح «دكتور- هيدالجو»، لن يعفيه فقط من ضرائب ورسوم، وإنما سوف يجعله مؤهَّلًا للانضمام إلى للإدارة ويلحقه بالأرستقراطية السُّفلى. كان يعرف أيضًا، أن

مالك الأراضي يلتحق بالنُّبلاء بسهولة أكثر من رجل تجارةٍ، كما كان يريد البرهنة على أن عبارة «النَّبيل يُولَد، ولا يُصنع» لا معنى لها. وعده مارتين مارتين بإرسال تصديقات السُّكَّان ونُسَخ مستندات دون دومينجو بالبريد، فور أن يجمعها. ولكي يرفع ثيبريانو من شأنه، وينتهز القوانين الجديدة حول استغلال الأراضي البور، استعلم عن حدود قرى قناة بيابينديمي من أجل طلبِ تصريحٍ بالزِّراعة وترخيص بضمها لأراضيه.

بعد أسبوعين وصل بريدٌ من بدروسا إلى بلد الوليد وفيه الأوراق. حملها ثيبريانو إلى عمه، القاضي، الذي قام بدوره، بتقديمها، بطلبٍ مثيرٍ للإعجاب، إلى مجلس النُّبلاء في المحكمة. بعد شهور قليلة حصل دون ثيبريانو سالثيدو على لقب دكتور- هيدالجو وتم إعفاؤه من الاستقطاعات. رسالةٌ عاجلةٌ إلى بدروسا أَعْلمت دون دومينجو ومارتين مارتين بالخبر السعيد، في الوقت ذاته أوصى المستأجر أن يجهِّز للتَّضحية بدستةٍ من الشِّياه وبرميلين من نبيذ رويدا للاحتفال باللَّقب في اليوم الثَّالث من يوليو. احتفالٌ لن يُستثنى منه سوى فيكتوريانو كليوفاس واليوتيرو يورنتي، المزارعين اللَّذين يعتبران آل سالثيدو انتهازيين وليسوا شرفاء ونزهاء. أُقيمت الوجبة المسائية في فناء البيت مع الغروب، وحسبما تروي اليوميَّات القديمة، لم تعرف مدينة تورو، التي كانت بدروسا تتبعها، احتفالًا شبيهًا في أفضل سنواتها، كان احتفالًا شديد البهجة والبذخ، حتَّى أن الكلاب وحيوانات الحقل شاركت فيه. لاتوريرا، حمارة توماس جالبان، شربت دلوًا من نبيذ رويدا وأمضت اللَّيلة في النَّهيق والرَّفس في شوارع القرية، حتَّى ماتت في الصَّباح.

مع استقرار حياته كبالغٍ، والحصول على لقب هيدالجو، وتنظيم الأمور في بدروسا، وضع ثيبريانو حواسَّه الخمس في التِّجارة مع بورجوس. ورغم أن جونثالو مالويندا ما كان يروق له، أو بشكلٍ أدقٍ لهذا

السبب، قرَّر مرافقة قافلة الخريف شخصيًا، كما فعل أبوه، دون برناردو، بعد أشهر من ميلاده.

خلال أيَّامٍ عديدةٍ، تم تحميل النَّاقلات الخمس الكبيرة ذات العجلات الحديدية في المخزن، ومن أجل الرِّحلة تم تأجير أربعين بغلًا للجر من أرخيميرو روديثيو، والعشرات من العمال المؤقتين. وبحلول يوم المغادرة، ترأَّس ثيبريانو سالثيدو القافلة، على الطَّريق المعفَّر المُتَّجه نحو سانتاندير. في تلك اللَّحظات، شعر سالثيدو أنه ذو قيمةٍ وسعيدٍ. بسبب التحذير من أن قاطع الطَّريق دييجو برنال يحوم في المنطقة، حمل سلاحًا، كما حمله سائقو العربات، بينما كان أفراد (الأخوَّة المقدَّسة)[1]، الذين تم تحذيرهم ببريدٍ عاجلٍ، يراقِبون خطَّ سير الرِّحلة.

الطَّريق المليء بالحفر والنُّتوءات كان يُصَعِّب الرِّحلة، لكن القافلة المكوَّنة من خمس عرباتٍ كبيرةٍ، تجرُّ كُلٌّ منها ثمانية بغال، كانت عرضًا يستمتع به سائقو العربات والمسافرون الذين يستريحون على جانب الطَّريق عندما يرونهم يمرُّون. كان ثيبريانو يتقدَّم القافلة الطَّويلة من دون التَّوقُّف عن الحذَر واستشراف الأفق، متخوفًا من ظهور المجرمين من أتباع دييجو برنال فوق التِّلال، وهو قاطع الطَّريق الوحيد المعروف في كلتا القشتالتين. شكَّلت العربات طابورًا يُغيِّر من سرعته حسب خطةٍ موضوعةٍ مقدمًا: قطْع ستة فراسخ من الطَّريق يوميًا، لكي تستغرق الرِّحلة أربعة أيامٍ تقريبًا، مع الأخذ في الحسبان التَّوقُّفات المُتوقَّعة في بيوت استبدال البغال في دوينياس وكينتانا ديل بوينتي، والخانات في مورال وبيامانكو.

---

(1) «الأخوَّة المقدسة» مجموعة من المسلَّحين، الذين كانوا يتلقون رواتبهم من مجالس المدن لتعقب المجرمين. تم إنشائها عام 1476 على يد إيزابيل الكاثوليكية. ومن المرجَّح أن تكون «الأخوَّة المقدسة» أول جهاز شرطةٍ منظمٍ في أوروبا.

ما إن وصلوا بورجوس حتَّى بدأ التَّفريغ، الذي كان أكثر تعقيدًا من التَّحميل رغم أن مالويندا، الذي تم إخباره لحسن الحظ، كان يستعين بعمالٍ مؤقتين ذوي خبرة، فاختصروا وقت العمل. متخفِّفةً من حمولتها، قطعت العربات رحلة العودة في ثلاثة أيَّامٍ ونصف، وما إن وصلوا إلى الحيِّ اليهوديِّ، حتَّى جمع دون ثيبريانو سالثيدو السِّلاح وأعاده إلى (الأُخوَّة المقدَّسة)، وعاد إلى حياته اليوميَّة.

ذلك المخزن الكبير في الحيِّ اليهوديِّ القديم، الذي كان بالأمس مُزدحمًا بلفافات الصُّوف، والذي يبدو الآن فارغًا فراغًا مخيفًا، سوف يمتلئ شيئًا فشيئًا طوال الأشهُر القادمة، ومع وصول شهر يوليو، سوف تُعدُّ قافلةٌ أخرى. ثيبريانو سالثيدو، الحذر والخجول عادةً، كان يتعملق مع هذه المهام الكبيرة. تخزين سبعمائة ألف لفافة صوفٍ ونقلها إلى بورجوس في قافلتين سنويًا بديا له بطولةً جديرةً بالرِّجال العظام. لهذا، عندما جلس إلى مائدته، وقدَّمت له كريسانتا الخادمة غداءه الأوَّل بعد الرِّحلة، لم يحاول إخفاء يديه الصَّغيرتين المشعرتين، اللَّتين كان يراهما الآن قويَّتين وذكوريَّتين، مناسبتين للغاية للاضطلاع بالمهام الجسام. وفي تلك اللَّحظات، كان يرى نفسه أقرب إلى دون نيستور مالويندا، التَّاجر الكبير، الذي قَام، بموهبته وجرأته فقط، بجعل بورجوس مركزًا تجاريًا في عنفوان شبابه.

عمُّه والوصيُّ عليه، دون إجناثيو، الذي اعتاد على لقائه مرَّةً في منتصف الأسبوع، وخاصَّةً دونيا جابريلا زوجته، كانا ينظران برضا إلى إعجاب صغيرهما من دون نيستور. بالنِّسبة لدونيا جابرييلا، لم يكن هناك أكثر إثارةً للإعجاب من التَّاجر النَّافذ، لدرجة أن زوجها أوضح أن دونيا جابريلا كانت معجبةً بالتُّجَّار الكبار لمكانتهم الاجتماعية قبل أرباحهم. لكن شغفه بمالويندا الجدِّ، الذي لم يعرفه، لم يكن يُخفِّف

وإنما يرفع من احتقاره لابنه جونثالو. التَّعاون مع هذا الأخرق الذي يظنُّ بنفسه خفَّة الظلِّ، لم يكن يُشبع رغباته في الصُّعود المهنيِّ. من جانبٍ آخر، كان تَلقِّي سلعةٍ باليد اليسرى وتسليمها لشخصٍ ثالثٍ باليد اليمنى مقابل نسبةٍ، يبدو له نشاطًا غير نبيلٍ. ثيبريانو، أكثر من التَّاجر الذي أثرى بمثابرته وجهده، كان يُعجب بذلك الذي يقوم بفضل فطنته بإحداث تطويرٍ في المنتج. ولهذا، من دون معرفة السَّبب، يُغيِّر فجأةً الميول الشِّرائية للزَّبائن. هذه الرغبة في الابتكار قادته، خطوةً فخطوة، إلى معرفةٍ أفضل بنفسه، وقادته للحدس بمبادرته الإبداعية وأسباب عدم رضاه الشَّخصي. وزاد ولعه باكتشاف طرقٍ جديدةٍ بعد بضعة أشهُر، عندما قام القراصنة بالاستيلاء على سفينتين أخريين من قافلة فلاندز، واضطرَّت سفينةٌ أخرى إلى اللجوء إلى ميناء باساخيس بعطبٍ جسيمٍ. وفقًا لهذه الأخبار، كانت مخاطر القافلة البحرية تزيد كُلَّ عامٍ، وتكلفة الشَّحن والتَّأمينات ترتفع. قلق تجار الصُّوف أخذ في الانتشار، بينما تتجسَّد فكرة سالثيدو بسلوك طريقٍ جديدة. تجارة تصدير الصُّوف لم تعد تفيد بمفردها لتصريف الصُّوف القشتالي بسعرٍ مربحٍ. في تلك المرحلة، وبالشَّكل الغامض الذي تتطوَّر به هذه الأمور، عنَّت لثيبريانو ذات يومٍ فكرة إضفاء النُّبل على ملبسٍ شعبيّ للغاية ومتواضعٍ مثل المِعْطَف المصنوع من جلد الأغنام. السُّترة الطَّويلة الصَّالحة للرَّعي أو السَّفر في البارامو خلال الشِّتاء، يُمْكن تحويلها، عبر ثلاث لمساتٍ خفيفةٍ، إلى ملبسٍ لفئاتٍ اجتماعيةٍ أرقى. النَّجاح، كما يحدث دائمًا في عالم الموضة، يعتمد على الإلهام، وعلى اللَّمسة الأنيقة. في هذه الحالة، بتزويد الظهر المستوي وفتحتي الكمَّين ببعض الكشكشات الجريئة، يُمْكن لملبسٍ خاصٍّ بالفلاحين أن يكتسب أناقةً مدينيَّةً تجعله مناسبًا للسَّيِّدات والسَّادة عبر بعض الثنيات المتقنة.

الخياط فيرمين جوتيرث كان أوَّل من وافق على مبادرة سالثيدو. واجتهد ثيبريانو في مدْح مميزات المَلبس الجديد حتَّى تحمَّس جوتيرث للمشروع. على الفور تمَّ التَّعَاقُد معه للعملِ في ورشته مقابل أجرٍ مرتفعٍ قابلٍ للزِّيادة قدره اثنا وستون ريالاً في الشَّهر. من جانبه، تعهَّد ثيبريانو بتزويده في الوقت المتفقَ عليه بكُلِّ الصُّوف الضروريّ. ثورة الثنيات، كما كان ثيبريانو سالثيدو يُطلِق عليها، أثارت بعض الفضول في العامِ الأوَّل. لكن، في العامِ الثَّاني انفجرت حماسة غير متوقَّعَة، أجبرت سالثيدو على إرسال شحنتين من المِعْطَف في صورته الجديدة إلى معرَضي شقوبية وميدينا ديل كامبو. غزَت السُّترة السُّوق وبلغ الإقبال عليها درجةٍ جعلت سالثيدو يُقيم في أسفل بيته، في شارع سان بابلو، متجرًا اسمه مُستوحى من الاختراع ومن صاحبه على لافتة غامضة: مِعْطَف ثيبريانو.

لقد تمَّ اتخاذ الخطوة الأولى نحو الشُّهرة. مع هذا، لاحظ ثيبريانو أن المِعْطَف الذي استقبلته الطَّبقة الوسطى استقبالاً جيدًا، لم يخترق الفئات الاجتماعية الأعلى. حينئذ فكَّر في إضافتين لاختراعه: استبدال بطانة جلد الأغنام بجلودٍ خفيفةٍ من الحيوانات البرية وقلْبُ المعصم. هاتان الإضافتان، مع مضاعفة سعر القطعة ثلاث مرَّات، مثَّلت بالنِّسبة لطَّبقة النُّبلاء حافزًا مضمون الأثر. لم يكن الأمر يتعلَّق باقتناء جلودٍ نادرةٍ، وإنما استغلال جلود حيواناتٍ جبليةٍ عاديةٍ، غير معروفةٍ للمجتمع الرَّاقي، مثل السمّور، الخزّ، القط البرِّي، الثَّعلب المائي، وقط المسك. وكان مصيباً. ما لم تحققه الثنيات، وصلت إليه البطانة الجديدة بالمعصم المقلوب. وانجذبت طبقة النُّبلاء، بشكلٍ خاصٍّ بسبب تنوع الجلود، حيث هناك الكثير من الاختيارات. بعد ذلك الاختراع الأخير، دخل مِعْطَف ثيبريانو كُلَّ البيوت وفرض نفْسه على البلاط في بلد الوليد، وانتشر في كُلِّ المدن الكبرى في المملكة.

مع تحققُّه من السَّير في الطَّريق الصَّحيح، حصل ثيبريانو سالثيدو على خدمات رجلٍ ماهرٍ من الرِّيف، دون تيبورثيو جيين، الذي قام بتنظيم شبكة من جامعي الجلود، وهؤلاء بدورهم أنشأوا شبكاتٍ أخرى من الصَّيَّادين، وفريقٍ من الدَّبَّاغين أصحاب الخبرة، الذين كانوا يقومون بمعالجة الجلود بزيت شجرة البتولا. وبهذا، أمَّنَ الخياط دون فيرمين وورشته المؤقتة التَّوريد طوال العام. وفي الوقت ذاته، أصبح دون فيرمين جوتيرث مخوَّلًا للتَّعاقُد مع العمالة، من قاطعي الجلود والخيّاطين، «بشكلٍ أساسيّ»، كما طالب دون ثيبريانو، «من بين أرامل المدينة، اللَّائي كن عامَّةً الأكثر عَوَزًا».

لدى قيامه بإعادة ترتيب التِّجارة، قرَّر الدَّفع إلى جوتيرث على القطعة المنتهية بدلًا من الرَّاتب المُتَّفق عليه، وهذا جعله في الوقت ذاته أكثر اعتيادًا على التَّعامل مع عالم الأرقام: خياطة المِعْطَف تصل إلى ثلاثة ريالات. ونصف ريـال لنقله. ومعالجة دستين من الجلود بزيت شجر البتولا تتكلَّف مائة وعشرين مارابيدي، وهلم جرًّا. انطلاقًا من هذه القاعدة، أمكنه أن يعرف بدقَّة هامش الرِّبح الذي كان يرفع من ثروته يومًا بعد يومٍ. بعد أشهر، وتحت إدارة ديونيسيو مانريكي، المنبهر بنجاح ربِّ عمله، فرض مهلةً نهائيَّةً على الدَّبَّاغين: يجب أن تكون الجلود جاهزةً في الأوَّل من مايو، وهكذا يُمْكن للتجارة أن تعمل في كُلِّ الفصول بإيقاعٍ عاديٍّ. تسليم الجلود من دون تيبورثيو جيين إلى دون ديونيسيو مانريكي، ومن هذا الأخير إلى دون فيرمين جوتيرث، الخيَّاط، يتم في تواريخ مُحدَّدةٍ، بعد سلْخ جلود الحيوانات، ولهذا كانت معروفة مقدَّمًا. وهكذا ارتفع عدد جامعي الجلود، وإزاء انهمار الجلود، قرَّر سالثيدو عدم الاقتصار على تبطين المعاطف، وإنما تعميمه على الملابس الشِّتوية للرِّجال والنِّساء. صُدارات مبطَّنة من جلودٍ فاتحةٍ وداكنةٍ، كان العنوان الإضافي الذي وضعه على اللَّافتة في متجر شارع سان بابلو. لكن الصَّيَّادين الذين

رأوا للمرَّة الأولى كيف يتم تقدير فرائسهم، أصبحوا لا يرحمون سائقي العربات بالشُّحنات التي يُسلِّمونها، ولهذا قام سالثيدو باتخاذ أحد أكثر القرارات أهمِّيَّةً في حياته: الانفتاح على الخارج. في البداية مع التُّجَّار الثقاة في أنفيرس، ثم مع التَّاجر ذي الشُّهرة العالميَّة بونتيرفوسين. وهذا ما أعطى للمِعْطَف والصَّدرية المُبطَّنة ذيوعًا عالميًا. التَّاجر المعروف ديفيد دينينكي أصدر تعليقًا توَّج غرور سالثيدو: «لَمْ تقم ثنياتٌ بسيطةٌ من قبل بثورةٍ شبيهةٍ في عالم الموضة. هذه هي العبقريَّة». في تلك الأحيان كان المِعْطَف من فرو الغنم يفقد مكانته، على الرَّغم من الثّنيات، وأبناء المدن، خاصَّة أثرياء إسبانيا والخارج يفضلون بطانة فرو الحيوانات، ليس فقط لأنها أكثر جمالًا، وإنما لأنها أقل انتفاخًا وأكثر دفئًا.

لكن في المجمل، لم يتوقَّف الإقبال، وقرَّر صاحب الاختراع، بعد تفكيرٍ عميقٍ، تحويل نصف مخزن الحيِّ اليهوديِّ إلى ورشةٍ. انقسم العنبر إلى جزءين، وبينما واصل أحدهما القيام بالغرض الذي أُقيم من أجله، تحوَّل الآخر إلى ورشةٍ كبيرةٍ، كان الآمِر عليها فيرمين جوتيرث. من دون أن يلحظ هذا، بدأ سالثيدو السَّير في طريق رأسمالية ناشئة. لم تكن الورشة الكبيرة تتوقَّف في الشِّتاء أو الصَّيف، وللتَّغلُّب على البرد الشَّديد في الهضبة، قام بتغطية سقف العنبر وتركيب مدافئ كبيرة الحجم تعمل بأخشاب البلُّوط، بين طاولات العمَّال الذين اختفت أيديهم تحت التورّمات الحمراء بسبب البرد.

بالطَّبع، العلاقة مع دون جونثالو مالويندا ومع مدينة بورجوس أخذت تضعف. القافلتان السَّنويَّتان أصبحتا قافلةً واحدةً. والعربات العشر هبطت إلى أربع. كان مالويندا معجبًا في داخله بمبادرة سالثيدو، لكنه كان يتألَّم لنجاحه. كان يقول إن الاهتمام بقطعة ملابس خشنة مثل مِعْطَف فرو الشِّياه في التِّجارة مع وسط أوربا يُعبِّر في حدِّ ذاته عن الذَّوق الرَّديء ووضاعة

الطَّبقة الاجتماعية لثيبريانو سالثيدو، مهما زيَّن بطاقات زيارته بلقب دكتور–هيدالجو. في أعماقه كان مالويندا يحسد سالثيدو لأنه استطاع توقُّع أفول تجارة الصُّوف ووجد مخرجًا ناجحًا للبضاعة.

بعد مرور السِّنين، جاء يومٌ فرضت فيه الطَّبيعة قانونها: الحيوانات الفروية لم تتحمَّل ضغط الصَّيد وبدأت الفرائس في الاختفاء. لكن سالثيدو، الذي أصبح تاجرًا محنكًا وثريًا، تنبّه لهذه الحقيقة في الوقت ذاته الذي أخذت مبيعات المِعْطَف الجديد والصَّداريات المبطَّنة في الانحدار. وهكذا، عندما انخفض الطَّلب عليها، كان هو قد قلَّل المعروض فلم يضطر للمرور بالمرحلة المريرة لوجود فائضٍ. بعد خمس سنوات من ميلاده، استقرَّت مبيعات المِعْطَف ذي الثنيات، فكانت نوبة عملٍ واحدةٍ في ورشة الحيِّ اليهوديِّ تكفي لإشباع السُّوق. لكن في ذلك الوقت كانت ثروة ثيبريانو سالثيدو تُقدَّر بخمسة عشر ألف دوكادو، واحدةٌ من أكبر ثروات بلد الوليد وأقلُّها تعرُّضًا للخطر.

في العام الثَّالث من بدء النَّشاط قام ثيبريانو سالثيدو، المُترع بالسَّعادة من نتائج العمل، بإرسال بريدٍ لإستاثيو ديل بابيه في بيانوبلا، طالبًا منه المزيد من الفرو. وردَّ عليه إستاثيو ببريدٍ عاجلٍ، قائلًا، إنه باستثناء راعٍ جديدٍ في بينيافلور، هو دون سجوندو ثينتينو ولديه أكثر من عشرة آلاف نعجةٍ، وبعض الرُّعاة الصِّغار في قرى أخرى، كان صوف البارامو تحت سيطرته. عندما حلَّ الطَّقس الطَّيب، صعد ثيبريانو إلى بيانوبلا عبر الطَّريق القديم، المألوف لرلامباجو. وجد إستاثيو هَرِمًا مُفكَّك الأوصال، لكنه صافي الذِّهن وذكيّ. دون سجوندو ثينتينو، ثريٌّ قادمٌ من بيرو، وصل حديثًا من البلاد الهندية[1]، واستقرَّ في جبل لا مانجا قبل عامين. هو من

(1) إشارة إلى الأراضي المُكتشفة في الأمريكتين. في ذلك الوقت، في القرن السادس عشر، كان اسم (البلاد الهندية) يطلق على الأقاليم التي يتم اكتشافها تباعًا.

أصلٍ إشبيلي، نصحه رعاة الوادي الكبير بالاستقرار في منطقة البارامو، في بلد الوليد. كان شخصًا بدائيًا وفظًّا، يخرج للمرعى مع الماشية ويرتدي ملابس كالأجراء. مع هذا كان رجلًا موسرًا، رغم أن أحدًا لم يكن يعرف مقدار ثروته. تعاقد على أصواف نعاجه مع النَّساجين الموريسكيين في شقوبية عبْر اتفاقٍ مُعقَّدٍ، بموجبه يقوم النَّسَّاجون بتوفير العربات لنقل الصُّوف. كان رجلًا مُتحفِّظًا، قليل الاختلاط، وبالكاد يقيم علاقاتٍ مع أهل البارامو، سواء الرُّعاة أو المزارعين. له ابنةٌ قويَّة البنيان، بيضاء البشرة، اسمها تيودوميرا. ولمهارتها في جزٍّ الأصواف يُطلق عليها لقب ملكة البارامو. طويلةٌ، قويَّةٌ، ونشيطةٌ إلى أقصى حدٍّ. لم تكن الفتاة تخرج من لامانجا. بالطَّبع كانت ترتدي رداءً من قماشٍ خشنٍ، وغطاء رَأسٍ غريبًا يجعل رَأسها يبدو أكبر من حجمه. وكانت تتحرَّك بين الوحل والقمامة في الفناء والحظيرة، بقبقاب لحماية قدميها. أهل بينيافلور وبامبا كانوا يؤكِّدون أن تيودوميرا، التي يعتبرها أبوها ملكة البارامو، كانت في الحقيقة بالنِّسبة لدون سجوندو (حمار شغل)، فقد كانت الخادمتان تتهرَّبان من العمل في ساعة جزٍّ صوف الأغنام. عندما تصل تلك اللَّحظة كانت تيودوميرا تحبس النِّعاج في الحظيرة، وتجلس على الباب فوق مِقعدٍ ثلاثيٍّ القوائم، وتقوم بجزٍّ صوف نعجةٍ تلو الأخرى، ثم تحبسها عاريةً في الحظيرة المجاورة. ملكة البارامو لم تجرح جلد شاةٍ واحدةٍ قَط. كانت تُخرجها بلا شائبة، قطعةٌ واحدةٌ. لم يَتَحَدَّ أحدٌ تيودوميرا مُطلقًا، لكن كان من المعروف في البارامو أن جزَّ صوف مائة شاه لا يستغرق منها يومًا. دون سجوندو الذي كان يساعدها منذ الظَّهيرة حتَّى منتصف اللَّيل، يتمتَّع أيضًا بموهبةٍ في هذا العمل، وبهذه الطَّريقة، خلال سبعة أسابيع، كانوا ينتهون من تجهيز كُلِّ الشُّحنة لكي يصعد الموريسكيون من شقوبية لاستلامها. وفقًا لإستاثيو ديل باييه، يمكنه محاولة الحصول على صوف البيروفي، على الرَّغم من

أن طريقة دون سجوندو في المعاملة كانت مُنفِّرةً. في هذه الأمور كان البيروفي فظًا من رَأسه إلى أخمص قدميه. وباستثناء يوم الخميس، يمكن العثور عليه دائمًا في المرعى مع النِّعاج، إذ لم يكن يتواجد في البيت. أعطاه إستاثيو عنوانه. يجب على دون ثيبريانو أن يأخذ طريق بينيافلور، وبعد نصف فرسخٍ تقريبًا، بجانب التلّة الأكثر ارتفاعًا، يوجد طريقٌ أحمر، من الوحل، شبه ممحوٍّ، أحجاره صغيرة، ويصل إلى البيت مباشرةً. فوق الجبل، على أرضٍ خاليةٍ من الأشجار، مستديرةٌ مثل حلقة ثيران، كان البيت. بناءٌ من الآجُرِّ، بسقفٍ من الإردواز، فسيحًا متداعيًا، من طابقٍ واحدٍ، محاطًا بالحظائر والزَّرائب، وببعض النِّعاج تثغي في الدَّاخل. أمام المدخل يوجد بئرٌ، رَأسه من حجرٍ رمليّ، وبَكَرَةٌ لإخراج الماء وأربعة أحواض من الحجر نفسه للماشية. الفتاة التي استقبلته أخبرته بمكان دون سجوندو. كان في المرعى، في سفح الجبل، ناحية بامبا، مع النِّعاج.

بالفعل، وجد سالثيدو دون سجوندو مع قطيعٍ كبيرٍ. كان رجلًا مُهمِلًا نظافته، قصير الشَّعر ولحيته نابتةٌ منذ أيَّام. يضع على رَأسه قبعةً صغيرةً بسيطةً، ببُقعةٍ صغيرةٍ من الشَّحم في مقدِّمتها وتمتد إلى الجزء الخلفيِّ. كان غطاء رَأسٍ عفا عليه الزَّمن، متناسقًا مع السُّترة القصيرة بلا أكمام والسِّروال ذي الأزرار والنَّعلين في القدمين. نبَّهه نباح الكلبين بطوقَين مُرَصَّعَين بالمسامير. ولَمْ يقترب الجواد الحذر منهما حتَّى قَام السَّيِّد ثينتينو بتهدئتهما. لكن عندما ترجَّل، وقبل أن يمكنه توجيه الكلام لدون سجوندو، رفع هذا يده، وأدار ظهره له بفظاظة وقال:

- «انتظر لحظةً».

كان يحمل عصا غليظة في يده اليمنى، يطوِّحها في الهواء أثناء سيره بينما يتَّجه بسرعةٍ نحو فجوةٍ صغيرةٍ انفتحت في القطيع. فزعت الماشية، لكن عندما وصل إلى النُّقطة المرغوبة، انطلق أرنبٌ بريٌّ هاربًا، وقبل أن

يبتعد، أطلق عليه دون سجوندو العصا التي دارت حول نفسها راسمةً دوائر في الهواء. ضربت العصا قائمتي الحيوان الخلفيَّتين، فتمدد على العشب، مُتشنِّجًا. أسرع دون سجوندو للإمساك به لكي يراه سالثيدو. وقال ضاحكًا:

- «هل ترى؟ إنه كبيرٌ كالكلب».

عادت الماشية للرَّعيِّ في سلامٍ، بينما كان سالثيدو يحاول أن يُقدِّم نفسه، شارحًا علاقته ببورجوس وسوق الصُّوف، لكن دون سجوندو قاطعه بنبرةٍ ساخرةٍ:

- «هل حضرتك، بالمصادفة، ثيبريانو صاحب المِعْطَف؟».

بينما يتحدَّث، أخذ يضغط على بطن الأرنب البريِّ لكي يتبوَّل، وكان شديد الانتباه والتَّركيز، وشديد الشُّرود عن حضور ثيبريانو الذي بعد أن أحنى رأسه موافقًا، قرر أن يستميله بالإطراء:

- «سمعتُ، في القريَّة، أن حضرتك تملك عشرة آلاف رَأسٍ، ولا تحتاج ليدٍ غريبةٍ لجزِّ صوفها؛ بل تكتَّفي بمساعدة ابنتك».

انطلق خيطٌ ذهبيٌّ بين قدميِّ الأرنب البريِّ وقَام دون سجوندو بتمرير يده الكبيرة الثَّقيلة على بطنه الشَّهباء مرَّةً بعد الأخرى لكي يساعده. وقال:

- «إنها حبلى. إنه حيوانٌ كثير الحَبَل. يستوي عنده أبريل ويناير. لا يستريح. من نافذتي، فجرًا، أراهم يفعلون القذارة بين الحظائر، كُلَّ أيَّام العام، سواء في البرد أو الحرِّ».

حاول سالثيدو أن يُغيِّر مجرى الحوار، لكن لم يبد أن دون سجوندو مهتمٌّ بشيءٍ سوى انفعال اللَّحظة. رغم ذلك، كان هذا ما يبدو فقط، فبعد مرور دقيقةٍ، أمسك بالخيط الذي أطلقه سالثيدو من قبل، واستأنف الحوار كأنه لم ينقطع على الإطلاق. قال:

- «في ما يتعلَّق بأنني أعمل بمفردي في الجبل فهو غير صحيحٍ. لديَّ خمسة رعاةٍ، اثنان في بامبا، واثنان آخران في كاستروردوثا وواحدٌ في ثيجوينيلا. يقومون بالاعتناء بقطعاني، وعندما يحين الوقت، يساعدوننا في جزِّ صوفها. لكن ابنتي، تيودوميرا، لا ينافسها أحد. بينما يقومون بجزِّ نعجةٍ، تكون هي قد جزَّت اثنتين. لهذا أُطلق عليها ملكة البارامو».

كان السَّفح بلا نهايةٍ، بالكاد تعمره أربع شجرات صنوبر حلبيّ، وأكوام الأحجار المتتالية مثل إشاراتٍ على طريقٍ كانت تمتد أمام عيني سالثيدو المُندهشتين.

- «البارامو، عمومًا، يُنبت عشبًا قليلًا لكنه جيدٌ، رغم أنه شديد الجفاف في بعض المناطق. انظر هناك. اضطررنا لإزالة قدر من الصخور يكفي لتشييد مبنى ضخم من أجل حرث خطين».

كان يشير بعصاه الغليظة إلى الكومة الأقرب من الصخور التي تصل حتَّى عشرة أرطال. خرجت ثلاث نعجاتٍ عن القطيع، فقَام دون سجوندو، بإشارةٍ، بإرسال الكلاب التي كانت مستلقيةً تحت قدميه لكي تُعيدها للقطيع. وضع دون سجوندو الأرنب البريَّ في الجراب، وحاول سالثيدو مرَّةً أخرى أن يعود للحوار، وحدَّثه عن الموريسكيين في شقوبية، لكن دون سجوندو لم يهتم بالموضوع. بعد فترة، رغم ذلك، أكد أن الموريسكيين كانوا أناسًا مجتهدين ويتفانون في العمل وأنه شديد الرِّضا من العمل معهم، فهم يحصلون على مقابل أقلّ من وسطاءٍ آخرين، ويتكفَّلون بعربات النَّقل. أمَّا آل مالويندا، في بورجوس، الذين كانوا يجمعون فعليًّا كُلَّ صوف قشتالة، فلن يحصلوا على صوف سجوندو ثينتينو. وفي المقابل، كان يعرض عليه جلود أرانب من أجل معاطفه، آلافًا من الجلود. قال:

- «حضرتك تبطِّن المعاطف بكُلِّ أنواع الحيوانات، لكنك نسيت الأرنب».

ردَّ سالثيدو بصراحةٍ:

- «الأرنب حيوانٌ عاديٌّ للغاية. هنا في قشتالة، ربما لغزارته، لا قيمة له».

جمع دون سجوندو القطيع، وبمساعدة الكلاب، أخذ يدفعه بإلحاحٍ نحو الجبل. نادى على أحد الكلاب صارخا: لوسيفر. لم يكن يحنو عليه؛ كان يطلق عليه أحجارًا وسبابًا. ثم قال فجأة:

- «لأن حضرتك تصنع معاطف لأهل المدن الأنيقين، يجب أن تفكِّر قليلًا في فلاحي البارامو. من أجل هؤلاء توجد الأغنام بالفعل، ستقول هذا، لكن الأرنب سيكون أرخص بالنِّسبة لك، وربما أكثر دفئًا».

كانت الشَّمس تغرب في السَّهل كأنها في البحر. فكانت تسقط على خط الأفق، وهذا يأخذ في قرضها من القاعدة، في مشهدٍ مهيبٍ، حتَّى ينتهي من التهاهما. السُّحب، بيضاء حتَّى ذلك الوقت، وتصبح بلون الخوخ عندما تحجب الشَّمس. قال دون سجوندو مُؤكدًا:

- «سيكون الطَّقس جيدًا غدًا. فلنذهب إلى البيت. إنها ساعة إيواء الماشية».

كان سالثيدو يقود رلامباجو من اللِّجام. فمشهد غروب الشَّمس في بحر الأرض الفسيح أصابه بالجزع. في ما يتعلَّق من دون سجوندو ثيتينو، لم يكن يعرف أيَّ ورقةٍ يلعبها معه. بالتَّأكيد كان ينتمي لذلك النوع من الرُّعاة والمزارعين البخلاء الذين يصلون إلى اكتناز ثروة بسبب التقشُّف، وحرمان النَّفس حتَّى من الضروريات، وذلك من أجل المتعة غير المفيدة: الموت أغنياء. زحفت ظلال شجر البلُّوط على الأرض، وخلال دقائق

قليلةٍ، غرق الجبل بأكمله في ظلامٍ صامتٍ. كان دون سجوندو يهرش رَأسه، الآن مُدخِلًا إصبعًا ظفره أسودَ تحت القبعة. وقال:

- «اليوم، يُمْكن لجلد أرنبٍ أن يُكلِّفك عشرين مارابيدي. كم عدد الجلود التي تحتاجها لبطانة مِعْطَف؟ عشرة؟ خمسة عشر؟ وإن وصل الأمر لهذا، فإن تبطينه بالصُّوف، سوف يُكلِّفك الضِّعف على أقلِّ تقديرٍ».

كان ثيبريانو قد تركه على سجيته. بدايةً، لم يكن يصدِّق أن موريسكيي شقوبية يتكفَّلون بنفقات العربات. وعلى العكس، كان يُفكِّر، أن دون سجوندو ثينتينو يُمْكن أن يصبح بسهولةٍ، من دون إلحاح، زبونه الجديد في البارامو. كان البيت مميزًا بين الأشجار، ويلمع ضوء قنديلٍ في إحدى النوافذ.

تظاهر بالاهتمام بجلد الأرنب:

- «وكيف يمكنك الإمساك بكُلِّ هذه الأرانب مع سرعتها في الجري؟».

ردَّ الآخر بسعادةٍ:

- «سوف أراهنك. ألتزم بالإمساك بدستةٍ من الأرانب من دون التَّحرُّك من جُحرٍ واحدٍ في ساعة واحدة. وإن ساعدني السيِّد إبيلينو، خبير الحيوانات في بينيافلور، سنمسك بأربع دستات. ما رأيك؟».

- «باستخدام فخٍّ، بالطَّبع».

- «لا يا سيِّدي. الفخُّ غير مضمونٍ. عشرة اليوم، خمسة عشر غدًا. لا أحتاج لفخٍّ للوصول إلى عددٍ كبيرٍ. يجب ترْك الأرنب يتحرَّك، إرهاقه. هنا، في لا مانجا، توجد الملايين منها. وإن كان هناك سربٌ جيدٌ من الأنماس، يُمْكن القيام بعملٍ عظيمٍ في أربعة أيَّام».

كانا قد وصلا إلى الأرض الخلاء ووزَّع دون سجوندو القطيع بين

الحظائر. في مزارعٍ أخرى، بالقرب من بامبا وبينيافلور، تمضي قطعانٌ أخرى اللَّيل في الهواء الطلق خلال الأشهُر الحارَّة. بعد الانتهاء من الإيواء، سارت الكلاب بهدوءٍ شديدٍ نحو الحظيرة. في إحدى نوافذ البيت، المطبخ بالقطع، كان هناك ضوءٌ مرتعشٌ. على الواجهة تنمو نبتة عنب، تتدلَّى منها عناقيدُ غير ناضجةٍ.

- «أُدخل حضرتك لبعض الوقت».

كان أثاث البيت على تقشُّف الأديرة. لا يوجد في الردهة سوى مائدةٍ كبيرةٍ من الصّنوبر، وأريكتان، وبعض المقاعد من الخوص، وخزانةٌ فيها الصُّحون الخزفية المعهودة. لكن لم يكن لدى سالثيدو وقتٌ للجلوس. الأحجار الصَّغيرة تجعل الطَّريق غير مرئي ومن السَّهل أن يتيه: يجب أن يستغلَّ آخر ضوءٍ. سوف يعود في يومٍ آخر لمواصلة الحوار. يومٍ خميس؟ حسنًا، سآتِ يوم خميس. وجبةٌ خفيفةٌ في العصر؟ أشكر هذه اللَّفتة لملكة البارامو. هو، دون سجوندو، سوف يريه أيضًا كيفيَّة صيْد أربعين أرنبًا في ساعةٍ واحدةٍ. إن أرسلت لي بريدًا قبل وقتٍ مناسبٍ ستصبح لديَّ فرصةٌ للِّقاء السَّيِّد أبيلينو، خبير الحيوانات في بينيافلور، المشغول بعمله. وربما تقتنع حضرتك بالأرنب من أجل المعاطف ونصبح شركاء. ألا تظن هذا؟

كان ثيبريانو سالثيدو يستعدُّ للرَّحيل عندما دخلت ملكة البارامو في الصَّالة. فتاةٌ طويلةٌ، حمراء الشَّعر، قويةٌ، ملابسها على عادة فلاحات الإقليم: رداءٌ قصيرٌ بأكمامٌ منتفخةٌ، وتحته تنُّورةٌ على الموضة القديمة. كانت تصدر ضجيجًا عندما تمشي بالقبقاب الذي تنتعله. أشرقت ابتسامة دون سجوندو ثينتينو في حضورها وقال: «ها هي ابنتي تيودوميرا أمامك، بشكلٍّ أدقٍّ: ملكة البارامو». لم تندهش الفتاة وقدّمت التحية باقتضابٍ. كانت شعلة المصباح تنير وجهها، الكبير بشكلٍ مبالغٍ فيه بالنِّسبة لملامحها الأخرى. لكن أكثر ما أدهش سالثيدو كان شحوب جسدها، غير المعهود

في امرأةٍ فلاحةٍ؛ وجهٌ أبيض، لا يميل للزُّرقة وإنما بلون الرُّخام، كتمثالٍ قديمٍ. لم يكن هناك أثرٌ للشعر في هذا الوجه، والحاجبان كانا خفيفين للغايةِ، تقريبًا غير موجودين. مع الشَّعر بلون ماهوجني تبرز رموشها التي تُظلِّل عينين مليئتين بالحياة، لونهما عسليٌّ. كانت الفتاة تتحرَّك برشاقة رغم حجمها وعندما قدَّمه دون سجوندو باسم دون ثيبريانو سالثيدو، السَّيِّد الذي يصنع المعاطف، هنأَته قائلةً إنه رفع من شأن ملبسٍ بلا مكانةٍ. حينئذ نظر إليها وجهًا لوجه ونظرت إليه بدورها، وتحت نظرتها القويَّة، العذبة، الحنون، شعر بالانجذاب. لم يحدث لسالثيدو أمر شبيه من قبل، واندهش أكثر لأنه، بشكلٍ موضوعيّ وباستثناء تعبير عينيها وحضورها الأموميِّ، لم يجد في الفتاة أيّ مفاتن خاصَّة. حينئذ ابتهج لأنه وعد بالعودة قبل أن تظهر. وعندما مدَّت الفتاة يدها لتوديعه وشدَّ عليها، لاحظ أن يدها أيضًا كانت بيضاء وصلبةً مثل الرُّخام. لكن السَّيِّد ثينتينو كرَّر أن الأرانب قد تستهويه فيشكّلون معًا فريقًا. في ذلك الحين كان ثيبريانو سالثيدو قد امتطى رلامباجو، وبعد الالتفاف حول البئر والأحواض بخببٍ قصيرٍ، غاب بين ظلال الأشجار بينما يهزُّ يده اليسرى مودِّعًا.

VIII

يوم الخميس التَّالي ذهب ثيبريانو سالثيدو إلى جبل لا مانجا في الرَّابعة عصرًا، رغم أن دون سجوندو قد حذَّره أن تلك السَّاعة ليست الأفضل لصيد الأرانب. وهناك وجد الأب والابنة بجانب البئر، يستمتعان بشمس العصاري، بصحبتهما شخصٌ قصيرٌ بدينٌ، مدبوغ الوجه، يرتدي صدريَّةً مخطَّطةً وسروالًا فضفاضًا وحذاء حقلٍ. قدَّمه دون سجوندو باسم السَّيِّد أبيلينو، المتخصص في الحيوانات من بينيافلور. كان دون سجوندو يرتدي ملابسه المعتادة: سترةٌ قصيرةٌ، سروالًا بِأزرار، وقبَّعةٌ على الرَّأس. الفتاة، على العكس، رغم أن الأمر كان يتعلَّق بنزهةٍ خلويةٍ، تأنَّقت من أجل المناسبة، وهو ما أرضى ثيبريانو لأن «امرأةٌ مُتأنِّقةٌ، هي امرأةٌ مُهتمَّةٌ»، قال لنفسه. كان معتادًا على عدم لفت الأنظار، حتَّى أن تلك اللفتة أثَّرت عليه. كُلُّ شيءٍ يؤكِّد فكرة أن ملكة البارامو أنثى حجمُها يخفي جمالَها، لكن ما إن ترجَّلت من الجواد ومدَّت يدها حتَّى وقع أسيرًا لسحرها، لعينيها العسليَّتين، الدَّافئتين، وهو شعورٌ لم يفارقه طوال الظهيرة.

بعد ذلك، إلى جانب الجُحر، بينما كان ينظر لخبير الحيوانات أثناء عمله، ولأنه كان راكعًا على ركبتيه، لم يلحظ الحذاء الأحمر الأنيق من جلد الماعز الذي تنتعله الفتاة، التي كان حضورها يشعره بالحماية. أبوها

يروح ويجيء، متحرِّكًا من دون نفعٍ، مبديًا ملاحظاتٍ بديهية للخبير، وهذا، متظاهر بإتباع تعليماته، كان يقوم بوضع الشِّراك فوق فتحات الجُحر، ومن حين لآخر، يضرب الصُّندوق الخشبي القديم بظهر أصابعه ، حيث تُسمع حركة كائنٍ حيّ، كأنه يرُدُّ على شخصٍ ويقول:

- «هدوء، إلى النَّوم!».

- «لـ.. لكن، ماذا تحمل هنا؟».

- «الحيوانات، بالطَّبع؟».

- «أيُّ حيوانات؟ إن لم يكن السُّؤال غير مناسب؟».

- «الأنماس. أيُّ حيوانٍ تريد أن أحمل؟».

كان خطمها مدبَّبًا مثل الفأر وأجسادها طويلةٌ ونحيفةٌ مثل ثعبانٍ مشعرٍ. كان السَّيِّد أبيلينو يتحرَّك بدأبٍ ويعامل الأنماس باهتمام، يتوجَّه لها بكلماتٍ عذبةٍ وحنون، من حين لآخر يبصق في راحة يده ويترك حيوانًا يلعق اللُّعاب باستمتاع. وعندما أصبحت أكثر من نصف مخارج الجُحر مغطاةً بالشِّراك، قَام السَّيِّد أبيلينو بإدخال الأنماس في فتحتين بعيدتين وظلَّ لفترةٍ مُسترخيًا، مُنتظرًا. وقع طَرْق مكتومٌ تحت الأرض، داخل الجُحر:

- «هل تسمع؟ توجد فوضى بالدَّاخل؟».

- «فوضى؟»

- «الحيوان يطارد الأرانب، ويضغط عليها. ألا تسمعهم؟ في النِّهاية لن يكون أمامهم مفرّ سوى الخروج».

لَمْ يكد ينتهي من الكلام عندما انطلق شركٌ بأرنب داخله وأطلق دون سجوندو شخير سعادةٍ وقال:

- «لقد بدأ الحفل».

أمسك بالشَّبكة، وأخرج الأرنب، ثم أمسك بساقيه الخلفيَّتين باليد اليسرى وبحدِّ اليد اليمنى وجَّه له ضربةً قويةً على العنق وقذف به على الأرض محتضرًا. ضجيج المطاردة كان يرتفع تحت الأرض. حذَّر السيِّد أبيلينو:

– «حذار. توجد أرانبٌ كثيرةٌ في الدَّاخل».

الأرانب الهاربة، الواقعة في الشِّراك، أخذت في القفز في كُلِّ مكان. دون سجوندو وابنته كانا يُخلِّصان الحيوانات من الشِّراك ويعودان لتغطية المخارج. كان الرَّاعي يشعر أنه بطل هذا العرض.

– «آه! ماذا يبدو لك المشهد؟».

لكن ثيبريانو كان يرقب تيودوميرا الآن، براعتها في قتل الأرانب، الضربة القاتلة على العنق، البرود التَّام الذي تفعل هذا به.

– «ألا تشعرين بالشَّفقة عليهم؟».

كانت نظرتها الدَّافئة الحنون تبدِّد أيَّ شكٍ في القسوة:

– «شفقةٌ. لماذا؟ أنا أحبُّ الحيوانات».

اصطادوا ستَّة جحورٍ، وفي العودة، عدّوا الغنيمة: ثمانية وتسعين أرنبًا. هلَّل دون سجوندو:

– «يمكنك تبطين عشرة معاطف بهذه الكمية. فرو ثلاثين شاة لن يفعل أكثر من هذا».

بعد الوجبة الخفيفة، عندما كان سالثيدو يدفع ملكة البارامو على أرجوحةٍ بين شجرتي بلوط، بجانب البيت، كانت تضجّ بالضَّحك وترجوه أن يدفعها بإيقاعٍ أهدأ، لأنها لا تتحمَّل الدَّوار. لكنه كان يدفع بكُلِّ عزم ذراعيه الصَّغيرتين المفتولتين. وفي إحدى المرات انزلقت يده عن القاعدة التي تجلس عليها ولمست مؤخِّرتها. اندهش. لم يكن ذلك الجسد بالتَّرهُّل

الذي يوحي به حجمه وشحوبه، إنما جسمٌ صلبٌ، لم يتراجع شعرة واحدة تحت ضغطه. شَعَرَ بالانزعاج. بدت الحيرة على الفتاة أيضًا: هل فعل هذا عمدًا؟ في النِّهاية، استجاب سالثيدو لرجائها وأصبحت حركة الأرجوحة أكثر بطئًا. حينئذ حدَّثته بإطراءٍ عن الصَّدارات المُبطَّنة واعترفت له أنها زارت متجر شارعِ سان بابلو عدَّة مَرَّاتٍ. ابتسم سالثيدو بوجهٍ مُحْمَّر. كان سعيدًا بربحية التِّجارة، لكنه لم يكن يتباهى مطلقًا بفكرته لأنه كان يعتقد أن هذا يُعتبر ابتذالًا جديرًا بالعوام. حتَّى أنه كان يشعر بالخجل أمام بعض الأشخاص. لكن تيودوميرا، التي انتهزت الأرجحة المعتدلة، واصلت كلامها: كانت تحبُّ المِعْطَف من جلد ثعلب النَّهر بشكلٍ خاصٍّ، لكنها لم تكن تفهم كيف يُمْكن القضاء على حياة حيوانٍ شديد الجمال كهذا. ذكَّرها بالقتل البارد للأرانب، لكن الفتاة تعلَّلت بأنه يجب التَّفرقة بين الحيوانات التي يستفيد بها الإنسان من أجل غذائه وبين غيرها. سألها حينئذ إن كانت الحيوانات المفيدة في وقاية الجسد لا تستحقَّ المعاملة نفسها، وردَّت هي أن قتل الحيوانات بأيادٍ أجيرةٍ، كما كان يفعل هو، يبدو لها أكثر بشاعةً من القيام بهذا شخصيًا. كانت تعتبر أن المُحرِّض أسوأ من المُنفِّذ. بدأ ثيبريانو سالثيدو يشعر ببهجةٍ صبيانيةٍ بتلك المناقشات. انتبه إلى أنه لم يتناقش مع أيِّ شخصٍ منذ أيام المدرسة. لم يعارضه أحدٌ في الحياة، ولا حتَّى من أجل هذا. حينئذ، عندما قالت له الفتاة إنها تحبُّ الحيوانات، خاصَّة النِّعاج، التي كانت مُبتسمةً دائمًا، قام سالثيدو، لكي يعارضها فقط، بذِكْر الحصان والكلب. لكنها ناقشت اختياراته: الكلب غير قادرٍ على الحب، أنانيٌّ ومنافقٌ؛ الجواد سريع الخوف ومتباهٍ، حيوانٌ لا يرى إلا نفسه، حتَّى أنه لا يثير أيَّ مشاعرٍ.

عاد سالثيدو إلى الجبل في الأسبوع التَّالي بمِعْطَفٍ من جلد ثعلب النَّهر بمقاسَين أكبر منه. تيودوميرا، التي غيَّرت ملابسها من جديد، شكرته

على الهدية. بعد ذلك قاما بجولةٍ على الجواد في الجبل وتحدَّثا عن القطع الدَّوري للأشجار، والذي يعطي أباها مالًا كثيرًا كالنِّعاج. كانت ملكة البارامو راكبةً وساقاها في الجانب نفسه على جوادٍ قبيحٍ مختلط الألوان، اسمه أوبستينادو، ويبدو كبقرةٍ. سألها ثيبريانو إن كانت قد تعلَّمت ركوب الخيل في بلاد الهنود، لكنها أخبرته أن الذي سافر إلى بيرو كان أبيها، وأنها ظَلَّت في إشبيلية مع عمَّةٍ لها طوال السنوات العشر التي غابها دون سجوندو. حينئذ قال لها ثيبريانو إنها تحمل فتنة الأندلس، ونظرت له بامتنانٍ بعينيها العسليَّتين فاضطرب.

كان ثيبريانو سالثيدو يمضي اللَّيالي أرِقًا. موقف الأرجوحة، ذكرى الملامسة العرَضية لجسد الفتاة كانت تثيره. في اليوم التَّالي للواقعة، ما إن أشرقت الشَّمس، حتَّى هرول إلى الأب إيستبان، الذي اختاره عشوائيًّا للاعتراف بعد الانفصال الحزين عن مينرفينا، منذ أكثر من خمسة عشر عامًا:

- «أ... أبتِ، لَمست جسد امرأةٍ وشعرت بالمتعة».

- «كم مرَّةً يا بني؟ كم مرَّةً؟»

- «مرَّةٌ واحدةٌ فقط، يا أبتِ، لكنني لا أعرف إن كان هناك قصدٌ من ناحيتي».

- «ألا تعرف؟ حتَّى إن كنت قد فعلت هذا عمدًا أم لا؟».

- «كانت بضع ثوانٍ يا أبتِ. كنت أدفعها على الأرجوحة وانزلقت يدي، أو ربما جعلتها تنزلق. لا يمكنني الجزم. هذه هي المشكلة».

- «على أرجوحة؟ هل تعني يا بني، أنك لمس مِقعدتها؟».

- «نعم يا أبتِ، بالتَّحديد المِقعدة. هذا ما حدث».

حقيقةً لم تكن حالته جديدةً. لم يؤدّ اليُسر الماديُّ إلا إلى تفاقم

عدم الثقة في نفسه. رغم الأعوام التي مرَّت، ما زال الرَّجل الذي تأتي عليه الوساوس وكلما فكّر في حياة الورع، تعمَّقت وساوسه. أحيانًا في يوم أحدٍ يحضر ثلاثة قدَّاساتٍ متتاليةٍ، مهووسًا بالشُّعور أنه كان شاردًا في القدَّاس السَّابق. وذات مرَّةٍ، اقترب من رجلٍ هَرِمٍ، كان قد دخل الكنيسة بعد بدء القدَّاس، وأوضح له أن صَلاته باطلةٌ. توخَّى أن يلفت نظره تلميحًا لكي لا يجرح مشاعره، لكن الرَّجل هاج، إذ مَن يكون لكي يحكم على ضميره، وأنه لا يقبل تدخلًا من شباب أنيقين وقحين. حينئذ اعتذر ثيبريانو سالثيدو، واعترف أنه إن لم يكن قد تدَّخل، لكان قد شعر بالمسؤولية عن ذنبه وأن تحذيره، الوقح في ظاهره، قائمٌ على الرَّغبة في إنقاذ روحه. خارجًا عن طوره، أمسك الشَّخص المقصود بصدريته وهزّه، وفي ذروة لحظات غضبه، جدَّف ضد الرَّبِّ. لجأ ثيبريانو للأب إستيبان مقهورًا:

- «يا أبتِ، أعترف أن رجلًا جدَّف بسببي».

استمع له القسُّ باهتمامٍ، وأوضح له حدود الإرشاد، واحترام ضمير الغير، لكنه أبدى ملاحظةً بأنه تعلَّم في المدرسة أننا لا يجب أن نجتهد فقط لخلاص أنفسنا، وهو موقفٌ أنانيٌّ في النِّهاية، وإنما المساعدة في خلاص الآخرين. نبَّهه الأب إستيبان إلى أن صفة المسيحيِّ هي حبُّ الآخر فقط وليست إهانته أو الاعتداء عليه.

كانت تجارة المعاطف سببًا لعذاب ضمير سالثيدو. وفي تلك الأمور الخاصَّة بالعدالة كان يستشير دون إجناثيو، عمّه ووليّ أمره، رجلًا متدينًا، حسَن التّقدير. شرْط الأفضلية للأرامل لدى اختيار الخياطات من أجل الورشة فرضه لأن الأرامل كنّ يرفعن معدَّل الفقر في المدينة، وكان الكثيرون ينتهزون هذا الوضع لاستغلالهن. لم يتوقَّف ثيبريانو عن تقليب الأمر في رَأسه. فكان ينهض من الفِرَاش مهووسًا بأنه يجب رفْع أسعار الجلود المدفوعة للصَّيَّادين أو رفع رواتب الدَّبَّاغين. كان عمّه يقوم

بالحساب، يجمع، ويطرح، ويقسم، لكي يصل إلى أنه وفقًا لأسعار السُّوق في الإقليم، كانوا يتلقَّون رواتب جيدةً. لكن ثيبريانو لم يكن يذعن، كان يربح مائة مرَّةٍ أكثر من عمَّاله، وبنصف الجهد. وكان عمّه يحاول طمأنته موضحًا له أنه هو من يُخاطر، وليس هم، وأن ربحه كان في النِّهاية عائد المخاطرة. بعد الوصول لهذه النُّقطة كان ثيبريانو يُسكِت عذاب ضميره بتقديم صدقاتٍ ضخمةٍ لملجأ الأطفال الذي افتتُح مؤخَّرًا في المدينة، ولهيئاتٍ دينيةٍ، أو ببساطة للفقراء من أصحاب العاهات أو التَّورُّمات الذين كانوا يعرضون مآسيهم في شوارع المدينة.

رغم هذا، كان ثيبريانو سالثيدو يتطلَّع دائمًا للكمال الرُّوحيِّ. وكان يتذكَّر المدرسة بحنين. أصبح يميل للعِظات والنَّصائح. كان يبحث فيها عن أصْل الأشياء، ويبحث أيضًا عن الأسلوب. كان على استعدادٍ لدفع مبلغٍ معتبرٍ من أجْل عرضٍ جيدٍ لمشكلةٍ دينيةٍ مهمة. لكن، ويا للعجب، كان سالثيدو يتفادى عظات الأديرة، ويميل إلى كهنة الكنائس، وليس الرُّهبان. في هذا البحث أثَّر بشكلٍ حاسمٍ رئيس ورشته للملابس، فيرمين جوتيرث، الذي كان حسب وصف ديونيسيو مانريكى، شديد الوَرَع. لكن الخياط كان يميِّز بين الوعّاظ المعتدلين والمفرطين، ويميّز المجدِّدين عن التَّقليديين. هكذا عرف سالثيدو بوجود الدُّكتور كاثايا[1]، رجلٌ كلماته مقنعةٌ، حتَّى أن الإمبراطور صحبه معه في رحلاته إلى ألمانيا. كان أجوستين كاثايا من أبناء بلد الوليد، ورغم هذا تسببَّت عودته إلى المدينة في لغطٍ كبيرٍ. كان يَتحدَّث أيام الجمعة، في كنيسة سانتياجو التي تفيض بالحاضرين. وكان

(1) أجوستين كاثايا 1510–1559، يلقب بالدُّكتور. رجل دينٍ إسباني، ذو نزعة إنسانية وإيراسمية. ينتمي لعائلةٍ من رجال الدين، أسلافه من اليهود المتحولين إلى المسيحية. تم اتهامه ومحاكمته بإنشاء النواة اللوثرية في بلد الوليد.

رجلًا روحانيًا، رقيق المشاعر، وهشًا جسمانيًا، نحيفًا ومتوترًا. كانت لديه لحظات من التَّجلي الأصيل، تتبعها ردود أفعالٍ عاطفيةٌ، حادةٌ إلى حدٍّ ما. لكن ثيبريانو كان يستمع إليه منبهرًا، وهو ما لم يمنع شعوره بالضِّيق بعد عودته إلى المنزل. كان يُحلِّل روحه لكنه لم يعثر على سبب قلقه. عامةً، كان يتابع عظات كاثايا بسهولةٍ، وكانت متوسطة النَّبرة، قصيرةٌ، وجيدة البناء، وفي النِّهاية تتبقى في رَأسه فكرةٌ واحدةٌ فقط لكنها شديدة الوضوح. إذن، لم يكن جوهر عظاته هو السَّبب في قلقه. هذا الجوهر لم يكن في ما يقول، وإنما ربَّما في ما يسكت عنه أو ما يلمِّح إليه في عباراته الجمالية، البلاغية إلى حدٍّ ما. يتذكَّر العظة الأولى حول سر الفداء، وألعابه الماهرة بالكلمات، والإلحاح على الرَّبِّ الذي يموت من أجل الإنسان، كأساسٍ لخلاصنا. نفعٌ قليلٌ لصلواتنا، وقُدَّاساتنا، ودعواتنا، إن نسينا ما هو أساسي: آلام المسيح. كان يُذكِّر به من فوق المنبر، الذراعين مفرودتين وتشكلان صليبًا مع الجسد، بصمتٍ مسرحيّ، مستحوذًا على اهتمام الحضور.

كان النَّاس يخرجون من الكنيسة وهم يعلِّقون على كلمات الدُّكتور، إشاراته، صمته، تلميحاته، لكن دون فيرمين جوتيرث، الأكثر ألمعيةً ومعرفةً، كان يشير دائمًا إلى الأساس الإيراسمي لخطبه. فكَّر ثيبريانو أن هذا الأساس قد يكون ما يثير قلقه. في إحدى زياراته الدَّورية لعمِّه دون إجناثيو سأله عن كاثايا. كان دون إجناثيو يعرفه جيدًا لكنه لم يكن مُعجبًا به. وُلِدَ في أوائل القرن، في بلد الوليد، ابنٌ لمحاسب ملكيّ ودونيا ليونور دي بيبيرو، ويعيش حاليًا في بيتها كأرملٍ. في الماضي نُظِر إلى آل كاثايا كيهودٍ متحوّلين، وإن كانوا قد ظلَّوا على يهوديتهم سرًا. ودرس دون أجوستين الآداب، بنبوغ كبيرٍ، في مدرسة سان بابلو، مع دون بارتولوميو دي كاررانثا، كاهن اعترافه. بعد ذلك تخرج كمُعلِّمٍ، في اليوم ذاته مع اليسوعيِّ الشَّهير دييجو لاينث. بعد عشر سنوات، قام الإمبراطور، المفتون

بفصاحته، بتعيينه واعظًا ملكيًا. سافر معه خلال سنوات عديدةٍ عبر ألمانيا وفلاندز، والآن عاد للاستقرار في بلد الوليد، بعد عدة أشهر في سلمنقة. دون إجناثيو سالثيدو يعتبره متعاليًا ونزِقًا. استفسر ثيبريانو حائرًا:

- «كاثايا نزقٌ؟».

- «في رأيي كاثايا رجلٌ ذو كلماتٍ كبيرةٍ وأفكارٍ صغيرةٍ. مزيجٌ خطرٌ».

رأي عمّه لم يرحه. بل أدهشه. فبعد العرض الموضوعيٍّ لحياته، ختم دون إجناثيو وصفه بتلك الكلمات الاحتقارية: متعال ونزِق. كيف يُمْكن أن يكون هكذا ذلك الشَّخص الضَّئيل الغامض، الرَّقيق، الذي يبدو أنه يعرِّض نفسه للمحرقة كلَّما صعد على المنبر؟ قال هذا لعمِّه بعد صمتٍ. ردَّ هذا:

- «لَمْ أشِرْ إلى المظاهر. رَأسٌ مُنظَّمٌ في جسدٍ نحيفٍ، هذا هو ما يبدو لي الدُّكتور كاثايا. أعتقد أن الدُّكتور كان ينتظر من الإمبراطور لقبًا نبيلًا لم يصله أبدًا. ومن هنا سبب حنقه».

اعترف له ثيبريانو:

- «أستمتع بالاستماع له. لكن، بعد فترةٍ، تُخلِّف كلماته لديَّ مذاقًا مرًّا، كأنه رمادٌ».

كان دون إجناثيو ينظر إلى ابن شقيقه بهيئةٍ مسيطرةٍ:

- «هل لأنه يطرح مشاكل ولا يحلّها؟».

كلماتٌ عمِّه، قِيلت كأنها عفوية، وتركت عنده أثرًا كبيرًا. هذا هو الدُّكتور كاثايا. مقاربته الحذرة للمشكلات الكبرى كانت تثير اهتمام الحضور. لكن الواعظ، بكلماتٍ تقترب من لبِّ الموضوع كُلَّ مرَّةٍ، لم يكن ينتهي إلى حلِّها. ربما كان يفعل هذا عمدًا أو كان يفتقد للبراهين.

في زيارته التَّالية إلى لا مانجا تحدَّث مع تيودوميرا وأبيها حول الواعظ الجديد. لم تكن تيودوميرا قد سمعت به ولَمْ يكن دون سجوندو

يثق بالأصوات الجديدة. بالنِّسبة له كان العالم مليئًا بالمنقذين، الذي كانوا في الواقع، مهرطقين حتَّى النُّخاع. النَّاس، خاصَّة الرُّهبان، يصبحون علماء لاهوت، لكنهم لاهوتيُّون قليلو الشَّأن، من دون أيِّ إعدادٍ. أوضح له ثيبريانو أن كاثايا لم يكن راهبًا، بالإضافة إلى هذا كان يتفادى الأديرة لعرض أفكاره، لكن دون سجوندو لفت نظره إلى أن هذا لا يعني أيَّ ضمانٍ، وأنها على الأرجح لن تكون سوى مناورةٍ. كان سالثيدو ينظر إليه، وإلى قبَّعته التي لا يخلعها عن رَأسه حتَّى داخل البيت، وأطرافها مبلَّلةٌ بالعرق، بلونٍ بُنِّيّ كالحٍ، ولم يكن يرى فيه معارضًا جادًا لكاثايا. كان السَّيِّد ثينتينو كاثيا بدائيًا، ومثل كُلِّ شخصٍ بسيطٍ، لديه استعدادٌ للحكم من دون معرفةٍ. لكن، على الرَّغم من كُلِّ شيءٍ، الآن وقد بدأ البرد والمطر، كان ثيبريانو يشعر بالرَّاحة داخل صالون البيت القرميدي. النَّار تخشخش في المدفأة، وهو جالس على أريكةٍ خشبيةٍ صلبةٍ. كانت ملكة البارامو تجلس كُلَّ مرَّةٍ في المعقد ذاته المصنوع من الخوص. وكان يرى فيها، بيديها المنشغلتين دائمًا، ربَّة منزل متَّزنة، راجحة العقل. في أيَّام الصَّلاة تمتطي أوبستينادو وتذهب إلى بينينافلور لحضور قدَّاس الحادية عشرة. في وسط الأسبوع لم تكن لديها فرصةٌ لممارسة حياة التَّقوى لكنها كانت تُصلِّي (أبانا الذي) قبل النَّوم وبعد الاستيقاظ. كان ثيبريانو يسمعها مبتهجًا. عندما تتحدَّث تيودوميرا يشعر بسلامٍ داخليّ كبيرٍ. تلك الفتاة، فائضة الوزن، كانت تجسيدًا للسلام الدَّاخلي. وصوتها، ذو النَّبرة الحنون، يُشعِره بحالةٍ من الأمان كما لم يشعر من قبل. لكن أكثر ما أدهش ثيبريانو هو اكتشاف تيودوميرا كأنثى، فالفتاة تسبب له سلامًا وهياجًا جنسيًا قويًا في الوقت ذاته. ظهيرة الأرجوحة، واعترافه السَّريع يكشفان عن أن المتعة التي شعر بها عندما لمس مؤخِّرتها كانت متعةً محرَّمةً. ذكرى ذلك الحدث قادته من وجهة نظرٍ أخرى إلى تقدير حجمها. يتذكَّر مغامرته القصيرة مع

مينرفينا، وكان يُحلِّلها، ويستنتج أنها كانت شيطناتٍ طفوليةً. مينرفينا لم تعطه الحياة لكنها ربَّته. وهو، بغريزته، رأى فيها سبب حياته، وتشبَّث بهذه الفكرة عندما عاد لرؤيتها. لم يكن هناك شيءٌ آخر. رغم هذا، كان يدرك الآن أن ذلك المخلوق شديد النَّحافة لم يكن ما يحتاجه الرَّجل مطلقًا، وأن الرَّغبة الجسدية تتطلَّب بداهةً اللَّحم كعنصرٍ أساسيّ. ومن هنا، كان السَّلام الدَّاخليُّ والسَّكينة اللَّذين تبثهما فيه ملكة البارامو، مصحوبَين بشبقٍ مقموعٍ، ورغبةٍ متّقدةٍ تنتابه بإلحاحٍ متزايدٍ. هذا المزيج من السَّلام، والأمان، والرَّغبة، كان يدفع ثيبريانو سالثيدو إلى جبل لامانجا بوتيرةٍ أكبر. أُلفة رلامباجو للطريق جعلته يصل في أكثر قليلًا من السَّاعة. وذلك الشِّتاء البارد المُمطر لم يمنع سالثيدو. فسرواله الجلدي ومِعْطَفه المبطَّن بفرو ثعلب النهر، مثل الذي أهداه لتيودوميرا، كانا يقيانه من أيِّ تقلُّب في الطَّقس. بعد ذلك كانا يمضيان الظَّهيرة في البيت أو يخرجان للتنزه ومشاهدة تحليق أسراب حمام الغابة أو ديك الغابة القادم لتوِّه من الشَّمال. في أثناء ذلك كانت الفتاتان من بينيافلور تُعدَّان لهما الوجبة الخفيفة للسادسة مساء. عادةً لم يكن دون سجوندو يعود إلى البيت قبل تلك السَّاعة، بعد إدخال النِّعاج إلى الحظائر. حينئذ، يشترك السَّيِّد ثينتينو في الحديث، فيحكي وقائع اليوم ويعود مرَّةً وأخرى إلى هَوَسه القديم: مِعْطفٌ من جلد الأرنب. ثيبريانو كان يجاريه، وفي الوقت ذاته، كان يُلمِّح إلى إمكانية تكفُّله بنقل صوفه، ليحلَّ محلَّ الموريسكيين في شقوبية. شيءٌ مقابل الآخر. كان دون سجوندو يحك رَأسه مُفكِّرًا، لكن حلمه بالدُّخول في تجارة المعاطف فرض نفسه في النِّهاية. قال له ذات مساءٍ:

– «حسنًا، أمنحك نقل وبيع صوفي، وأنت تُوقِّع معي اتفاق شراكةٍ لاستغلال الأرنب في صناعة المعاطف والصداريات المبطَّنة. هذا لصالح كلينا».

قال ثيبريانو:

- «موافق».

ووقّعا الصَّفقة في الحال، وجاء فيها أن دون سجوندو ثينتينو، الإشبيليُّ المولد، والمقيم في بينيافلور دي أورنيخا، يمنح نقل وبيع أصواف عشرة آلاف نعجةٍ، من ممتلكاته، إلى دون ثيبريانو سالثيدو، دكتور في القانون ومن أصحاب الأملاك، من بلد الوليد. وفي الوقت ذاته، يتَّفق الاثنان على استغلال جلود ثلاثة آلاف أرنب، مصدرها جبل لامانجا، يتعهد دون سجوندو بإمداد دون ثيبريانو بها سنويًا، من أجل استخدامها في صناعة المعاطف والصداريات المُبطَّنة وفقًا لأسعار السُّوق.

بعد التَّوقيع، وضع دون سجوندو إبريقًا من نبيذ ثيجالس، وتبادل الثَّلاثة أنخاب نجاح الشَّراكة. تلك اللَّيلة، تناول ثيبريانو سالثيدو العشاء في لامانجا وقضى ليلته في بيانوبلا، في خان فلورينثيو. خبر شراء الأرانب أدهش إيستاثيو ديل بابيه، الذي أوضح له أن المِعْطَف المُبطَّن بجلد الأرنب ليس أمرًا جديدًا على الإطلاق. في شقوبية يصنعه الموريسكيون، وفي البارامو، يستخدمه الرُّعاة والفلاحون منذ الأبد. سالثيدو، الذي لم يُوقِّع على الاتِّفاقات مُفكِّرًا في زيادة ثروته، ردَّ بأن هذا لا يشغله، وأن تجارته تقوم على تصنيعها بشكلٍ أفضل وأرخص من المنافسين والتَّفوُّق عليهم بالعمل. استلقى ثيبريانو بشعورٍ مفاجئٍ بأن توقيع العقود يمنحه حقًّا ما على تيودوميرا. وعندما حمله رلامباجو إلى الجبل في الصَّباح التَّالي ووجد نفسه على انفرادٍ مع الفتاة أمام مدفأة البيت، جذبها نحوه وقبَّلها في فمها. كانت شفتاها غليظتين، صلبتين، وجاذبتين، وشعر ثيبريانو أنه غارقٌ في بحرٍ من المتعة عصيّ على الوصف، لكن عندما اعتقد أن هذا الموقف ليست له سوى نهايةٍ واحدةٍ منطقيَّةً، نهضت تيودوميرا غاضبةً من فوق الأريكة الخشبية وصرَّحت أنها أيضًا تعشقه، وتحبُّه، لكن كُلَّ شيءٍ

في أوانه، وقبل أيِّ شيءٍ يجب أن يقوم وليُّ أمره بزيارة أبيها، وأن يتحدَّثا ويتَّفقا على البنود. وإن تم هذا، أن يتزوَّجا. كان ثيبريانو يحتفظ في أطراف أصابعه بالشُّعور بصلابة نهديها، التي لا تقلُّ عن مؤخِّرتها. وحينئذ، قَبِل شروطها. كان يفتقد للخبرة العاطفيَّة واستسلم. أدرك أن الوصول لملكة البارامو عمليَّةٌ بطيئةٌ تستدعي عدة إجراءاتٍ مسبَّقةٍ.

في ذات المساء زار عمَّه وزوجته وأعلن لهما عن نيَّته في الزَّواج. أبدت العمة جابريلا اهتمامًا بالموضوع:

- «هل يُمْكن معرفة من هي سعيدة الحظِّ؟».

تردَّد ثيبريانو. لم يعرف من أين يبدأ. أدرك أنه جاء إلى عمَّيه في عجالةٍ، من دون إعداد خطابه. قال في النِّهاية:

- «ف... فتاةٌ من البارامو. تعيش في جبل لا مانجا، في بينيافلور، أبوها قادمٌ من بيرو».

قلَّصت العمة أنفها:

- «من البارامو؟ بيروفي؟».

واعتقد أن كلماته ستكون أكثر فعاليةً إن تظاهر بذات الاندهاش، وعرض الحقيقة كما هي منذ البداية، بل والسُّخرية منها أيضًا. أضاف:

- «لقد عاش في بيرو. ولا يخلع القبّعة عن رَأسه، حتَّى من أجل النَّوم. إنه رجلٌ ريفيٌّ، لكنه موسرٌ. في الحقيقة لا يعرف أيَّ شيءٍ عن علاقتنا، لكنه يُقدِّرني. بالأمس وقَّعنا اتِّفاقًا لتصنيع معاطفٍ مُبطَّنةٍ بجلد الأرانب، وهو ما كان يسعى إليه».

نظرت زوجة العمِّ له كأنه كائنٌ غريبٌ، كأنه يمزح، بينما كان العمُّ إجناثيو يسمعه من دون أن يتَّدخل. ربما كان بحاجةٍ لمعلوماتٍ أكثر لكي يصدر حكمًا. أضاف ثيبريانو:

- «لَمْ تتلقَّ أيَّ تعليمٍ. المهنة الوحيدة التي تعرفها هي جزُّ الصُّوف. تقوم بهذا أسرع بكثيرٍ من الرُّعاة، ويطلقون عليها لقب ملكة البارامو. طوال حياتها قامت بجزِّ صوف آلاف النِّعاج من دون أن تُدمي أيًّا منها».

كانت كلماته مبهمةً بالنِّسبة لزوجة عمِّه التي كانت تنظر إليه بحيرةٍ متزايدةٍ. اغتصب العمُّ إجناثيو ابتسامةً وأشار بمنطقٍ لا رادَّ له:

- «وماذا ينوي أن يفعل البيروفي الطيب إن سلبته مَنْ تجزُّ الصُّوف؟».

- «حسنًا، هذا أمرٌ يخصُّه. لا بدَّ أنه قام بحساباته، أعتقد، لكن من أجل زواج ابنته من الممكن أن يقدِّم كُلَّ ثروته. ومن ناحيتي، أنا أعشقها. لا أعرف جيدًا ماذا تعني هذه الكلمة، لكن أعتقد أنني أعشقها لأنَّني بجانبها أجد سكينةً وانفعالًا في الوقت نفسه».

سعل العم إجناثيو:

- «ربَّما يكون الزَّواج الخطوة الأكثر أهمِّيَّةً في حياة الرَّجل، يا ثيبريانو. والحبُّ شيءٌ أكثر من السَّكينة والانفعال».

ساد الصَّمت. وبدا أن ثيبريانو يُفكِّر. بعد فترة أضاف معلومةً مهمةً:

- «هو قادمٌ من بيرو، وكمغتربٍ جيدٍ، فهو مُدَّخِرٌ وبخيلٌ. يرتدي أسمالًا ويقتل الأرانب البرِّيَّة بحدِّ يده لكي يتناول اللَّحم في اليوم التَّالي. عادةً يتغذَّى بقولًا مطبوخةً ويتعشى كرنب. لكنها لم تكن في بيرو، وعندما رحل أبوها إلى البلاد الهندية، قبل عشرة أعوامٍ، بقيت لتعيش مع عمَّةٍ لها في إشبيلية. إنها فتاةٌ مهذَّبةٌ، الشَّيء الوحيد الذي يكبحني هو حجمها، ربما يتناقض مع حجمي».

الآن، أصبحت دونيا جابريلا مَنْ لا يريد الكلام، لم يكن بإمكانها أن تتكلَّم من دون أن تجرحه. عاد القاضي ليسعل، كان يشعر بالشَّفقة على ابن شقيقه:

- «ألَمْ تسمع مطلقًا بانجذاب المتضادَّين؟».

اعترف ثيبريانو:

- «لا».

- «أحيانًا يعشق المرء ما لا يملك، ولقرينه يحدث أمرٌ مشابهٌ. الرَّجل الضئيل المتزوِّج من امرأةٍ ضخمةٍ مثالٌ مذكورٌ في الكتب. توجد عواملٌ تُبرِّره».

وأبدى ثيبريانو اهتمامًا:

- «وفي حالتي، أيها يُمْكن أن يكون؟».

كان العم إجناثيو صريحًا:

- «في حالتك، ربما تكون قد رأيت فيها الأم التي لم تعرفها».

- «وهل يجب أن تكون ضخمةً بالضَّرورة؟».

- «هذه معلومةٌ جديدةٌ يا ثيبريانو. في الأم، يبحث الطِّفل عن الحماية، ومن الصَّعب أن يجدها في شخصٍ آخر أضعف منه جسمانياً. هذه الفتاة يُمْكن أن تُشَكِّل بالنِّسبة لك درعًا حامية لم تجدها في طفولتك».

- «لكنها تقول إنها تحبُّني. ما الذي يدفعها لهذا؟»

- «الانجذاب المتبادل. رجلٌ ضئيلٌ-امرأةٌ ضخمةٌ، مثالٌ مثبتٌ، ليس أمرًا جديدًا. مثلما تبحث فيها عن الحماية، هي تبحث فيك عن شخصٍ تحميه. غريزة الأمومة تهيمن على النِّساء. وغريزة الأمومة ليست سوى هذا، السَّعيُّ لمساعدة مخلوقٍ أضعف».

دونيا جابريلا، التي أخذت تستوعب الأمر المزعج شيئاً فشيئا، لم تستطع التَّحكُّم في نفسها:

- «لكن يا عزيزي، هل الفرق كبيرٌ؟».

- «مفرط يا عمَّتي. لِنَقُل مائة وستِّين رطلًا مقابل مائة وسبعة لدي».

كانت تغرق في بحرٍ عاصفٍ. والسؤال هو الشَّيء الوحيد الذي يجعلها تصمد:

- «وما شكلها يا ثيبريانو؟ هل هي جميلةٌ؟».

- «لن أستخدم هذه الكلمة، رغم أنها قد تكون جميلةً. بشرتها بيضاء ووجهها كبيرٌ بالنِّسبة لملامحها الدَّقيقة. فقط نظرتها شديدة الخصوصيَّة، حنونٌ، وجاذبةٌ. عينان بلون العسل، تتغيَّر درجتهما مع الضَّوء. عينان شديدتا الجمال. بعد ذلك هناك فمها المكتنز وجَوْدة لحمها؛ حجمها وبياضها يدفعانك للتَّفكير أنها امرأةٌ لدنةٌ، بينما هي على العكس من ذلك تمامًا».

شعر ثيبريانو بالاختناق. فجأة أدرك أن كلماته شطحت بعيدا، كانت تكشف عن معرفته المسبقة بخطيبته. فكَّر أن عمَّته سوف تقول له شيئًا بهذا الشَّأن، لكنها انحرفت بمهارةٍ نحو موضوعٍ آخر:

- «ما اسمها؟».

- «تيودوميرا».

لَمْ تستطع دونيا جابرييلا التَّحكُّم في نفسها وغطَّت عينيها بيديها المُعتنى بهما:

- «يا إلهي! إنه اسمٌ شنيعٌ».

أضاف العمُّ إجناثيو:

«هذه التَّفاصيل لا أهمِّيَّة لها».

ابتسمت العمَّة كأنها تعتذر وقالت:

- «يمكننا أن نطلق عليها تيو. هذا لا يضير في شيءٍ...».

استمرَّ الحوار في جوٍ متوتِّرٍ، حيث لم يستسلم أيُّ طرفٍ. لكن رزانة إجناثيو سالثيدو أخذت تفرض نفسها. أهم شيءٍ التَّيقُّن من العشق. وبناءً على هذا، من الحصافة الانتظار شهرين قبْل اتِّخاذ أيِّ قرارٍ.

السَّابع عشر من فبراير، يومٌ صحوٌ سماؤه زرقاء، ربيعٌ قبْل الأوان، اكتملت المهلة. بيثنتي الخادم، نظَّف وأعدَّ العربة في اليوم السَّابق لتحمل سيِّده مع العمِّ إجناثيو إلى لامانجا. فضَّلت دونيا جابريلا عدم الحضور. لعدم وجود أمٍّ لتيو، بدا لها أن حضورها سيكون غير مناسبٍ. في الحقيقة كانت تشعر بالفزع. ثيبريانو مرتديًا حلَّةً من الحرير فخيم التَّطريز وحليةً متدلِّيةً على الصَّدرية، مرَّ على بيت عمِّيه ليصطحبهما. قاضي المحكمة العليا، بأكمامٍ منتفخةٍ وصدريَّةٍ من الحرير القرمزيِّ، يبدو خارجًا من لوحة، وهو ما دفع ثيبريانو للتَّفكير في المظهر الذي سيجده في لامانجا. بعد عبور الطُّرق المليئة بالأحجار الصَّغيرة، وفقًا لخبرته، توقَّفت العربة أمام الباب المعلَّق فيه نبتة عنب، بجانب البئر. لم يكن هناك أحدٌ في محيط البيت. حتَّى الكلاب والإوزّ تم حبسها، ولم يتعرَّف ثيبريانو إلى أوكتافيا، الخادمة من بينيافلور، بغطاءٍ على الرَّأس وفستانٍ، عندما فتحت له الباب. في الصَّالون، بجانب الموقد، على مقعدٍ من الخوص، كأنه فوق عرشٍ، كان يجلس دون سجوندو ثينتينو ينتظر. كان قد شذَّب شعره ولحيته واستبدل الطاقيَّة البسيطة بقبعةٍ صغيرةٍ ذات حوافٍ زرقاءٍ داكنةٍ. تَنَفَّس ثيبريانو الصُّعداء عندما لاحظ التَّغيُّر من الباب. لكن، عندما نهض دون سجوندو لتحية عمه، صعدت دفقةٌ من الدَّم إلى وجهه عندما رأى السِّروال المشقوق[1] الذي يرتديه، قطعة الملابس التي جعلها الجنود المرتزقة الألمان موضة في إسبانيا قبل ثلاثين عامًا. سرعان ما تراجع مظهره السَّخيف أمام تلقائيته

(1) نوع من السراويل كان يستخدمه جنود مرتزقة ألمان في ذلك الوقت. وكان موضة ويتم ارتداء سروال من لون مختلف تحته لإبرازه.

المزرية، تلقائيةٌ مثيرةٌ للشَّفقة لاجتهاده في استخدام كلماتٍ لم تكن مألوفةً بالنِّسبة له. استمر العرض بظهور تيودوميرا في ملابسٍ لا تَقِلُّ غرابة: فستانٌ أسود قصير الذَّيل، يسعى لمداراة جسدها، ووشاحٌ حريريٌّ شفافٌ. بدا جسدها مفرطًا على أيِّ حالٍ. العمُّ إجناثيو ذاته، متوسط القامة، كان أقصر منها قليلًا. لكن أغرب ما في الأمر كانت تلك الشَّخصيَّات الأربع المُتَّشحة بملابس المناسبات، وتتحرَّك في الصَّالة المتواضعة، أمام موقدٍ من الحطب، كأنهم في مشهدٍ مسرحيّ.

أطلع دون سجوندو ضيفه على ممتلكاته بفخرٍ، وحدَّثه بعد ذلك عن الاتِّفاقات الموقَّعة مع ابن أخيه، التي كان ينتظر أن تكون ذات نفعٍ متبادلٍ. بعد ذلك تناول موضوع الحياة في الرِّيف، التي صاغ دون سجوندو حولها أنشودة إطراءٍ. أبدى تقديرًا لكون دون إجناثيو قاضيًا بالمحكمة العليا، واتَّفق كلاهما على توقيع شروط الزَّواج بعد الغداء، في غياب صاحبَيْ الشَّأن.

عندما جلس إلى المائدة، فرضت قوَّة العادة نفسها على التَّهذُّب، والتهم دون سجوندو ثينتينو فطيرةً من لحم الشَّاه والبيض مع السَّبانخ، مرتديًا القبعة، ولم يخلعها إلا عندما لاحظ الإشارات المفضوحة لابنته بينما تقدِّم أوكتافيا المشهِّيات المقليَّة. في النِّهاية، مترعًا بالطَّعام والشَّراب، ظلَّ دون سجوندو ساكنًا لبرهةٍ، بوجه متقلِّصٍ، ويديه فوق بطنه، حتَّى أطلق في النِّهاية تجشُّؤًا، احتفل به قائلا: «صحة». وأخذ يمدح مرَّةً أخرى مزايا الرِّيف على المدينة وجودة طعامه.

- «في البيوت الأنيقة، كما تعرف حضرتك: فخامةٌ كبيرةٌ، وترفٌ كثيرٌ، والقليل من الطَّعام في الأطباق».

عندما أصبحا بمفردهما، تعامل دون سجوندو مع دون إجناثيو برسميةٍ

أكثر: سيِّدي القاضي، أو دون سالثيدو، هكذا كان يطلق عليه. أعطى انطباعًا بأنه درس الموضوع جيدًا، وكان على استعدادٍ لتزويج الفتاة، حتَّى لو اضطرَّ للتَّنازل عن قبّعته. من ناحيته، كان القاضي، المنزعج من بدائيَّة الرَّاعي، يرغب في إنهاء لقاءٍ بدا له غير مريحٍ منذ وصوله. بالنُّزول على رغباته، تمَّ توقيع العقود من دون اعتراضات. دون سجوندو يمهر ابنته ألف دوكادو، ودون إجناثيو يقدِّم لدون سجوندو ثينتينو، كصداقٍ، مبلغ خمسمائة. منذ تلك اللَّحظة أخذ دون سجوندو، كلَّما فتح فمه، في رفع صوته وخبْط ظهر دون إجناثيو، كأنهما صديقان قديمان. كان يخلِّف انطباعًا أن المبلغ المُتَّفق عليه لشراء ابنته شكَّل مفاجأةً سارةً. وأمرًا شبيهًا حدث للقاضي، مع مقدار المهر. دون سجوندو لم يكن، فيما يبدو، بخيلًا لا رجاء منه. بعد الاتِّفاق على هذه البنود في عقْد الزَّواج، أشار دون سجوندو، كأمرٍ لا غنى عنه، أن الاحتفال بالزَّواج سيتمُّ في كنيسة بينيافلور دي أورنيخا، إن لم يكن لدى دون سالثيدو سببٌ للرَّفض، في الخامس من يونيو، في التَّاسعة صباحًا. والمأدبة، نظرًا للعلاقات القليلة، ستكون عائليَّةً، في الفناء الأماميِّ لبيته الرِّيفيِّ، بجانب الحظائر، التي تُشكِّل عالمه. أبدى دون إجناثيو موافقته، لكن، ما إن أصبحا في العربة، في طريقهما لبيانوبلا، ثَمِلًا حاول أن يشرح لابن شقيقه تنافر الأطراف:

- «سؤالٌ يا ثيبريانو. هل يطلق حموك لحيته أم يحلقها؟ يبدو الأمر سيَّان، لكنه ليس سواء».

انفجر ثيبريانو في الضَّحك. أتى نبيذ ثيجاليس خفيف اللَّون بأثره، وردُّ فعل عمِّه كان يسلِّيه. قال:

- «ا...اليوم كان متأنِّقًا للغاية. أعجبني سرواله كالجنود الألمان. أتمنَّى أن تستطيع العمَّة جابريلا رؤيته يوم الزِّفاف».

النَّبرة السَّاخرة لابن أخيه سلبته أسلحته. صعد إلى العربة آملًا أن يجعله يُعيد التَّفكير في الأمر، لأن العائلتين، برأيه، كانتا غير متناسبتين. قال هذا، لكن ثيبريانو ردَّ عليه أن تلك الأحكام البرجوازية المسبقة لا تهمه. بقسوةٍ، أشار دون إجناثيو إلى زوجته المستقبليَّة، قائلًا إن تلك الفتاة كانت تتجاوز أيَّ حكمٍ برجوازي مسبقٍ. لكن ثيبريانو أنهى الموضوع متعلّلًا بأنه لمعرفة تيو، لم يكن تناول الغداء كافيًا. في محاولةٍ أخيرةٍ يائسةٍ، سأله القاضي إن لم يكن ذلك الانجذاب نحو ابنة المغترب، مجرَّد معاناةٍ من الحبِّ:

- «معاناةٌ من الحبِّ؟ وماذا يكون هذا؟».

أوضح القاضي:

- «رغبةٌ جسديةٌ تفرض نفسها على أيِّ تفكيرٍ عقلانيّ».

- «وهل هو، بالمصادفة، مرضٌ؟».

كان خطُّ البارامو مشتعلًا مع غروب الشَّمس، وفي الخلفيَّة تبدو أشجار البلُّوط أضخم.

- «لا تأخذ الأمر كمزحةٍ، يا ثيبريانو. يوجد له توصيفٌ وعلاجٌ. يمكنك أن تزور الدُّكتور جالاتشي، ليس لكي يعالجك وإنما ببساطةٍ لكي تقيم معه حوارًا».

اتسعت ابتسامة ثيبريانو سالثيدو. وضع يده الصَّغيرة فوق ركبة عمِّه.

- «من هذه النَّاحية يمكنك أن تطمئن. لست مريضًا. لا أرزح تحت مرض الحبِّ، وسوف أتزوَّج».

في الخامس من يونيو، في كنيسة بينيافلور، المُزيَّنة بالزُّهور البرِّيَّة، تم الاحتفال بهذا الزَّواج شديد الغرابة. لم تستطع دونيا جابريلا الحضور، لوعكةٍ مُفاجئةٍ، لكن حضر كُلٌّ من دون إجناثيو، ديونيسيو مارنيركي،

الخياط فيرمين جوتيرث، إستاثيو ديل بابيه، السَّيِّد أبيلينو، خبير الحيوانات من بينيافلور، مارتين مارتين، والرُّعاة الذين يعملون لحساب دون سجوندو في بامبا، كاسترودوثا وثيجوينيلا. مأدبة الزَّواج في فناء البيت الكبير، كانت شديدة المرح. وبعد الحلوى قام دون سجوندو، بسرواله المشقوق، وقبعته الصَّغيرة على رَأسه، بالصُّعود مُتعثرًا فوق المائدة وألقى خطبةً عاطفيةً، ختمها بالهتاف بحياة العروسين، والسَّيِّد القس، والحضور، وتبعها برقصةٍ عصبيةٍ على إيقاع قدميه.

لدى العودة، وقع الخلاف الأوَّل بين العروسين حديثَيْ الزَّواج. أصرَّت تيودوميرا على الهبوط على أوبستينادو، جوادها القبيح، إلى بلد الوليد. وسألها ثيبريانو عمَّا سيفعله جوادٌ ضامرٌ غير نبيلٍ في مدينة البلاط. ردَّت عليه ملكة البارامو، وقد خرجت عن طورها أنها إن لم يذهب أوبستينادو، فلن تذهب هي أيضًا، وفي تلك الحالة، يُمْكنه أن يعتبر الزَّواج كأنه لم يكن. وحاول ثيبريانو أن يقاوم لكن، نظرًا لعناد زوجته، انتهى به الأمْر بالقبول. بيثنتي، الخادم، هبط راكبًا على أوبستينادو، وركب كلاهما في عربة دون إجناثيو.

في البيت، بعد تحيةَ الخدم، قام ثيبريانو بتنفيذ التَّجربة التي أعدَّ نفسه لها خلال الشَّهرين الماضيين. حمل بين ذراعيه المفتولين من أصحبت قانونًا زوجته، دفع باب غرفة النَّوم بقدمه، تقدَّم بها نحو فِرَاش الزَّوجية ووضعها بنعومةٍ فوق الحشية الكبيرة من صوف لا مانجا، التي أهداها لهما البيروفي. نظرت له تيودوميرا بعينيها مندهشتين وقالت:

- «أنت مخادعٌ يا صغيري. هل يُمْكن معرفة من أين تأتي بهذه القوَّة؟».

IX

الشُّهور الأولى من الزَّواج كانت سعيدةً وهانئةً لثيبريانو سالثيدو. تيودوميرا ثينتينو التي أصبح اسمها تيو، كانت تتناول الإفطار في الفِرَاش في العاشرة صباحًا، ثم ترتدي ملابسها وتنزل لبعض الوقت إلى المتجر. في بعض الأمسيات كانت تقوم بجولةٍ على أوبستينادو حتَّى سيمانكس أو هيريرا أو تصعد لبرهةٍ إلى لامانجا لكي تزور أباها. ثيبريانو، واعيًا أن حصان زوجته القبيح لم يكن يتناسب مع مقرِّ البلاط، أهداها مُهرًا نحاسيَّ اللَّون، جميل المنظر، فرفضته ابنة البيروفي بغضبٍ شديدٍ، قائلةً إنها تُفضِّل جوداها المعهود على ذلك النقيِّ الدَّم، المليء بالغرور. كانت لدى ملكة البارامو تلك الاندفاعات. كانت طيِّبة المعشر، لكن، فجأةً، لأمْرٍ تافهٍ، كانت تثور، وحينئذ، تهذي، وتصرخ، وتصبح عنيفةً وعدوانيةً. كان يقول لها صراحةً إن ما يدفعها رغبتها في المعارضة فقط لا غير، وهي تقول إن ثيبريانو نادمٌ على الخطوة التي أخذها، لكن، بما أنها أصبحت زوجته، يجب عليه أن يقبلها بكُلِّ العواقب. كان على ثيبريانو أن يذعن مرَّةً أخرى، وبعد ذلك، كلَّما خرجا للنُّزهة على الحصان، كانا يتَّخذان طريقين مختلفين. وإن كانت الزِّيارة لدون سجوندو، تنتظره تيو فوق جوادها المُبقَّع على الضِّفَّة المقابلة لجسر مايور، حيث يلتقيان. كانت بضعة أسابيعٍ كافيةً

لكي يدرك ثيبريانو أمرًا مهمًا: يجب أن يقوم بترتيب حياته على هامش عناد تيو ونوبات الغضب التي بدأ يلحظها في سلوكها. لكن لأن الزِّيارات إلى لا مانجا لم تكن كثيرةً، استطاع ثيبريانو أن يُخصِّص الصَّباح للمتجر والظَّهيرة للورشة، بينما كان يستغلُّ أوقات الفراغ في البيت في الرَّدِّ على البريد والقراءة. كان يقوم بهذا بعد أن ترك المدرسة، عندما تعثَّر بالمكتبة الكبيرة في بيت عمه. لكن الآن، بعد أن استقرَّ في البيت، عاد إلى العادة القديمة. بعد شهر العسل في أبيلا وشقوبية، مدينتين لم تكن تيو تعرفهما، شعر ثيبريانو بوجوب زيارة بيدروسا التي لم يطأها منذ عامين. يوم الزِّفاف بالكاد أطلعه مارتين مارتين على أخبارٍ جديدةٍ في بينينافلور، مثل أن دون دومينجو، القسُّ العجوز الذي ساعده على الحصول على لقب هيدالجو، قد توفِّي، وأن حقول نهر بيابينديميو، التي ضمَّها لممتلكاته لتدعيم الطَّلب، كان تُنبت تيناً شوكيًا أكثر من العنب. فيما يبدو يقترب المحصول الحالي من المستويات الطبيعية. لكن، بالإضافة إلى كُلِّ هذا، لم يكن من السَّهل تحصيل إيجارات العامين الأخيرين. ومُتَّبِعًا مقولة إن (المال السائب يُعلِّم السرقة)، قرر ثيبريانو زيارة بيدروسا بتواترٍ أكثر.

في الجانب الجنسيِّ، سار زواجه بشكلٍ طيبٍ. الكسل البادي لتيو لم يكن يؤثر عليه. لم يُفكِّر مطلقًا في شراء جاريةٍ لأنَّ كريسانتا وجاكوبا كانتا كافيتين للقيام بأعباء البيت، وفيدلا تؤدِّي واجبها في المطبخ. هكذا دخلت تيو إلى بيت شارع سان بابلو رقم 5 كسيِّدةٍ. أمرٌ آخر، أن حياته الزَّوجية لم يكن فيها الشَّوق والاندفاع المعهودان في حديثي الزَّواج. حسب كلمات كريسانتا، الخادمة، يعطي السَّيِّد والسَّيِّدة الانطباعَ أنهما متزوجان منذ اثني عشر عامًا. لكن هذا الوصف، الذي كان صائبًا، أمام الغرباء، لم يكن يتَّفق مع الواقع خلف الأبواب المغلقة. ثيبريانو، مع الحبِّ الجسديِّ، كان يكتشف في تيو صفاتٍ مدهشةً، مثل خلوّ جسدها من الشَّعر تمامًا. الجسد

الأبيض، الصَّلب والمثير لزوجته كان أمرداً تمامًا، ولم يكن الشَّعَر يظهر في تلك الأجزاء التي يبدو أنها مرتبطةٌ به: الإبطين والعانة. المرَّة الأولى التي رآها عاريةً، بالكاد أمكنه التَّحكُّم في حيرته. لكن هذه الخاصِّيَّة التي أدهشته في البداية، أصبحت مع الوقت عامل إثارةٍ جديدًا. امتلاك تيو، كان يقول لنفسه، كان مثل امتلاك فينوس من الرُّخام، مليئةً بالماء السَّاخن. لأن تيو يمكنها أن تكون بيضاء وضخمةً، لكنها ليست باردةً. في ألعابهما الشَّهوانيَّة كان يطلق عليها «تمثالي الجامح»، لقبٌ لم يبدُ أنه يثير ضيقها. على أيِّ حالٍ، كانت تيو تتصرَّف كأنثى دافئة، خبيرة، خالعة العذار. يداها الماهرتان في جزِّ الفرو كان لهما دورٌ مهم في الحبِّ. منذ اليوم الأوَّل تعلَّمت أن تبحث في العتمة عن (الشَّيء)، وعندما تجده، كانت تطلق صرخات إعجابٍ وفرحةٍ. بهذه الطَّريقة، وكما لا يُمْكن أن يكون بغيرها، أصبح (الشَّيء) محور الحياة الحميمة للزَّوجين. لكن، بعد العثور عليه، كان ثيبريانو يضطلع بالجانب الفاعل من الغواية، ويجتهد ليعتليها، فقد كان الوصول إليها صعبًا. وما إن يعتليها، حتَّى يلهو تائهًا في تضاريس تيو الثَّريّة، شديدة الصَّلابة والقوَّة كما حدس خلال الملامسات العَرَضية خلال الخطوبة. كانت تيو تتحوَّل فجأة إلى أوبستينادو (العنيد)، وهو، عن رضا يقوم بامتطائها. لكن جسده كان يفتقد للَّحم والحجم الذي يُمَكِّنه من امتلاكها تمامًا ولهذا، يتوجَّب على يديه الصَّغيرتين أن تشاركا في الفعل. كانت تشعر به فوقها كأنه كائنٌ طفيليٌّ ممتعٌ، تستقبله مبتهجةً، وفي لحظة الذُّروة من النِّكاح، تختنق بضحكاتٍ ماجنةٍ بذيئةٍ، حيَّرت ثيبريانو في اليوم الأوَّل، لكنها أصبحت مع الوقت، ختامًا احتفاليًا للحفلة الجسدية. كان ذلك هو التَّعبير الصَّوتيُّ عن نشوتها.

إمتاع امرأةٍ شديدة الضَّخامة كان يرضي غرور ثيبريانو الضَّئيل الحجم. وتقوم، قبل لحظاتٍ من القهقهة، بالصُّراخ بهياجٍ شديدٍ: «أنت تنكح كالثَّور

يا صغيري». ولأسبابٍ بديهيةٍ، كان يكره صيغة التَّصغير دائمًا، لكنه يتقبَّل «صغيري» كتكريمٍ لقوته كذكرٍ. لكن لم تنعدم ليالٍ، تكون فيها تيو متعبةً أو من دون رغبةٍ، وتظلُّ سلبيةً في الفِرَاش، ولا تبحث عن (الشَّيء)، وحينئذ ينتظر ثيبريانو مُتحفِّزًا، لكن البحث لم يكن يقع، ولهذا يجد نفسه مضطرًّا لأخذ المبادرة من دون إعداد، وبعد بضع دقائق من الانتظار المتوتِّر، يبدأ في الزَّحف بجانب زوجته وغزو الحصون المنيعة. وتتظاهر هي بتحمُّل حصاره. لكن، عندما تجده وجهًا لوجهٍ فوقها، كانت تهمس بإثارةٍ:

- «عمَّ تبحث يا حبِّي؟».

كان السُّؤال إشارةً لبدء اللُّعبة المعهودة كُلَّ ليلةٍ. لكن، بدءًا من نقطةٍ مختلفةٍ. على أيِّ حالٍ، بعد تكرار فعل الحبِّ، تجد تيو نفسها مُنهكةً، الذراع اليسرى مفرودة على الوسادة، بعيدًا عن جسدها، وثيبريانو، التَّوَّاق دائمًا إلى تجويفٍ واقٍ، انتهى به الأمر إلى الاعتياد على إراحة رَأسه الصَّغير في إبط تيو الدَّافئ الخالي من الشَّعر، وفي هذا الملاذ الآمن، يعانق النَّوم.

في الأيَّام الحارة من الصَّيف الأوَّل كزوجين، عثر ثيبريانو على اكتشافٍ آخر مدهشٍ: تيو لا تفرز عرقًا. كانت تشعر بالحَرِّ، وبالاختناق، والإرهاق، لكن مسامَّها لا تنفتح. أمام هذه الظَّاهرة غير المفهومة، أصبح ثيبريانو أكثر تعلُّقًا بها. تقزُّزه الشَّديد من رائحة العرق الكريهة، لم يكن له وجودٌ مع زوجته. حتَّى في رحلة الزَّواج الحارَّة، في البنسيونات الدَّافئة، وفي نزهاتهما في المدن القديمة، لم تكن تيو تعرق، بينما كان جسد ثيبريانو الضئيل، قليل الشُّحوم، يذوب مثل الزُّبد تحت درجة حرارةٍ عاليةٍ. في البداية عزا الظَّاهرة لأمرٍ عارضٍ، لكن تيو أخرجته من الشَّكِّ:

- «ولا حتَّى بعد جزِّ صوف مائة من الأغنام في الشَّمس تسقط من جبهتي نقطة عرقٍ واحدةٍ».

تلك المفاجأة حفَّزت النَّشاط الجنسيَّ لسالثيدو. كان يبحث عن سبب لتفسيرها، وفي النِّهاية اعتقد أنه وجده: غياب العرق والشَّعر كانا انعكاسًا لظاهرة واحدة. جسد تيو المكتنز لم يكن يحتاج للرَّيِّ. رغم هذا، رغم كُلِّ شيءٍ، خلال العام الأوَّل من الزَّواج، بعيدًا عن اعتبار تلك الأمور الغريبة عيوبًا، كان يعتبرها محفزاتٍ وبواعث للشَّبق. تيو أيضًا، من جانبها، كانت تكتشف أمورًا غير طبيعيةٍ في جسد زوجها. لم يكن ثيبريانو شخصًا جميلا فقط، رغم أنه ضئيل الحجم ومفتول العضلات، لكنه كان على النَّقيض منها، مشعرًا بشكلٍ غير عاديّ. لم يكن الشَّعر ينمو بغزارةٍ في الإبطين والعانة فقط، وإنما في المناطق الأقل مناسبةً لاحتضان بصيلاتٍ، مثل القدمين، والكتفين والخصر. أمام دليلٍ كبيرٍ كهذا على الذكورة، في بعض اللَّيالي، بعد قهقهتها المتفجِّرة، كانت تصيح وقد خرجت عن أطوارها:

- «أنت تصيبني بالجنون يا صغيري. لديك شعرٌ أكثر من قردٍ».

ثيبريانو، المُعجب بجسد زوجته المكتنز، النَّاعم، الخالي من النُّواقص، كان يُفكِّر: انجذاب الأضداد. لكن، منذ اندهاش تيو من الاستعراض العضليِّ في أوَّل ليلةٍ، شعر بقيمته، بتميُّزه كذَكَرٍ، وهو ما ساعد على خلق علاقةٍ صحّيةٍ بينهما. بدا أنها سعيدةٌ به، وهو، باستثناء أوبستينادو، سعيدٌ بها.

لخشيتهما من فتور العلاقة مع العمَّة جابريلا، قاما بدعوة العمَّين مرارًا. وهكذا، بعد مرور ثمانية أشهر على الزَّواج، أصبحت جابريلا، شديدة التَّهذيب كما هي حَسَنة الملبس، تتحدَّث وتضحك مع تيو، كأنما مع أيِّ صديقةٍ بالمدينة. وأكثر، إن أمكن قوْل هذا، فقد كانت تيو تنقلها إلى عالمٍ غريبٍ، عالم الرِّيف والعمل، الذي كانت كُلُّ تفاصيله جديدةً بالنِّسبة لها: النَّظافة الشَّخصية، العادات البسيطة، معايشة الحيوانات. لم تكن تتخيَّل، على سبيل المثال، أن قطيعًا من الإوز، كان أكثر فعاليةً من

الكلاب في حراسة البيت، كما كانت تيو تؤكد. الإوز، بالنِّسبة للعمَّة، طائرٌ مستأنسٌ لا يعرف العنف. كانت جابريلا تسألها عن ثيابها، وعن أثاث البيت، وزينتها. لم تكن تفهم كيف أمكن لتيو أن تعيش خلال سنوات برداءٍ للعمل وفستانٍ لأيام الأعياد. أقَرَّت الفتاة بأن أباها ثريٌّ، لكنه كان يشقى في جَنْيِّ المال ويتألمَّ لإنفاقه في تفاهاتٍ. كوْن دون سجوندو قد مَهَرها ألف دوكادو يكشف أن أباها عاش فقط من أجلها. هذه الفكرة كانت تؤثِّر فيها، وبالفعل كانت تصعد كُلَّ شهرٍ إلى جبل بينيافلور لكي تعانقه. حتَّى أنها كانت تعانق في خيالها غرضًا نبيلًا: قضاء أسبوعين معه كُلَّ ربيعٍ لكي تساعده في جزِّ الصُّوف.

لكن، قبل أن تتمَّكن من تحقيق غرضها تزوَّج دون سجوندو من جديدٍ. هبط إستاثيو ديل باييه، من بيانوبلا، على بغلته لينبئ ثيبريانو بالخبر. دون سجوندو ثينتينو، البيروفي، عقد زواجه على بيترونيلا، الابنة الكبرى لتيليسفورو، أحد رعاة كاستروديثا. زواجٌ صائبٌ، برأي إستاثيو ديل باييه، لأنه بضربةٍ واحدةٍ، تَوفَّر لدون سجوندو امرأةً ليعاشرها وعاملة لجزِّ الصُّوف. ففي غياب تيودوميرا، كانت بيترونيلا هي أفضل من يجزّ الصُّوف في الإقليم. من جانبه، لم يخرج تيليسفورو موثو، الرَّاعي، خاسرًا: سمح له دون سجوندو أن يحمل مع قطيعه مجموعةً من النِّعاج القابلة للتَّناسل، والتي سيتكفَّل ربُّ العمل بتكاليفها.

بعد إعلامها بالخبر، قامت تيو بانتظار ثيبريانو على مخرج جسر مايور بنِيَّة الصُّعود معا إلى لا مانجا. كانت محتقنةً ومتوتِّرةً، وفي أزمةٍ حقيقيةٍ، ولم تفهم قبول ثيبريانو لقرار أبيها. لكن عندما لامت الأخير على الزِّيجة المُتسرِّعة التي عقدها، أوضح لها أن الماشية تحتاج لعملٍ كثيرٍ، وبيدين اثنتين فقط، تضعفان يومًا بعد يومٍ، لن يمكنه القيام بالعمل. وأمام هذا الاعتراف غير المباشر بأهمِّيَّتها، عانقته بقوَّةٍ. من جانبه، استفسر ثيبريانو

إن كان قد وقَّع أيَّ أوراقٍ مع تيليسفورو موثو، لكن دون سجوندو نفى. لا، لم أوقِّع أيَّ شيءٍ مع تيليسفورو، لأنه بين أهل الرِّيف لم تكن للأوراق قيمة، تكفي الكلمة. لكن، في الشَّهر التَّالي، أخبره تيليسفورو موثو أنه سيضاعف عدد الأغنام في قطيعه، لأن عشر نعاجٍ للتَّناسل كانت قليلةً. زار دون سجوندو ابنته في العاصمة، وبعد رحيله خلَّف البيت عابقًا برائحة روثٍ لم تختفِ إلا بعد مرور أيَّامٍ عديدةٍ. كان يبتغي مساندة دون إجناثيو، القاضي، لكن زوج ابنته أوضح له أن الكلمة المعطاة هشَّةٌ في الرِّيف، كما في المدينة، وأنه أعطى لتيليسفورو موثو سلاحًا يمكنه أن يبتزَّه به حتَّى يوم البعث. أمام هذا، تراجع دون سجوندو عن زيارة دون إجناثيو، وعاد إلى الجبل برائحته كالقمامة، وبرَأسٍ محنيّ وأذنين متدلِّيتين.

مع بداية أبريل، وجد ثيبريانو في النِّهاية فراغًا بين مشغولياته لكي يزور بدروسا. كالعادة خرج من بيته إلى جسر مايور وقاد جواده عبر سفوح التِّلال حتَّى بيالار. وجد مستأجره في الحقل، يتناول غداءه في كوخ، وذهبا معًا حتَّى حقل بيابينديميو. بالكاد كانت الجذوع قد أنبتت أوراقًا، وممرَّات الحقل ممتلئةٌ بالأفرع الجافة. عرض ثيبريانو على مارتين مارتين إمكانية زرْع الحقل بالحبوب، لكن المستأجر رفض على الفور، القمح والشَّعير لا ينتجان في أراضٍ شديدة الهشاشة، ولا ينموان. أمضيا الصَّباح في زيارة بقيَّة حقول العنب، وقدَّمت لهما السَّيِّدة لوكرثيا، التي أصبحت عجوزًا للغاية، الطَّعام كما كانت تفعل في حياة دون برناردو المتوفَّي.

في الظَّهيرة، أقام سالثيدو في نُزُل ابنة باروكيه، في ميدان الكنيسة. لدى إغلاق النَّافذة لينام القيلولة، لمح قسًّا جالسًا على باب المعبد يقرأ في كتاب. كان شديد التَّركيز لدرجة أن أسراب الحمام التي تُحلِّق فوقه من آن لآخر ، والفلاحين الذين يعبرون السَّاحة بينما يغنُّون فوق ظهور الحمير، لم يكونوا يشتِّتون تركيزه. بعد أن نام قليلًا، عندما فتح النَّافذة، وجد ثيبريانو

أن القسَّ لا يزال جالسًا في المكان ذاته. كان كأنما تمَّ تحنيطه. لكن عندما خرج سالثيدو لتحيَّته، بتهذيبٍ نهض القسُّ الجديد الذي جاء ليحلَّ محلَّ دون دومينجو. قدَّم ثيبريانو نفسه، لكن القسَّ كان يعرفه. حدَّثوه في القرية عنه، وعن حصوله على لقب هيدالجو والحفل الذي أعقب ذلك، لكن كان لديه فضولٌ: «هل القاضي بالمحكمة العليا، دون إجناثيو سالثيدو، قريبٌ لك؟».

- «عمّي، إنه عمّي، وأيضًا وليُّ أمري»، أوضح ثيبريانو. حينئذ أشار القسُّ الجديد إلى دون إجناثيو كأحد أكثر الرِّجال ثقافةً واطلاعًا في بلد الوليد. على الأرجح، إن لم تكن مكتبته هي الأولى في عدد المجلَّدات، فهي الثَّانية. وبعد ذلك، قدَّم نفسه: «بدرو كاثايا»، قال بتواضعٍ. وبدوره، سأله ثيبريانو سالثيدو، إن كانت له صلة قرابةٍ بالدُّكتور كاثايا، الواعظ. قال القسُّ:

- «نحن شقيقان. أمضى بضعة شهور في سلامنقة، لكنه يعيش الآن مع أمي في بلد الوليد».

أقرَّ سالثيدو أنه من المواظبين على حضور عظات الدُّكتور. قال كاثايا من دون أن يعطي للأمر أهمِّيَّة:

- «إنه خطيبٌ ماهرٌ».

كان يبدو أصغر سنًا من الدكتور، بشعره الأسود الكثيف، أشيب الفودين. وجهه الذكوريُّ مدبوغ، وعينان داكنتان، بنظرةٍ مُتفحِّصةٍ. ردَّ سالثيدو:

- «إنه أكثر من ماهرٍ. يمْكنني أن أقول إنَّه أفضل واعظٍ في هذه اللَّحظة. يبني عظاته بمتانة مهندسٍ معماريّ».

هزَّ بدرو كاثايا كتفيه. كان يشعر بالحرج من الإطراء على شقيقه.

أقرَّ بسهولة تعبيراته، وروحانيَّته. أخذه الإمبراطور معه إلى ألمانيا لبضع سنوات لهذا السَّبب، لروحانيَّته. كان شرفًا وخبرةً لن ينساهما شقيقه مطلقًا، والآن يستعدُّ الملك كارلوس الخامس للتَّقاعد في يوستي.

سأله ثيبريانو سالثيدو لماذا يقوم شقيقه بالوعظ خارج الأديرة دائمًا. عاد كاثايا لهز كتفيه وأوضح: «ليتمتَّع بحريةٍ أكبر. فجماعات الرُّهبان تُوجِّه انتقاداتٍ عديدة ومُتَّفقًا عليها، وليست مُخلصة دائمًا».

شعر سالثيدو باشتعال فضوله نحو القسِّ الجديد. حبُّه للقراءة، حداثة أفكاره، المعاملة غير الأبوية المعهودة دائمًا في قساوسة الرِّيف، كلُّها كانت تدهشه. كان ليلًا مطبقًا عندما ودَّعه. كان القسُّ هو من اقترح إمكانيَّة اللِّقاء في ظهيرة اليوم التَّالي، دعوةٌ لم يرفضها سالثيدو رغم أنه كان قد فكَّر في العودة لبلد الوليد في الصَّباح. في العاشرة، بعد الإفطار، كان القسُّ يواصل القراءة في السَّاحة، في وضع اليوم السَّابق نفسه. عندما ذهب ثيبريانو ليلتقيه بعد الغداء كان لا يزال جالسًا فوق المصطبة على باب الكنيسة. أغلق الكتاب عندما رآه ونهض:

- «هل يُمْكن معرفة ماذا تقرأ بكُلِّ هذا الاهتمام؟».

ردَّ كاثايا:

- «أُعيد قراءة إيراسموس. لا نهاية للتَّعرُّف على أفكاره».

قال ثيبريانو بسخريةٍ:

- «كنت في الماضي إيراسميًا متحمِّسًا».

- «هل اهتممت حقيقةً بإيراسموس من قبل؟».

- «افهمني يا أبتِ. أنا أحدِّثك عن طفولتي، عن المؤتمر حول إيراسموس. في مدرستي تَشَكَّل فريقان، وكنت ضمن الإيراسميين. ورغم أن أيًّا من الفريقين لم يكن يعرف من هو إيراسموس وصلنا للتَّشاجر بسببه».

كانا قد عبرا القرية من دون خطةٍ مسبقَةٍ وأصبحا الآن في طريق بيابينديميو، باتجاه تورو. كان كاثايا يراقب الحيوانات، والطيور، واتضح أنه عالِمٌ خبيرٌ بالرِّيف. تحدَّث عن الزَّرزور الملوَّن، وكيف أنه أكثر مشاكسةً وأكثر جهدًا من الزَّرزور الأسود، الذي كان أكثر غناءً وأجمل أيضًا.

لكن القسَّ كان مهتمًّا بما ذكره عن حياته المدرسيَّة. سأله عن المركز الذي تعلَّم فيه. قال سالثيدو:

- «ملجأ الأطفال اللُّقطاء».

- «لكنك لم تكن منهم، أعني أنك لم تكن لقيطًا».

- «لَمْ أكن لقيطًا، لكن أبي أخضعني لهذا النِّظام الصَّارم. لم يكن يؤمن بذكائي وفشل العديد من المُعلِّمين معي».

- «ألَمْ يكن الأب أرنالدو هناك؟».

- «الأب أرنالدو والأب توبال، كُلٌّ منهما في مواجهة الآخر في الخلاف حول الإيراسمية. إيراسموس كان مُلهِمًا للوثر، برأيِّ الأب أرنالدو. من دونه لم يكن الإصلاح قد حدث. على العكس، كان الأب توفال يؤمن بقوَّة إيمان الهولندي».

بدا أن عينيِّ كاثايا كانتا تنظران إلى شيءٍ بعيدٍ. وقال فجأة:

- «تلك كانت أيامًا من الأمل. الإمبراطور كان من جانب إيراسموس، وكان يسانده، وقاضي محاكم التَّفتيش مانريكى أيضًا. ماذا يعني الذباب القذر الذي كان يعارضه؟ في ذلك الوقت نشر إيراسموس الجزء الثَّاني من (الدِّرع الواقية[1]) الذي يدحض فيه بعض أفكار لوثر. وهذا عزَّز من

(1) كتاب بهذا العنوان لإيراسموس، وصدر في مجلدين (1526-1527) ردا على كتاب «عن عبودية الإرادة» لمارتن لوثر.

مكانته لدى الإمبراطور، الذي كَتَب له بأوصاف «نبيلٌ، ورعٌ ومُقرَّبٌ منا» في رَأس الرِّسالة».

حملت كلمات كاثايا نبرة حنينٍ مرتعشةٍ.

- «وكيف تغيَّر الموقف؟».

- «تبدَّلت الأهواء. كانت واقعةً رهيبةً. توقَّف قاضي محاكم التَّفتيش مانريكي عن دعم إيراسموس، والملك خَلَّفه وراءه في إيطاليا. انتهز الرُّهبان تلك الظُّروف لمهاجمته من فوق المنابر. ردَّ كارباخال بحدَّةٍ على (الدِّرع الواقية)، وبدلًا من الصَّمت أو تَصَنُّع أنه غير المقصود، ردَّ إيراسموس بعنفٍ. تَغَيَّر الموقف تمامًا. منذ تلك اللَّحظة، بالنِّسبة لمحاكم التَّفتيش، أصبح إيراسموس ولوثر فرعين في الشَّجرة ذاتها».

وصلا إلى (ريكودو ديل بييخو)، بجانب الدَّغل، حيث كان غرابٌ يتبختر متعجرفًا. تأمل القسّ الطَّائر بفضولٍ من دون التَّوقُّف عن السَّير. قرص الشَّمس كان يتَّسع ويصطبغ بالحمرة لدى سقوطه خلف التِّلال الرماديَّة في الغرب. توقَّف بدرو كاثايا وقال:

- «هل تأمَّلت الغروب في قشتالة؟».

- «أستمتع به كثيرًا. غروب الشَّمس على الهضبة يكون مدهشًا أحيانًا».

دارا في طريق العودة وأخذ المساء يبرد. من بعيد كانا يريان البيوت الطِّينيَّة التي تطلُّ عليها الكنيسة. كانت طيور اللَّقلق قد أخرجت فراخها التي تحلِّق فوق أوراق البوط كمخطَّطات رسمٍ. نظر بدرو كاثايا مرَّةً أخرى إلى الشَّمس الغاربة. كان ضوء الغسق يبهره. انفجر قرْع جرسٍ في الجوِّ الهادئ. أسرع كاثايا من خطاه. نظر إلى سالثيدو بعينيه العميقتين وقال:

- «بالأمس كان إيراسموس أملًا، واليوم أصبحت كُتبه ممنوعةً. لا

شيءٌ من هذا يُشكِّل عائقًا عن مواصلة البعض الإيمان بالإصلاح الذي كان يبتغيه. ربما هو الإصلاح الوحيد المُمْكن. مجمع ترنتو لن يضيف شيئًا مهمًا».

في الصَّباح التَّالي كانت السَّماء مُرصَّعةً ببعض السُّحب البيضاء، وأخذ رلامباجو طريق بيابيخا عبر المنحدرات، بخببٍ واسعٍ. كان ثيبريانو يستمتع بالسُّرعة، وبالرِّياح البادرة على الوجه، بينما يُفكِّرُ في الأخوين كاثايا، وفي حزنهما، ورغبتهما الإصلاحية. الآن يفهم بشكلٍ أفضل شعورَ الفراغ الذي كانت عظات الدُّكتور تبعثه فيه. الإيراسمية كانت تُقتلع من قشتالة، ولهذا كانت قضيَّتها خاسرةً. رغم هذا، قبل عشرين عامًا، كان الأب أرنالدو قد أمرهم بالصَّلاة في الكنيسة من أجل اختفاء الأفكار الإيراسمية. كيف يُمْكن التَّوفيق بين إجاباتٍ شديدة التَّناقض على الظَّاهرة نفسها؟ خَلَّفَ رلامباجو قرية توردسياس، وعندما وصل إلى سيمانكاس اتَّجه إلى الطَّريق الرَّئيسي وعبَرَ الجسر الرُّومانيَّ، على مبعدة فرسخٍ ونصف فرسخ من المدينة.

استقبلته تيو كأنَّها لم ترَه منذ شهرٍ. كان الانفصال الأوَّل، وقد افتقدته. بعد العشاء، اختصر التِّمثال الجامح وقت الحلوى، وأمام دهشة كريسانتا، الخادمة، نام الزَّوجان في العاشرة. بعد قليلٍ بحث التِّمثال الجامح عن (الشَّيء) وعلَّقت بنبرةٍ خبيثةٍ، بينما كان سالثيدو يجتهد في اعتلاء الهضبة المليئة بالتَّضاريس، لحسن الحظِّ أن زوجها لم ينسَه في بدروسا. سمع القهقهة المختنقة المرتعشة الطَّويلة لزوجته، لكن هذا لم يمنع التَّمثال الجامح، بعد مرور بضع لحظاتٍ، من البدء من جديد. اندهش ثيبريانو لشهوتها. يُمْكن القول إن تيو كانت تُواصل المضاجعات باندفاعٍ كأنها تختبر قدرته على التَّحمُّل. وبعد مرَّةٍ رابعةٍ، بعد انتهاء الاستغلال، قام ثيبريانو، المنهَك، بالبحث عن الملجأ في إبطها. في بدروسا افتقد دفئها

واضطرَّ إلى النَّوم بقبّعةٍ على رَأسه. لدى استعادته الآن للملاذ المفقود، كان يشعر بالأمان والسَّعادة رغم أنه لم يستطع فهم موقف تيو.

عندما استيقظ، وجد زوجته منقبضةً، كثيرة الأسئلة، مكروبةً. كانت عثرةً أخرى في زواجه، فيما يبدو تافهةٌ:

- «لماذا لم ننجب ابناً حتَّى الآن يا ثيبريانو؟ مرَّت علينا عشرة أشهر ولم يحدث لي أيُّ شيءٍ».

داعب ثيبريانو خصلات شعرها بلون الماهوجني على قفاها. كان يلفُّها على إصبعه من دون أن يستطيع تهدئتها وقال:

- «أوه، يا عزيزتي، هذه الأمور لا تخضع لمواقيت ثابتةٍ. لا تعتمد على رغبتنا. من جانب آخر، لم نكن نحن آل سالثيدو شديدي الخصوبة مطلقًا. لا يجب أن تفْقدي صبركِ. سيحدث».

تخيَّل أن تيو فكرت في الموضوع:

- «كُلُّ النِّساء ينجبن ابناً عندما يتزوَّجن يا ثيبريانو. لماذا لم تخبرني في الوقت المناسب أن عائلتك تعاني من المشاكل؟ كلَّما أودعت فيَّ بذرتك أفكِّر أن هذه المرَّة ستكون النِّهائية، لكن هذا لا يحدث أبدًا».

كانت تبدو ثائرةً، غاضبةً، لكنه حاول أن يقلِّل من أهمِّيَّة الأمرٌ:

- «لا تقلقي بهذا الشَّأن، يا حبيبتي. آل سالثيدو قليلو التَّناسل. جدي الأكبر لم يكن له سوى ابنٍ واحدٍ. ولجدي ابنان، لكن بينهما مرَّت ثماني سنوات. العم إجناثيو لا عائلة له، وتَذَكَّري أن أمِّي، التي في الأمجاد السَّماوية، قامت خلال خمس سنواتٍ بعلاج عُقمها المفترض. وهل تعتقدين أن العلاج أفادها؟ على الإطلاق. حبلت أمِّي بعد أربع سنوات من هجْر العلاج، عندما أراد الرَّبُّ وعندما كانت قد نسيت هَوَسها. توجد تأثيراتٌ فلكيةٌ، تُحدِّدُ هذه الأمور إلى حدٍّ كبيرٍ. الجسد يحتاج إلى وقتٍ للنُّضج».

- «وكم من الوقت احتاجت أمُّك؟».

- «بالتَّحديد تسعة أعوَّام. ربما يُقاس وقت آل سالثيدو بالسَّنوات بدلًا من الشُّهور. العدد يثير التَّعجُّب».

تردَّدت تيو:

- «أ...ألا يكون الشَّيء مريضًا؟».

- «أنت تعرفين أنه جيِّد الأداء. حدَّثتك من قبْل عن قلَّة خصوبة آل سالثيدو، لكن التَّأخير ربما يكون ناتجًا عنك. الدُّكتور ألمانيرا، النَّابغة في زمنه، كان يقول إن حالتين من كُلِّ ثلاث حالاتٍ، يرجع العقم للنِّساء».

تيو ترجمت نفاد صبرها إلى شهوةٍ جنسيةٍ عشوائيةٍ. من دون شكٍّ كانت تعتقد أن الكثرة تزيد من الاحتمالات. كان ثيبريانو يحاول أن يُفهمها كُلَّ ليلةٍ:

- «يا عزيزتي، الأهم من عدد مرَّات المضاجعة هي حالتك لدى استقبالي. اقبليني مسترخيةً، برضا. لا تنسي أنني في كُلِّ مضاجعةٍ أُدخِل في فرجك مئاتٍ أو آلافًا من البذور التي تبحث عن مكانٍ للإنبات. لكن لا تنسي أن التَّخصيب لا يعتمد على العدد وإنما على الأرض التي تعدِّينها لاستقبالها».

بدا أن تيو أكثر هدوءًا في تلك اللَّحظة، لكن ما بها كان هَوَسًا. لم تكن تُفكِّر في أمرٍ آخر، وكانت تتذرَّع بأيِّ سببٍ لكي تتناول الشيء. كان قد قال لها: الكثير من المشاكل تُحلُّ بالانتظار، أو بنسيانها. وكانت تحاول أن تقوم بهذا. لكن، كان الضِّيق من محاولة التَّخلُّص من الأفكار هو ما يعذِّبها. أسرَّت تيو لزوجها:

- «أحاول باستمرار ألا أفكِّر في هذا الأمر، لكن بهذا الهوس يُمْكنني أن أجنُّ».

- «لماذا لا تمنحيني مهلةً؟ لماذا لا تُقرِّرين الانتظار بضعة أعوام قبْل اتخاذ أيِّ قرارٍ؟ خلال أربعة أعوام سيكون عمرك سبعة وعشرين عامًا، السِّنُّ الأكثر مناسبةً للإنجاب».

صمتت تيو. منحته المهلة ضمنيًا لكن، شيئًا فشيئًا، أخذت تفقد الثِّقة به ومع فقدان الثِّقة تفقد شهوتها الجنسية. تقريبًا لم تعد تبحث عن الشَّيء، وإن قامت بهذا، لم يكن باندفاع الماضي، من دون رغبةٍ. كانت تعرف أن الابن يجب أن يأتي بهذه الطَّريقة لكنها كانت تحاول منذ عامٍ ولم يأتِ. انتبه سالثيدو لإحباط زوجته وحاول إلهاءها بالانشغال في المتجر لكن تيو كانت تشعر بالملل هناك. حينئذ فكَّر أن تيو يُمْكن أن تمضي فترةً طويلةً في لامانجا لمساعدة أبيها مع اقتراب فترة جزِّ الصُّوف. لكن قبل البدء في عملية الجزِّ وصل الخبر: تيليسفورو موثو، الرَّاعي الذي يعمل لدى حميه، يريد تَقَاسُم القطيع. لم يعد الأمرُ متعلِّقًا بمجموعةٍ أكبر إلى حدٍّ ما وإنما اقتسام النِّعاج التي يرعاها بالتَّساوي. سجوندو ثينتينو لم يتردَّد. قام بطرْد تيليسفورو، ثم دخل على بيينيتا، ابنة خيرالدو ألبارران، راعيه في بامبا، وخفَّض مرتبة زوجته الشَّرعية إلى خادمةٍ وعاملةٍ في جزِّ الصُّوف مقابل ستَّة ريالات شهريًا.

أمام خطورة المشكلة، أقامت تيو في لا مانجا. سرعان ما أدركت حنق بيترونيلا، رغم أنها لم تتفوَّه بكلمةٍ، وكانت تسير في البيت طوال اليوم بنظرةٍ زائغةٍ، بينما تأتي بحركاتٍ وإشاراتٍ غاضبةٍ. دون سجوندو كان يعود إلى الموضوع كُلَّ صباحٍ، كان يجبرها على ترتيب فِرَاش العشيقة الذي لا يزال دافئًا، وغسْل الملابس الدَّاخلية لكليهما. وكانت بترونيلا تقضي بقيَّة اليوم في جزِّ الشِّياه. ولَمْ تكن تقول كلمةً. كانت تجلس للجزِّ على مقعدٍ واطئٍ ولا تفتح فمًّها مهما اجتهدت ملكة البارامو في عقد حوارٍ معها. ذات ليلةٍ، خرجت تيو للقيام بجولةٍ، وبين بقعتَي ضوءٍ تخيَّلت أنها رأت

ظِلًا متسلِّلًا لرجلٍ يختبئ بين أشجار البلُّوط. تحدَّثت مع أبيها بجدِّيةٍ: لا يجب أن يُعرِّض نفسه لهذا. يجب أن يُغيِّر موقفه. لا يوجد رجلٌ يقبل طرده من العمل والإهانة المُستمرَّة لابنته بذراعين معقودين. من جانبه، كان خيرالدو ألبارران يتحرَّك الآن في الضَّيعة بحريةٍ كبيرةٍ كأنها مِلْكه. يجتمع من دون سجوندو في الصَّالة، يدخل البيت من الباب الرَّئيسيِّ ويتحدَّثان لوقتٍ طويلٍ كقرينين، رغم أن خيرالدو لم يطلب أيَّ شيءٍ. بعد أن رأى ما حدث لتيليسفورو، ومُتعلِّمًا من فشله، عرف أن التَّعامل بالحسنى مع السَّيِّد ثينتينو أفضل من ليِّ الذِّراع.

وفي هذه الظروف، كان الطُّموح القديم لتيو يخفت. كان انشغالها بأن تصبح أُمًّا أقلَّ من اهتمامها بالحفاظ على أبيها. وعندما يزورها ثيبريانو، مرَّةً كُلَّ أسبوعٍ، كانت لديها فرصةٌ للحياة معه كما في الأوقات الجميلة: التَّنزُّه في الجبل، بينما حمام الغاب يطير فوق شجر البلُّوط بمعدته الممتلئةً بثمارها، أو يريان ديك الغاب الذي يسير على الأرض الخالية من الأشجار في الغابة. كان ثيبريانو مؤمنًا بعلاج الإلهاء، وكان واثقًا من عودة تيو لحياتها الطبيعية وأنها ستمنحه مهلةً معقولةً قبل أن تحْكُم على الزِّيجة بالفشل. لكنه لم يكن ينام جيدًا. عندما منعت عنه تيو الملاذ في إبطها، أصبحت رَأسه يصاب بالبرد، وأثناء نومه ليلًا يفقد السَّيطرة عليها، وعندما يستيقظ يجد عنقه متيبسًا. عاد ليصبح الطِّفل المُفتقِد للحماية الذي كانه. واستخدم طاقيةً، وقبَّعاتٍ وحتَّى قلنسوات مُبطَّنة بالجلد، كبدائلٍ. في الوقت ذاته عمل على ملء غياب تيو الطَّويل بزياراتٍ متواترةٍ إلى عمِّه. دونيا جابريلا، شديدة الرِّضا عن حالتها كزوجةٍ من دون نسلٍ، ولَمْ تكن تفهم موقف زوجة ثيبريانو. توجد أمورٌ أخرى في الحياة، مؤسَّسات رعاية، مرضى، أطفالٌ جوعى، مراكز خيرية، كانت تقول. السَّعي بأيِّ ثمنٍ خلف طفلٍ من دمائنا، لكي نضع فيه عواطفنا كان سلوكًا أنانيًا. وفي الحقيقة، كان ثيبريانو

يتَّفق معها، لكنه يتفهَّم أن تكون الرَّغبة في الإنجاب هي أقصى طموحٍ لكلِّ امرأةٍ في هذا العالم.

ذات صباح، قبل الذِّهاب إلى الحيِّ اليهوديِّ، وصل بريدٌ عاجلٌ من بينيافلور، أنبأه أن حميه، دون سجوندو، تعرَّض للاغتيال. تمَّ قطْع عنقه بمنجلٍ. تيلسفورو موثو، القاتل، سلَّم نفسه للسُّلطات في بلد الوليد، ولدى سؤاله عن أسبَّاب الجريمة، قال «لقد رمى بي في الشَّارع مثل كلبٍ، وأهان مكانة ابنتي. كان شخصًا لا يستحقُّ الحياة».

غادر ثيبريانو إلى لامانجا من دون تأخيرٍ. تَوَفَّر له وقتٌ لدفن حميه في بهو كنيسة بينيافلور والتَّكفُّل بالأوراق التي كان دون سجوندو يحتفظ بها في المكتب. بيترونيلا، المفزوعة، هربت من البيت؛ على العكس حضر خيرالدو ألبارران مُطالبًا بحصَّته، ليس لأن القانون في صفِّه، وإنما لأن لديه شهود بأن دون سجوندو اتَّخذ ابنته محظيةً من دون موافقته. أبدت تيو ثباتًا مثيرًا للإعجاب. انتهى جزُّ الصُّوف وهذا كان يخفِّف عنها. من جانبٍ آخر، بدا لها موت أبيها العنيف فظيعًا، لكنها لم تعانِ، وهو عزاءٌ في حدِّ ذاته.

توقَّع ثيبريانو تعقيداتٍ كثيرةً، وجهدًا كبيرًا حتَّى ينتهي من حلِّ كُلِّ ذلك. لكن عمَّه إجناثيو، كما هي العادة، جعل الأمر أكثر بساطةً. وصيَّة السَّيِّد ثينتينو كانت واضحةً. تيو كانت الوريثة الوحيدة، وبيترونيلا لها حقُّ الانتفاع بحقلٍ صغيرٍ، وتبقى مُستأجرة للبيت أثناء استمرار فترة الإيجار. بينيتا، المحظية، عادت مع أبيها إلى بامبا، وتكفَّل إستاثيو ديل باييه، الوكيل الوفيُّ في بيانوبلا، بحلِّ مشكلة الرُّعاة لأن قطعان دون سجوندو، كما قال ثيبريانو سالثيدو في رسالته، أصبحت من أملاك حرمه تيودوميرا ثينتينو.

X

فقدت تيو بعض الأرطال أثناء الحداد، الذي كان صارمًا وشديد الوقار، وهو ما دفعها لوضع عقدٍ من اللُّؤلؤ الأسود على صدرها، وكان مُتناقضًا مع شحوب جلدها. ثيبريانو أيضًا انكفأ على ذاته، مُتَّشحًا بمئزرٍ أسود من دون أكمامٍ، حسب الموضة، بعنقٍ طويلٍ يغطي نصف رقبته، وفوقه يظهر طرف القميص المرتفع. لكن الحداد لم يُصلِح علاقة الزَّوجين. عادت تيو لإصرارها على الأمومة، لكن ثيبريانو ألحَّ عليها أن تمنحه مهلةً وتتحلَّى بالحكمة قليلًا. وفي جهده ليعطي لها مبرراتٍ، ذكَّرها أن أبيه كان يكبُرُ عمَّه إجناثيو بثمانية أعوامٍ، ويجب تخيُّل أن الجدَّين حافظا على إيقاع العلاقات الحميمية بين ميلادهما. ورغم هذا، مُقتنعًا بأن كُلَّ هذا من دون فائدةٍ، زار الدُّكتور جالاتشي بمفرده. كان يُفضِّل أن يزور الذي ساعده على القدوم لهذا العالم، الدُّكتور ألمانيرا، لكن هذا كان قد توفي قبل أحد عشر عامًا. أخضعه الدُّكتور جالاتشي للفحص، وقَالَ له إن كُلَّ شيءٍ على أكمل وجهٍ، إنه سليمٌ، ولإثراء السَّائل المنويِّ يجب أن يتناول منقوعًا من زهرة رعي الحمام وزهرة العسل بعد تناول الطَّعام. ردَّ سالثيدو أنه يشعر بالقوَّة جسديًا، وأنه لا يعتقد أن العقم من جانبه. في تلك اللَّحظة وجَّه له الدُّكتور جالاتشي السُّؤال المخيف:

- «لماذا لا تأتِ بزوجتكم. إلى حدٍّ كبير النِّساء هن المُتسبِّبات في عدم الإنجاب».

أسَرَّ له سالثيدو أنها ليست مستعدَّةً لمثل هذه الزِّيارة، وأنه لا يستبعد، مع مرور الوقت أن تُقرِّر زيارته. لم يقل ثيبريانو سالثيدو شيئًا لزوجته عن استشارته للدُّكتور جالاتشي، وبالطَّبع لم يتناول العلاج الذي نصح به.

في الصَّباح التَّالي ذهب إلى بدروسا. كان يومًا هادئًا، بسحب بيضاء ودرجات حرارةٍ عاليةٍ. خفَّة ثيبريانو، وسرعة الجواد، ومتاهة الاختصارات والطُّرق الصَّغيرة التي وصل إلى معرفتها، سمحت له بالوصول إلى بدروسا في أكثر من ساعتين بقليل. بدأ الرِّحلة بالالتفاف حول التِّلال، ثم دخل في طريق خيريا ومن هناك، في طريقٍ مستقيمٍ، بين حقول العنب، مرَّ على بيابيبخا، وبيالار، ثم دخل بدروسا عبر حقول الشَّعير، من دون أن يحيد عن طريقه. فوق بعض الأقفاص، على بابٍ، يجلس رجلٌ وكلبٌ من صائدي الفئران، كان ينبح عليه أثناء مروره فوق الجواد. في بعض الأحيان كان بعض الأطفال يحيُّونه بأيديهم أيضًا.

نَزَلَ في خان ابنة باروكيه، وذهب من دون تأخيرٍ لزيارة مستأجره. منذ أيَّامٍ وصل إلى فكرةٍ لامعة: اقتلاع العنب من حقل بيابينديمو وزرع أشجار صنوبر بدلًا منها. بالفعل لم يجرؤ أحدٌ على زرْع أشجار صنوبر على الضَّفَّة اليمنى لنهر دويرو، لكن طبيعة الأرض الهشَّة والرَّملية، كانت تطالب بهذا صارخةً. مارتين مارتين، بالإضافة إلى هذا، كان خبيرًا في هذا النَّوع من الأشجار، الصّنوبر الثَّمريّ، لعمله مع عمه في تلال أولميدو وكان يعرف احتياجاته، وأيضًا تقلُّبات أسعار ثماره في السُّوق. قال له:

- «ميزة الصّنوبر على البذور أنه يُحدِّد المحصول قبل عامين».

استفسر ثيبريانو:

- «يُحدِّد المحصول؟ الصّنوبر؟».

- «هو ما تسمعه، نعم يا سيِّدي؛ اليوم يمكنك أن تجمع ثمار الصّنوبر، لكن على الشَّجر ستتبقَّى ثمار العام القادم، التي لم تنضج بعد».

أشار لنصف عقلة إصبع وأضاف:

- «وشيءٌ كهذا، ما إن تراه ستعرف أنها ثمار العام الذي يليه».

شعر ثيبريانو سالثيدو بالسَّعادة لمبادرته، وتعهَّد مارتين مارتين بالاتِّفاق مع مجموعةٍ من الأجراء لاقتلاع العنب من حقول بيابيينديميو. أمام كاثايا، تباهى ثيبريانو بكونه مالك أراضٍ خبيرًا. كان قد فكَّر في الأمر كثيرًا، فبعد أن ضمَّها لأراضيه، لم يكن يستطيع أن يترك هذه الأرض جدباء، سيزرعها بالصُّنوبر الذي يثمر، ويُحدِّد مُسبقًا المحصولَيْن التَّاليَيْن. أي أنه النبات الوحيد الذي لا يُمْكن توقُّع مفاجآتٌ منه. من جانبه دعاه بدرو كاثايا لصيد الحجل في اليوم التَّالي في منطقة جبل لاجاياريتا. انفجر ثيبريانو في الضَّحك.

- «من دون شكٍّ، أنت أكثر إثارةً للدهشة من الصّنوبر الثَّمريّ يا أبتِ».

فاجأهما أوَّل ضوءٍ في ملَّاحات ثنجال، على مبعدة أكثر من فرسخٍ عن كاسولا. كان كاثايا يحمل بندقيةً قصيرةً على كتفه، وفي اليد اليمنى قفص الحجل مُغطًّى بزيٍّ كاهنٍ قديم. لم تكد الشَّمس تشرق حتَّى كانا في المخبأ، شجرةٌ كبيرةٌ مجوّفةٌ بفتحةٍ في المقدمة لإطلاق النَّار. وضع كاثايا أربعة أحجارٍ وفوقها القفص عاريًا، وبعد ذلك دخل المخبأ وجلس على جذعٍ صغيرٍ، بجانب ثيبريانو. كان اليوم يبدأ، بينما يطلق الذَّكر أولى صيحات اليوم. أطلعه بدرو كاثايا باعتزازٍ على سلاحه، البندقية التي اشتراها من صانع السِّلاح خوان إيبانيث ميديريا من مدينة بيثكايا، ويزيد

طولها على القصبة بقليلٍ. كاثايا ذاته، الماهر في الأعمال اليدوية، قام بصقْل المقبض المصنوع من خشب الجوز وإضافة الأنبوب الحديديِّ في الطَّرف الآخر. يتم شحن السِّلاح عبْر الفوّهة، بِدسِّ البارود بِعصا ووضْع حفنة من الكريات المعدنية فوقه. أطلعه كاثايا على الكريات المصنوعة من الرُّصاص، التي يرسلها له بعض الأصدقاء من ألمانيا. وعندما شرح له نظام إطلاق النَّار بثَّ فيه حماسًا صبيانيًا. كان الأمر يتعلَّق بلولبٍ، على شكل حرف S ، في طرفه العلويِّ يُوضع الفتيل الذي يقوم مقَام القادح، بينما يستخدم الطرف السُّفليَّ كزنادٍ. عندما يتم ضغطه ينزل الفتيل على ثقب الأنبوب، وعندما يلمس البارود يُسبِّب الانفجار، لكن الصَّيَّاد يجب أن يتابع الفريسة عبر حلقة النَّظر خلال أربع أو خمس ثوان، حتَّى يتم الانفجار، إن كان يرغب في إصابتها.

كان الضَّوء ينتشر والحجل يملأ الخلاء بغنائه الحادِّ المؤثِّر. ومن جانب الجبل صدرت إجابةٌ بعيدةٌ:

- «هل تسمع؟ طيور الغابة تردُّ؟».

- «وهل ستأتي لتحرير السَّجين؟».

ابتسم كاثايا تلك الابتسامة المتسامحة، من الخبير للمبتدئ. وقال:

- «لا يتعلَّق الأمر بالتَّحرير. الطُّيور في حالة هياجٍ. ويلبِّي الذَّكر نداءَ الآخر ليتنازعه الأنثى. يأتي للصراع. أحيانًا يأتي بمفرده وأحيانًا يأتي برفيقته لتكون شاهدةً على بطولته».

كانت طيور الغابة تردُّ بقوَّةٍ متزايدةٍ، ومدَّ ذَكَر الحجل المحبوس داخل القفص عنقَه، ونشر غناءه عبْر عالم البارامو الفسيح. بحذرٍ أخرج كاثايا فوَّهة بندقيته من المخبأ ونبَّه سالثيدو:

- «التزمْ الصَّمت».

غيَّر ذَكَر الحجل من نبرته، استبدل الغناء الحادُّ الأوليُّ بصوتٍ متردِّدٍ، متلعثمٌ وحميميٌّ.

- «حذارِ، إنه يردُّ».

انتصب سالثيدو في مقعده حتَّى رأى ذَكَر الحجل المحبوس. كان يدور حول نفسه بينما ينقر الأسلاك بلا توقُّف عن النقنقة. بينما كان الحجل الآخر، تحت الأحجار، ينقنق بنبرةٍ خفيضةٍ. همس كاثايا وهو يُثبِّت كعب البندقية على كتفه:

- «ها هو السَّاذج. هل تراه؟».

أحنى سالثيدو رَأسه موافقةً. كان الحجل الحُرُّ يرفع عنقه وينظر إلى القفص بحنقٍ. أضاف القس:

- «الأنثى قادمةٌ خلفه».

نظر سالثيدو من الثُّقب، وبالفعل كان حجلٌ أصغر حجمًا يتبع الأوَّل. ضغط كاثايا بخده على السِّلاح وصوَّب على أكبرها حجمًا. كان على مبعدة عشرين ياردة، بجانب الأحجار، وفتح جناحيه قليلًا بتحدٍ. ضغط كاثايا على الجزء السُّفليِّ من اللَّولب، وبعصبيةٍ تابع خطوات الذَّكر عبر حلقة النَّظر، حتَّى أفزعه الانفجار. عندما انقشع الدُّخان، رأى سالثيدو الحجل يحرِّك جناحيه بعجزٍ على الأرض، بينما ثلاث ريشات مائلةٍ للزُّرقة ترتفع في الهواء والأنثى تبتعد بهدوءٍ عن مكان المأساة. وضع كاثايا كعب بندقيته على الأرض. وابتسم:

- «كُلُّ شيءٍ على ما يرام، ألا تعتقد؟».

زمَّ سالثيدو شفتيه في ضيقٍ. لم يكن موافقًا على الكمين، هذا الانتظار الغادر، تدخُّل صديقه في الحياة العاطفية للطيور. لكن ببرودٍ، كان كاثايا يضع البارود مُجدَّدًا بالمدكِّ داخل الأنبوب. قال:

- «ألم يعجبك هذا؟ إنها طريقة نظيفةٌ للصَّيد، علميةٌ تقريباً».

نفى سالثيدو بحركة من رأسه:

- «لا يبدو لي التَّلاعب بالحبِّ أمرًا شريفًا. لماذا أطلقت عليه النَّار؟».

هزَّ كاثايا كتفيه. عبْر الفتحة كان الحجل الحبيس يتباهى بإنجازه، نافشًا ريشه. قال كاثايا:

- «لَمْ يكن لديَّ مفرٌ. إن لم أطلق النَّار عليه، سيُثبَّط الحجل ولن يعود للغناء. الموت ضروريٌّ لكي يواصل غواية الطُّلقاء».

ساد الصَّمت من جديدٍ. عبْر الفتحة ينكشف الباراموا مليئًا بالضَّوء. كومةٌ من الأحجار ترتفع على اليمين وتصنع ظلًّا أسود صغيرًا. العشب كثيفٌ وطريٌّ وقال سالثيدو لنفسه إن قطيعًا جيِّدًا في بدروسا لن يفيض على الحاجة. سيتحدَّث مع مارتين مارتين. هنا أيضًا، مثلما في لا مانجا، تكثُر الأحجار في الأماكن غير المستغلَّة. فضَّ كاثايا لفافةً صغيرةً وقدَّم كعكةً إلى سالثيدو. أعدَّتها أخته بياتريث. بدا التَّعافي على ذَكَر القفص. وبعد أن نسي منافسه عاد للانتصاب واستدعاء طيور الغابة. تكرَّر المشهد الأوَّل بعد نصف ساعةٍ، لكن الآن أتى ذَكَرٌ فقط، ذَكَرٌ أرملٌ أو أعزبٌ، من دون رفيقةٍ. كاثايا، المتوتِّر لتأخُّر السِّلاح في العمل، أخطأ التَّصويب عندما كان الطَّائر ينقضُّ على القفص. على عكس ما كان سالثيدو ينتظر، لم يغضب بدرو كاثايا. البندقية، بقادح من الفتيل، كانت سلاحًا غادرًا، كما أوضح بهدوءٍ. لكن صديقه، خوان إيبانيث، لم يكن يصنع نوعًا من البنادق أفضل من هذا.

وصل إليهم نحيب العقعق، وصفير القبَّرة، والنَّعيب الخشن للغراب. كان الجوُّ حارًّا داخل المخبأ. دار الحجل حول نفسه، ومن آنٍ لآخرٍ، كان يُصدِر غناءً متقطعًا منطفئًا، يفتقد إلى القوَّة السَّابقة. هو ذاته شعر بالاندهاش

لأن طيور الغابة قامت بالرَّدِّ عليه. وعُقِدَ حوارٌ خافتٌ بين الطائرين، من دون أن يتركا وقفاتٍ بين غنائهما. رغم ردِّه الواهن، يُفكِّر المرء في ذَكَرٍ مُتَّقِدٍ، لأن اقترابه من القفص كان أسرع من الذكَرَين السَّابقين. دخل إلى السَّاحة تتبعه أنثى تتدلل. الغناء الحميميُّ للحجل الحبيس رُدَّ بهجومٍ عنيفٍ بالجناحين نصف المفتوحين. صرعه بدرو كاتايا بطلقةٍ صائبةٍ، على مبعدة ياردتين من القفص. ومن جديد، احتفى الحجل بانتصاره صائحًا بينما يمد عنقه إلى أقصى حدٍّ. نهض كاتايا من الجذع مُبتسمًا. كان النَّهار قد انتصف، وحانت ساعة العودة. علَّق الحجلين بخطّافٍ وغطى القفص بالرِّداء القديم عندما بدأ الذَّكر في الهياج. كان ينظر إلى السلاح بفضولٍ وريبةٍ، لكن كاتايا، الذي لم يكن يرتدي رداء الكاهن وإنما سروالٌ بأزرارٍ، قَالَ مُصِرًّا:

– «البندقية سلاحٌ لم يصل لكماله. صديقي خوان إيبانيث سيصنع شيئًا أفضل ذات يومٍ».

كانت الشَّمس متعامدةً على الطَّريق وشعَر ثيبريانو على جبهته بالسخونة الرَّطبة للقبَّعة. عندما رأى كاتايا ملاحات ثنجال اقترب من أوَّلها، جلس على الشَّاطئ، خلع نعليه وأَدخل قدميه في الماء. بينما كان ثيبريانو يقلِّده، طار فوق الغاب زوجين من البطِّ البريِّ. قال كاتايا:

– «لا يغيب أبدًا. دائمًا يمرح هنا».

– «أليس في فترة تزاوجٍ؟».

– «الوقت متأخِّرٌ على هذا. البطُّ البريُّ يُبكِّر بهذا، لديه شبقٌ مُبكرٌ».

انكسر الغاب تحت خطواتهما، وشعَر ثيبريانو بمتعةٍ عجيبةٍ عندما لاحظ تسرُّب الطمي بين أصابع قدميه. فجأة لمح علجومًا (ضفدع طين) ضخمًا يسبح بين أوراق البوط. كان يسبح ببطءٍ، من دون إثارة الماء،

بعينين منتفختين، باردتين وغير مكترثتين، ناظرتين إلى نقطةٍ ثابتةٍ. أشار لكاثايا على الحيوان المقزِّز. قال هذا بفضولٍ:

- «إنها أنثى العلجوم. إنهما يتناكحان. هل انتبهت لهذا؟».

عندما سمعه سالثيدو اكتشف الذَّكَر. علجومٌ ضئيلٌ وهادئٌ فوق الظَّهر العريض للأنثى. تَحَرَّك شيءٌ في معدته. شعر بخوار قواه، وبعد ذلك بالغثيان. نظر إلى الحيوانين الملتصقين لكنه لم يكن يراهما. كان يرى سفينةً بوجه وثديٍّ تيو كتمثالٍ في المقدِّمة. وهو يقوم بالتَّجديف بمفرده في المؤخِّرة. شعَر باشمئزازٌ خانقٌ للغاية حتَّى أنه خرج مسرعًا من الماء وقبل أن يصل للطريق كان يتقيأ. ذهب كاثايا خلفه:

- «هل تشعر بالإعياء؟ إنك شاحب اللَّون».

قال سالثيدو:

- «هذه الكائنات، هذه الكائنات».

ردَّ كاثايا ضاحكًا:

- «هل تقصد العلجوم؟ الأنثى أكبر من الذَّكَر عشر مَرَّات. أمرٌ عجيبٌ، أليس كذلك؟ الذَّكَر ليس سوى قنينةٍ صغيرةٍ، جرابٌ من المنيّ».

- «أصمت يا أبتِ، أرجوك».

لَمْ تبرح الصَّورة القذرة رَأسه رغم تعذيبه لرملامباجو بالمهمازين، كأن المنظر القبيح له علاقة بالسُّرعة. تيو- أنثى العلجوم التي تترك ثيبريانو- ذَكَر العلجوم يعتليها، وبعد أن يمتلكها، يسبح فوقها في البحيرة الكبيرة، كان مشهدًا يعود لإصابته بالغثيان. هل سيمتلك الشَّجاعة لامتلاك تيو مُجدَّدًا؟

استقبلته ملكة البارامو بمظاهر بهجةٍ مبالغٍ بها:

- «أوه، ها أنت هنا يا صغيري. يا إلهي، فكرت أنك لن تعود أبدًا.

كنت أرى أنني وحيدة يا ثيبريانو وأقول لنفسي: لا يُمْكنني إنجاب ابنٍ بمفردي، أجتاج لـ«شيء» زوجي».

لكن ثيبريانو لم يحاول الاقتراب منها ليلًا. ولم تبحث تيو عن (الشَّيء)، كأنها شعرت بالتَّغيُّر. وفي اللَّيلة التَّالية تكرَّر الموقف. كُلٌّ منهما انتظر مبادرة الآخر عبثًا. لكن، بالنِّسبة لثيبريانو، كانت صورة أنثى العلجوم السَّابحة في ملاحات ثنجال هي ما تمنعه. طال انتظار تيو أسبوعًا من دون طائلٍ. لا يزال ثيبريانو يرى فيها أنثى العلجوم المُتسلِّطة، النَّزقة، المُحبَّة للتَّملُّك. وبقيَّةُ المشهد تثير تقزُّزه أكثر: موقف الخنوع، الذُّلُّ، طاعة العلجوم الضَّئيل، الفحل الجاثم على ظهرها. جرابٌ من المَني، كما قال كاثايا. لم يكن ثيبريانو زاهدًا في الرَّغبات الشَّهوانية مطلقًا كما في تلك الأيَّام. مجرَّد فكرة الاقتراب من خصر زوجته كان يصيبه بالغثيان. وانتهى الأمر بغضب تيو، والشُّعور بضيقٍ مُفرطٍ، مقدمةٌ لنوبة هيستيريا. زوجها لم يكن راغبًا في ابنٍ، لا يريد إنجابه. حتَّى إنه كان يمنع عنها (شيئه)، وهي بمفردها لم تكن قادرةً على التَّخصيب. (الشَّيء) عنصرٌ لا غنى عنه من أجل الإنجاب، لكن لم يعد بالإمكان الاعتماد عليه. قام زوجها بإخفائه كأنما بفعل سحرٍ. كانت تبكي مُستندةً عليه، في ملابس حدادها، التي لا تُشجِّع على تغيير الحالة النَّفسية لثيبريانو. لكن كلَّما قام هذا بعناقها من دون ضمِّها، عاد ليرى فيها أنثى العلجوم، الضَّخمة، المُهيمنة، التي تسبح في الملّاحة، داعية إياه لتخصيبها. كانت الأمور تسير من سيِّئٍ إلى أسوأ، ولم يعد ثيبريانو يستطيع الخروج من البيت. كانت تيو تصرخ وتصيح من دون سببٍ، لم تعد تأكل، لم تعد تنام، حتَّى عرض عليها ثيبريانو ذات يوم أن يقوما بزيارة الدُّكتور جالاتشي، أشهر أطباء المدينة في تلك اللَّحظة، لكَي يعرضا عليه المشكلة. لم يخفِ عن تيو زيارته السَّابقة، الرَّأيُ الإيجابيُّ للدكتور حول قدرته على الإنجاب، واهتمامه برؤيتها.

وجد ثيبريانو جالاتشي في غاية الوقار والتَّفهُّم كما في المرَّة الأولى، ملابسه مخملية فاخرةٌ، يداه معتنى بهما جيدًا، من دون حلي. فكَّر أن أبويه قاما بزيارةٍ مماثلةٍ قبل أربعين عامًا، من دون جدوى. وأنه ولد تحديدًا بعد أربعة أعوام من توقُّف أمِّه، دونيا كاتالينا، عن العلاج. كان على وشك أن يذكر هذا، لكنه صمت. من دون شكٍّ كانت حماقته ستقضي على التَّفاؤل الوليد لدى زوجته. أخفى إذن تلك التَّفصيلة في المعلومات عن تاريخه العائليِّ: مُعدَّل الخصوبة الضَّعيف لدى آل سالثيدو. كان الدُّكتور جالاتشي يسمعه باهتمامٍ شديدٍ. وقَالَ في النِّهاية:

- «فلتسمح لي؛ سوف أفحص زوجتك».

تمدَّدت تيو على الطاولة. وخلال بضع دقائق هيمن الصَّمت على العيادة، حتَّى اعتدل جالاتشي وقال:

- «لا يوجد شيءٌ غير طبيعيّ. جهاز الإنجاب لدى زوجتك سليمٌ، قابلٌ للحبل».

جلس مع الاثنين في الغُرفة ذات الطاولة والمقاعد البيضاء، وقال:

- «سوف أكون صريحًا معكما. أجدادنا، أمام حالةٍ كهذه، حيث يبدو أن الطَّرفين صالحان للإنجاب، كانوا سيلجأون إلى اختباراتٍ خرافيةٍ، نعرف اليوم أنها لا تفيد في أيِّ شيءٍ، مثل اختبار الثُّوم. لكنني أعرف أن مريضتي ليست عاقرًا، من دون الحاجة لوضع فصِّ ثُومٍ في فرج هذه السَّيِّدة، لأنه لا يوجد أيُّ اتصالٍ بين المهبل والفم. فلنذهب لما هو مفيدٌ إذن».

شعر ثيبريانو سالثيدو بالقلق:

- «هل تعتقد أننا يُمْكن أن ننجح؟».

عقد الدُّكتور أصابع يديه العاريتين من الحلي:

- «لقد لجأتما لي لأن لديكما أملًا. وسوف أحاول مساعدتكما في حلِّ المشكلة. في المقَام الأوَّل، فإن ماضي عائلة سالثيدو له دلالةٌ كبيرةٌ: الذكور ليسوا مفرطي الخصوبة، لكنهم ليسوا عاقرين، إنهم يحتاجون للوقت. توجد زيجاتٌ تحتاج لتسعة أشهر للإنجاب، لكن آل سالثيدو ليسوا ضمن هذه الفئة. هؤلاء السَّادة احتاجوا ستًّا وأحيانًا تسع سنواتٍ للإنجاب. تناسلهم البطيء جزءٌ من طبيعتهم. في ما يتعلق بحضرتكِ، يجب أن تتحلّي بالهدوء يا سيِّدتي: عيشي حياتك، انشغلي، لا تُفكِّري وأؤكد لكِ أنه بعد تمام زمن الإنجاب لدى عائلة سالثيدو فسوف تحبلين. أعدكِ بهذا فقط إن استطعتِ الانتظار، إن استقبلتِ زوجكِ بحماسة وأملٍ في الحبل. لم تحبل أيُّ امرأةٍ، حسبما أعرف، بالتَّأوُّهات والصُّراخ. ابذلي جهدًا».

نهض الدُّكتور جالاتشي. وكَتَبَ بسرعةٍ بعض الكلمات الغامضة في وصفته. أضاف:

- «ذكور عائلة سالثيدو يعانون من خاصِّيَّةٍ، نطلق عليها نحن أطباء اليوم «السَّائل المنويُّ الكسول». في مواجهة هذا، فإن أفضل علاجٍ هو الصَّبر. عدم التَّعجُّل، الانتظار حتَّى تمام المدَّة. لكن، ربما، سوف أساعدكما. يجب أن يتناول السَّيِّد سالثيدو في كُلِّ ليلةٍ مزيجًا من بلورات الفضَّة والحديد لزيادة السَّائل المنويِّ. في ما يتعلق بكِ، يا سيدتي، سوف تُسدين لي هذا المعروف، أعدِّي نفسك للامتناع عن الجنس طوال أربعة أيَّام متتاليةٍ كُلَّ شهرٍ، وفي ليلة اليوم الخامس، في ساعةٍ مماثلةٍ للنكاح، بدلًا منه، اشربي عصيرًا ساخنًا من القصعين (المريمية) والملح. إنها أفضل طريقةٍ لإعداد الجسم للحبل».

خرجت تيو من العيادة متجدِّدةً. نصيحة الدُّكتور قضت على هواجسها تمامًا. مرَّ عامٌ ونصف عام على موت أبيها. وعندما وصلت البيت علقت

شريطًا أبيض على صدرها. بدا قليل الشَّأن، لكن هذا الشَّريط الصَّغير خَفَّف من حدادها، جعله أقل صرامةً ونفورًا، ورفع من روحها المعنوية. بعد ذلك، خلال الأيَّام التي تلت الزِّيارة، عملت تيو على تنفيذ نصائح الدُّكتور بدقَّةٍ. كانت تحمل خليط بلورات الفضَّة والحديد لثيبريانو. وبانتظامٍ، كانت تَقُوم بتعليق العلاقات الجسدية خلال أربعة أيامٍ كلَّ شهرٍ، وفي الخامس تتناول عصيرًا ساخنًا من القصعين والملح. ثيبريانو، الذي أمكنه التَّخلُّص من الصُّورة الكئيبة لأنثى العلجوم الهائجة، لم يعد شخصًا عاطلًا جنسيًا، بل كان يشعر بالرَّغبة خلال أيَّام الامتناع.

- «هل أنت مجنون؟ ألا تتذكَّر وصايا جالاتشي؟».

كان تدير ظهرها له، ويظلُّ بمفرده فاقدًا للأمان، مثل كُلِّ ليلةٍ. لا زالت تيو تحرمه من الملاذ الدَّافئ لإبطها لكي ينام واستبدله ثيبريانو بوسادةٍ مطويةٍ، حيث كان يضع رَأسه بين طيتيها. اعتاد على الوضع الجديد. الآن أصبحا ينامان كُلٌّ منهما ظهره للآخر. وكلما دارت تيو نصف دورةٍ تزيح عنه الغطاء فيبرُد ثيبريانو. لكنه كان يرى أن كُلَّ شيءٍ يهون بعد أن وجد زوجته تعود للحياة الطبيعية.

وإن كان هذا قليلًا، قرَّرت تيو الانغماس في حياةٍ أكثر نشاطًا. كانت تنزل مبكرةً إلى المتجر وتساعد إلفيرا إيستبان في طاولة البيع. كان الخريف يقترب، وبلد الوليد تستعدُّ لمواجهة شتاء الهضبة القاسي باقتناء المعاطف والصداريات المُبطَّنة. كان من المدهش ملاحظة كيف أصبحت الصداريات المبطنة ملبسًا لا غنى عنه في قشتالة بعد انتهاء الانبهار بالاختراع الجديد. في اللَّيل، كانت تيو تقدِّم تقريرًا لثيبريانو عمَّا حدث خلال اليوم وعن حساب الخزنة. بهذه الطَّريقة، كانت تيو تعتاد على النَّشاط التّجاريِّ وتتمكن من التَّدوين.

أعاد السَّلام المنزليُّ لثيبريانو حريَّته، وبعد شهرٍ، مع انتصاف سبتمبر، حضر عظةً جديدةً للدُّكتور كاثايا حول الأنانيَّة الكاثوليكية، في مقابل التَّضحية الكاملة للمسيح بخضوعه للتعذيب. كان الدُّكتور شديد القسوةِ في ذلك المساء. تحدَّث عن فضائح الأديرة التي يوجد فيها خدمٌ، وعن رؤساء الأديرة الذين يعتقدون أنهم من السَّادة، وعن الأساقفة المُستسلمين للنَّهم والشَّهوة الجنسية. أخيرًا أصبح كاثايا مباشرًا، بدل التلميح. بين الحضور انتشرت غمغمة اعتراضٍ وعدم تصديقٍ، لكن في تلك اللَّحظة، وعن حكمةٍ وحصافةٍ، ذَكَرَ الدُّكتور ثيسنيروس[1]، كاهن الاعتراف للملكة الكاثوليكية، الرَّجل الذي اعترض ذات يومٍ على هذا الإفراط، وقال: «بسلوكه يجب أن نحتذي نحن المؤمنون».

مرَّ ثيبريانو على بيت عمِّه إجناثيو وطلب منه نسخةً من «دليل الفارس المسيحيِّ». كان يشكُّ أن الدُّكتور لم يذكر إيراسموس عمدًا وبدلًا منه استخدم اسم ثيسنيروس كسِتارٍ، ببساطةٍ لأن الشَّعب لديه ذكرى طيبةٌ عن الأخير. فتح الكتاب بعد العشاء وقرأه مجتهدًا في اعتصار كُلِّ سطرٍ. عندما كان ضوء القنديل يخبو أغلقه ثيبريانو، وقد انتهى منه. انتابه شعورٌ بالانقباض. كان واعيًا بضحالة تكوينه الفكريِّ للدخول في نقاشٍ حول النِّقاط الجوهرية في العمل: فعالية التَّعميد، الاعتراف المنطوق أو التَّأمُّل الحرِّ. لكنه كان يشعر بالقلقِ المبدئيِّ للمتمرد، والاضطراب، والحاجة لتوجيه أسئلةٍ. نام مُحمَّلًا بالشُّكوك، قلقًا، عارفًا بوجود عالمٍ آخر مختلفٍ عن ذلك الذي يوجد فيه، وربما كان عليه أن يعرفه.

---

(1) Francisco Jiménez de Cisneros

فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس 1436-1517 كاردينال إسباني. كان كاهن اعتراف ومستشارًا للملكة إيزابيل بدءا من 1492. قَام بإصلاحات عديدة في النظام الكهنوتي الإسباني. كما كان وراء الحملة الإسبانية لاحتلال مدينة وهران الجزائرية عام 1508، في محاولة تبشيرية وتوسعية بعد سقوط مملكة غرناطة 1492

في الصَّباح الباكر رحل إلى بدروسا. ترك تيو في رعاية العمَّة جابريلا. كانت تقوم بمرافقتها أثناء غيابه. منذ عدَّة ليالٍ كان يُفكِّر في بدرو كاثايا. والآن، لافتقاده لمرشدٍ روحيّ، قال لنفسه إنه ربما يمكنه الاضطلاع بتلك المهمة. كان ينفر من المرشدين المُتساهلين المُحبِّين للأسرار والاعترافات، وبدرو كاثايا بدا له شخصًا قويًا ومُتفتِّحًا، فلم يكن بحاجةٍ لأن يطلب منه تَولِّي قيادته.

للمرة الأولى أخذا طريق بيالار، بين الأعشاب الجافة المسحوقة واللَّانهائية. ما ينقص هنا، في هذا المنظر، حقول الكرمة بأشكالها الهندسية. سأل ثيبريانو نفسه إن كان لدى القسِّ ردّ مناسب لكل موقفٍ. في تلك اللَّحظة كان تدهور الأعشاب، وجفافها، يناسبان هواجسه في ذلك الوقت. اعترف سالثيدو للقسِّ أنه قرأ «تعاليم الفارس المسيحيِّ»، بعد الاستماع للعظة الحادَّة من شقيقه ضدَّ تجاوزات رجال الدِّين.

– «هل قاد أمرٌ للآخر؟».

– «شيءٌ كهذا. كنت أريد أن أعرف على ماذا اعتمد؟».

– «وهل عثرت على المصدر؟».

– «شقيقك يا أبتِ استخدم ثيسنيروس كسِتارٍ، لكنه في الحقيقة كان كلامه متشبِّعًا بإيراسموس. الأمر كان واضحًا. على الأرجح فعل هذا لإسكات غمغمات اعتراض الحضور».

نظر بدرو كاثايا بفضول لوجهه المنطفئ:

– «وأيُّ انطباعٍ سبَّبته قراءة «تعاليم الفارس المسيحيِّ»؟».

قال سالثيدو:

– «انطباع بالوهن والإحباط. الكتاب حادٌ كما تعرف».

– «أيَّ طبعةٍ قرأت؟».

- «طبعة عالم اللَّاهوت البالنثي، ألونسو فرناندث مدريد».

صاح كاثايا مندهشًا:

- «أوه. «تعاليم الفارس المسيحيِّ» أكثر خشونةً من كُلِّ هذا. ألونسو فرناندث نزع عنه كُلّ النتُّوءات، وشذَّبه. صنع منه كتيبًا لطيفًا صالحًا للقراءة مع أفراد العائلة».

مُتشجعًا بالصَّمت والعزلة، أسَرَّ ثيبريانو لكاثايا بهواجسه وشكوكه التي عانى منها دائمًا. منذ طفولته كان يشكُّ في أعماله الطيبة. كان يعيد صلواته مرَّةً بعد أخرى خشية أن يكون قد أدَّاها آليًا، ألا يُفكِّر في ما يقول. قال كاثايا:

- «لماذا تعذِّب نفسك بهذه الطَّريقة؟ ثق بالمسيح، في نعمة تضحيته. أيُّ قيمةٍ لأفعالنا مقارنةً بها؟».

كلمات كاثايا ونظرته العميقة والنَّبرة المُقنعة في صوته كانت تطمئن ثيبريانو، الذي غمغم:

- «أتمنَّى أن أؤمن بهذا».

- «لماذا ضعْف الإيمان هذا؟ إن كان المسيح قد مات من أجل خطايانا، كيف سيطلب بعد ذلك تكفيرًا عنها؟».

قشُّ الشَّعير أصبح أكثر بريقًا، أبيض تقريبًا في الغسق؛ بدا لسالثيدو أن كلمات كاثايا الآخر تعود لإيراسموس، وأخبره بهذا. ابتسم بدرو كاثايا وهزَّ كتفيه:

- «لا يجب أن تنشغل إلى هذا الحدَّ بمصدر الأفكار، وإنما بالأفكار ذاتها: إن كانت أخلاقيةً وعادلةً، أم لا».

- «هل تريد أن تقول قداستك أن تضحياتنا ودعواتنا وصلواتنا، لا نفع لها؟ لا أهمِّيَّة لها؟»

وضع كاثايا يده برفقٍ فوق ذراعه:

- «لا يوجد أيُّ عملٍ عديم النَّفع، لكن أيضًا لا يوجد عملٌ لا غنى عنه للدُّخول في رحمة الرَّبِّ. لكنك تحدِّثني فقط عن الأفعال؟ ألا يوجد لديك إيمانٌ؟».

كانا قد جلسا بجانب الطَّريق واعتمد كاثايا بكوعيه على ركبتيه ووضع رَأسه بين يديه. وصله صوت ثيبريانو مليئًا بالتَّأثُّر:

- «أؤمن إيمانًا كبيرًا. أؤمن بالمسيح وبأن المسيح ابن الرَّبِّ».

بالكاد تركه كاثايا ينتهي:

- «إذن؟ المسيح جاء إلى العالم ليفدينا؛ تضحيته جعلتنا أحرارًا».

نظر سالثيدو له شاردًا، ويُمْكن القول إنه في رَأسه كان يتأمَّل الأفكار التي ينطق بها الآخر. رغم هذا، كان لديه حدسٌ أنه توصَّل فجأة لاكتشاف نادر. قال:

- «هذا حقيقيٌّ. المسيح قال مقولته: «من آمن بي ولو مات فسيحيا». بتمعُّنٍ جيدٍ، فهو لا يطلب منا سوى الإيمان».

- «هل تعرف كُتيبًا ثمينًا بعنوان «نعمة المسيح»؟».

نفى ثيبريانو بإشارة من رَأسه. فأضاف كاثايا:

- «سأعيرك إياه. الكتاب لم يُطبع في إسبانيا لكنَّني أحتفظ بنسخةٍ مخطوطةٍ. دون كارلوس أحضر الأصل من إيطاليا».

شعر ثيبريانو بأملٍ، أن شيئًا يأخذ في البزوغ داخله. كأنه يلمح نقطة نورٍ في أفقٍ مغلقٍ. كأن ذلك القسَّ يكشف له عن بُعْدٍ جديدٍ لما هو دينيٌّ: الثِّقة في مواجهة الخوف.

- «من هو دون كارلوس الذي تحدِّثني عنه؟».

- «دون كارلوس دي سيسو، نبيلٌ فيروني مقيمٌ في قشتالة، رجلٌ حَسَن المظهر والرُّوح. يعيش الآن في لوجرونيو. في العام 50 سافر إلى إيطاليا وأحضر كُتُبًا وأفكارًا جديدةً. بعد ذلك حضر مجمع ترنتو مع الأسقف كالاهورا. هناك من يقول إن دون سيسو يخلب الألباب بعد تعاملٍ سطحيّ ويُسبِّب الإحباط بعد تعاملٍ أعمق. في النِّهاية هو محاورٌ لا يضع مسافاتٍ كبيرةً. لا أعرف. ربما أُتيحت لك فرصةٌ لمعرفته، وستحكم بنفسك».

أدرك ثيبريانو أنه ينزلق من المياه الضَّحلة إلى الأماكن العميقة، أنه يتورَّط في نقاشٍ مهم وحاسمٍ. لكنه كان يشعر بسلامٍ يفوق الوصف. كانت لديه ذكرى غائمة عن ذكر دون كارلوس دي سيسو في بيت عمِّه إجناثيو. ورغم أنه كان يشعر بالرَّاحة فوق التَّل على جانب الطَّريق، إلا أنه بدأ يشعر برطوبة الجوِّ. نهض ونزل إلى الطَّريق. تبعه كاثايا. مَشَيا برهةً بصمتٍ، بعدها سأل ثيبريانو:

- «هل كانت لدون كارلوس دي سيسو أفكارٌ لوثرية من قبل؟».

- «أوه. لا تطلق أحكامًا مسبقةً الآن. الكنيسة بحاجةٍ للإصلاح، ولا يوجد أيُّ رأيٍ فائضٍ على الحاجة في هذه الظروف. من المهم أن نتفق. العائدون من ترنتو يقولون إنهم لا يعتقدون أن كُلَّ ما هو لوثري سيِّئٌ.»

كانت روح سالثيدو تهدأ. وكان يستمتع بسماع الصَّوت الهادئ المقنع لمُحدِّثه. أضاف كاثايا كأنه يضع خاتمةً لمحاضرته:

- «الدومينيكاني خوان دي لا بينيا قال مُحقًا: لماذا أُخفي أنني أؤمن بتضحية المسيح التي أصبحت تخصّني بسبب رحمته؟ هذه العبارة تعود إلى الآباء القدِّيسين. اللوثريون استولوا عليها، يشيرون إليها باستمرار كأنها تخصّهم، لكن الآباء القدِّيسين قالوها قبلهم. الخوف يمنعنا من قبول حقائق لأنها من البروتستانت، وكنَّا قد اعترفنا بها من قبل».

في الغسق كانت القرية الصَّغيرة تتماهى مع الأرض، وإن لم يكن بسبب الضَّوء الخافت لقناديلٍ متناثرةٍ، كان من الممكن أن تصبح غير مرئيةٍ للمرء. فجأة، من دون أيِّ مقدِّماتٍ، دعاه بدرو كاثايا إلى العشاء. هكذا يمكنهما مواصلة الحديث. استقبلته شقيقته بياتريث بترحاب. كانت فتاةً مبتهجةً بابتسامةٍ واسعةٍ تكشف عن أسنانها. أثاث البيت كان شديد التَّقشُّف مثل بيت مارتين مارتين: مطبخٌ فيه مائدةٌ وأريكتين ومقاعدُ واطئةٌ في الصَّالة، مقاعدُ من الخوص ومكتبةٌ. وعلى الجانبين حجرتان واسعتان فيهما فِرَاشان عاليان من الحديد مُذَهَّبان في الرَّأس. قامت بياتريث بالطَّهو وقدَّمت الطَّعام بصمتٍ. كان احترامها شديدًا لشقيقها، فلم تكن تجرؤ على تحريك إصبعٍ بينما يتكلَّم. ظلَّت ثابتةً، ظهرها للحائط، تنظر إلى المائدة، واليدان معقودتان أمام التَّنُّورة. فقط في توقُّفاته كانت تجرؤ على تقديم النَّبيذ أو تغيير مكان طبقٍ. رغم أنهما انتهيا من مسيرتهما قبل نصف ساعةٍ، استأنف بدرو كاثايا حديثه بتلقائيةٍ، كما كان البيروفي يفعل من قبل، كأن الحوار لم ينقطع. قال:

– «أعرف دون كارلوس منذ أربعة عشر عامًا. كان حينها شابًّا وسيمًا أنيق الملبس، حتَّى أن آخر شيءٍ يتوقَّعه المرء أن يسمعه يتحدَّث عن اللَّاهوت. كان لديه العديد من الجلساء في تورو، وذات مساء جعلنا نرى أن المسيح قال ببساطةٍ: «مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ.» طلب منا الإيمان فقط، ولَمْ يضع شروطًا أخرى».

كانا يأكلان بآليةٍ، وتقوم بياتريث على خدمتهما. كاثايا يتحدَّث وثيبريانو صامتٌ. كان يتعلَّم. خلال الطَّعام تعمَّق القسُّ في الموضوعات التي تناولها خلال النُّزهة، وفي النِّهاية، قاد كُلَّ شيءٍ إلى كِتاب «نعمة المسيح»:

– «هذا كتابٌ بساطته لا تخفي عمقه الكبير. مدحٌ حماسيٌّ لعقيدة

التَّبرير بالإيمان. بعد قراءته، شعر ماركيز ألكانيثيس بالذُّهول. وآخرون كُثُر حدث لهم الشَّيء ذاته».

بعد انتهاء العشاء انتقلا إلى الصَّالة. على أرفف الرُّكن تتراص عشرات الكتب المُجلَّدة. أمسك كاثايا أحدها من دون تردُّدٍ وأعطاه لسالثيدو. كان نصًّا بخطِّ اليد. تصفَّحه ثيبريانو، وامتدح جمال خطِّه:

- «هل كتبته قداستك؟».

قال كاثايا بتواضعٍ:

- «نعم، قمت أنا بترجمته».

في الصَّباح التَّالي، حضر ثيبريانو قدَّاس التَّاسعة في بدروسا. لم يكن هناك سوى دستَين من الأفراد في الكنسية، أغلبهم من النِّساء. بعد انتهائه استودع ثيربريانو القسَّ في مكتبه وأعاد له الكتاب. استجوبه بدرو كاثايا بنظرةٍ حائرةٍ، فيها شيءٌ من الأمل. أجاب ثيبريانو مُبتسمًا، وقال بايجازٍ:

«قراءته كانت مفيدةً للغاية لي. سنواصل الحديث».

XI

كان ثيبريانو سالثيدو أحد أبناء بلد الوليد الكثيرين الذين اعتقدوا في منتصف القرن السَّادس عشر أن إقامة البلاط في المدينة يُمْكن أن تكون نهائيةً. بلد الوليد لم تكن تفيض فقط بالحرفيِّين الأكفاء والنُّبلاء من الفئة الأولى، ولكن البلاط والحياة السِّياسية لا تعطيان أيَّ انطباعٍ أن حضورهما مؤقتٌ. على العكس، بعد انتصاف القرن، كان ازدهار المدينة يتبدَّى في كُلِّ النَّواحي. كانت بلد الوليد تنمو، وقد تجاوزت بيوتها الحدود القديمة وعدد السُّكَّان يزيد بإيقاعٍ منتظمٍ. كان أهل بلد الوليد يقولون بفخرٍ: «لَمْ تعد أسوار المدينة تحتوينا». وهم أنفسهم كانوا يرُددُّون: «فلنبني مدينةً أكبر تسعنا جميعًا». زائرٌ فلامنكي، هو لاورينت فيدا، كان يقول عنها: «بلد الوليد مدينةٌ كبيرةٌ في حجم بروكسل». والكاتب الإسباني بيدرو دي ميدينا كان يُقَدِّر جمال الميدان الكبير (بلاثا مايور) بالفتحات التي تطل على خارجه، وكَتَبَ: «ماذا يُمْكن أن يُقال عن ساحةٍ فيها خمسمائة بابٍ وستَّة آلاف نافذةٍ؟» لكن، في منتصف القرن، أخذت عملية التَّشييد النَّشطة منذ 1540 في التَّسارع، وتم ضمُّ لاس تينيرياس، أمام بوَّابة الكامبو، وشُيِّدت مبانٍ مهمة وراء أبواب سان خوان وتيريسا خِيل ولا ماجدالينا. حقول سانتا كلارا فقدت طابعها الزِّراعي سريعًا وتحوَّلت في البداية إلى

أرضٍ خلاءٍ وبعد ذلك، إلى بيوت لها شرفاتٌ من الحديد، لتشكّل حيًا موازيًا لنهر بيسويرجا.

الإيقاع المحموم للبناء أدَّى إلى ظهور كتلٍ جديدةٍ من البيوت في كُلِّ مكانٍ باستغلال المساحات المغلقة، والأفنية والحدائق، وأيضًا الأراضي الخلاء في الضَّواحي. بالنِّسبة لثيبريانو وجيرانه، كان تطوُّر حيِّه مدعاةً للفخر، من شارع سان بابلو إلى الحيِّ اليهوديِّ، القريب من جسر مايور تمَّ بناء ثلاث دستات من البيوت الجديدة في شوارع ليتشريرا، وتاهونا وسيناجوجا، وبيوتٍ أخرى، أكثر متانةً في بستان دير سان بابلو، الذي تم التَّنازل عنه لهذا الغرض. ولكي تجد هذه البيوت مخرجًا تمَّ شق شارع إمبريـال، لرَبط الحيَّ حديث الإنشاء. وأيضًا تمَّ منْح تراخيصٍ أخرى لأعمال مهمة في شارع فرانكوس وبستان دير راهبات سانتا ماريا ديل بيلين، بين مدرسة سانتا كروث وساحة الذُّوق. لكن الأكثر إبهارًا كان تمدُّد المدينة إلى القرى خارج أسوارها: سان بيدرو، وسان أندريس وسانتياجو.

تنازُل الإخوة بيسكيرا عن أراضٍ كثيرةٍ وفَّر اثنتين وستين قطعة أرضٍ جديدةٍ. وكان مفيدًا حتَّى للمتبرِّعين، وهو ما دفع مُلَّاكًا آخرين لاستبدال ممتلكاتهم بأجرٍ سنويّ أبديّ، في مناطق معينة مثل شارع ثوررادوريس، وتخوم طريق رينيدو وشارع لاجونا، على يسار بوَّابة كامبو. في ذلك الوقت، في منتصف العقد، تحوَّلت بلد الوليد إلى ورشةٍ كبيرةٍ للبناء، وكانت الأعوام تمرُّ عليها من دون أن يتوقَّف نشاطها المحموم.

بالتَّزامن مع تشييد بناياتٍ جديدةٍ، بين الطَّبقات الموسرة وُلِدت الحاجة لتجهيزها وتأثيثها وفقًا لأرقى قواعد الذُّوق الأوربيِّ. في ذلك الوقت بدأ النَّظر للديكور الدَّاخليِّ باعتباره فنًّا. البلاط وذوقه أخذا يُنَميا في سكَّان بلد الوليد ميلًا للاستهلاك محوره الزِّينة. حتَّى تيودوميرا ثينتينو التي قَنعت خلال سنوات بمظهرٍ بسيطٍ، جرفتها فجأة حُمى التَّرف الذي

أصاب جيرانها. بالنِّسبة لثيبريانو سالثيدو، من جانبٍ كشف تبذير زوجته عن عدوى اجتماعيةٍ، ومن جانبٍ آخر عن شخصيتها غير المُستقرَّة: «اليوم الذي لا أنفق فيه مائة دوكاو أعتبره يومًا ضائعًا»، اعترفت لزوجها. هذا الهوس بالإنفاق، بالإضافة إلى مراقبتها الصَّارمة لعلاج الدُّكتور جالاتشي، مَلأَ حياتها في تلك الأيَّام. لدرجة أن العمة جابريلا، التي عارضت زواج ثيبريانو قبل سنواتٍ، أصبحت فجأةً أخلص وأقرب صديقةٍ لزوجته. ذوق العمَّة الرَّفيع الشَّهير اجتمع مع ثروة زوجة ابن صهرها. لم تكن تيو مُطيعةً فقط وإنما كانت تتقبَّل شاكرةً اقتراحات جابريلا. ملكة البارامو كانت واعيةً بقصورها. وكانت تعرف أنها أفضل من عمَّتها في جزِّ الصُّوف، لكنها تفتقد لذوقٍ شديد الأناقة مثل ذوقها. وإن لم يكفِ هذا، فالعمَّة جابريلا كانت تقترب من السِّتين، ووجدت في تبذير مال الآخرين نشاطًا مُجدِّدًا للشباب. في ما يتعلَّق بسالثيدو، القليل الاهتمام بالأمور الماديَّة، والمنغمس في مشاكلٍ مهمةٍ، لم يتأثَّر تقريبًا بميول زوجته نحو التَّرف، على العكس، كان يشجِّعها. في تلك المرحلة من حياته كان يسعد بزوجةٍ منشغلةٍ لاهيةٍ، لأن تيو لم تعد بالنِّسبة له عنصر سكينةٍ أو حافزًا مثيرًا. كان قد أخطأ بشأنها، بشأن حجمها وبياضها كتمثالٍ. غياب الشَّعر والعرق تُعتبر نواقص، لكن خياله كخطيبٍ جعلها فضائل. هذا الجسد الممتلئ المكتنز اللَّبَنيُّ أصبح كأنثى، يعني قليلًا بالنِّسبة له، ولا يعني شيئًا كظلٍّ واقٍ. علاقتهما كانت بسيطةً: تيو تقدِّم له كُلَّ ليلةٍ مزيج بلورات الفضَّة والحديد، وفي المقابل، تطلب منه خمسة أيَّامٍ من الانقطاع شهريًا. كانت تيو تعيش بأمل أن تصبح أمًّا. كانت تؤمن بعينينٍ مُغمَضتَين بوعْد الدُّكتور جالاتشي، وتتبَّع تعليماته بدقّة. ذات يومٍ ستحبل من ثيبريانو وسيتحقق تشخيص الدُّكتور.

ثيبريانو، على العكس، كان يتناول الجرعة اللَّيلية لكي يرضيها. لم يكن يؤمن بها مطلقًا. كان متيقنًا أن جالاتشي استعان بالوصفة لكي يزيح

عن كاهله امرأةً هستيريةً. بعد مرور الخمس أو ستِّ سنوات المتوقَّعة، سيعثر على الوسيلة المُثلى لإذكاء الأمل. لكن تيو لم تكن تتهاون. بالنِّسبة لها كان للعلاقات الحميمة الهدف ذاته من بلورات الفضّة والحديد أو مشروبها من القصعين بالملح بعد أربعة أيَّامٍ من الامتناع. لم تعد شغوفًا بالـ(شيء). هذه اللُّعبة أصبحت من مُخلَّفات الماضي مثل صعود ثيبريانو حتَّى الهضبة المُحصَّنة. بعد أن نسي أنثى العلجوم ونكاحها المُنفِّر، أصبح ثيبريانو يؤدِّي واجبه من دون نفورٍ ولا رغبةٍ، مثلها، أي أن الموقف لم يكن لصالحه، لأنه لم يكن يؤمن بالعلاج. على هذا الحال، لم يتبقَّ من الحماية الجسديَّة الأوَّلية التي كانت تيو تُوَفِّرها سوى ذكرى طيَّة الوسادة حيث يُدخل رَأسه الصَّغيرة كُلّ ليلةٍ ليمكنه النَّوم.

لا شيء من هذا منع تيو من اطلاعه على التَّطوُّرات في ديكور البيت بحماسةٍ. الأثاث من خشب الصّنوبر أخذ يختفي، ليحلَّ محلَّه أثاثٌ من أخشابٍ أكثر نبلًا، أساسًا البلُّوط والجوز والماهوجني. وبهذا، أخذ مكتبه، على سبيل المثال، يتطوَّر في الجَودة والذَّوق. فوق المائدة الكبيرة من خشب الجوز تستريح أدوات كتابةٍ من خشب البندق، بجانبها حامل كُتُبٍ، وأمامها أرففٌ من البلُّوط مليئةٌ بالكتب. تحت النَّافذة وضعت تيو صندوقًا صغيرًا من فينيسيا، من الأبنوس المُرصَّع بالعاج بمشاهدٍ إنجيليةٍ. جوهرةٌ حقيقيةٌ. كما أصبحت الأرائك للفقراء. واحتلَّت مكانها مقاعدٌ من الجلد أو على الطِّراز الفرنسيِّ. لكن تَحوُّل البيت لم يقف عند هذا الحد. غرفة نوم الزَّوجين انتقلت من الكفاءة إلى الدَّلال. تم استبدال الفِرَاش الحديديِّ القديم بفِرَاشٍ آخر مُبطَّنٍ بالبروكار الدِّمشقيِّ القرمزيِّ وفوقه ناموسيةٌ مطرَّزةٌ بخيوط الذَّهب. أمام الفِرَاش وضعت تيو مائدة تزْيين من الماهوجني، بأدواتٍ فضِّيةٍ، وبجانب الباب، صندوقٌ كبيرٌ مبطَّنٌ بجلد البقر لحفظ الملاءات. ومع هذا، فإن نُسخ اللَّوحات التي وزّعتها في الجزء

النَّبيل من البيت لم يكن لها وجودٌ في (حرم الزَّوجية) الذي فَقَدَ أهميَّته، حيث كانت الجدران مُزيَّنةً بأبسطةٍ مُذَهَّبة. ويتقدَّمها جميعًا، فوق الفِرَاش، صليبٌ صنعه خصِّيصًا دون ألونسو دي بيروجيتي. بالطَّريقة ذاتها قامت تيو بتزيين الصَّالة وغرفة الطَّعام، بجَعْل الأبواب والنَّوافذ من خشب أكثر نبلًا، وباستخدام أبسطةٍ وسجادٍ. لم يتبقَّ على حالته القديمة سوى غرف السَّطح، والمخازن وغرفة بيثنتي الخادم، بجانب الاصطبل في الطابق الأوَّل الذي لم يتمَّ الاقتراب منه.

لكن التَّغيير الأهم الذي شهده بيت شارع سان بابلو كان في مستلزمات الاستخدام اليوميِّ: مناشفُ مُطرَّزة في المصنع الملكيِّ، ملاءاتٌ من فلاندز، مناديل ومفارش من هولندا، وساداتٌ ألمانية وكلُّ أنواع الملابس، ومن ضمنها الدَّاخلية، كانت تتكدَّس في الخزانات الضخمة. وفوق الأرفف وموائد الزَّوايا أطقمٌ للشاي، وأباريقٌ وحواملٌ للشَّمع من الفضَّة والذَّهب، مجلوبةٌ من بلاد الهند. من الذَّهب والفضَّة أيضًا كانت أدوات المائدة، وأباريق النَّبيذ، وكسَّارة البندق، والسُّكَّريات والممالح، مرتَّبةً في دولابٍ، وأمامه في دولابٍ فينيسي يتراصّ البورسلان وكريستال بوهيميا بأشكالهما وألوانهما البديعة.

كان ثيبريانو مُعجَبًا بمثابرة تيو على تجاوز ماضيها في العمل في جزِّ الصُّوف، وليس نسيانه، لأنها بالإضافة إلى جوادها القبيح أوبستينادو الذي احتفظت به حتَّى موته، كانت تحتفظ في دولابها الشَّخصيِّ بالسَّوط ومجموعة المقصَّات والأنصال لجزِّ الصُّوف، كأنها أثرٌ قديمٌ، بجانب الملابس الفخمة من روان وهولندا، وبفضلها حصلت ذات يوم على لقب ملكة البارامو. كان ثيبريانو يترك الأمور تسير على هواها. لم يكن يشعر بالاستياء من البذخ الذي تعنيه تلك التغيُّرات في البيت ولا الشَّغف الذي كانت تيو تضعه فيها. أحيانًا كانت تيو والعمة جابريلا تصلان مُحمَّلتين

بتفاهاتٍ، وكانت كريسانتا تُقدِّم لهم بعض المخبوزات ويتحدَّث الثَّلاثة لوقتٍ طويلٍ حول الأشياء الجديدة والمقتنيات الأخيرة.

ثيبريانو كان يعيش هذه التَّطوُّرات على الهامش إلى حدٍّ ما، فقد كان منغمسًا باطرادٍ في الكتب والسَّفر. تواترت الزِّيارات لبدروسا، حيث إن كلمات بدرو كاثايا، وصحبته وإرشاده أصبحت مما لا غنى عنه بالنِّسبة له. أحيانًا، بينما ينتظره في بيته، كان يتحدَّث مع بياتريث، أخته، شديدة الرِّقَّة والذكاء، بملائكيةٍ غريبةٍ في وجهها، لامعةٌ وواثقةٌ من ذاتها. الثِّقة التي تدافع بها عن نظرية نعمة المسيح تبدو مُلهِمةً، لم تكن تَقْبَل نقاشًا حولها. تضحية الرَّبِّ كانت عملًا كاملًا، ويبدو فظًا أن بعض المؤمنين ببدعهم الحقيرة يسعون لتجاوز المسيح المُخلِّص. كانت لها علاقةٌ اجتماعيةٌ جيدةٌ مع النِّساء من سكَّان القرية، ومع ثلاث منهنّ كانت تقوم على العناية بالكنيسة.

من آنٍ لآخر كان كريستوبال دي باديبا وخوان سانشيث يأتيان إلى بدروسا. الأوَّل كان خادم ماركيزي ألكانيثيس، والثَّاني كان خادمًا لدونيا ليونور دي بيبرو، ثم لبدرو كاثايا، في بدروسا. وقام هذا بإعادته مرَّةً أخرى إلى أمِّه بسبب تَدَخُّله في ما لا يعنيه. باديبا كان شخصًا غريبًا، طويل القَامة، فظًّا، شعره الطَّويل الأحمر يضفي عليه هيئةَ شخصيةٍ في قصة أطفالٍ. على العكس تمامًا، كان خوان سانشيث فتى قصير القامة، كبير الرَّأس، جلده جافٌّ وذابلٌ، لكنه كثير النَّشاط ومجتهدٌ. يمتطي بغلةً عجوزًا، بمفرده أو بصحبة كريستوبال دي باديبا، ويعمل كهمزة وصل بين جماعة بلد الوليد وجماعتي ثامورا ولوجرونيو. في ثامورا، كان باديبا مَنْ يتولَّى القيادة وينظِّم حلقاتٍ دراسيةً بحثًا عن أتباعٍ جددٍ، وكثيرًا ما يتصرَّف بجراْةٍ ويُعرِّض نفسه للمخاطر. رغم الأوامر الَّتي تحظر هذا. كان خوان سانشيث يرافقه أحيانًا. على العكس، كانت بياتريث كاثايا فتاةً حذرةً وحصيفةً، ولذكائها،

عندما تتحدَّث معهما، كانت تمدّهما بأفكارٍ وتعبيراتٍ من أجل مهامهما التَّبشيرية المُستقبلية. أحيانًا كانا يتناقشان حول الأسرار المُقدَّسة وزواج رجال الدِّين، ويضطر بدرو كاثايا للتدَّخل ليفرض الصَّمت.

حوارات بدرو كاثايا وثيبريانو سالثيدو غالبًا ما تكون أثناء المشي. عادةً يأخذان طريق كاسولا، إلى ملاحات ثنجال وجبل جاياريتا في النِّهاية. لكن كثيرًا ما يجلسان في منتصف الطَّريق، على قمَّة هضبة بيكادو، الأقرب للقرية، وهناك يواصلان الحديث بينما يتأمَّلان البيوت ذات الطَّابق الواحد، المتجاورة بجانب الكنيسة، بين أشجار السَّنط وأراضي الأجران العمومية، والبئر وبقايا العربات وأدوات درس الحبوب المُفكَّكة. في بعض الأمسية كانا يتجولان في طريق تورو، بين حقول الغلال والعنب، حتَّى يصلا إلى طريق ثامورا. وأحيانًا كانا يقتربان من بيابينديميو التي في أراضيها الرَّملية الهشَّة بدأت أشجار الصّنوبر التي زرعها مارتين مارتين في النُّمو. في الرَّبيع، باستمرارٍ، كانا يصعدان في الفجر بالحجل إلى تخوم لا جاياريتا. شيئًا فشيئًا، أصبح ثيبريانو سالثيدو صائد طيورٍ محنَّكٍ. يستطيع تمييز صوت أنطون بين أصوات الذُّكور الأخرى الصَّائحة ويميز تمامًا بين النِّداء والرَّدِّ. بعد تمرُّسه في ألف رحلة صيدٍ، لم يعد يلوم كاثايا على الدَّم المهدور. كان يعيش الصِّراع بين الإنسان والطَّائر بحماسة، ولتبعيتَّه للقسِّ، ينتهي به الأمر، إن عاجلًا أو آجلًا، بقبول كُلِّ ما يصدر عنه.

في أحد أيام شهر إبريل، عندما أصدر أنطون نداءً حارًا من فوق المنصَّة، وإزاء الصَّمت الرَّهيب للحقل، قال له بدرو كاثايا مباشرةً، من دون أيِّ تمهيدٍ، إنه لا يوجد «مَطْهر». رغم أنه كان جالسًا، فإن مفاجأة كاثايا أصابت سالثيدو بوهنٍ غريبٍ في ركبتيه، وغثيانٍ في فم المعدة. نظر له القسُّ بطرف عينه، باهتمامٍ، منتظرًا ردَّ فعله. رآه شاحبًا مثل يوم أنثى العلجوم ويبحث عن مكانٍ لساقيه في المخبأ الضَّيق. في النِّهاية غمغم:

- «هـ... هذا لا يمكنني قبوله، يا بدرو. إنه يشكل جزءًا من معتقدات طفولتي».

كانا منعزلين داخل المخبأ، جالسَين على دكَّةٍ، متجاورَين، كاثايا يضع البندقية المحشوة بين ساقيه، وكلاهما غير متنبّهٍ لتصرُّفات الحجل. قال كاثايا بعذوبةٍ، بينما يهز كتفيه:

- «إنه شيءٌ قاسٍ يا ثيبريانو، أدرك هذا، لكن يجب أن نكون مُتَّسقين مع عقيدتنا. بمراجعة الوصايا، لا يوجد أيُّ شيءٍ لا غفران له بتضحية المسيح».

بدا أن سالثيدو على وشك البكاء، ربما لمعاناته. قال في النِّهاية:

- «أنت على حقٍّ، قداستك، لكن هذا الكشف يتركني بلا حولٍ ولا قوَّةٍ».

وضع بدرو كاثايا يده فوق كتف ثيبريانو وقال:

- «عندما أخبرني دون كارلوس دي سيسو بهذا عانيت مثلك تمامًا. كانت الغيوم تلفُّني وشعرت بالخوف. كنت مُضطربًا لدرجة أنني فكَّرت في إبلاغ محاكم التَّفتيش عن كارلوس دي سيسو».

- «وكيف تجاوزت هذا الضِّيق؟».

- «عانيت كثيرًا. شعرت أنني ملعون. في الأيَّام التَّالية لم أستطِع أداء القدَّاس. وذات يوم، أخذت البغلة وذهبت إلى بلد الوليد. كنت أشعر بالحاجة للقاء عالم اللَّاهوت المبجَّل، دون بارتولوميو كاررانثا. هل تعرفه؟».

- «له شهرة قدِّيسٍ وحكيمٍ».

رفع بدرو كاثايا يده عن كتف ثيبريانو وواصل:

- «أفضيت له، فتحت له رُوحي. وجَّه دون بارتولوميو لي نظرةً بصيرةً وسألني: «من قال لك ذلك عن المطهر؟». لم أرغب في إخباره، وحينئذ أضاف: «وإن صدق حدسي، هل ستؤكِّد هذا لي؟». ولمّا رددت عليه بالإيجاب، نطق اسم دون كارلوس دي سيسو وأحنيت رَأسي موافقةً».

صمَت بدرو كاثايا لبرهةٍ، كأنما ينتظر ردَّ فعلٍ فوريّ من سالثيدو، لكن فَمّ هذا كان جافًا ويشقّ عليه أن ينطق بكلمةٍ. استفسر في النِّهاية:

- «وماذا قلتَ له قداستك؟».

- «أخبرته أن الواجب يحتّم عليَّ إخبار محاكم التَّفتيش، والإبلاغ عن دون كارلوس دي سيسو، لكنه طلب مني أن أهدأ وأن أطمئن، ولا أشي بأحدٍ، وأن أعود إلى عملي ككقسٍ وأقيم القدَّاس كُلَّ يومٍ كالعادة. وهذا ما فعلته. في أثناء ذلك أرسل بريدًا عاجلًا إلى لوجرونيو، راجيًا من دون كارلوس أن يسافر إلى بلد الوليد، لأن الأمر كان يهمّه كثيرًا. وجاء دون كارلوس على الفور، وذهب مباشرةً إلى مدرسة سان جريجوريو للتَّحدُّث مع دون بارتولوميو كارranثا، لكننا التقينا في الفناء وحيَّاني بتقبيل خدَّيَّ، وهو ما لم يفعله معي من قبل، وهذا أثار مشاعري. وصعدنا معًا إلى صومعة اللَّاهوتيِّ، وقال لي هذا أن أنتظر في الخارج، فحضوري لم يكن ضروريًا. وحسْب كلمات دون كارلوس، عندما أصبحا بمفردهما، سأله إن كان بالفعل قد قال لي بعدم وجود المَطهر، وسأله عن مصدره. وردَّ عليه سيسو أنه يعتمد على الثَّمن الباهظ الذي قدَّمه المسيح من أجل خطايانا بعذابه وموته. وحينئذ نبَّهه قداسته إلى أنه لا يوجد أيُّ سبب مهما كان جيدًا يكفي للابتعاد عن الكنيسة، كما لا يعيش كُلُّ الرِّجال في هذا العالم ممتلئين بإيمانٍ شبيهٍ بإيمانه. بعد ذلك أخبره أنه على وشك السَّفر

مع الملك إلى إنجلترا، وفور عودته سيعمل على سماعه والاجتماع معه بشكلٍ أكثر خصوصيةً. وقبل أن يستودعه، مدح إيمانه مُجدَّدًا ولَمْ يَدِن كلماته. فقط طلب منه بأن يحتفظ بأمر الزِّيارة سرًا. تحديدًا قال له: «فليكن ما حدث هنا مدفونًا في مكانه، ولا تقوله تحت أيِّ ظرفٍ».

اهتمام سالثيدو بسماع الحكاية نأى به عن سبب وهَنه. وانتهز فرصة صمْت كاثايا ليسأله:

- «وهل عادا للكلام عن هذا الموضوع في أيِّ مناسبةٍ؟».

هزَّ كاثايا كتفيه. قال بشيءٍ من المرارة:

- «قداسته لم ينتهِ بعدُ من التزاماته».

اجتهد أنطون بصوته في النِّداء الأخير. بدا الطَّائر ضجِرًا ومُحبَطًا؛ وبدا الخلاء مهجورًا. نهض كاثايا داخل المخبأ، بيديه على خاصرتيه. قال مُبدِّلًا من نبرته:

- «لا يجب الإلحاح في الصَّيد. إن قال لا، من الأفضل ترْكه».

أثناء اللَّيل، في الخان، عانى ثيبريانو من آلامٍ كأنه يموت، ولَمْ يستطِع النَّوم. شعر باضطراب روحه، وبالحزن. كان قد شعر بألمٍ عنيفٍ في المخبأ، كبَتْرِ أحد أطرافه. الآن يدرك أن عالمه انقلب رَأسًا على عقب بسبب كلمات كاثايا. وبين فيض الأفكار التي تختلط في رَأسه، رأى واحدةً واضحةً فقط: الحاجة لتغيير تفكيره، قلْب كُلِّ شيءٍ رَأسًا على عقب، لكي يقوم بعد ذلك، بهدوءٍ، بترتيب أُسُس عقيدته. نهض قبل شروق الشمس وفاجأته أضواء الفجر الأولى في بيابيخا. وفي بلد الوليد بحث بلهفةٍ في الكتب. وهناك وجد ما كان يبحث عنه. كلمات ميلتشور كانو طمأنته مؤقتًا. كان يقول: «الموقف المعلن لكارانثا كان مُلتزمًا دائمًا». لكن دون بارتولوميو يتَّفق مع سيسو ولهذا لم يبلغ عنه. على الأرجح كان بارتولوميو

كارّرانثا يعتقد بعدم وجود المَطْهَر، لكنه كان واعيًا بمخاطر الإعلان عن هذا من دون أخْذ مستوى المحاور في الاعتبار. كان اللّاهوتيُّ الكبير رجلًا حصيفًا وحذرًا من دون شكٍّ.

قبل تمام أسبوعٍ، دفع القلق ثيبريانو مرَّةً أخرى إلى بدروسا. أدهشه أن كاثايا، غالبًا في حالةٍ تواضع، أطلق عليه أخًا. لم يكن لدى القسِّ شكوكٌ حول علاقة سيسو وكارّرانثا. يوجد بينهما تماثلٌ فكريٌّ جليٌّ. ميلتشور كانو محقٌّ في هذه النُّقطة. كانا يسيران في طريق تورو، في مساءٍ هادئٍ، عندما رأيا جوادًا رشيقًا قادمًا من الاتِّجاه المقابل، مُحاطًا بسحابةٍ من الغبار. قال بدرو كاثايا من دون تردُّدٍ:

- «إن لم أخطئ فلدينا هنا دون كارلوس دي سيسو شخصيًا».

الجواد، بخطمه المبلَّل باللُّعاب، ونجمةٍ على جبهته، بسيقانٍ جميلةٍ، كان أوَّل ما جذب انتباه سالثيدو. بسرعةٍ يُمْكن ملاحظة أنه ليس جوادًا عاديًا، وإنما تم اختياره بعنايةٍ شديدةٍ: حصانٌ بُنِّيٌّ داكنٌ، قليل الصَّبر، رفع قائمتيه الأماميتين بأناقة عندما وصل إلى الرَّجلين. حياهما الفارس قبل أن يترجَّل. كان رجلًا طويل القامة، نحيفًا، نظرته مباشرة، أكبر من ثيبريانو ببضعة أعوامٍ. أشقرٌ، ملتحيًا، قصير الشَّعر، يرتدي قبَّعةً إيطالية، ملابسه بأكمامٍ ملساءٍ على الطَّريقة التُّركية حيث تظهر أطراف القميص. وسروالٌ طويلٌ فيه ثقوبٍ، كان يبدو أكثر الملابس مناسبةً لركوب الخيل. كان يعطي انطباعًا برجلٍ مُعتادٍ على التَّعامل مع علية القوم، شديد التَّأنق والاعتزاز بالنَّفس من دون أن يجتهد في هذا. كان قادمًا من تورو. سيتمُّ تعيينه عُمدةً وقَام بزيارة المدينة لتحيَّة الأصدقاء القدامى. كان رجلًا فصيحًا، مُحدَّد التَّعبيرات، وبساطته جاذبةً. قاد فيرونيس، جواده، من اللِّجام، وسار بين ثيبريانو وكاثايا بتلقائيةٍ. من دون أيِّ مداراةٍ توجَّه لسالثيدو: كان قد التقى عمًّا له قبل سنواتٍ كثيرةٍ، في أولميدو، خلال الوباء، رجلًا مثقَّفًا، جديرًا

بشهرته، ومتفتّحًا. وسمع بدرو يَتحدَّث عنه، عن ثيبريانو، كأحد مالكي الأراضي الأقوياء، ورجلٌ قلقٌ روحيًا. بعد ذلك يمكنهما التَّحدُّث. كان يُفكِّر في النَّوم في نُزُل باروكيه والارتحال في الصَّباح الباكر إلى لوجرونيو.

بياتريث كاثايا، شقيقة بدرو، استقبلتهم بترحاب كبيرٍ وبهجةٍ، ودَعَتهم للعشاء؛ لم يكن لديها عشاءٌ لكلٍّ هذا العدد، لكن يمكنها أن تُرَتِّب الأمر بلحم الخنزير المقدَّد. دون كارلوس كان يعامل بياتريث بمزيجٍ من الألفة والاحترام. كان يتمازح معها فتضحك من دون تَوَقُّفٍ. أكد كاثايا أنها تشبه أمّه. لم يكنَّ نساءً برؤوسٍ خاويةٍ، وُلِدن ليضحكن. خلال العشاء، وأثناء تناوُل الحلوى، تم التَّطرُّق لموضوعاتٍ بسيطةٍ: هواية بدرو للصَّيد، النَّبيذ، توسيع الكنيسة. لكن ما إن أصبح سيسو وسالثيدو بمفردهما في صالة النُّزُل، أمام دورق نبيذٍ، حتى تناول سالثيدو من دون تردُّدٍ موضوع المَطْهر. بدا له حضور دون كارلوس مناسبةً جيدةً، فلم يشك أن كاثايا أرسل له بريدًا يطلب منه الحضور. فوق الصُّندوق يوجد صليبٌ كبيرٌ، وعندما لمحه، أشار سيسو إليه بإصبعه بأداءٍ مسرحيّ وقال:

- «ها هو مَطْهري أمامك. هذا هو مَطْهري».

كان يعطي انطباعًا بأنه أحد المُجدِّفين المجانين. بخُفَّيّ منزل، وبعينيه الرَّماديتَين الثَّابتتَين، ومِعْطَف السَّفر، يُمْكن القول إن شخصيته قد تحوَّلت. نظر له سالثيدو مُتضرِّعًا، كاشفًا عن معاناة الأيَّام الأخيرة. علَّق دون كارلوس مُبتسمًا:

- «الإسبان يعطون أهمِّيَّةً كبرى لموضوع المَطْهَر هذا. في بلدي يتم قبول عدم وجوده كنتيجةٍ منطقيةٍ للعقيدة الجديدة. دون بارتولوميو كارّانثا رفض سماعي عندما أردت أن أعرض عليه أسبابي؛ افترض أنها معروفةً».

ذهبت ابنة باروكيه للنوم بعد أن ملأت القنديل ووضعت بعض الأخشاب في النَّار. بينما كان دون كارلوس يَصُبُّ كأسًا أخرى من النَّبيذ، بذل ثيبريانو جهدًا كبيرًا لكي يقول:

– «و... وهل يُمْكنك أن تقول لي على أيِّ أساسٍ يستند اعتقادك؟ أفتقد لذكاء وعلم قداستك».

اكتمل تحوُّل دون كارلوس. واختفت اللَّامبالاة البادية خلال السَّفر، ورغم حُسْن وجهه، وشعره الأشقر القصير، بدا كرَجُلِ دينٍ على وشك البدء في عظةٍ، أكثر منه رجلًا نبيلًا. عيناه الصَّريحتان كانتا تنظران الآن باهتمامٍ إلى يَدي سالثيدو الصَّغيرتين المشعرتين. وقال بنبرةٍ أبويةٍ:

– «لا أريد أن أرهقك. بالنِّسبة لي توجد ثلاثة أسباب مهمةٍ تكشف عن عدم وجود المَطْهَر...».

ترك كلامه مُعلَّقًا في الهواء، واقترب ثيبريانو بوجهه من شفتيه، وقال بصبرٍ نافدٍ، مُلِّحًا:

– «أسمعك».

غرس دون كارلوس عينيه الرَّماديَّتين في وجه ثيبريانو واستأنف شرحه:

– «في المقام الأوَّل، عند القبول بعدم وجود المَطْهر، فإننا نعترف بِتلقِّي رحمةً كبرى من المسيح. بالإضافة إلى هذا، ستجد أن مُدوِّني الإنجيل وسان بابلو لا يشيرون له في نصوصهم. وفي النِّهاية، وهذا بالنسبة لي جوهريٌّ أيضًا، لدينا موقف دون بارتولوميو دي كاررانثا، رجل قدِّيس، غزير العلم. هل أنت بحاجة لدلائل أكثر وأوضح؟».

طرفت عينا ثيبريانو سالثيدو كأنَّه مبهورٌ. كان واقعًا تحت سطوة قوى غير طبيعيةٍ تبدو صادرةً عن هذا الرَّجل. كان مقتنعًا بأسبابه الثَّلاثة، خاصَّةً

الثَّاني: لماذا لم يشر مُدوِّنو الإنجيل للمَطْهر بينما ذكروا السَّماء والجحيم؟ لكن دون كارلوس لم يتِح له الوقت ليُفكِّر. كان يتحدَّث ويتحدَّث من دون توقُّف. وهو يواصل إزعاجه. نصحه دون كارلوس بزيارة كاثايا، الدُّكتور، والتَّكلُّم معه لفهْم العقيدة الجديدة. وحضور الاجتماعات السِّرية، وتَبادُل الآراء مع الإخوة. «لا تهمل هذا الأمر. قوَّتنا ليست كبيرةً لكنها أيضًا ليست تافهةً. لا تبقى جالسًا فوق مقعدك. تَحَرَّك. افتح قلبك، لا ترفض رحمة الرَّبِّ. لديك اجتماعاتٌ في بلد الوليد، في تورو، في ثامورا، في أماكن كثيرة». كان ثيبريانو يجتهد في حفْظِ نصائحه، وأسماء الأشخاص والأماكن التي يوصيه بها. وفجأة غيَّر دون كارلوس اتجاه حديثه، كلَّمه عن ترنتو، كان هناك، ولم يبث فيه المَجْمَع آمالًا كبيرةً. كما حدَّثه عن خوان فالديس، المُتوفَّى قبل عدة سنوات، كمُعلِّمٍ حقيقيّ، ثم أخذ في الانتقال من موضوع إلى آخر حتَّى تَمَكَّن الإرهاق والنُّعاس من كلا المتحاورين.

في اليوم التَّالي، في وقت مُبكِّرٍ للغاية، ركبا معًا حتَّى بلد الوليد. كان دون كارلوس ذاهبًا إلى لوجرونيو، ثم إلى بياميديانا، حيث يعيش. ولأوَّل مرَّةٍ أبدى سالثيدو إعجابًا بصفات جوادٍ لا يعرفها في جوداه: كان فيرونيس ينطلق من الخبب القصير إلى الرَّكض، من دون مرحلةٍ وسطى، وكان قادرًا على التَّوقُّف بقوائمه الأربع، وهو ما لم يستطِع رلامباجو تحقيقه مطلقًا. كان جوادًا عفيًا، وجيد التَّدريب. أخبره دون كارلوس أنه اشتراه من غرناطة وأن أكثر من نصف دمه كان عربيًا.

وجد ثيبريانو زوجته على حافَّة أزمةٍ جديدةٍ. منذ أصبحت لا تُمثِّل بالنِّسبة له ملاذًا وحافزًا جنسيًا، كان سالثيدو يتطلَّع لشيءٍ واحدٍ: أن تتركه في سلامٍ. لم يكن يؤمن بكلمات الدُّكتور جالاتشي ولا بالمواقيت التي تراقبها تيو بدقَّةٍ صارمةٍ، حتَّى لو تظاهر بهذا للمحافظة على السَّلام العائليِّ. لهذا، كان يحمل في كُلِّ رحلاته كيسًا من بلورات الفضَّة والحديد، تعدَّه

زوجته كجزءٍ من متاعه. ودائمًا كان الكيس يعود مُغلقًا، لكنها لم تكن تنتبه لهذا. كانت تعتقد أن ثيبريانو يتبع تعليمات الدُّكتور مثلها تمامًا. وبهذه الطَّريقة كانت العلاقة الزَّوجية تستمرُّ، لكن في هذه المرة، كانت العودة باردةً. لم تخرج تيو لاستقباله في الرُّدهة. وجدها في غرفتها، في حالة شرودٍ تامٍ، ناظرةً عبر النَّافذة من دون أن ترى. ردَّت القبلة التي طبعها على وجنتها بتلقائيةٍ، لكن بطريقةٍ شديدة البرود، لدرجة أن ثيبريانو تساءل عن المفاجأة التي تنتظره هذا اليوم. في بعض الأحيان كان أوبستينادو، في أحيانٍ أخرى احتقاره، وفي مرَّاتٍ أخرى، كالعادة، عُقْمه، لكن كان جليًا أن نفورها يعني شيئًا. رافقته إلى الغرفة لكي يُغيِّر ملابسه. لم يكن ثيبريانو قد اعتاد بعد على الأبسطة الجديدة، والسَّتائر، وناموسية الفِرَاش... كانت تثقل عليه. حينئذ، تكلَّمت تيو فجأةً بنبرةٍ آمرةٍ:

– «أعتقد يا ثيبريانو أن عادة النَّوم معًا، في فِرَاشٍ واحدٍ، تُعتبر أمرًا مقززًا».

– «مقزِّز؟ هذا ما يفعله الأزواج عادةً، أليس كذلك؟».

كانت تتَّقد شيئًا فشيئًا.

– «هل يبدو لك طبيعيًا أن نمضي تسعًا من الأربع وعشرين ساعةً في اليوم بينما نتبادل أبخرتنا، وأنفاسنا، ويَشمُّ كُلٌّ منا الآخر مثل كلبَيْن؟».

وافقها الحديث:

– «حسنًا، قد تكوني مُحقَّةً. ربما يجب أن نضع فِرَاشًا آخر هنا».

تَحرَّك جسد تيو الضخم برشاقةٍ من مكانٍ لآخر في الغُرفة. أمسكت أحد أعمدة الفِرَاش وهزته بقوَّةٍ. تزعزعت النَّاموسية، سألت غاضبةً:

– «فِرَاشان هنا؟ هل هذا هو كُلُّ ما يعنُّ لك بعد أن عصرت عقلي لأرتِّب غرفة النَّوم؟ تدميرها بفِرَاشٍ إضافيّ. هذا ما تريد! يا له من اقتراحٍ من الرَّجل العظيم!».

أثناء النِّقاش، كانت تيو مثل الجرف الثلجيِّ، تكتسب باطِّرادٍ قوَّةً وانتشارًا أكبر. بعد الوصول إلى هذا الحدِّ، تردَّد ثيبريانو: هل يجب عليه أن يقبل اقتراحها أم يرفض؟ لم يكن يجهل أن قبول رأيها من دون مقاومةٍ في موضوع المواجهة، التَّافه عادة، يُمْكن أن يؤدِّي إلى موضوعٍ أكثر شخصيةً وتدميرًا. وفي حالة اختيار المواجهة، يوجد احتمال أن يتصاعد سخْط زوجته، وقد ينتهي بالانتقال من الكلمات إلى الأفعال. لم ينسَ ثيبريانو أن تيو قامت بتهديده ذات ليلةٍ في الفِرَاش، خلال الأزمة التي مرَّت بها قبل زيارة الدُّكتور جالاتشي، حتَّى إنها قبضت على عنقه بيديها القويَّتين. منذ تلك اللَّحظة، اتَّخذ أمامها موقفًا غامضًا، لا يخلو من الحذر. هذا هو ما فعله ذلك الصَّباح عندما لاحظ نفورها: عدم القبول بعينين مغمَضتين، ولا الرَّفض نهائيًّا، وإنما الانتظار حتَّى تنضج الأمور. حاول أن يهدِّئها بكلماتٍ لطيفة، لكنها استمرت على هياجها. ولم تخفت المواجهة إلا عندما قادته تيو إلى مخزنٍ قديمٍ مجاورٍ انتهت من تجهيزه كغرفة نومٍ:

- «ما رأيك؟ أنا وكريسانتا جهزناها من أجلك».

نظر ثيبريانو بضيقٍ إلى النَّافذة الصَّغيرة، والأريكة التي تقوم مقام الفِرَاش في الرُّكن بجانب الصُّندوق الذي سيُستخدم أيضًا كمنضدةٍ، حيث تمَّ وضع حامل شموعٍ فضِّي. وبساط صغير تحت الفِرَاش، وخزانة من خشب الصَّنوبر، ومقعدين من الجلد وحاملٌ لتعليق الملابس، كان هذا كُلّ الأثاث. فكَّر ثيبريانو أنه طُرِد من الجنَّة، لكن، في الوقت ذاته، كان أمامه، وفي متناول يده، حلٌّ فوريٌّ للمشكلة. تراجع قائلًا:

- «حسنًا، هذا يكفي. بعد كُلِّ شيءٍ، التَّرف في غرفة النَّوم لا حاجة له».

ابتسمت تيو. عرف ثيبريانو كيف يُقدِّر جهدها، وقادته حتَّى باب الغُرفة. على يمين إطار الباب توجد ورقةٌ معلقةٌ على الحائط، حيث

قامت بصياغة ما يشبه التَّقويم. أيام الامتناع الأربعة التي أوصى بها الدُّكتور جالاتشي كانت مميزةً باللَّون الأحمر. ابتسمت بخبْثٍ شديدٍ وقالت:

- «لا تحاول خداعي. لديَّ جدولٌ مطابقٌ لهذا على رَأس فِرَاشي».

عادت المياه إلى مجاريها. كانت تيو مُبتهجةً. لم تدرك أنها قد هُزمت. من جانبه، كان ثيبريانو يستعيد حرِّيَّته، ووفقا لإرشادات دي سيسو، قرَّر زيارة الدُّكتور كاثايا. لم يجده في البيت، لكن استقبلته أمُّه، دونيا ليونور دي بيبيرو. امرأةٌ طاعنةٌ في السِّن، لكن رغم هذا كانت تَحْتَفَظ بنضارةٍ واضحةٍ. جلد طري، وعينين زرقاوين مليئتين بالحيوية. التوافق الهادئ في حركاتها، وشعرها الأبيض الكثيف، ينفيان الشَّكَّ في الخرف. يغطي جسدها رداءٌ مُطرَّزٌ حتَّى القدمين، بعنقٍ ذي طياتٍ بيضاء. كانت تبتسم أثناء الكلام، ابتسامةً تكشف عن أسنانها، كأنها عرفته طوال حياتها. بدرو حدَّثها عنه، عن ورعه، عن استقامته، عن حبِّه للأغيار. «أجوستين سيتأخَّر في العودة؛ لديه اجتماعٌ في مدرسة اللَّاهوت».

القاعة التي يجلسان فيها كانت مطابقةً لبقيَّة البيت المُعتم غير المُريح، حيث كان الأثاث الثَّقيل، كبير الحجم، يشغل معظم المساحة. فقط صالة الاجتماعات، والمصلى الذي أطلعته عليه دونيا ليونور بترحابٍ، هو المكان الوحيد الذي يشذّ عن القاعدة. كان غرفةً فارغةً على حساب بقيَّة البيت، في السَّقف عوارض مكشوفةٍ، ولا أثاث سوى منصَّةٍ صغيرةٍ عليها مائدةٌ ومقعدان، وصفوفٌ طويلةٌ من الدّكك الخشبية.

شرحت دونيا ليونور:

- «هنا نعقد اجتماعاتنا الشَّهرية. أتمنَّى أن تقوم بتشريفنا بالحضور في الاجتماع القادم. أجوستين سوف يعطيك التَّعليمات اللَّازمة».

لَمْ يكن في المصلى مَنْفذٌ للتهوية سوى نافذةٍ صغيرةٍ ناحية الغرب، مصراعها مُغطًّى ليكتم الضَّجيج والضَّوء.

عاد ثيبريانو كثيرًا إلى بيت دونيا ليونور دي بيبيرو. كانت امرأةً متفتِّحةً ودودًا، ولم يكن يضيق بتأخُّر الدُّكتور. كانت تستقبله بسعادةٍ باديةٍ وتستمع باهتمام لنكاته الظَّريفة. لم يشعر ثيبريانو من قبل أنه يحظى بالقبول. وللمرَّة الأولى في حياته، كان يستكمل حكاياته حتَّى النِّهاية، بعد أن كان يقوم دائمًا، بخجله الفطريِّ، باختصارها. وكانت دونيا ليونور تضحك بسهولةٍ، لكن بوقارٍ، من دون ضجيجٍ، ولا قهقهاتٍ مُتفجِّرةٍ، كأنها رعشةٌ متكرِّرةٌ من طرف اللَّهاة. رغم تحَكُّمها في نفسها كانت تبكي من الضَّحك، ودموعها تُشجِّع ثيبريانو الذي لم يعرف من قبل قدْرَ خفَّة ظلِّه. كان يتْبع حكايةً بأخرى، وفي الزِّيارة الرَّابعة كان قد انتهى من نكاته غير الشَّخصية، وللمواصلة، بدأ يسجِّل الطَّرائف التي كان هو أو أحد المُقرَّبين منه أبطالها. حكايات دون سجوندو، البيروفي، أو حكايات زوجته، ملكة البارامو، كانت تصيب دونيا ليونور بنوبات ضحِكٍ حقيقيةٍ. كانت تنفجر في الضَّحك من دون أن تفقد وقارها، تضحك بحسابٍ، بقرقرةٍ خفيفةٍ، بينما تمسك بطنَها بيديها النَّاعمتين المُعتنى بهما. وثيبريانو، ما أن ينطلق، لم يكن يتوقَّف أمام أيِّ حدودٍ: لقبُ زوجته، ملكة البارامو، مُستقى من كونها تجزُّ الصوف أسرعَ وأمهرَ من الرُّعاة في توروثوس. من جانبه، كان أبوها يستقبل الزَّائرين بسروالٍ مشقوقٍ جعله المُرتزقة الألمان موضةً في العام 25 في بلد الوليد. دونيا ليونور كانت تضحك وتضحك، وثيبريانو، ثملًا بنجاحه، كان يحكي بخفَّة ظلٍّ أن الدُّكتور جالاتشي نصحه بمزيجٍ من بلورات الفضَّة والحديد لزيادة خصوبته.

ذات مساء، مُتشجعًا باهتمام دونيا ليونور، أسرَّ لها بسرِهِ الصَّغير:

- «هل تعرفين أنني وُلِدْتُ في يوم الإصلاح؟».

- «لا أفهم يا سالثيدو».

- «أريدُ أن أقول إنني وُلِدْتُ في بلد الوليد، وفي الوقت ذاته كان لوثر يعلن عن نظريته في كنيسة القلعة في فيتنبرج».

- «هل هذا مُمْكن؟ أم أنك تمزح؟».

- «31 أكتوبر من العام 1571 بالتَّحديد. عمي حكى لي هذا».

- «هل كان مصيرك مُحدَّدًا إذن؟».

- «أحيانًا أوشك على القبول بهذه الخرافة».

كانت دونيا ليونور تنظر له بحنانٍ صافٍ محمَّلٍ بالإعجاب، النَّابان باديان بين الشَّفتين الورديتين. قالت بعد صمتٍ:

- «سأقترح عليك أمرًا. سنحتفل بعيد ميلادك القادم هنا، في البيت، بصحبة الدُّكتور وبقيَّة أبنائي. وليمة شكرٍ. ما رأيك؟».

أصبح كُلٌّ من دونيا ليونور وثيبريانو سالثيدو لا غنى لأحدهما عن الآخر. كان يُفكِّر كثيرًا، بعد الفشل العاطفيِّ مع تيو، أن دونيا ليونور جاءت لتحلَّ محلَّ الأم التي انتظر أن يجدها في تيو. وهكذا عندما يكون على موعدٍ مع الدُّكتور، يصل إلى البيت قبل الميعاد، فقط لأنه يرتاح في الحوار لبعض الوقت مع دونيا ليونور. وهناك، جالسَيْن على المقاعد الجلدية في القاعة الصَّغيرة كانا يتحدَّثان ويضحكان. ومن آنٍ لآخرٍ، كانت تدعوه لوجبةٍ خفيفةٍ في الظهيرة. لكن ما إن يظهر الدُّكتور، حتَّى تنهض، وتختفي تلقائيتها. لكن تواصل سلطتها الحضور من دون كلماتٍ. من دون شك، كان ذلك البيت أموميَّ النِّظام، اعترف به الأبناء ودعموه بعفويةٍ.

في المكتب الصَّغير، لصق المَصلى، كان ثيبريانو والدُّكتور يتحاوران، جالسَيْن إلى مائدة مُدمجٍ بها مجمرةٌ، لأن قداسته كان يشعر بالبرد حتَّى في شهر أغسطس. كانت الغُرفة مُبطَّنة بالكتب، وفيها نقش للوثر فوق مائدةٍ

من خشب الصّنوبر بجانب النّافذة، ولَمْ تكن فيها أيُّ زينةٍ أخرى. يومًا بعد يوم، كان ثيبريانو يتيقّن من هشاشة الدُّكتور، ووسواسه القهريّ، بقدر ما يتيقّن من فطنته، وعقله المنظّم المُثير للإعجاب. وبسبب الاهتمام الكبير لبدرو كاثايا في تقديمه له، استقبله كأنه ابنٌ لشقيقه. كانا يقضيان معًا أوقاتًا طويلةً. وكان الدُّكتور، شديد التّباهي بتمكّنه العلميّ، وكان يُعلّم سالثيدو مبادئ العقيدة الجديدة. نبرته المُقنعة وحججه سهلة الفهم كانت تساعده في مهمّته. وبالنّسبة لثيبريانو، فإن الانفراد بكلمات المُبشّر الكبير، الذي يحظى باحترام المدينة، كان باعثًا للفخر. في الوقت ذاته، بعد القبول بعدم وجود المَطْهَر، لم يكن من الصّعب على ثيبريانو قبول لا جدوى رهبنة النّساء، وتبتُّل القساوسة أو رفض الرُّهبان المُتزمّتين. المسيح لم يفرض العفّة مطلقًا على حوارييه. والقدّيس بطرس كان متزوّجًا. سالثيدو كان يوافق ويوافق. لم يكن يشكُّ مطلقًا. فما يقوله الدُّكتور بدا له كحقائقَ بديهيةٍ، موثوقٍ بها. وبسهولةٍ مُماثلةٍ رَفَضَ عادة التّقرُّب للقدّيسين، وللأيقونات والرُّفات، والعُشور التي كانت الكنيسة تستغلُّ الشّعب بها، والكهانة المؤسّسية، أو قبول التّناول بالنّوعين، وهو الأمر المنطقي في ضوء الأناجيل. كُلُّ شيءٍ كان بسيطًا بالنّسبة لثيبريانو الآن. كما لم يجادل في الاعتراف الذهنيّ. لم يشعر بالنُّفور مطلقًا من التّخلُّص من خطاياه في غرفة اعترافٍ، لكن القيام بهذا الآن، أمام الرَّبِّ مباشرةً، كان يتركه أكثر هدوءًا ورضا. حتّى أنه بدا له فعلًا أكثر اكتمالًا وصدقًا من الاعتراف المنطوق. منعزلًا في أكثر أركان المعبد عتمةً، بصمت، مُنبهرًا بالشُّعلة اللّامعة فوق المَذبح، كان ثيبريانو يقوم بالتّركيز ويصل إلى الشُّعور أنه شديد القرب من الحضور الحقيقيّ للمسيح في المعبد، حتّى ظنَّ ذات مرّةٍ أنه رآه إلى جانبه، جالسًا على الدّكّة. العباءةُ لامعةٌ، وبقعة بيضاء في وجهه المحاط بشعره ولحيته المُدبّبة الرّبّانية.

برأي ثيبريانو، لا تؤثِّر أيٌّ من تعاليم الدُّكتور على أصول العقيدة. كان معتاداً على الكلام معه ببطءٍ وهدوءٍ، لكن امتعاض المرارة لم يكن يختفي من فمه. ربما يكشف ذلك الامتعاض عن الهواجس والمخاوف التي كان الدُّكتور يحتفظ بها لنفسه. يوجد أمرٌ واحدٌ جديدٌ اصطدم به ثيبريانو: إلغاء القدَّاس. مهما بذل من جهدٍ، لم يُمْكنه الوصول لاعتبار الأحد كيومٍ عاديّ من أيَّام الأسبوع. إن لم يحضر القدَّاس، ربما بحكم العادة أكثر من التَّقوى، كان يشعر أنه يفتقد شيئاً مهمّاً. ستَّةٌ وثلاثون عاماً من الالتزام بهذا الأمر خلقت في داخله طبيعةً ثانيةً. كان يشعر بعدم القدرة على خيانتها. هكذا قال للدكتور، وعلى عكس ما كان ينتظر، لم يغضب وقال:

- «أفهمك يا بُنَي. اذهب للقدَّاس وصَلِّ من أجلنا. أنا أيضًا أجد نفسي مُضطرًّا للقيام بأمورٍ لا أؤمن بها. أحيانًا يُنصَح بالاستمرار في الممارسات القديمة لعدم إيقاظ شكوك محاكم التَّفتيش. ذات يوم يمكننا أن نخرج بعقيدتنا للنور».

- «هل نحن المسيحيين الجدد كُثْر، قداستك؟».

امتعاض المرارة يزداد على شفتيه، ورغم ذلك قال:

- «أُنظر يا بُنَي. إن انتظروا أربعة أشهر لكي يلاحقونا، سنكون في مثل عددهم. وإن انتظروا ستَّةً، يمكننا أن نفعل بهم ما يريدون أن يفعلوا بنا».

تَأثَّر ثيبريانو بِردِّ الدُّكتور. هل كان يُلمِّح إلى أن نصف المدينة كانت مصابةً بالعدوى؟ هل يريد أن يقول إن الجمهور الكبير الذي يحضر عظاته كان مُتَّفقًا مع الإصلاح؟ بالنِّسبة لسالثيدو، كان الأخوان كاثايا ودون كارلوس دي سيسو ثلاث قاماتٍ لا غبار عليها، أكثر بصيرةً من بقيَّة البشر. في أوقات عزلته كان يشكر الرَّبَّ لوضعهم في طريقه. انضمامه للمذهب وطَّد إيمانه، وقشع الهواجس القديمة: أعاد له السَّكينة. لم يعد

يضيق بالشُّكوك، وبإصراره على إتمام أعماله الطَّيبة. ومع هذا، أحيانًا، عندما يشكر الرَّبَّ على اللِّقاء مع أشخاصٍ فضلاء، تمرُّ برَأسه كالبرق، فكرة أن أولئك الثَّلاثة، شديدي الاختلاف في مظهرهم الخارجيِّ، يجمع بينهم الشُّعور بالاستعلاء. كان يهز رَأسه بعنفٍ ليطرد التَّفكير المغلوط. الشَّيطان لا يستريح، حذَّره الدُّكتور. يجب أن تكون الرُّوح يقظة. لكن لا بدَّ أن الأمر يتعلَّق بهواجسٍ عابرةٍ، كان يُفكِّر. لأنه كان يطيع كلمات مُعلِّميه، وكان يبجِّلهم. ذكائهم يفوق ذكاءه بكثيرٍ، فكان تشريفًا له الإمساك بأيديهم، وإغلاق العينين، والانقياد.

كان اليوم التَّاسع والعشرون من شهر يناير. نهض الدُّكتور من المقعد القديم، وبقوَّةٍ قرع الجرس الفضِّيِّ الذي أمسك به من فوق المائدة. دخل خوان سانشث، الخادم، شديد النَّحافة كالعادة، بوجهه المدبوغ، المصفرِّ كورقٍ قديمٍ. قال الدُّكتور:

- «خوان. أنت تعرف السَّيِّد: دون ثيبريانو سالثيدو. سوف يحضر اجتماع الجمعة. اُدْعُ الآخرين للحادية عشرة مساءً. كلمة السِّر (توروثوس)، والرَّدُّ (حرية). كالعادة، الكثير من الحرص».

حنى خوان سانشيث رَأسه موافقًا وقال:

- «ما تأمر به فضيلتك».

XII

في عزلته في المخزن القديم، شعر ثيبريانو بسعال زوجته الخفيف في الغُرفة المجاورة. جلس على الفِرَاش وانتظر بضع دقائق. لا بدَّ أن الخادمات قد ذهبن إلى الفِرَاش أيضًا في الطَّابق العلويِّ، لأنه لم يعد يسمع أيَّ ضجيجٍ. كما لم يكن بيثنتي يتحرَّك في غرفة الطَّابق السُّفليِّ بجانب الحظيرة. شعر بانقباض قلبه عندما عاد للنُّهوض. تنفَّس بعمقٍ. كان قد قام بتزييت المفاصل لكي لا تُصدر الأبواب صريرًا. على أطراف أصابعه، هبط السُّلَّم بقنديلٍ في يده، وفي الرُّدهة أطفأه ووضعه فوق الصُّندوق. لم يكن كائنًا ليليًا من قبل، لكنه كان متوتِّرًا أكثر مما يحتمل الأمر في تلك اللَّيلة لتذكُّره كلمات بدرو كاثايا في بدروسا: لكي تكون الاجتماعات ذات نفع، يجب أن تكون سريةً. التَّكتُّم والتَّواطؤ كانا سمة اجتماع هذه اللَّيلة، أوَّل جلسةٍ سرِّيةٍ يشارك فيها ثيبريانو. تكتّمٌ وتواطؤٌ، فكَّر، كانت طريقةً للتَّعبير عن كلماتٍ أخرى أكثر سخونةً، مثل الخوف والغموض. لا أحد بخلافهم يجب أن يعرف بوجود تلك الاجتماعات، لأنه في حالةٍ أخرى ستسقط ذراع محاكم التَّفتيش بلا رحمةٍ على المجموعة. على عتبة باب الشَّارع رسم الصَّليب. لم يكن يشعر بالخوف، لكن ببعض التَّوتُّر. كانت اللَّيلة باردةً لكنها هادئةٌ. شعر في عظامه ببردٍ رطب غير معهودٍ في الهضبة. أربكه

الصَّمت، لم يسمع سوى وقْع خطواته الذي يقبض قلبه، ركلات الجياد على الأرض الحجرية في الحظائر، مرور دوريةٍ من بعيدٍ... سار في العتمة تقريبًا ، رغم أنه في الأعلى، حيث تتقارب البيوت، رأى ضوءًا شاحبًا لَبنيًا. من إحدى النَّوافذ تأتي ومضات مصباحٍ بغمزاتٍ خجول، شديدة القصر، حتَّى أن بريقها لم يكن يصلُ إلى الشَّارع. على مسافةٍ بعيدةٍ للغاية، سمع صوت شخصٍ ثملٍ وركلات جيادٍ على بابٍ خشبيّ. قطع شارع كوادرا، عصبيًا ومتوتِّرًا، وحاد إلى شارع استريتشاه. في ذلك الطَّريق، شديد الضِّيق، المُنتظمة على جانبيه قصورٌ مهيبةٌ، كان هياج الجياد أكثر وضوحًا. كانت ترفس الأرض وتصهل بصبرٍ نافدٍ أثناء نومها. الخوف يجعل البرد أكثر وطأةً. في التَّقاطع مال إلى اليمين. هناك كانت الرُّؤية أفضل قليلًا، كان يرى بياضَ واجهات البيوت أوضح قليلًا، وأكثر منها سوادَ الفجوات. كان يسير في وسط الشَّارع، على يسار القناة، والصَّدى الخفيف لخطواته أمام المباني يقوده كخفَّاشٍ. وسرعان ما لمح البيت الخشبي الذي تترأسه دونيا ليونور فالتصق في سيره بواجهات البيوت. ضربات قلبه، تحت الوشاح أصبحت الآن أكثر قوَّةً. تردَّد ثيبريانو. الدُّكتور حذَّره: لا تستخدم مقرعة الباب، ستنتج ضوضاءً. اقترب من الباب لكنه لم يطرقه. فقط قال «خوان» مرَّتين بصوتٍ خفيضٍ. رغم أنه كان يعرف أن خوان سانشث هو المُكلَّف باستقبال الحضور. لم يتلقَّ ردًّا. أخرج يده من تحت الوشاح، وقرع الباب مرَّتين بظهر يده. قبْل القرعة الثَّانية سمع صوت خوان سانشث الأجش خفيضًا، يقول:

- «توروثوس».

ردَّ ثيبريانو سالثيدو:

- «حرِّية».

انفتح الباب من دون ضجيجٍ، وحيَّاه خوان سانشث. كان خوان يَتحدَّث هامسًا. سأله إن كان يعرف الطَّريق. طلب منه ثيبريانو أن يبقى بجانب الباب لأنه يعرف مكان المصلى، في نهاية الممرِّ الضَّيق. بينما كان يسير خلاله تذكَّر مُجدَّدًا الكلمات الغامضة لبدرو كاثايا: تكتمٌ وتواطؤٌ. فارتعش.

دونيا ليونور والدُّكتور كاثايا كانا جالسَين على مقعديهما، فوق المنصَّة، خلف المائدة المُغطاة بمفرشٍ أرجوانيّ. كانا في مواجهة الثَّمان دكك الطَّويلة المصفوفة تحت المنصَّة. وكانت النَّافذة الصَّغيرة في الخلف تحمل وسادةً على خصاصها، لمنع تسرُّب الضَّوء والكلمات إلى الخارج. ثيبريانو حيَّا آل كاثايا بانحناءةٍ من رَأسه. بدرو أيضًا كان حاضرًا، في الصَّف الثَّاني، ووجَّه له نظرةً متواطئةً قبل أن يجلس. شمعةٌ على مائدة الدُّكتور وأخرى مُعلَّقةٌ على الحائط القريب من مكان جلوس ثيبريانو، كانتا تضيئان القاعة بالكاد. حينئذ لمح في الرَّجل المُرافق لبدرو الملامحَ المُميَّزة للعائلة: من دون شكٍّ كان خوان كاثايا، أخًا آخر للدُّكتور، والمرأة الجالسة إلى جانبه، خوانا سيلفا، زوجته. مُوزَّعين على الدِّكك، لَمَح بياتريث كاثايا، دون كارلوس دي سيسو، دونيا فرانثيسكا دي ثونيجيا والصَّائغ خوان جارثيا. سأل هذا، الذي كان أقربهم إليه، بصوتٍ هامسٍ، عن شاغلي الصَّف الرَّابع على يسار المائدة الرَّئيسية. كانوا: هيرريثويلو، الحاصل على الدبلوم، من سكَّان تورو، وكاتالينا أورتيجا، ابنة المُدَّعي العام إرناندو دياث، والرَّاهب فراي دومينجو دي روخاس وابن شقيقه لويس. قبل بدء الاجتماع دخلت المصلى امرأةٌ طويلةٌ، ممشوقة القوام، جمالها غير عاديّ، تحمل رداءً ضيقًا يبرز الخصر، وعمامةً فوق رَأسها. أثارت غمغمةً خفيفةً بين الحاضرين. التفت الصَّائغ خوان جارثيا إليه وقال: دونيا آنا إنريكث، ابنة ماركيز ألكانيثيس. قبل دقائق من ظهور دونيا

آنا إنريكث سُمِع صوت عربةٍ تسير حتَّى التَّقاطع التَّالي. في ما يبدو، دونيا آنا تخشى الظَّلام لكنها في الوقت ذاته تتوخَّى الحرص. في النِّهاية، بعد أن أغلق الباب خلفه، دخل المطيع خوان سانشيث، برَأسه الكبير وجلده المُجعَّد، كالورق القديم، وجلس أمام ثيبريانو، على النَّاحية اليسرى للدكَّة الأولى. كانوا جميعًا ينظرون باهتمامٍ إلى الدُّكتور وأمِّه، فوق المنصَّة، وما إن توقَّفت الغمغمات، سعلت دونيا ليونور وأشارت إلى بدء الجلسة بقراءة أنشودةٍ بديعةٍ كان إخوتهم في فيتنبرج ينشدونها كُلَّ يومٍ، لكنهم، في هذه اللَّحظة، يجب أن يكتفوا بقراءتها. تحدَّثت دونيا ليونور بصوتٍ بطيء، جيد النُّطق، قويٌّ، لكنه مكتومٌ. نظر ثيبريانو إلى دونيا آنا، التي كان عنقها الطَّويل يشبُّ عن الرِّداء، ومُزَّيناً بعقدٍ من اللُّؤلؤ، ورآها تحني رأسها وتعقد أصابع يديها في ورعٍ.

توقَّع ثيبريانو العثور على إشاراتٍ مُحرَّمةٍ في مقاطع الأنشودة:

«اشكروا الرَّبَّ في كُلِّ لحظةٍ
سيظلُّ الثناء عليه على لساني دائمًا
روحي تتمجَّد بمدح الرَّبِّ
فليسمعه البؤساء، وسيبتهجوا».

دونيا ليونور التي وجدت أن المقطع الأوَّل باردٌ، رفعت من حماستها مع بداية الثَّاني، لكن الدُّكتور دقَّ بخفَّةٍ على المائدة بكوعه وخفضت من صوتها:

«امدحوا الرَّبَّ معي
فلنهتف كلنا باسمه
لأنني ناديت الرَّبَّ وردَّ عليَّ،
حرَّرني من كُلِّ المخاوف».

رفعت آنا إنريكث رأسها، سعلت وابتسمت بعذوبةٍ. مال الدُّكتور على أمه وتبادل معها كلماتٍ قليلةٍ. دونيا ليونور كانت تُنفِّذ جدول اليوم، وهو، مثل العازف المنفرد، ينتظر نهاية السَّهرة. الصَّمت كان تامًا في القاعة عندما قالت دونيا ليونور إن الاجتماع سوف يدور حول الرُّفات وخرافاتٍ أخرى، وفي البداية سوف تقوم بقراءة محاورات لاتانثيو وأرثيديانو من كتاب ألفونسو بالديس، محاورات حول ما حدث في روما. قالت: «النَّصُّ يثير الضَّحك، لكنني أرجوكم أن تستقبلوه بشيءٍ من الكتمان نظرًا للسَّاعة والمكان الذي نجتمع فيه». نظر ثيبريانو إلى آنا إنريكث، رَأسها المرفوع، والعنق الأبيض الذي يظهر من الرِّداء الأحمر، ويدها اليمنى المُعتنى بها بشدة، مُمسكةً بظهر المقعد الأماميِّ. قبل أن تبدأ دونيا ليونور في القراءة، نبَّهت إلى أن عددًا ليس بالقليل من هذه الاعتقادات السَّاذجة ما زال حاضرًا في الكنائس والأديرة وإنها تحظى بالاحترام كأنها من أسس الإيمان. فتحت الكتاب في مكانٍ يحدِّده شريطٌ وقرأت: «لاتانثيو»، وبعد برهة من الصَّمت واصلت:

«إنك تقول حقيقةً كبيرةً، لكن فَكِّر أن الرَّبَّ سمح لسببٍ ما بالخداع الذي يتمُّ باستخدام هذا الرُّفات للاستيلاء على أموال البسطاء، لأنك ستجد رفاتًا كثيرًا يعرضونها عليك في مكانين أو ثلاثة. إن ذهبت إلى دورا، في ألمانيا، سيعرضون عليك رَأس القدِّيسة آنا، أمُّ سيدتنا مريم. وهو ذات ما سيعرضونه عليك في ليون، بفرنسا. بالطَّبع إحداهما مزيّفة، إن لم يكن رأيهم أن سيدتنا مريم كان لها أُمَّان، أو أن القدِّيسة آنا كانت برَأسين. ولكون الأمر كذبةً، ألا ترى أن خداع النَّاس شرٌّ كبيرٌ وأيضًا تكريم جسدٍ ميتٍ، ربما يكون لشخصٍ مشنوقٍ؟ أيهما أقلُّ لياقةً: عدم العثور على جسد القدِّيسة آنا، أو بدلًا منه، تكريم جسدِ امرأةٍ من دون أصلٍ

ولا فصلٍ؟

أرثيديانو:

أُفضِّل ألّا يظهر ذلك الثَّاني ولا أيُّ جسدٍ آخر شبيهٍ، وألّا يجعلوني أُبجِّل عاصيًا بدلًا من قدِّيسٍ».

وافق ثيبريانو على كلمات دونيا ليونيور، وحنى رَأسه مؤيدًا الإجابة الذَّكية لأرثيديانو.

واصل صوت دونيا ليونور:

«لاتانثيو:

ألا تجد أَفضل من هذا أن يتمَّ دفن جسد القدِّيسة آنا، الذي يقولون إنه موجودٌ في دورا وفي ليون؟ وألّا يظهر مطلقًا، وألّا يخدعوا كُلَّ هؤلاء النَّاس بأحدهما أو بالآخر.

أرثيديانو:

نعم، هذا حقيقيّ.

لاتانثيو:

وهكذا، على النَّهج ذاته سوف تعثر على رفاتٍ لا نهاية لها في كُلِّ العالم، ولن يكون هناك سوى القليل مما لم يتم العثور عليه. فلتكن إرادة الرَّبِّ أن يضع نهايةً لهذا. لقد رأيت قلفة السَّيِّد المسيح في روما وفي بورجوس وأيضًا في نويسترا سنيورا دي أوفيرين (غمغمة وضحكاتٍ). ورأيت رَأس سان خوان بابتيستا، في روما وفي أمينس، فرنسا (همساتٌ وضحكاتٌ). يمكنك أن تقوم بذِكْر اثني عشر حواريًا. ورغم أنهم لم يكونوا سوى اثني عشر، سنجد أربعةً وعشرين في أماكنٍ مختلفةٍ في العالم. مسامير الصَّليب، كما كتب أوسيبيو، كانت ثلاثةً، أحدهما ألقته القدِّيسة

إيلينا في البحر الأدرياتكي لتَّهدئة العاصفة، والآخر صهرته لصنع خوذةٍ لابنها، ومن الثَّالث صنعت لجامًا لجوادها..».

فجأة سُمِعت خطواتٌ وأصواتٌ عاليةٌ في الشَّارع. على الفور توقَّفت ضحكات المُجتمعين المكتومة. وتوقَّفت دونيا ليونور عن القراءة ورفعت رأسها. ساد صمتٌ كبيرٌ؛ توقَّف الحضور عن التَّنفُّس مُتعلِّقين بالمنصَّة. رفع الدُّكتور كاثايا يده البيضاء النَّحيفة وأخفى شعلة الشَّمعة. وهكذا فعل سيبريانو مع الشَّمعة القريبة في كوَّة الحائط. كانت الأصوات تقترب. نظرت دونيا ليونور إلى الحاضرين واحدًا تلو الآخر كأنها تريد أن تشعرهم بالأمان. بدا أن المجموعة توقَّفت أمام البيت، وفجأة زعق صوتٌ قويٌّ: «كانوا يريدون الذهاب معًا». لم يشك ثيبريانو أنه تمَّ الكشف عنهم، وأن شخصًا وشيَ بهم. انتظر القرع على الباب متوتِّرًا، لكن هذا لم يحدث. بدلًا منه سمع كلمةً أخرى أمام البيت، «مرتزقة». بعد ذلك سمع وقْع خطواتٍ ونقاشاتٌ متداخلةٌ مرَّةً أخرى. كانت وجوه المجتمعين قد شحبت والخوف يطلُّ من أعينهم. لكن، شيئًا فشيئًا، بينما كانت الخطوات والأصوات تبتعد، عاد الدَّم إلى وجوههم، باستثناء الدُّكتور الذي كان شحوبه شفَّافًا، زجاجيًّا. واصلت المجموعة ابتعادها، وما أن تحوَّلت الأصوات إلى غمغمةٍ، أطلق الدُّكتور ضوء الشَّمعة، ودونيا ليونور التي لم تفقد سكينتها، أخذت الكتاب وقالت ببساطةٍ، سنواصل. واستأنفت القراءة:

«... ومن الثَّالث صنعت لجامًا لجوادها - كرَّرت - والآن يوجد واحدٌ في روما، وثان في ميلانو، وثالث في كولونيا، ورابع في باريس، وخامس في ليون، وأُخَر لا حصر لها (عادت الضَّحكات أكثر بهجةً). وهكذا، إن كان كُلُّ ما يُقال عن قائم الصَّليب حقيقيٌّ، فسيكفي لملء عربةٍ بالحطب. الأسنان التي

بدَّلها السَّيِّد المسيح عندما كان طفلًا تتجاوز الخمسمائة، وهي المعروضة الآن في فرنسا فقط. ولبن السَّيِّدة مريم، وخصلاتٌ من شعر المجدلية، ولا حصر لضروس سانت كريستوبال. وبغضّ النَّظر عن الشَّكِّ في هذا، فإنه لعارٍ كبيرٍ للغاية معرفة ما يخبرون به النَّاس في بعض الأماكن. ذات يومٍ، في ديرٍ قديمٍ للغاية، أطلعوني على أرفف الرُّفات التي لديهم، وبين أشياءٍ أخرى رأيت أحدها مكتوبًا عليه: «قطعةٌ من وادي الجوز». سألت إن كانت من النَّهر أو من أحجار ذلك السَّهل، فقالوا لي ألّا أسخر من الرُّفات. يوجد قسم آخر بعنوان: «من الأرض التي ظهر بها المَلاك للرُّعاة». ولم أجرؤ على سؤالهم عن معنى هذا. إن رغبت يمكنني أن أذكر أشياءَ أكثر سخافةً وإثمًا يقولون عادةً إنهم يمتلكونها، مثل جناح الملاك جبريل، وظلُّ عصا القدِّيس يعقوب الكبير، وريش من الرُّوح القُدس، وجزء من صدرية الثَّالوث، وأشياء أخرى لا نهاية لها شبيهة بهذا، ولكي نموت من الضَّحك. فقط سأقول لكم إنهم أطلَعُوني قبل أيامٍ قليلةٍ في مدرسةٍ كنسيَّةٍ على ضلعٍ للقدِّيس المُخلِّص. إن كانَ هناك مُخلِّصٌ آخر، غير المسيح، وإن كان قد ترك هناك ضلعًا أم لا، فهذا أمر يخصُّهم.

أرثيديانو:

هذا، كما تقول، بالفعل، مضحكٌ أكثر منه مُبكيًا».

الأجزاء الأخيرة أضاءت وجه دونيا ليونور بابتسامةٍ واسعةٍ. أغلقت الكتاب ونظرت إلى الحضور ببهجةٍ واضحةٍ، في أثناء ذلك، كان الدُّكتور، الذي لم يسترد لونه كُلِّيَّةً، قد أزاح أدوات الكتابة قليلًا وعقد ذراعيه فوق المائدة كما اعتاد أن يفعل على المنبر في اللَّحظات المفصلية. في انتهازٍ

للتَّوقُّف سُمِعت في الصَّالة بعض السَّعلات والنَّحنحات. لكن لدى رؤية استعدادات الدُّكتور، ساد الصَّمت من جديدٍ. صوت كاثايا، القويُّ الرَّنان في العِظات، كان يبدو الآن أكثر ثقةً وحميميَّةً عنه في الكنيسة. أشار إلى الحوار الشَّهير بين لاتانثيو وأرثيديانو، الذي استمعوا للتَّوِّ لجزءٍ منه، وقال إنه كان مُعبِّرًا ومرِحًا في حدِّ ذاته، إن أيَّ تعليقٍ لا أهمية له تقريباً. لكن، مُعجَبًا كالعادة بالنِّظام والتَّرتيب، قال إنه ينتهز فرصة القراءة، وسيقول كلمتين عن الموضوع الذي يتناولونه: الرُّفات.

كان الحضور قد شرد قليلًا، كُلٌّ منهم ينظر إلى الآخر، ويتبادلون التَّحية بإيماءات الرُّؤوس. لاحظ ثيبريانو أن دون كارلوس دي سيسو يلتفت كثيرًا إلى آنا إنريكث. وأن الحاصل على الدبلوم هيرريثويلو كانت عنده ندبةٍ تبدأ من شفته العليا وتطبع وجهه بتعبيرٍ دائمٍ لا يعرف إن كان من الفرح أم التَّقزُّز.

من جانبها كانت عائلة كاثايا قد أصبحت أكثر هدوءًا. بالنِّسبة للبعض كانت كلمة الأمِّ أكثر جاذبيةً من حديث الدُّكتور، والكثير منهم ضحكوا بحياءٍ خلال قراءتها لحوار لاتانثيو وأرثيديانو. في هذه الظروف بدأ الدُّكتور تعليقه القصير على النِّص. عاد ليذكر السُّخرية اللَّاذعة لبالديس، ونبَّه إلى أن تبجيل الرُّفات كان راجعًا في الغالب إلى افتراءاتٍ حول المسيح أو القدِّيسين، وكانت كما يقول لوثر «تثير ضحك الشَّيطان». خلال بضع دقائق حاول أن يُبرهن على أن الرُّفات غير ضروريةٍ، وليست فقط عديمة النَّفع وإنما ضارَّةٌ بالنِّسبة للكنيسة، ويجب أن نجتهد لاقتلاع هذه الطقوس الصِّبيانية من عاداتنا الدِّينيَّة. وبهذه المهارة الطَّبيعية لدى الدُّكتور في الرَّبط بين خيطين في الإبرة ذاتها، انتهى مُتحدِّثا عن مشكلة الغفران، كثيرة الحضور في عظاته، لكي يقول إن الغفران، للأحياء والأموات، يتمُّ دائمًا عن طريق المال، واختتم

مؤكِّدًا أن هذه التِّجارة لم تكن تفتقد فقط للمرجعية الإنجيلية، وإنما كان بديهيًا إنها تفسح المجال للخداع.

كلماته الأخيرة سقطت على حضورٍ مُجهَدٍ. تابع ثيبريانو ما يحدث باهتمامٍ. لكنه ارتبك عندما قامت دونيا ليونور، بعد انتهاء خطبة الدُّكتور، بالابتسام له من فوق المنصَّة وحيَّته بصوتٍ عالٍ، قالت: «إنه رجلٌ كريمٌ وورعٌ، سيكون تعاونه ذا نفعٍ كبيرٍ لنا». التفتوا كلهم إليه وأومأوا برؤوسهم. وحينئذ قالت دونيا آنا إنريكث، إنه يجب إضافة خبرٍ آخر إلى الخبر الجيد لانضمام السَّيِّد سالثيدو للمجموعة: يوجد شخصان قريبان للغاية من العرش، لهما نفوذٌ سياسيٌّ كبيرٌ، على اتصالٍ بأحد الإخوة، ولن يتأخر انضمامهما. بدرو كاثايا، الذي كان بادي الضِّيق بهذا التَّفاؤل الذي لا محل له، ردَّ بوجوب التَّصرف بحذَرٍ وحِرصٍ، فالتَّسرُّع لا يؤدِّي لنهايةٍ جيدةٍ. وإن بدا في البداية أن انضمام أشخاصٍ ذوي نفوذٍ للطائفة سيكون مفيدًا، لا يجب نسيان المخاطر التي تصحب مثل هذا الانضمام. من جانبها، أكدت دونيا كاتالينا أورتيجا أنها تعرف من مصدرٍ موثوقٍ، أن عدد اللوثريين في إسبانيا كان يقرب السِّتَّة آلافٍ، وأنه في مجالس البلاط، يسري همسٌ بأن الأميرة ماريا وملك بوهيميا ذاته، كانا مُتعاطفَين معهم. فَمٌ ينقل العدوى للآخر. خوانا دي سيلفا، زوجة خوان كاثايا، الذي كان قليل الكلام بطبعه، قالت إن ملك إسبانيا ذاته كان مُتعاطفًا مع الحركة الإصلاحية، لكن التزامات البلاط لم تكن تسمح له بالتَّعبير عن هذا الرأي. كما يحدث عادةً في كُلِّ الاجتماعات، كان تنتشر الحماسة، وفي محاولة للنُّزول بالتَّوقعات إلى أرض الواقع اليوميّ، أخذ هيرريثويلو الكلمة، وأوضح أن كُلَّ هذه الانتصارات الخرافية كانت من طبيعة الأنشطة السِّرِّية، مثل التي يشتركون بها، ولا تقود لأيِّ شيءٍ عمليّ، سوى خلق آمالٍ زائفةٍ. أيَّد الدُّكتور آراء هيرريثويلو بحرارةٍ وأعلن أنهم سيحتفلون بالقربان المُقدَّس

في نهاية الاجتماع. بحماسة، من دون تغيير ملابسه، وباستخدام كأسٍ كبيرة من الكريستال وصينيةٍ من الفضَّة، بينما كان الحضور راكعين، بارك دون أجوستين كاثايا الخبز والنَّبيذ ووزَّعهما بعد ذلك على الحاضرين الذين اصطفوا أمامه. وعادوا الواحد تلو الآخر بسعادةٍ إلى مقاعدهم، وأنهى الدُّكتور الاجتماع بمناولة أمِّه فوق المنصَّة. بعد صلاة الشُّكر، أخذ الدُّكتور، الواقف على قدميه، قَسَمَهم على الإنجيل بألّا يكشفوا سرَّ الاجتماعات لأيِّ شخصٍ مُطلقًا، وألّا يشوا بأخٍ في زمن الاضطهاد. بعد «نقسم» قوية، التي ردَّدها المجتمعون، انحلَّ الاجتماع وتجمَّع البعض حول المنصَّة، مُعلِّقين بصوتٍ خفيضٍ على الأحداث الأخيرة. خلال بضعِ دقائق أصبح ثيبريانو سالثيدو نقطة الجذب الأساسية، يشدُّ على أيادٍ، ويتلقّى تهنئاتٍ. الكفء خوان سانشيث نظَّم الخروج الحذر من الصَّالة بتكوين ثنائياتٍ تخرج من البيت كُلَّ دقيقتين. بعد خروج أوَّل شخصين عاد للمصلى وأعلن الخبر قائلًا:

- «الثلج يتساقط».

لكن بدا أن أحدًا لم يسمعه. كانت المجموعة تبسط عضلاتها بعد ساعة ونصف الساعة من السُّكون. وآنا إنريكث التي سألها ثيبريانو عن محلِّ إقامتها، أخبرته أنها تقيم في جزء من العام في ثامورا والجزء الآخر في الضَّيعة التي يمتلكها والدها في بلد الوليد، على الضَّفة اليسرى من تقاطع نهر بيسوريجا مع نهر دويرو. ودعته لزيارتها لكي يتحدَّثا عن العقيدة ويشدُّ كلٌّ منهما من أزْر الآخر. من جانبه، عبَّر هيرريثويلو الحاصل على الدبلوم عن شكوكه في فعالية الاجتماعات، وإن كان نفعها المُفترض يعادل الخطر الذي يتعرَّضون له، وإن لم يكن أكثر نفعًا وأقل خطرًا أن يتمَّ الاتِّصال بين الأعضاء بواسطة رسائل دوريةٍ شهريةٍ. أقرَّ الدُّكتور أن الاعتماد على الطَّريقتين بالتَّزامن لن يكون سيئًا، لكنه دافع عن الاجتماعات كوسيلةٍ

وحيدةٍ مُمكنةٍ للتَّعايش والمشاركة في المناولة. خوان سانشث، بعد أن رأى فشل تحذيره الأوَّل، وأن الشَّخصين التَّاليين يتأخَّران في الخروج، كرَّر:

- «الثلج يتساقط».

وحينئذ فقط صدرت التَّعليقات، والتَّحذيرات وأخذوا يغادرون البيت اثنين وراء اثنين، وفي النِّهاية، بمفرده، خرج سالثيدو إلى الشَّارع، ولمح شيئًا من البريق في الندف المتساقط. كانت الرُّؤية أفضل منها قبل ساعتين، والجوُّ أكثر صفاءً، والثلج المتراكم على الأرض يغذِّي هذا الانطباع. ارتدى الوشاح وابتسم في داخله. كان يشعر بالسَّعادة والحماية، ويشعر بالفخر. لكن أكثر من إطراءات التَّرحيب، كان متأثِّرًا بالاجتماع في حدِّ ذاته. في عقله المضطرب كان يبحث عن الكلمة المناسبة لوصف هذه الحالة، وعندما وجدها ابتسم ابتسامةً عريضةً وفَرَكَ يديه تحت الوشاح: أُخُوَّة؛ هذه هي الكلمة المناسبة، وهذا ما يعتقد أنه وجده بين زملائه في العقيدة. ذلك الاجتماع السِّرِّيّ كان لقاءَ أخوَّةٍ قائمًا على الإيمان والخوف، مثل المسيحيِّين الأوائل في سراديب المدافن، ومثل اجتماعات الحواريِّين بعد صعود المسيح. كان يشعر بإحساسٍ لا يُمْكن وصفه، وأحيانًا يشبِّهه بأفعى باردةٍ فوق العمود الفقريِّ. كان واعيًا بأنه في بداية شيءٍ ما، وأنه أصبح عضوًا في جماعةٍ أخويةٍ حيث لا يسأل أحدٌ عن اسمك لكي يغيثك. من الخادم خوان سانشث حتَّى الأرستقراطية آنا إنريكث، يبدو أن الجميع يحظى هناك بالاحترام نفسه. أُخُوَّةٌ من دون طبقاتٍ، قال لنفسه. وفي لحظة نشوةٍ عاطفيةٍ فكَّر في إمكانية تقاسُم سعادته مع أصدقائه وعامليه، مارتين مارتين، ديونيسيو مانريكى، وحتَّى عمَّيه جابريلا وإجنائيو. فكَّر أنه ليس بعيدًا عن العالم الأخويِّ الذي حلم به منذ طفولته.

فجأةً رأى نفسه في عالمٍ مثاليٍّ يفوق الوصف، كحواريٍّ ينشر العقيدة

الجديدة، وينظِّم الاجتماعات الجماهيرية، ربما في متجر الحيِّ اليهوديِّ، حيث يقوم رعاةٌ ودبَّاغون وحائكون وصيادون وسائقون بالثناء معًا على السَّيِّد المسيح. وبعد ذلك، يتجمَّع مئاتٌ من أبناء بلد الوليد لينشدوا، من دون أيِّ اعتراضٍ، التَّراتيل التي تتلوها الآن دونيا ليونور خلسةً مع بدء الجلسات.

في الظَّهيرة التَّالية، زار دونيا ليونور وابنها. كان يعرف عن طريق بدرو كاثايا وكارلوس دي سيسو بوجود مجموعاتٍ مسيحيةٍ صغيرة في أبيلا وثامورا وتورو، هي امتداداتٌ للنَّواة الأهم في بلد الوليد، حيث يتم الاتِّصال بهم من آنٍ لآخر عن طريق كريستوبال دي باديبا، خادم ماركيزي ألكانيثيس، وخوان سانشث. لكن تحرُّكات هذَين، وحصيلتهما الثَّقافية البسيطة العشوائية، وافتقادهما اللَّباقة، كان يؤرِّق الدُّكتور جدًّا. يجب الاهتمام بشكلٍ أكبرٍ بتلك الاتصالات، وثيبريانو يُمْكن أن يقوم بهذا. ابتهج الدُّكتور لتطوُّعه. كان لديه الكثير من الحذر والموهبة والمال، للاضطلاع بالمهمَّة. بعد ذلك تتبقَّى الأندلس. كانوا أكثر بُعْدًا باطِّرادٍ عن المجموعة اللوثرية في الجنوب، في إشبيلية، وتبادُل الآراء كان محفوفًا بالمخاطر وغير منتظمٍ بسبب ملاحقة محاكم التَّفتيش. الإشبيليون يَعْلمون أن أيَّ بريدٍ يتمُّ اعتراضه يعني تفكيك بؤرتَيْ البروتستانتية في بضع ساعاتٍ. ولهذا كان انقطاع الاتصال بين المدينتين كاملًا تقريبًا. ولهذا كان دون أجوستين كاثايا ينظر برضا إلى عرْض وتطوُّع سالثيدو. يُمْكن لثيبريانو أن يبدأ بقشتالة وينتهي في الأندلس. كان فارسًا جيدًا، ولم يكن يكترث بوقتٍ أو مالٍ. بدأ بزيارة الأديرة الثَّلاثة التي كان فيها أتباعٌ، والتي لم يتمُّ الاتِّصال بها منذ شهورٍ: سانتا كلارا، سانتا كاتالينا وسانتا ماريا ديل بيلين. حَمل خطاباتٍ تقديمٍ للرَّاهبات وعقَد حواراتٍ مع المشرفات عبر ستارٍ: إيوفروسينا ريوس، ماريا دي روخاس وكاتالينا دي رينوسو، بالتَّرتيب.

ثلاثتهن كنَّ تابعاتٍ مخلصاتٍ، لكن الدُّكتور يرغب في معرفة إن كانت الأفكار الجديدة تنتشر بين الرَّاهبات أم أنها راكدةٌ. بحسب كلمات الدُّكتور، كان نشرها في الأديرة مخاطرةً، حيث يوجد مُتعصِّبون مُستعدون للوشاية إلى محاكم التَّفتيش. أكَّدت له إيوفروسينا ريوس مخاوف الدُّكتور في دير سانتا كلارا. رغم هذا، توجد إحدى الرَّاهبات، إيدلفونسا مونيث، شديدة الإيمان بالإصلاح، هي من أدخلت مقال لوثر (حريَّة المسيحيِّ) إلى الدَّير، وكانت تبحث عن أفضل طريقةٍ لنشره. كان الوضع أسوأ في دير سانتا كاتالينا، حيث، لم يتطور أيُّ شيءٍ، باستثناء حماسة ماريا دي روخاس ونظرًا للظروف، حسبما أخبرته الرَّئيسة، كان من الأفضل عدم المحاولة. المفاجأة جاءت من دير بيلين، من طرف كاتالينا دي رينوسو، رئيسة الدَّير. عبر السِّتار، بصوتها الأنفيِّ، شديد الحياء، أخبرته بانتشار الأفكار الجديدة خلف الأسوار. الكثير من الرَّاهبات اعتنقن نظرية (نعمة المسيح) وسهَّلت له الأسماء: مارجاريتا دي سانتيستبان، مارينا دي جيفارا، ماريا دي ميراندا، فرانثيسكا دي ثينيجه، فيليبا دي هيريديا وكاتالينا دي ألكاثار. بقيَّة المجموعة كنّ في طريقٍ جيدٍ. فقط كانت تطلب من الدُّكتور أمرين: كُتُبًا بسيطةً والقليل من الصَّبر. دَوَّنَ ثيبريانو أسماء المسيحيَّات الجدد وضمها للقائمة التي يحتفظ بها في مكتبه، والتي كانت تنمو يومًا بعد يومٍ.

قبل السَّفر لأبيلا وثامورا، كَلَّف ثيبريانو الطَّابعَ أجوستين بيثيريل بطبعةٍ من مائة نسخةٍ من «نعمة المسيح»، استنادًا على مخطوط بدرو كاثايا. بيثيريل، الرَّجل البخيل، قبِل التَّكليف مقابل مَبلغٍ سخيٍّ، وبحساب المزايا والمخاطر، التزم بطبْع النُّسخ بشرط ألا يعرف أحدٌ عن العملية. هو بنفسه، من دون مساعدةٍ، قام بتنفيذ الطَّبعة. وذات ليلةٍ، بعد مرور شهرٍ، كان ثيبريانو يتسلَّم اللُّفافة بعربته من الباب الخلفيِّ للمطبعة. القدرة على توفير مائة نسخةٍ من «نعمة المسيح» كان حدثًا حظي بالكثير من التَّعليقات

والاحتفاء في اجتماع السَّادس عشر من فبراير. الآن، يَجِبُ توزيع الكتب بحرصٍ، من دون تسرعٍ، سعيًا لأكبر قدر من النَّجاح في نشره.

في أبيلا التقى دونيا جيمومور دي أويوا، امرأةً من الأرستقراطية، وكانت من آنٍ لآخر تعقد مجالس مسيحيةً في قصرٍ ملاصقٍ للسُّور. تلك المرأة كانت تكشف عن قدرٍ كبيرٍ من النُّبل الذي يتضاعف عندما تتحدَّث. نشاطها كان بسيطًا، ولا يُمْكن أن يكون غير هذا، كما قالت: «الكاثوليكية التَّقليدية تهيمن على المدينة، شديدة الانغلاق». في المقابل، كانت اجتماعاتها مشهورةً بالرُّقيِّ والجدِّيَّة. زار بيتها فراي بدرو دي ألكانتارا، وفراي دومينجو دي روخاس، وتيريسا ثيبيدا ومجموعةٌ أخرى من الشَّخصيات المهمة. ثيبريانو كان يستمع إليها بإعجابٍ، جالسًا على الأريكة، مُحاطًا بالوسادات مثل سلطانٍ. وقالت السَّيِّدة: «كما جاء الدُّكتور كاثايا بعد وقتٍ قصيرٍ من عودته من ألمانيا». وبمناسبة زيارته، دعت الإخوة في المحافظة. لويس دي فروتوس الحَلاق في بيدرايتا، الصَّائغ ميركادال، من بينيارادا وبراكامونتي، وابن شقيقها بيثنتي كاريتيرو. استمع الدُّكتور لهم جميعًا، واحدًا واحدًا، وترك ذكرى طيبة عن زيارته، رغم أنه شخصيًا، رَحَل محبَطًا. قال إنها محافظةٌ صعبةٌ، قاحلةٌ، ووافقت دونيا جيومور. ثيبريانو سالثيدو يَشْرَب الآن في الأواني نفسها، ويتبادل الآراء مع الأشخاص ذاتهم، لكن لوثيانو ميركادال، الصَّائغ، كان يبدو شديد التَّشاؤم مثل دونيا جيومور. بالفعل كانت أبيلا العاصمة، شديدة التَّقليدية، لكن في بينيارادا وبيدرايتا كانت هناك جوانبُ في طريقها للتَّحسُّن، وهو كان يعمل على هذا. في بينيارادا، يُمْكن أن يعتمد على دونيا ماريا دولورس ريبويدو، وماورو رودريجث، ودون رافايل بيلاسكو، كمخلِصين، وفي بيدرايتا يُعتمَد على النَّجَّار بدرو بورجينيو، الذي يقود مجموعةً ثلاثيةً مُبشِّرةً.

من هناك خرج ثيبريانو إلى ثامورا، ثم إلى قرية البالو. في الطَّريق، لاحظ

لأوَّل مرَّةٍ نوبات إرهاقٍ مفاجئةٍ عند جواده رلامباجو، وكانت تقلقه. لم يمرض الحيوان من قبْل وهذه البوادر تبدو خطيرةٌ. فجأةً لم يعد ذلك الجواد الذي لا يعرف الإرهاق، والقادر على قطع الطَّريق مرَّةً واحدةً من بلد الوليد إلى بدروسا بخطى سريعةٍ. صار بحاجة لأوقات راحةٍ بالسير بخطى بطيئة. فنوبات الإرهاق المفاجئة التي تظهر عليه الآن، ويتبعها ضيقٌ في التَّنفس، أمر جديد، وتكشف أن رلامباجو قد هَرِم. لم يعد جواداً جديرًا بالثقة لرحلاتٍ سريعةٍ. بعد عودته سوف يستشير أنيانو دومينجو، التَّاجر الخبير بالجياد في ريوسيكو. ربّت على عنق الجواد وكان الحيوان يفرز عرقًا غزيرًا. ورغم هذا وصل في موعده إلى لقاء بدرو سوتيلو، الذي كان المُبشِّر كريستوبال دي باديبا يجد في بيته ملاذاً آمناً وأيضًا مكانًا مناسباً لعقْد الاجتماعات. سوتيلو كان رجلًا كسولًا، متورِّم الخدَّين، أمرد. كان يُشكِّل مع باديبا ثنائيًا مضحكًا: هو قصير، بمؤخِّرة ضخمة، مترهِّل البطن. وباديبا نحيفٌ كأنه قطعة عظامٍ، بخصلات شعر حمراء، ناعمة، مُهمَلة. رغم هذا، كان كُلٌّ منهما يثق في الآخر ويبدوان ملتصقَين. لكن ثيبريانو شعر بالضِّيق للتَّهوُّر الذي يتصرَّف به كلاهما. في اجتماعاتهما، في منتصف النَّهار، لم يكونا يفرضان رقابةً ولا كلمات سِرّ. أيُّ شخصٍ يمكنه دخول البيت، وهو ما كان يجعل الاجتماعات مفرطة الحماسة وعنيفة، من دون أسبابٍ تدعو لهذا. عندما وصل ثيبريانو وجد إلى جانب المُنسِّقَيْن كُلٌّ من دون خوان دي أكونيا، ابن الوالي بلاسكو، حديث الوصول من ألمانيا؛ أنطونيا دي أجيلا، راهبةٌ من دير إنكارناثيون؛ والحاصل على الدبلوم هيرريثويلو، ونصف دستةٍ من الأشخاص المجهولين. لكن، قبل أن يمزح أكونيا مع الرَّاهبة، دخل اثنان من اليسوعيين وجلسا في الصَّفِّ الأخير. وفي هذه اللَّحظة تحديدًا كان خوان دي أكونيا يقُول لأنطونيا دي أجيلا بسخريةٍ إن الرَّبَّ تفضَّل عليها بنعمة الرَّهبنة لأنها لا تصلح للزَّواج، وهو ما ردَّت عليه الرَّاهبة، بغضب شديدٍ، إنها لم تصبح راهبةً

بعد، لكنها كانت تفكر أن تتحوَّل إلى راهبةٍ رغم الإعفاء السَّابق من البابا. حينئذ رد أكونيا، بتهوّرٍ، أن الإعفاء من نذور العفَّة لم يكن بيدِ البابا. وفي تلك اللَّحظة، قام أكثر اليسوعيِّيْن شبابًا وطلاقةً، بالتَّدخُّل قائلًا إنه عاد مؤخرًا من ألمانيا ولاحظ أن اللوثريين يعيشون هناك في انحلالٍ كبيرٍ، ويعطون مثالًا سيئًا، بينما كان القساوسة الكاثوليك، يعيشون بكثيرٍ من التَّقشُّف والاستقامة. الاستفزاز كان واضحًا، لكن دون خوان تصرَّف بشجاعةٍ وقبِل التَّحديَّ، وقال إنه عائدٌ من ألمانيا أيضًا، وأن ما رآه لا يتَّفق مع ما أعلنه قداسته. فسأله اليسوعيُّ الشَّاب عن الانطباعات التي خرج بها من رحلته؟ وأكونيا، من دون أيِّ تردُّدٍ، أجاب بأنها ثلاثةٌ أساسيةٌ: ورع المُبشِّرين اللوثريين، واجتهادهم لكي يلتزموا بالاستقامة، وامتلاكهم زوجاتٍ وليس مَحظيَّاتٍ. اليسوعيُّ الآخر، الأكبر عمرًا، حاول التَّدخُّل، لكن دون خوان كبح نيَّاته قائلًا: «لحظةً، قداستك، لم أنتهِ بعد». وبعد ذلك، من دون مداراة، انطلق في انتقاد رجال الدِّين الكاثوليك الألمان، الذين كانوا، بحسب كلماته، يأكلون ويشربون من دون حساب، ويحتفظون في بيوتهم بالمحظيَّات، والأسوأ أنهم كانوا فخورين بهذا ويعلنون عنه. شعر ثيبريانو بالانزعاج، وكان توتُّره يزداد مع تركُّز الجدال حول تفاصيل الحياة الدِّينيَّة في وسط أوربا. كانت عيناه تتنقّلان بين سوتيلو وباديا، لكن لم يكن أيٌّ منهما على استعدادٍ للتَّدخُّل في الجدال وتهدئته. فكّر أن هذه هي طبيعة اجتماعات قرية البالو، وارتعش. لكن ما زال خوان دي أكونيا يصيح أنه كان معروفًا للجميع ومشهورًا أن أحد الأسباب التي تدفع الألمان إلى إغلاق الأديرة، هي حياة الفُجور التي تُمَارَس فيها، وفي هذا الصَّدد، كانت طائفة لوثر أقلَّها سوءًا.

أدرك ثيبريانو أن الكلمات تجاوزت المقبول، ولم يعد من السَّهل توجيه النِّقاش نحو مسالك أخرى. اليسوعيُّ الأكبر عمرًا سعى لأن يكشف للحضور، بصوتٍ يجتهد في أن يكون هادئًا، أن لوثر مات مسعورًا وأن

الشَّياطين حملته إلى القبر. دون خوان دي أكونيا، شديد الغضب، سأله كيف عرف هذا؟ وعندما قال اليسوعيُّ إنه قرأه في كتابٍ مطبوعٍ في ألمانيا، أوضح دون خوان، ساخرًا، أن ألمانيا بلدٌ حرٌّ، وفيه يُمْكن طباعة أشياء قد تكون حقيقيةً أو كذبًا، ووفقًا لمصادره الخاصَّة، كان موت المُصلح مَهيبًا. حينئذ أشار اليسوعيُّ الشَّاب إلى زواج لوثر، وإلى علاقته الحرَّة مع راهبةٍ هجرت الدَّير. إنه فعلٌ مدنَّسٌ، قال، حيث إن كلاهما أعطى نذر العفَّة. ودحض أكونيا هذه الواقعة موضحا أن منع رجال الدِّين من الزَّواج كان قانونًا وضعيًا، كان قرارًا لمجمعٍ دينيّ، وبالتَّالي، يُمْكن لمجمعٍ آخر أن يصرِّح بالزواج، كما فعلت الكنيسة اليونانية. أصبح النِّقاش أكثر حدَّةً، والموضوعات تتداخَل والمتجادلون لا يقفون عند حدّ. ألمح أكونيا إلى أن البابا غير معصومٍ، وهو ما تبدَّى في محاولة باولو الرَّابع إعلان الإمبراطور مُنشقًا.

في تلك اللَّحظة، أدرك ثيبريانو أن أكونيا قد أطلق سهامه مباشرةً إلى قلب رهبانية إجناثيو لويولا[1]، فوقف على المقعد، ورفع صوته، ورجا المُتجادلين أن يغيِّروا الموضوع والأسلوب، لأن بقيَّة الحضور يشعرون بالأسى من الجوهر والمظهر اللذَين نحا إليهما النِّقاش، لأنهم جاءوا إلى هنا للاستماع إلى درسٍ في الدِّين وليس لتحمُّل تبادل آراءٍ مؤسفٍ على هذه الدَّرجة. سُمع بعض التَّصفيق الخجول، لكن أمام دهشة الحاضرين، نهض دون خوان دي أكونيا بسرعةٍ، وربما يكون قد أدرك تجاوزاته وخجل من سلوكه، وأزاح المقعد الذي كان يجلس عليه واقترب من اليسوعيَّيْن واعتذر لهما. لكن تغيُّر موقفه لم ينته هنا، وإنما شرح، بالإضافة إلى هذا،

(1) إجناثيو دي ليولا (1491-1556) مؤسس (فرقة يسوع)، التي تعرف باليسوعيين. عسكري صار لاحقا رجل دين إسباني.

أن له شقيقًا في الفرقة، وإنه كان معتادًا على الدُّخول معه في تلك المعارك اللَّفظية، لكنه لم يكن يدعو لأفكارٍ هرطوقيةٍ بأيِّ حالٍ، كما لم يكن يؤمن بما قال، وإنما حدث كُلُّ شيءٍ بعد سماحه لنفسه بمزحةٍ بريئةٍ مع الرَّاهبة أنطونيا دي أجيلا، إذ بينهما ثقةٌ كافيةٌ، ويشعر نحوها بتقديرٍ قديمٍ. أحنت الرَّاهبة رَأسها موافقةً، وابتسمت. واليسوعيان، لكي لا يكونا في مرتبةٍ أقلَّ في هذا السِّباق المفاجئ على الأخلاق الحسنة، نهضا، وأعلنا قبول تفسيره ومدحا جهد شقيقه في فرقة يسوع. «لاهوتيٌّ كبيرٌ»، قالا بصوتٍ واحدٍ، ورجِيا ألا يكرِّر دون خوان كلمات ذلك الصَّباح أمام العامة، واعتبرا الموضوع منتهيًا.

قرّر ثيبريانو سالثيدو عدم إتمام رحلته. كان مكتئبًا بسبب المشاهد التي حضرها، وقلقًا بسبب مرض رلامباجو، الذي عادت نوبات إرهاقه للتكرار لدى صعود تلٍ صغيرٍ. فعاد إلى بلد الوليد مؤجِّلًا زيارته لتورو وبدروسا. كان مُتعجّلًا على إخبار الدُّكتور بنتيجة زيارته. على أيِّ حالٍ، كريستوبال دي باديا كان مجرَّد خادمٍ، ويعتقد أنه لا يستطيع أن يتصرَّف من تلقاء نفسه، ولا أن يسمحوا بتحالفه الخطر مع بدرو سوتيلو. ما حدث في قرية البالو يشكِّل تحذيرًا جادًا. ولولا تَفَهُّم اليسوعيِّين، لكانت محاكم التَّفتيش تقوم بتعقّبهم الآن. لقد عرَّضا نفسَيهما للخطر من دون داعٍ. فكّر أنه يجب على الدُّكتور أن يقوم بالاتِّصال بخوان دي أكونيا من دون تأخيرٍ لكبح لسانه الذي يعرِّض الجماعة للانكشاف. فكلماته المتهوِّرة في قرية البالو كانت تبرِّر بما فيه الكفاية تدخُّل محاكم التَّفتيش. آخرون كثيرون، أكثر حصافةً وحرصًا منه، ينتظرون المحاكمة في السُّجون المُريعة. دون بدرو سوتيلو، المُفرط في حسن نيَّته، يجب أن يمنع هذه الاجتماعات الخرقاء. أعضاء (فرقة يسوعٍ) يتحرَّكون في كُلِّ مكانٍ في ثنائياتٍ، وقياداتُ الرَّهبانية كانت تُعوِّض تشدُّد أحدهما بتسامح زميله. رغم هذا، كان موقف الاثنين في قرية

بالو مُتَّفقًا بشكلٍ غريبٍ، وهو أمرٌ مفهومٌ نظرًا للطَّابع العسكريِّ للفرقة التي تمَّ تأسيسها تحديدًا للدِّفاع عن الكاثوليكية. وربما لولا عضوية شقيق دون خوان في الرُّهبانية لكان أكثر من محتملٍ ألا يُظهِر اليسوعيَّين هذا التَّسامح. العنف الذي تَصرَّف به أكونيا، بالإضافة لسنّه الصَّغير، وتاريخ شقيقه، دفع اليسوعيِّين لعدم أخذ كلماته على محمل الجدِّ، وفي النِّهاية قبول تفسيره. على أيِّ حالٍ، الموقف كان شديد التَّهوُّر، حتَّى أن سالثيدو أهمل دعوة بدرو سوتيلو للغداء، وامتطى جواده فور أن فُضَّ الاجتماع وسافر إلى بلد الوليد من دون توديع أكونيا ولا كريستوبال دي باديا. فالعبارات المباشرة التي تم تبادلها في الحوار كانت تثير غثيانه. كان متشوِّقًا للقاء الدُّكتور، وتنفَّس الصَّعداء عندما أبصر قلعة سيمانكاس من فوق تبةٍ. لكن في تلك اللَّحظة ذاتها، تعثَّر الجواد، أو ربما بسبب ضعفه التوَت فجأة قائمتاه الأماميتان، طوى ساقيه الخلفيتين وظلَّ في مكانه، مُتمدِّدًا بين الزَّعتر بعينين حزينتين، وشفتاه مليئتان باللُّعاب، ويتنفَّس بصعوبةٍ. ترجَّل ثيبريانو منزعجًا، وربّت على ظهر رلامباجو عدة مَرَّاتٍ بعطفٍ. بعض الأصوات الغريبة كانت تخرج الآن من فمه مع اللُّعاب. جلس ثيبريانو ملتصقًا به، بجانب نبتة قندولٍ، ومُنتظرًا أن يستردَّ قواه. كان لديه انطباعٌ أن الجواد شديد المرض. فكَّر في (باليتني)، راقدًا وداميًا بين أعناب ثيجالس، حسب رواية عمه إجناثيو. حنى رلامباجو رَأسه وأصدر صهيلًا متكرِّرًا مكتومًا. فكَّر ثيبريانو: «إنها حشرجة الموت». لكن، بعد لحظاتٍ ساعده بدفْع بطنه، وبجهدٍ كبيرٍ نهض الحيوان. وسار سالثيدو مُمسكًا باللِّجام حتَّى سيمانكس. قدَّم له الماء، وعلى الجسر القديم عاد ليمتطيه، وقبِل الجواد الحمل الخفيف حتَّى بلد الوليد. عندما وصل كان بيثنتي ينظِّف الحظيرة، ما إن رآه حتَّى أدرك أن الجواد مريضٌ. «إنه واهنٌ منذ ثلاثة أيامٍ، غير قادرٍ على التَّنفُّس، ومن دون طعامٍ»، أوضح ثيبريانو. وأضاف:

- «غدًا، ما إن يستريح الحيوان، اذهب به إلى أنيانو دومينجو، في ريوسيكو. استعلِم جيدًا إن كان للمرض شفاءٌ. امضِ اللَّيلة في لامودارا، حتى لا يُرْهق. لا أريد للجواد أن يُعَاني».

كان بيشتي ينظر في عينيٍّ رلامباجو، ويربِّت على عنقه من دون توقُّفٍ. رأى سيِّده متردِّدًا، فتح فمه ثم أغلقه. لم يكن باستطاعته الحسم. في النِّهاية سمعه يقول:

- «ضحِّ به إن لم يعط أنيانو أملًا. رصاصةٌ، نعم، رصاصةٌ في البقعة البيضاء، بين العينين. ورصاصة الرَّحمة في القلب. وقبل دفنه تأكد من موته».

XIII

فوجِئَ بما فعلته تيو. بوجهها المتوتِّر، والصُّراخ، والدُّموع، وحدَّة حركاتها. كانت الأمور تسير نحو الانفجار. التَّصعيد يمرُّ بعدَّة مراحلٍ، وفقًا لدرجة ثورة زوجته. في البداية لم يفهمها، كانت تغمغم بعباراتٍ طويلةٍ غير مترابطةٍ، كلماتٍ مختلَطةٍ، وجُمَلٍ غير مفهومةٍ. لم يكن يفهمها، أو بشكلٍ أدق، لم تكن تيو مُهتمَّةً بأن يفهمها. كانا في غرفة النَّوم، لكنها ظلَّت تتحرّكَ ذهابًا وإيابًا، وتنطق بأشياءٍ غير مفهومةٍ، وبينها، كلمة ما تعني شيئًا لثيبريانو: بلورات، نسيانًا، فرصة أخيرة. كانت تلومه على أمرٍ لم يستطع تحديده. شيئًا فشيئا، كأنه تعليمٌ بطيء، بدأت تيو تنسِّق بين الكلمات، لتحدِّد خطابها إلى حدٍّ ما. عيناها كانتا جامدتين، كالزُّجاج، لكن ما زالتا بشريَّتين، رغم أن نظرتها لم تكن تنضوي على أيِّ لمحةٍ للحياة. لكن الكلمات، لدى جمْعها، كانت تُفصح عن شيءٍ، كانت تُعبرِّ عن نسيان بلورات الفضَّة والحديد، عن عدم اهتمامه بعلاج الدُّكتور، عن ضعف (الشَّيء)، عن جهودها التي تضيع هباءً بسبب سلبيَّته.

ما زالت تقوم بهذا من دون عنفٍ، كأنها تحاول التَّحكُّم في نفسها، وثيبريانو كان يضم جملةً مع الأخرى، ليفهم فكرتها كأنه يحلُّ لغزًا. حتَّى جاءت لحظةٌ انكشف فيها كُلُّ شيءٍ أمام عينيه: تيو لم تضع كيسًا من

بلورات الفضَّة والحديد في متاعه، ربما سهوًا، وربما، وهو الأرجح، لكي تُخضعه للاختبار. فور عودته قامت بتفتيش الكيس بسرعةٍ لتتأكَّد من أنه لم يشتر بلوراتٍ أخرى. وهذا يعني أن ثيبريانو أمضى أربعة أيامٍ من دون تناوُل الدَّواء. توقّف عن نظام الدُكتور جالاتشي عمدًا. كلماتها كانت تنحو إلى ما يشبه الرِّثاء، عواءٌ حزينٌ، لكنه مفهومٌ حتَّى الآن. أهدر أربعة أعوامٍ من العلاج، وهي لم تكن في عمرٍ ولا حالةٍ مزاجيةٍ لكي تبدأ من جديد.

اجتهد ثيبريانو لتفادي الانفجار، وإبقاء غضب زوجته ضمن حدودٍ معقولةٍ: لا شيءٌ مما حدث كان جوهريًا، انقطاعٌ لمدَّة أربعة أيامٍ لم يكن له اعتبارٌ في علاجٍ طويلٍ كهذا. سيستأنفانه بمزيدٍ من الاقتناع، بالتزامٍ أكبر، جرعتان يوميا بدلًا من واحدةٍ. لكنها كانت تحجب أفكاره بصرخاتها. لم تعش إلا لكي تنجب ابنًا، ولن تحصل عليه بسببه. كانت قد أمضت بضعة سنوات في جزِّ الصوف حتَّى شعرت أنها صالحةٌ للإنجاب، ناضجةٌ. إن كانت قد تزوجت، فقد فعلت هذا لكي تكون أُمًّا فقط، لكنه أضاع كُلَّ شيءٍ فجأةً. طوال حياتها كانت كُلُّ الأشياء تحدِّثها عن الأمومة: دُمَى الطُّفولة، الأحجار في الجبل، أعشاش العقعق في شجرة البلُّوط الكبيرة أمام البيت، (**الشَّيء**). الإنجاب كان السَّبب الوحيد لوجودها لكنه لم يرغب بهذا، أهدر كُلَّ شيءٍ عندما لم تتبقَّ سوى بضعة أشهر لكي تتمَّ المهلة التي حدَّدها الدُّكتور.

عند هذه النُّقطة، بلغ اعتراض تيو حدًا غير مسبوقٍ. لكن ربما كانت محاولة ثيبريانو لتهدئتها، وحركته لاسترضائها، هو ما أخرجها عن طورها. عادت كلماتها غير مفهومةٍ مرَّةً أخرى، وارتفعت وتيرة غضبها، هرولت إلى النَّوافذ فنزعت السَّتائر جَذْبًا، وأطاحت بالأدوات الفضِّيَّة الصَّغيرة من فوق التَّسريحة بقبضة يدها، وبدأت سلسلةً من الكلمات أقرب إلى النباح. فجأةً أدرك ثيبريانو كُلَّ شيءٍ. كانت تلقِّبه بالتَّيس رغم أنها تعرف أن هذا

ليس حقيقيًّا. لم تنطق تيو بكلماتٍ بذيئةٍ من قبل، وفكر ثيبريانو أنها بقايا من ماضيها في جزِّ الصُّوف، عندما كان كُلُّ قطيعٍ من النِّعاج يضم اثنتين من أنثى الماعز وذَكر تيسٍ، وفقًا للقانون. فكَّر: كلمة تيسٍ لا يجب أن تحمل دلالةٌ تحقيريةٌ في البارامو. قام بمحاولةٍ جديدةٍ لتهدئتها، لكن النَّتيجة كانت عكسية أيضًا. صرخت تيو مثل الممسوسة، كانت تدفعه نحو الباب وتصرخ، بينما يحاول أن يتفحَّص عينيها، أن يرى فيهما أيَّ لمحة ضوءٍ، لكن نظرتها كانت فارغةً عكِرةً، ومضطربةً تمامًا. وكلما بذل مجهودًا لاحتوائها، يصبح سِجِلُّ السباب أوسع وأشرس، فصار الآن يحتوي على ألفاظٍ شديدة القذارة، فتعايره بعجزه، وبجسده الضئيل، وعدم نفْع (الشَّيء).

كان ثيبريانو يرتعد، حاول أن يغطِّي فمها بيده، لكنها عضّته وواصلت قائمة سبابها. استلقت على الفِرَاش وبأظافرها الحادَّة مزَّقت الدِّثار النَّاعم وأغطية الوسادات. بعد ذلك، نهضت فجأة، وتعلَّقت بالنَّاموسية وسقط كُلُّ شيءٍ. كان يبدو أنها تستمتع بغضبها المُدمِّر، وبوقاحتها، من دون الاكتراث بعبور انفجارها اللَّفظيِّ للجدران والحوائط. عبر الزُّجاج العاري في النَّافذة كان ضوء الشَّارع الشَّاحب ينسحب أمام الضَّوء الرَّماديِّ القاتم الذي يسبق المساء. عادت تيو للاستلقاء على الفِرَاش لاهثةً، وفي محاولةٍ يائسةٍ سعى ثيبريانو لشلِّ حركتها، لتثبيت ظهرها العريض فوق الفِرَاش. كانت تُحرِّك عينيها، كأنها حولاء، بينما يكرِّر طلبه بالهدوء، قائلًا إن كُلَّ شيءٍ يُمْكن إصلاحه، وأنه سيعود للدَّواء، جرعتين بدلًا من واحدةٍ. لكن عينيها الحولاوَين كانتا تختفيان أكثر فأكثر خلف عظام الخدَّين، بنظرةٍ جانبيةٍ خاليةٍ من التَّعبير. كانتا عينين مغشيَّتَين، غير قادرتَين على النَّظر والاستيعاب. تصارعا مرَّةً أخرى، واستطاعت تيو أن تنقلب في الفراش. كانت لديها قوَّةٌ أكثر من التي يتخيَّلها ثيبريانو. هذا المرض، هذا النَّوع من الأمراض، يزيد من قوَّة المرضى، قال لنفسه. استطاع أن يجعلها تنام على

ظهرها وثبَّت معصميها. عندما وجدت أنها عاجزةٌ عن الحركة، استأنفت سلسلة إساءاتها، التي تتزايد بذاءتها، وفجأة، ذكرت مهرها، ميراثها، ثروتها. ماذا فعل ثيبريانو بأموالها؟ هذا العامل أضاف أسبابًا أكثر للإهانة، كانت تبحث في عقلها عن أوصافٍ أخرى أكثر انتقاصًا، وتواصل سبَّه أثناء انهيارها التَّام. أدرك ثيبريانو بعد ساعتين من الصِّراع، أن تَوتُّر زوجته أخذ في التَّناقص. ومن جديد حاول مداعبة جبهتها، لكن فمها هجم على يده الصَّغيرة بشراسةٍ. ورغم هذا، في المحاولة الثَّالثة، قبلت المُداعبة، وتركته يلمسها. عاد ليُثني عليها مُغمغمًا بكلماتٍ ناعمةٍ عاطفيةٍ، وظَلَّت ثابتةً مستمتعةً بصوته، على الأرجح من دون أن تفهم. كانت تيو تلهث، عيناها مغلقتين، كمَن قام بجهدٍ جسديّ شاقٍ. بينما واصل هو مداعبتها. كان يلفُّ شعرها في حلقاتٍ، لكنها لم تتجاوب أو تعترض. وصلت إلى هذه النُّقطة الحيادية، الوهَن الذي تنتهي إليه عادةً بعض النَّوبات العصبية. بدأت في البكاء في هدوءٍ. كانت الدُّموع السَّاخنة الصَّامتة تنسكب على خدَّيْها، وهو يمسحها بطرف الملاءة، بحنانٍ شديدٍ. لم يكن يحب هذا الكائن، لكنه كان يُشفق عليه. كان يتذكَّر أيام لا مانجا، ونزهاتهما في الجبل بأيديهما متشابكةٍ، بينما أسراب الحمام البرِّيِّ تبتعد عن أشجار البلُّوط بأمعائها المليئة بثمارها، أو ديك الغابة الذي يطير وقت الغروب مُتَّجهًا إلى الأراضي الخالية من الأشجار في الغابة. في الحقيقة، كانت تيو بالنِّسبة له مثل ذلك الحمام أو تلك الدِّيوك، منتَجًا آخر للطبيعة، حيًا، وعابرًا. لم يكن قد أقام علاقاتٍ مع النِّساء تقريبًا، وبساطة ملكة البارامو خلبت لبَّه. حتَّى إنه ابتهج لأنها تجزُّ صوف الأغنام في الهواء الطَّلق، كما تَقُوم السَّيِّدات البرجوازيات بالغزل في الصَّالونات. كان معجبًا دائمًا بالمهام المفيدة، ويحتقر إزجاء الوقت، والحرص على المظاهر. في جلسته على الفِرَاش كان ينظر إليها بثباتٍ. كانت قد أغلقت عينيها وتنفُّسها أصبح أعمق وأبطأ.

نهض بحرصٍ وسار على أطراف أصابعه متوخيًا وضْع قدميه في الأجزاء المُغطّاة بالبُسُط. أشعل قنديلًا وحمله أثناء بحثه في دولاب الأدوية. أخذ العديد من الأعشاب وأعدَّ لها شرابًا طبيًّا ساخنًا. اعتادت العمَّة جابريلا أن تقول له إن مشروب الأعشاب الطِّبِّيَّة هو أحد الأدوية التي لم تخِب ظنَّها مطلقًا. لم تكن تنام بعمقٍ فقط بعد تناوُله، وإنما لم تكن تسيتقظ حتَّى وقتٍ متأخِّرٍ في اليوم التَّالي. عاد إلى غرفة النوم. ما زالت تيو مستسلمة بلا حركةٍ، وتتنفَّس بانتظامٍ. جلس في مُقدِّمة الفِرَاش وللمرَّة الأولى انتبه بأسى إلى الدَّمار في الغُرفة: النَّاموسية المُمزَّقة، والسَّتائر المنزوعة، والوسادتين وقد خرج صوفهما. ماذا يُمْكن أن يقول لكريسانتا؟ لكن، لماذا يجب أن يقول أيَّ شيءٍ للخدم؟ لقد كانوا شهوداً على النَّوبة العصبية لزوجته، من دون أن يشهدوها. بدأت تيو في التَّململ مغمغمةً بكلماتٍ غير مفهومةٍ. فتحت عينيها وأغلقتهما قبل أن تراه. سرعان ما غيَّرت من وضعها، دارت نصف دورةٍ، واتَّكأت على الجانب الأيمن، بوجهها نحوه. بدأت في تحريك رَأسها. غمغمت بكلماتٍ مضطربةٍ. بحذرٍ شديدٍ، أمسك ثيبريانو بكوب الأعشاب الطِّبِّيَّة في يده اليمنى، ورفع رَأس زوجته مُمسكًا بالعنق بعناية بيده اليسرى. وقال بنبرة أمر لطيفة:

- «اشربي».

شربت. كانت تشعر بالعطش. شربت بلا توقُّفٍ، بنهمٍ، واحتبست النِّقاط الأخيرة في حلقها، فعانت من نوبة سعالٍ خفيفةٍ. عبر النَّافذة كان اللَّيل قد حلَّ والشَّارع صامتاً. كان القنديل خلف ظهره، فكان يرى ظِلَّ رَأسه على وجه تيو الأبيض. ظَلَّ من دون حركةٍ حتَّى الثَّالثة. وتحرَّكت هي بضع مَرَّاتٍ، وكُلُّ مرَّة كانت تغيِّر من وضعها. أحيانًا كانت تغمغم بكلماتٍ هامسةٍ، لكنها كانتَ مثل نيازك صامتةٍ لا تصل إلى الانفجار. على الأرجح كانت تحلم. عندما نهض ثيبريانو كانت تبدو هادئةً، تنفُّسُها

منتظمٌ. لكن، رغم كُلِّ شيءٍ ترك الباب الذي يصل بين الغرفتين مفتوحًا، وأيضًا باب الغُرفة الخلفية حيث ينام. نزع ملابسه على ضوء المصباح، ودخل الفِرَاش ممسكًا بنسخةٍ من (نعمة المسيح)، حيث اعتاد أن يلوذ في الأوقات العاصفة. من دون أن يتنبّه، تغلَّب عليه النَّوم وسقط الكتاب من يديه. كانت مجرَّد لحظةٍ، أو هذا ما بدا له. أيقظه دوي عنيفٌ لإغلاق درج دولاب تيو. ما يشبه الصُّراخ المكتوم، والظل الضَّخم لزوجته في إطار الباب. ما زالت تحمل الرِّداء المُمزَّق، الذي نامت به، وفي يدها اليمنى تحمل المقصَّ الكبير الخاص بجزِّ الصُّوف. حاول ثيبريانو أن يوقفها، أراد أن يقول شيئًا، لكنه فقط سمع تهديد تيو الحاسم بينما تلج الغُرفة الخلفية وتصرخ:

- «سوف أجزُّ جسدك اللَّعين الشَّبيه بجسد القرد!».

أخذ ثيبريانو حذره بإسناد ظهره إلى رَأس الفِرَاش، وثنى ساقيه، وهكذا عندما هجمت تيو عليه، مدَّ ركبتيه وأوقفها لبرهةٍ بقدميه. في النِّهاية سقطت تيو على جانبها فوق الأريكة الصَّغيرة، وعلى الفور اشتبكا في صراعٍ صامتٍ. هي تُشهِرُ المقصَّ، بينما ثيبريانو يحاول تفادي ضرباتها العمياء والإمساك بيديها من دون أن يؤذيها. اسمعي، قال، ثم كرّر، اسمعيني يا تيو، من فضلك. لكنها كانت تنتفض وتحاصره. شعر ثيبريانو بجرحٍ في الذِّراع الأيمن الذي يحاول تحجيمها، بينما كان يسمع التَّهديدات الواضحة لزوجته. قالت:

- «سوف أخصيك مثل ذَكَرِ الخنزير، سوف أقطع هذا (الشَّيء) الذي لم يعد يفيدنا على الإطلاق».

لبرهةٍ، ورغم الجرح، وربما بسبب الألم، قام ثيبريانو بِشلِّ حركة تيو مُمسكًا بذراعيها، لكنها أفلتت بحركةٍ عنيفةٍ، واختفت يدها المُسلَّحة

تحت ملابسه في ضربةٍ عمياء. صرخ ثيبريانو عندما شعر بالجرح في فخذه الأيمن. لكن في تلك اللَّحظة أمكنه الإمساك بعنق تيو وقَلَبَها. وضْعُهما كان مثل ليالي الحبِّ، مُمتطيًا الانحناءات الممتلئة للمرأة، لكنهما الآن يتصارعان على امتلاك المقصِّ. كانت تيو تنتفض، وعادت لسبِّه وكرَّرت: «سوف أقوم بجزِّ جسدك اللَّعين كجسد القرد». لكن سالثيدو كانَ مُتحكِّمًا فيها. تركها تُنفِّس عن روحها في جهدها عديم النَّفع ومحاولاتها غير المجدِّية وتهديداتها الجوفاء. كان يرى الفراغ في عينيها، حدقتيها الغائرتين، الخاليتين من الحياة. وفي تلك اللَّحظة، أدرك أنه فَقَدَ تيودوميرا، وأن زوجته غابت للأبد. بعد جهدٍ بلا طائلٍ، استسلمت تيو. أطلقت المقصَّ وبسبب هزيمتها انخرطت في بكاءٍ صامتٍ، وبعد فترة قصيرة بدأت بكاءٍ أكثر حدةً لكنه أقلَّ تشنجًا، ثم بعد فترة، وكما حدث في المرَّة السَّابقة، سقطت في نومٍ عميقٍ. كرَّر ثيبريانو زيارته لصندوق الأدوية، لكنه لم يثق في الأعشاب وأعطى لزوجته جرعةً مخدِّرٍ. بعد ذلك ذهب إلى مكتبه وكَتَبَ رسالةً لعمه إجناثيو: «أخشى أن تكون تيو قد فقدت عقلها. لا يمكنني الخروج من البيت. هل يمكنك أن تأتي معك بأكبر قامةً في الأمراض العقلية؟». أيقظ بيثنتى وكلَّفه توصيل الورقة لعمّه. السَّيِّدة مريضة. زيارة أنانيو دومينجو مع رلامباجو يجب أن تتأجل ليومٍ آخر.

بتفانيه المعهود، حضر العمُّ إجناثيو إلى بيت ابن شقيقه بعد ساعتين، بصحبة الدُّكتور الشَّاب ميركادو. استقبلهما بودٍّ. كان الدُّكتور قد اكتسب شهرةً سريعةً. طبيبٌ في دير كونثيبثيون وبيت ماركيز دانيا، أصبح له اعتبارٌ في البلاط. من المعروف أنه في يوم زفافه لم يحمل سوى الملابس التي يرتديها، بغلة ودستين من الكتب. على أيِّ حالٍ، كانت الخمسمائة دوكادس مهر زوجته هي أساس ثروته اللَّاحقة. في ذلك الوقت انتهى من شراء بعض حقول العنب في بالديستياس وبيتٍ في شارع كانتارراناس. رغم هذا، كان

أهل بلد الوليد يشيدون بعينه الخبيرة، ونجاح علاجه، ومَكانته المتزايدة. كان أوَّل طبيبٍ في المدينة ينحي جانبًا الملابس الدَّاكنة الخاصَّة بالطَّائفة، ويرتدي ملابس أنيقة، مثل النُّبلاء. لم يكن هناك أيُّ شيءٍ في مظهره يوحي بمهنته. دخل الغرفة ومن أوَّل نظرةٍ لاحظ السَّتائر على الأرض، والحاشية المُمزَّقة، ذراع ثيبريانو الدَّامي، والفوضى في البيت:

- «هل قامت بالاعتداء عليك؟».

أحنى ثيبريانو رَأسه موافقًا.

- «هل هي المرَّة الأولى التي تقوم بهذا».

عاد ثيبريانو ليحني رَأسه موافقةً. نظر الدُّكتور لذراعه الجريح:

- «لاحقًا سنعالج هذا».

نظر إلى تيو التي ما زالت نائمةً:

- «ماذا أعطيتها؟».

- «منقوعًا من الأعشاب ومخدِّرًا، يا دكتور. لم أجرؤ على أكثر من هذا».

ابتسم الدُّكتور مبديًا تفهُّمه وقال:

- «وقايةٌ بسيطةٌ للحماية من عاصفةٍ».

الآن كان يقوم بقياس نبضها، ووضع يده المعتنى بها بشدَّةٍ على ثديها الأيسر، وأضاف بعد برهةٍ:

- «لا توجد حُمَّى. الفحص سَّطحيٌّ بحكم الظروف، لكن لا شكَّ بالحالة. هل يوجد هَوَسٌ بشيءٍ ما؟».

- «هوسٌ شديدٌ بأن تصبح أُمًّا يا دكتور. تزوَّجت لكي تنجب أبناءً ولم أستطِع منحهم لها».

نظر إلى عمّه من فوق كتف الدُّكتور وأضاف:

- «آل سالثيدو لسنا معجزةً في الخصوبة».

وفي عجالة قصَّ على الدُّكتور زياراتهما للدكتور جالاتشي، والعلاج الذي أخضعهما له وانقطاعه غير المُبرَّر عن جرعاته من بلورات الفضَّة والحديد خلال الرِّحلة الأخيرة كسبب في الأزمة. عاد الدُّكتور للابتسام.

- «هل كان يسعى لعلاج عقمك ببلورات الفضَّة والحديد؟».

كان ثيبريانو يسند ذراعه الجريح على اليد اليسرى:

- «أعتقد أنها كانت حيلةً من الدُّكتور لإلهاء المريضة».

- «نعم».

كان قد أخرج من حافظته، المصنوعة من جلد البقر، عدسةً مُكبِّرةً ألمانيةً واقترب بها من المريضة. توجَّه لهم مُديرًا رَأسه وقال:

- «استعدُّوا لتحجيمها. قد تستيقظ في أيِّ لحظةٍ».

رفع جفن عينها اليمنى وفحص الحدقة بدقَّةٍ. بعد ذلك كرَّر العملية مع العين الأخرى. ثم عاد لقياس نبضها وقال:

- «يجب احتجاز هذه السَّيِّدة داخل مستشفى. في شارع أوراتيس يوجد مستشفى الأبرياء. ليس فندقًا فخمًا، لكن ليس من السَّهل العثور على ما هو أفضل منه في المدينة. الإجراءات بدائيةٌ. يتِّم تقييد المريض إلى السّرير أو بأصفادٍ في قدميه لكي لا يهرب. بالطَّبع، يُمْكن تفادي هذه الإهانة ببعض المال، بدفع أجر مُمرِّضَين لكي تعتنيا بها».

دون إجناثيو سالثيدو الذي كان قد التزم الصَّمت، سأل الدُّكتور إن لم يكن مُمكنًا أن تقيم السَّيِّدة في مستشفى عادي، بالإضافة لدفع تكاليف الملاحظة. أحنى الدُّكتور رَأسه موافقًا وقال:

- «المال يفتح كُلَّ الطُّرق. بالمال يُمْكن الحصول على كُلّ ما يبتغيه المرء في هذا العالم تقريبًا».

بشكلٍ مؤقتٍ نقلوا تيو إلى مستشفى الأبرياء في شارع أوراتيس. رافقهم العم إجناثيو. لكن، على باب المستشفى، عندما حاول مُمرِّضان تقييد يديِّ المريضة انتفضت تيودوميرا مثل أنثى الفهد، بقوَّةٍ كبيرةٍ، حتَّى أن أحد المُمرِّضَين سقط مُتدحرجًا على الأرض. كان المشاة الذين جذبهم المشهد يتوقَّفون في أسفل السُّلَّم، حيث سقط المُمرِّض. لكن بعد بضع دقائق كانت تيو تقيم في مستشفى المجانين، في رعاية عاملتَين بأجرٍ، امرأتين قويَّتين ظاهريًا، وإن تطلَّب الأمر تمكنهما السَّيطرة عليها.

رغم هذا، في التَّاسعة مساءً تلقى سالثيدو رسالةً عاجلةً من مستشفى الأمراض العقلية، تُعلِنه أن «السَّيِّدة هربت في غفلةٍ من حارستَيها». قام ثيبريانو بإعلام عمِّه مُجدَّدًا، وهذا جعل قوات الأمن في المدينة تتحرَّك في الحال. من جانبه، قام ثيبريانو، بصحبة بيثنتى، بتمشيط المدينة من الشَّمال إلى الجنوب ومن الشَّرق إلى الغرب، من دون العثور على أثرٍ للمريضة أو أيِّ دليلٍ على مكانها. في الصَّباح التَّالي عاودوا البحث من دون نتيجةٍ. عند حلول المساء، قام الملّاح أكيلينو بينيتو، الذي كان يقوم بالخدمة بين ميناء المُتنزَّه القديم والرَّصيف الصَّغير على طريق البرادو، بإبلاغ المحكمة أنه عثر على الهاربة بين أخواصِّ الضِّفَّة، فاقدة الوعي وفي حالٍ يرثى لها، كأنها متسوِّلةٌ. خلال الطَّريق إلى المُتنزَّه استطاع أكيلينو أن يصحّي المريضة التي كانت في حالة إعياءٍ تام.

في أثناء ذلك، كان العمُّ إجناثيو يقوم بالإجراءات اللَّازمة. وما إن تعافت، نُقلت تيودوميرا إلى ميدينا ديل كامبو، في عربة زوجها، من دون أن تفتح فمها. وهناك، في ميدينا، تمَّ إيداعها في مستشفى سانتا ماريا ديل كاستيو، التَّابع لأخوية نويسترا سنيورا دي لا ميرسيد، على مبعدة خطواتٍ

من دير سان بارتولوميه. كان قصرًا متداعيًا، من دون مرضى كثيرين، حيث رحّبوا باستقبال دونيا تيودوميرا ووضع مُمرِّضين دائمَين في خدمتها، وقابلةٍ من أجل الشُّؤون الخاصَّة بالمرأة. كانت التَّكلفة تصل إلى خمسةٍ وأربعين ريالًا يوميًا، لكنهم حصلوا على موافقة الإدارة على زيارة المريضة في أيٍّ ساعةٍ خلال أيام الأسبوع السَّبعة.

ما أن استقرَّت في المستشفى، شعر زوجها ثيبريانو سالثيدو بالرَّاحة، لكن العودة إلى البيت أصابته باكتئابٍ عميقٍ. لأنه اعتاد على حضور تيو، ورغم أنها لم تعد تُمثِّل بالنِّسبة له شيئًا جوهريًا، كان يفتقدها. استعاد نشاطه القديم. في الصَّباح الباكر يزور الورشة والمتجر، حيث يتناول المُستجدّ من أمورٍ يومية مع الخياط فيرمين جوتيرث ومع مانريكي. كانت هناك مشكلتان مهمتان: التَّوقُّف عن استخدام الأرانب في حياكة المعاطف والتَّناقص السَّريع في الحيوانات الفرويَّة بسبب الصَّيد المُتواصل في الجبال والتِّلال. بعد حلِّ المشكلة الأولى، وصل بريدٌ عاجلٌ من بورجوس يخبره أن جونثالو مالويندا، الذي ما زال شابًّا، قضى نحبه بسبب حمى تيفوئيد ضاريةٍ، وأن أخاه غير الشَّقيق، ثيرياكو، تولى أمر التِّجارة. وقرَّر المالك الجديد أن تقوم سفينةٌ مسلَّحةٌ بمرافقة القافلة البحرية لحمايتها، وبهذا عاد النَّقل ليتمتَّع بدرجةٍ أكبرٍ من الأمان. ارتفعت التَّكاليف بالطَّبع، لكن الضمانات زادت، وهكذا لم يعترض أيٌّ من أصحاب القطعان على هذا الإجراء. من جانبٍ آخر ، كانت تجارة ثيبريانو سالثيدو مع آل مالويندا قد انخفضت من عشر عرباتٍ في أفضل أوقات دون برناردو إلى الثلاث عربات السَّنوية التي استمرت في أوج صناعة المِعْطَف، وفكَّر أن لحظة زيادتها إلى خمسٍ قد حانت. لكي يعالج هذه التَّفاصيل ويتعرَّف إلى الوكيل الجديد، قام ثيبريانو برحلةٍ إلى بورجوس. مرَّةً أخرى كانت رسالةٌ عاجلةٌ تقوم بإخراج شخصٍ من عائلة سالثيدو من حالة الانهيار. الحياة تُكرِّر نفسها. امتطى جواده

الجديد (بيسباس)، الذي اختاره صديقه سيسو في الأندلس، لكن خبرة دون كارلوس في هذه الأمور لم تمنع ثيبريانو من الحنين لجواده القديم، والاندهاش من تصرُّفات الحصان الجديد، وخصاله الأصلية، وعصبيَّته، وأبعاده. فقد اضطرّ بيثنتى للتَّضحية برلامباجو، في جبل إيبرا، في بيانوبلا، برصَّاصةٍ في الجبهة. إستاثيو ديل بابيه أمدَّه بالسِّلاح وبغلتين عفيتَّين من أجل دفنه. في حفرةٍ فوق ربوةٍ، قام خادمه بوضع لوحة لتمييز المكان.

رغم أن مالويندا الجديد لم يكن يصل إلى نعل حذاء دون نستور، لم يترك انطباعًا سيئًا لدى ثيبريانو. همَّة وجدِّيَّة ثيرياكو مالويندا كانتا تفوقان ما لدى الرَّاحل دون جونثالو مائة مرَّةٍ. قَبِلَ عن طيب خاطرٍ زيادة الصُّوف التي أخبره بها ثيبريانو. رغم أن العدد يصل إلى نصف الشُّحنات القديمة، وكان تقريبًا يضاعف شحنات الأعوام الأخيرة. العلاقة مع آل مالويندا عادت لتصبح ودّيةً.

بين مهمَّةٍ وأخرى، كان ثيبريانو يزور تيو في مستشفى ميدينا. كانت تعيش في هدوءٍ تحت أثر المُخدِّر. على الأدق كانت غائبةً، تترك نفسها تذبل. وكان ثيبريانو يشعر بالحزن لهاتين العينين، بنظرةٍ فارغةٍ، اللَّتان كانتا شديدتيِّ الجمال سابقًا. لم يتيقَّن مطلقًا إن كانت تتعرَّف عليه، وإن كانت زياراته تترك فيها أثرًا، فقد كانت تُوَجِّه له نظرةً خاليةً من التَّعبير كلَّما ذهب، ذات النَّظرة التي كانت تُوَجِّهها إلى ممرِّضَيها عندما يتحرَّكان في الغُرفة. يومًا بعد يوم كانت تضمحلّ، لم تعد المرأة القويَّة التي عرفها في لا مانجا. كان جسدها يتقلص بينما تقاطيعها تكبُر وتحتلُّ مساحةً أكبر في وجهها الذَّابل، الذي كان من قبل عريضًا ونَضِرًا.

لَمْ تكن تتكلَم، ولا تأكل، ولَمْ تكن تفتح فمها إلا لكي تشرب. قالوا له إن حياتها تفتقد للبهجة، لكنها لا تعاني. كان هذا يُخفِّف عنه. نافذة الغُرفة المغطاة بشبكةٍ حديديةٍ كانت تطلُّ على الحقول، ومنها تظهر القلعة التي

يبدو أنها تسحرها. كان ثيبريانو يجتهد في العثور على شيءٍ يُمْكن أن يرفع من حالتها المعنوية، لكن هداياه، والحِلي الصَّغيرة، والزُّهور، والحلوى، لم تكن تثير فيها أدنى ردَّ فعلٍ. كلَّما زارها كان يعود إلى البيت أكثر اكتئابًا من المرَّة السَّابقة: لا تتعرَّف إليه، ولَمْ تكن تهتم بزيارته. أحيانًا، كان حُرَّاسها يهنِّئون أنفسهم: لقد أَكلَت قليلًا، قامت بجولةٍ قصيرةٍ في الغُرفة، لكن وجهها لم يكن يعكس تلك التَّحسُّنات. بسخائه المعتاد، كان يعطِيهم هباتٍ كبيرةً لم يكونوا يرونها كافيةً مطلقًا. في النِّهاية كان هذا هو الشَّيء الوحيد الذي يُمْكنه فعله من أجل زوجته المريضة: رشوة من يعتنون بها لكي يقوموا بهذا برضا، لكي يمنحوها قليلًا من الحنان، لكي يجعلوها تبتسم في اليوم التَّالي.

كان يُخصِّص الأمسية لآل كاثايا، للدُّكتور وأمِّه. دونيا ليونور دي بيبيرو لم تفقد بهجتها ولا سحرها كمحاورةٍ. كان يمضيي معها أوقاتًا كثيرةً في مكتبها الصَّغير، صامتًا، ناظرًا إلى الحائط، من دون شيءٍ مُسلٍّ يحكيه لها. لكنها كانت تستقبله بابتسامتها العريضة، وحديثها العذب والمزاج الرَّائق كالعادة. خلال الأيَّام الأولى كانت تجتهد في مواساته:

- «أراك حزينًا يا سالثيدو. هل تحبُّها كثيرًا؟».

ردُّ سالثيدو كان مُختصرًا وواضحًا:

- «كانت عادةً في حياتي، دونيا ليونور».

- «لا تعذِّب نفسك. كثيرًا ما نشعر بالمسؤولية أمام الموتى والمجانين من دون مبرِّرٍ».

خبر المواجهة الكلامية في قرية البالو أصابها كما أصاب الدُّكتور بغمٍّ عميقٍ. كانا يعيشان أيامًا صعبةً. وكانا يشعران بالعجز عن التَّحكُّم في المجموعة. ويريان أنه لا مفرٌّ من كبْح باديا، وسلبه السُّلطة التي ينسبها

لنفسه، ومنع تلك الاجتماعات الشَّعبية المفتوحة والمُرتجَلة. من دون تأخيرٍ أرسل له الدُّكتور خطابًا يأمره بالتزام الأوامر، وحذَّره من تكرار ما حدث في قرية البالو. كتب أيضًا لدون خوان دي أكونيا مُوصيًا إياه بالحذر، مُوضحًا مخاطر التَّجاوزات اللَّفظية إزاء التَّهديد الدَّائم لمحاكم التَّفتيش. رغم ردِّ فعله السَّريع، لم يستطع إخفاء اكتئابه المُطَّرد. تحدَّث مع سالثيدو من قلبه، وجعله موضع ثقته. أبدى رضاه عن تَصَرُّفه من دون تحفظاتٍ، بحماسة وعزمٍ، رغم أنه أحدث الأعضاء في المجموعة. مبادرته الخاصَّة حقَّقت أهدافًا مهمةً، والدُّكتور ينتظر أن يواصل عمله التَّنظيميَّ، والمُهمَّة التي قطعها قهريًا بسبب مرض زوجته. كان ثيبريانو مُتأثِّرًا بتقدير الدُّكتور، واعتباره التِّلميذ المُفضَّل. ذات مساءٍ اعترف له كاثايا إنهم لم يمروا من قبْل بالعزلة التي يعانون منها الآن، من دون كُتبٍ، ولا أخبارٍ من ألمانيا. بعد موت لوثر، تعثَّر ملانشتون بالمشهد الصَّعب. كان رَأس الدُّكتور يميل كأنه لا يستطيع أن يتحمَّل ثِقْلَه؛ وكانا منفردين. عمل ثيبريانو على تشجيعه: «إنها أوقات غير مواتية، مليئة بالصِّعاب؛ ذات يوم ستنتهي». لكن الدّكتور، بدلًا من الهدوء، كان يخلط المشاكل، ويراكمها. نسي لبرهةٍ عزلة المجموعة وعاد لقضية باديا. إنه ثرثارٌ، لم يرُد على الرِّسالة، كأنه غير موجودٍ، أو كأنه لا يعترف بسلطة الدّكتور. ذات يومٍ، اقترح على ثيبريانو أن يزور دونيا آنا إنريكث في لا كونفلوينثيا، بيت الإجازات لأبيها، عند تقاطع نهرَي دويرو وبيسويرجا، وسط منطقةٍ مليئةً بأشجار الدردار والزَّيزفون وكستناء الحصان. بيتٌ جميلٌ، قال الدُّكتور، أحد البيوت الكثيرة التي أنشأتها الأرستقراطية على ضفاف الأنهار مع إقامة البلاط. سيكون من المناسب أن تقوم دونيا آنا، التي كانت امرأةً قويَّة الشَّخصية رغم شبابها، بتوجيه خادمها كريستوبال دي باديا للعودة للطَّريق القويم، وأن يأخذ موضوع الاجتماعات العلنية بالجدِّيَّة اللَّازمة. ابتهج ثيبريانو

بالتَّكليف. جمال دونيا آنا ومظهرها الجذّاب تفوّقا على ورعه في الاجتماع الأخير الخاصِّ بالأسرار المقدَّسة. مظهرٌ رائعٌ، مُلْهِمٌ، مُتَّسقٌ، عفيٌّ، تبرزه الأناقة البسيطة لملابسها التي تترك عُنقها الطَّويل مكشوفًا ومجلّلًا بعقْدٍ من اللُّؤلؤ. لكن الأكثر بروزًا في مظهر دونيا آنا كان غطاء الرَّأس، طويلًا ونحيفًا، تلفُّه بمهارةٍ كعمامةٍ في أعلى الرَّأس. في لحظة تأمّله العميق لم يُمْكنه التَّيقُّن من شعورها أن هناك من يراقبها، رغم أنه أيضًا لا يستطيع قوْل العكس، لكنه كان يُفضِّل ألا تكون قد انتبهت، أن تكون كما هي، تلقائيةً وطبيعيةً، سواء عندما تستمع لعظات الدُّكتور، أو عندما تُرَدِّدُ المزامير، أو عندما ترفع يدها بخجلٍ فوق رَأسها لكي تطلب الكلمة خلال النِّقاشات. حضور دونيا آنا في الاجتماعات كان عَفَويًا تمامًا.

عندما كَلَّفه الدُّكتور بزيارتها بغرض استجلاء صمت باديا، لم يتوانَ. وردَّت على بريده العاجل مُتهِزةً وجود حامل الرِّسالة ذاته: سوف تنتظره بعد يومين في الحادية عشرة صباحًا. في طريق ميدينا تذَكَّر سالثيدو زوجته، لكنه سرعان ما عاد للتفكير في الغرض من سفره: آنا إنريكث، صوتها الدَّافئ المتناغم القويُّ، وسلوكها، وشخصيتها الواضحة، مع أنها فتاةٍ في العشرين من عمرها بالكاد.

ساقا ثيبريانو أخذتا في الاعتياد على ظهر بيسباس النَّحيف، كان جوادًا يستجيب لضغط رُكبتي الفارس أكثر من اللِّجام. كما كان نقيَّ الدَّم، سريعًا مثل الرِّيح، لكنه أقل حجمًا وحذَرًا من رلامباجو. ذات يومٍ سيصعد إلى جبل إيبيرا لزيارة قبر الأخير. تكريمٌ واجبٌ.

بعد عبور جسر دويرو أخذ بيسباس طريقًا رمليةً على اليمين بين أشجار الصَّنوبر، وفي النِّهاية، توقَّف عندما سمع هدير الماء الصِّدام العنيف بين النَّهرين. الطَّريق ينتهي هناك، وعلى اليسار، بين الأشجار الكثيفة، ينهض بيتٌ من طابقين محاطٌ بحديقةٍ طرُقها مغطاةٍ بأوراقٍ جافةٍ، والأطراف غير

مُعتنى بها. فيها زهورٌ خريفيةٌ: آذَرْيُون لا زالت شديدة النّظارة، وأغصان ورودٍ محروقةٍ ذابلةٍ. قادته خادمةٌ صغيرة السنّ، تضع غطاء على رَأسها، إلى مكان آنا إنريكث التي كانت مُتَّشحةً برداءٍ أخضر مطرَّزٍ في الخصر. بتلقائيةٍ، وببساطةٍ، وجد نفسه يتنزَّه إلى جانبها في الحديقة، ملاحظًا كيف يقوم حذاؤها من الجلد اللَّامع بطحن الأوراق الجافَّة، كأنما في لعبةٍ. قالت إن الدُّكتور لا يجب أن ينشغل بتأخُّر كريستوبال باديبا، إنه كسولٌ في الكتابة، وربما كان مريضًا. وأنها سوف تقوم بإرسال تحذيرٍ له، تأمره بإطاعة أوامر الدُّكتور. توجد تراتبية في الطَّائفة ، ولا يُمْكن التَّورُّط في اجتماعاتٍ هوجاءٍ.

حديثها الدَّافئ الأنيق، تحت الأشجار المُعمِّرة، كان يأسر ثيبريانو. هي من جانبها، كانت تستمتع بالحوار، وحدَّثِته من دون مداراةٍ، وبطريقة ربما تكون متهورةً، عن كارلوس دي سيسو، الذي وصفته بـ (المُحتال الكبير)، وعن بياتريث كاثايا، التي حوَّلتها، وعن فراي دومينجو دي روخاس، الصَّديق الكبير للعائلة، الذي قام بطمأنتها بعد صدمة البداية.

قبل موعد الغداء انطلق ثيبريانو إلى بدروسا وتورو تحت سماءٍ رماديةٍ، خفيفة المطر. بياتريث كاثايا وبدرو ضمَّا للمجموعة السَّيِّدات الثَّلاث اللَّائي كن يعتنين بالكنيسة. بينما حمّله دون كارلوس دي سيسو، في تورو، خبرًا جيِّدًا للدُّكتور: كِتاب التَّعاليم الشَّهير لبارتولوميو كاررانثا دخل إلى إسبانيا قادمًا من فلاندز في مَلزماتٍ منفصلةٍ، من دون ضمِّها في كتابٍ، وبَدَأتْ بالانتشار في الشّمال. ماركيزة ألكانيثيس كانت أوَّل من تلقّاها وسواء هي أو من قاموا بقراءتها كانوا مُتَّفقين على روحها الإيراسمية.

نام في تورو، وعاد إلى بلد الوليد مرورًا بميدينا ديل الكامبو. منذ شهرٍ تقريبًا لم يزُر زوجته، وكلُّ يومٍ يُثقِله الشُّعور بالذنب أكثر. لم يفهم تيو، كما لم يجتهد مطلقًا في محاولة فهْمها. وفَّر لها حياةً رغدةً وقبل نزواتها، لكنه

لم يشاركها، ولا حتَّى فهِم، هواجسها وتوْقها للأمومة. لكن هذه الرَّغبة أصبحت هَوَسًا قضى عليها في النِّهاية. وجدها في حالٍ أسوأ مما كانت قبل أربعة أسابيعٍ، غائبةً وأكثر نحافةً. عندما رآها اندهش لصفحة وجهها الضَّخم بالنِّسبة لدقة ملامحها، لكن، بينما كان وجهها ينحف، كانت تقاطيعها تبرز وتنمو، وأنفها المستقيم يسقط فوق ذقنٍ مترهِّلةٍ لم يعهدها من قبل. العينان اللَّتان كانتا تملآن الجزء العلوي من وجهها، أصبحتا غائرتين فيه الآن، محاطتَين بهالتَّين زرقاوَين. وجدها تمشي في الممر، أو بالأحرى، كان حارساها القويان يجرَّانها. شعرها مشعَّثٍ، والظَّهر محنيٌّ. وبخطواتها القصيرة المتعثِّرة، كانت تبدو كعجوزٍ عمرها ألف عامٍ، أو كشبح خارج من نهاية الممرٌ. توقَّف ثيبريانو أمامها ونظر إليها بتمهُّلٍ. لم يلحظ في عينيها الفارغتين أيَّ أثرٍ للوعي. كأنهما تنظران إلى الدَّاخل، بعيدًا. رغم هذا، عندما أراد الإمساك بذراعها، أتت تيو بحركةٍ عنيفةٍ كأنما لتتخلَّص منه، وظنَّ أنه يرى لمحة إدراكٍ في أعماق نظرتها.

عندما دخلا الغُرفة أصرَّ ثيبريانو على مساعدتها، وعاد للإمساك بذراعها الشَّديدة النَّحافة. هذه المرَّة لم تقاوم. تركته، بسلبيةٍ، يساعدها على الاستلقاء وظَلَّت تنظر إلى القلعة التي تظهر من النَّافذة المغطاة بشبكة الحديد. المُمرِّضان والقابلة، ربما في انتظار مكافأةٍ، اتَّفقوا على أنها تحسَّنت. كانت تتناول طعامًا صلبًا، وتتمشَّى كُلَّ يومٍ لبرهةٍ، وفي عينيها الشَّاحبتين، أصبح هناك شيءٌ لم يكن موجوداً من قبل. جلس ثيبريانو إلى جانبها وأمسك بيدها. كان ينادي عليها باسمها، بحنانٍ، لكنها لا تكترث وتنظر من فوق ظهْره إلى تجاويف سور القلعة. رغم هذا، وضعت نظرتها لبرهةٍ عليه، نظرة شديدة الجمود والإلحاح، حتَّى إن ثيبريانو لم يستطع مقاومتها فأبعَدَ عينيه. عندما واجهها مُجدَّداً وجد أن حدقتي تيو لا تزالان ثابتتين عليه، هادئتين، كأنها تستقصي أعماق روحه، لكنه كان

يراها بعيدةً، قليلة الحيلة، حتَّى أن عينيه امتلأتا بالدُّموع. كرَّر النِّداء عليها باسمها، ضاغطًا على يدها بين يديه، وفجأة حدثت المعجزة: عيناها بُعِثتا من جديد، اكتسبتا اللَّون العسليّ القديم المُفتَقَد، فمها الممتلئ رسم ابتسامة، وتحرَّكت أصابعها لبرهةٍ، وحينئذ غمغمت بكلمتين واضحتين تمامًا وقالت: «لا مانجا». انخرط ثيبريانو في البكاء. خلال بضعة ثوانٍ تقاطعت نظراتهما، تفاهمتا. لكنه، رغم محاولة الإمساك بتلك اللَّحظة، لم يستطع إطالتها. عادت تيو للغياب، فأبعد عينيه عن عينيها وأطلق يدها من يديه. وعادت تيو لتصبح الشَّخص السَّلبيَّ المبتعد الذي كانته خلال الشُّهور الثَّمانية الأخيرة.

عند الغروب، مرَّ ثيبريانو على سيررادا ولا سيكا بخطى سريعة. لقاؤه مع تيو خلَّف لديه أثرًا مؤلمًا، وقال لنفسه إن سلوكه معها، وقيامه بانتزاعها من عالمها لكي يهجرها بعد ذلك، يتطلَّب تعويضًا. كان الشُّعور بالذَّنب يتزايد كلَّما سعى للتَّخلُّص منه، وفكَّر أن حياةً طويلةً من التَّضحية لن تكون كافيةً لكي يعوِّض مسؤولية سنوات. لم يعثر على عزاءٍ. وما إن وصل إلى بلد الوليد، ترك بيسباس بين يديّ خادمه واتَّجه إلى كنيسة سان بينيتو. رحابة المعبد، الخالي، كانت تُزِيد من شعوره بالوحدة، تُضخِّم صمته الدَّاخليّ. رغم أن شعلة المذبح الكبير، شديدة الذبول ومرتعشةً، كانت توحي بشعورٍ باهتٍ بالرُّفقة. بحث سالثيدو عن أكثر أركان الكنيسة عتمةً. مقعدٌ منعزلٌ، خلف مجموعةٍ من الأعمدة الضَّخمة. وما إن أصبح هناك، جالسًا، مُنكفئًا على ذاته، بيدين مضمومتين، عاد للبكاء راجيًا حضور الرَّبِّ لكي يعترف، لكي يتخلَّص من خطاياه مرَّةً أخرى. كان شديد الانطواء، غارقًا في درجةٍ عاليةٍ من الزُّهد، شديد التَّركيز والسُّموّ، حتَّى أنه شعر بحضور المسيح إلى جانبه، جالسًا على المقعد، في العتمة، بملامح غير واضحةٍ. كان يرى وجهه بين الدُّموع، عباءته البيضاء، البرَّاقة. لكن كلَّما حاول النَّظر

صراحةً، مباشرةً إلى عينيه، كان وجه المسيح يختفي. حاول عدَّة مَرَّاتٍ من دون نجاحٍ، وحينئذ قرَّر الاكتفاء بالشُّعور به إلى جانبه، كتفًا بكتف، وأن يلمح بطرف عينه ابتسامته المبهِجة، والكتلة البيضاء الغائمة في الوجه المُحاط بالشَّعر واللِّحية الكثيفين. يثقل عليه الوعي بخطيئته، والتَّدمير المُمنهَج لزوجته، وأنانيته المفرطة. كان يعترف بهذا خاضعًا، بتواضع تامٍ، للمسيح، بلا ألقابٍ. وأمام استحالة الرُّجوع عن الضَّرر الواقع، لجأ لرغبته السَّابقة في التَّعويض. كان لديه يقينٌ تامٌ أن الرَّبَّ يسمعه، ويراقبه بشيءٍ من التَّواطؤ. حينئذ، في ذروة الاندماج، عرض ثيبريانو خانعًا نذرين قام بالتَّفكير فيهما خلال الطَّريق: جنسانيته وماله. التزامٌ شخصيٌّ بالعفَّة وبالزُّهد. أن يتنازل نهائيًا عن أيِّ علاقةٍ جسديةٍ، وتوزيع ثروته على من ساعدوه في الحصول عليها. لم يشعر مطلقًا بحبٍّ خاصٍّ تجاه المال، لكن القرار الحاسم بالتَّخلُّص منه أشعره بحالةٍ غير معهودةٍ من القوَّة.

مرتديًا ملابسه، تمدَّد على الفِرَاش، من دون غطاءٍ. لم يَنَم جيدًا في تلك اللَّيلة، وفي الصَّباح الباكر أعلنت كريسانتا، الخادمة، عن وصول بريدٍ عاجلٍ من ميدينا ديل كامبو. كان من مدير المستشفى، ويخبره أن زوجته، دونيا تيودوميرا ثينتينو، قد لفظت أنفاسها في منتصف اللَّيل، بعد ساعاتٍ من زيارته. وجدوا الجثمان في الفِرَاش، وكانت مُبتسمةً، كأن المسيح قد زارها في اللَّحظة الأخيرة. كانوا ينتظرون تعليماته من أجل الدَّفن.

XIV

مُكتئبًا، فاقد العزم، ارتحل ثيبريانو سالثيدو إلى بدروسا عبْر الطَّريق الوحيد الذي عرفه العجوز دون برناردو الذي لم يكن يحبُّ المغامرة قبْل ثلاثين عامًا: أرويو، سيمانكاس، توردیسیاس، عابرًا نهري بيسويرجا ودويرو. قبل ثلاثة أيامٍ قاموا بدفْنِ زوجته في بهو كنيسة بينيافلور دي كورنيخا، إلى جانب أبيها، دون سيجوندو ثينتينو البيروفي، حيث عقدا قرانهما قبْل أحد عشر عامًا. تم اتِّخاذ القرار بعد أن تناقش مع عمه دون إجناثيو حول المعنى المُحتمل للكلمات الغامضة التي قالتها تيو في زيارته الأخيرة: لا مانجا. فيمَ كانت تُفكِّر تيو عندما ذَكرَت المكان الذي أمضت فيه شبابها تجزُّ صوف النعاج؟ هل كان، على الأرجح، المكان الوحيد الذي تتذكَّره بحنينٍ؟ أم ربما لخطبتها القصيرة في الجبل؟ وكانت تُقَدِّمها على أيِّ لحظةٍ في حياتها. أم أنها كانت تُعبِّر ببساطةٍ ووضوحٍ عن رغبتها في الرَّاحة هناك؟ تحت أرض البارامو الخصبة الحمراء، بجانب أبيها. قبل أن يَتَّخذ القرار، وينقل جسد زوجته إلى بلد الوليد، أمضى ثيبريانو سالثيدو عدَّة ساعاتٍ في مستشفى ميدينا، مُتحدِّثًا مع هؤلاء الأشخاص الذين اعتنوا بها في اللَّحظات الأخيرة. نفت القابلة أن يكون موقف الظَّهيرة، خلال زيارته، قد تكرَّر، بالعكس، ظَلَّت السَّيِّدة تيو شديدة الهمود

بعد كلماتها. وفي ساعة إعطائها المخدِّر لكي تنام، اضطرُّوا لتثبيت فكَّيها بمقبضَي ملعقتَين من الفضَّة لكي تفتح فمها، واضطرُّوا إلى اللجوء للعنف حتَّى انكسرت سنَّتان. فزع ثيبريانو وسأل إن كان ذلك الإجراء القاسي معهودًا، وردَّت القابلة أنه يُستخدم كلَّما رفض مريضٌ تناوُلَ شيء يعتبره الدُّكتور لا غنى عنه. وأيضًا حدَّثه المُمرِّضان بالفظاظة والاستهانة ذاتهما. دونيا تيودوميرا ماتت أثناء النَّوم، من دون أن تتكرَّر رؤى الظهيرة، ورغم هذا ماتت مُبتسمةً، أمرٌ لم يروها تفعله خلال الشُّهور التي اعتنوا بها. أما عن المِلعقتين، فكانت طريقةً مُعتادةً لإطعام المرضى الذين يرفضون الطَّعام. مع دونيا تيودوميرا، التي كانت تضغط على أسنانها، ولم تكن تفتح فمها سوى لشرب الماء، لم يكن هناك مَفَرٌّ من استخدام هذا الحلِّ. بل إن هناك أيامًا، عندما كانت لا تزال قويةً، كانت مقاومتها شديدةً لدرجة أنهم اضطرُّوا لتقييد يديها إلى رَأس الفِرَاش لكي يمكنهم التَّحكم فيها. بالنِّسبة لثيبريانو كانت مفاجأةً مؤلمةً تحدَّث عنها مع الدُّكتور والمدير. واندهشا لدهشته. إذ لو لم يستخدموا الملاعق، لم تكن المريضة لتعيش ثمانية أشهر، بالطَّبع، ولكانت ماتت في الحال. يُمْكنه أن يتخيَّل هذا. جرعات المخدر، عصائر الفواكه أو اللُّحوم المهروسة، لم تكن مُمْكنةً سوى بالقضاء على مقاومتها. كانت تغلق فمها بقوَّةٍ شديدةٍ، وفقط بإنزال الفك يمكنهم فتْحه. منذ اليوم الأوَّل رفضت المريضة تناوِلَ أيَّ شيءٍ بخلاف الماء، وإزاء موقفٍ شديد السَّلبية كهذا لم يكن لديهم بديلٌ عن استخدام العنف. في مستشفى سانتا ماريا ديل كاستيو، لم يكن الانتحار هو الممنوع فقط، وإنما أيُّ مساعدةٍ على محاولة الانتحار. أكَّد الدُّكتور أن سلوك مرؤوسيه كان سليمًا، وعندما حاول سالثيدو أن يشرح له أن إخضاع مريضٍ لهذه المعاملة القاسية يتطلَّب الحصول على موافقة العائلة مسبقًا، انفجر في الضَّحك. كان مخطئًا، الأمور لم تكن تسير هكذا، كانت لديهم

أخلاق أبوقراطية، ويطبِّقونها حرفيًا، سواء أعجب هذا عائلة النَّزيل أم لم يعجبها.

مرتعدًا من الغضب، نزل ثيبريانو إلى القبو ليرى الجثَّة، التي كانت بالفعل ساكنةً ومُبتسمةً. تلك الابتسامة التي حدَّثوه عنها، كانت ابتسامةً جليَّةً، لم تكن ابتسامة سلامٍ فقط، وإنما رضا أيضًا. كانت العزاء الوحيد لثيبريانو. عزاءً انتهى به للتَّغَلُّب على الألم الذي كان يعذّبه. أمرٌ ما، في اللَّحظة الأخيرة، دفع تيو للابتسام. قبل ساعاتٍ ذكرت لا مانجا في لحظة وعيّ، وقال لنفسه، من المنطقيّ تخيُّل أنها كانت تحلم أو تفكّر في لا مانجا عندما رسمت ابتسامة الوداع تلك. كان للعمّ إجناثيو الرَّأيّ ذاته، وبعد حواراتٍ طويلةٍ، اتفقا على أن تيو عندما أشارت إلى لا مانجا، كانت تَذْكُر المكان الذي تتطلَّع للرَّاحة الأبدية فيه. ملكة البارامو كانت ترغب في العودة للبارامو ولم يكن هناك ما يدعو للاعتراض على رغبتها.

تأثَّر ثيبريانو عندما توقَّفت العربات الأربع التي ترافق العربة الجنائزية في باحة كنيسة بينيافلور. رافقه أصدقاؤه القدامى مانريكى، فيرمين جوتيرث، إستاثيو ديل باييه الابن، والجُدُّد، الدُّكتور كاثايا، وشقيقه فرانثيسكو والصَّائغ خوان جارثيا، بالإضافة إلى عمِّه إجناثيو. السَّماء كانت غائمةً لكنها لا تمطر، ومع هذا، كانت مجموعة الأجراء والرُّعاة الذين ينتظرون الجثَّة، يرتدون زيًّا كأنه مُوحَّدٌ، ويحتمون بمدخل الكنيسة. أولئك بوشاحٍ مفتوح الجانبين، من نسيجٍ خشنٍ، وسراويلهم التي تصل إلى منتصف السَّاق تكشف عن الربلات المشعرة، والرُّعاة ومساعدوهم بمعاطفٍ من جلد الأرانب، والسَّراويل الطَّويلة. خرجوا جميعًا من ملاذهم وأحاطوا بالتَّابوت عندما قام الكاهن، دون هونورينو بيرديخو، بتلاوة صلاة الموتى على باب الكنيسة. بالنِّسبة للقشتاليين البسطاء، تلك المرأة التي سيدفنونها الآن كانت رمزًا، ليس فقط لأنها عملت بيديها مثلهم،

وإنما لأنها كانت تؤدي عملها بإيمانٍ وإتقانٍ أكثر من الرَّجل، لهذا، تلقَّت عن جدارةٍ لقب ملكة البارامو. «كانت تجزُّ الصُّوف مثلنا»، قال راعٍ عجوز بصوتٍ مرتعشٍ، وكان يرى أن العمل اليدويَّ يُكفِّر عن وضعها كصاحبة قطيع. باستثناء مانريكي وإستاثيو ديل بابيه، الابن، اللذان كانا على علاقة بسيطة أو قويّة بالفلاحين، كان بقيَّة المرافقين ينظرون إليهم بمزيج من الدَّهشة والفضول، كأنهم كائناتٌ من جنسٍ آخر أو سكَّان كوكبٍ آخر. لكن المفاجأة تملَّكت الجميع لدى فتح التَّجويف الذي سيستقبل ملكة البارامو. جسد أبيها، البيروفي، ظهر سليمًا في قاع القبر، بشعره الأشيب والجسد عارٍ، لم يتحلَّل. قضيبه مُنتصب، والعينان مفتوحتان، ومليئتان بالتُّراب. أكَّد أحد الأجراء أنها معجزةٌ، لكن دون هونورينو، رجلٌ عاقلٌ ومحنَّكٌ، أَخْرَسَ التَّعليقات الخرافية، متجاهلًا الانتصاب غير المفهوم للعضو، ومتحدّثًا عن خصائص بعض الأراضي في تأخير تعفُّن الجثث. تحديدًا في جايوس، القرية التي وُلِدْت بها، قال، لم تتحلَّل أيُّ جثَّةٍ قبل مرور أربعة أعوامٍ على دفنها.

بعد ذلك، لدى مغادرة بينيافلور، داخل العربة، قال ثيبريانو لعمِّه إنه كان يشعر بشيءٍ من المودَّة تجاه البيروفي، وكوْن جسده ظلَّ من دون تحلُّلٍ، وقضيبه منتصبًا، كأنه مات بينما يشعر بالرَّغبة، أثَّر فيه كثيرًا. بعد قليلٍ، لدى عبور جبل لا مانجا، عندما لمح ثيبريانو البرج الكبير والطَّريق الأحمر نصف الممحوّ بسبب الأحجار الصَّغيرة، والشُّجيرات التي قطعها الفحّامون، وفي النِّهاية سقف البيت، مالَ إلى الأمام وطلب من خادمه أن يهدِّئ الإيقاع. أسند جبهته على الزُّجاج وخلال بضع دقائق التزم الصَّمت، بجفنين شبه مُغلقين، متذكِّرًا نزهاته مع الرَّاحلة في الأراضي المغطاة بالعشب وفي ثنايا غابة البلُّوط.

الآن، بالقرب من بدروسا، تَرَجَّل عن بيسباس في المنعطف الأخير

من الطَّريق. الأعشاب الذَّابلة، والتُّربة السَّوداء المحروثة حديثًا، وأخاديد الطَّريق، كانت تُذَكِّره بحواراته مع كاثايا أثناء المشي. سربٌ صغيرٌ من الحجل انطلق بصخب من جانب الطَّريق وأفزع الجواد الذي صهل ودار حول نفسه عدَّة مَرَّاتٍ قبل أن يهدأ مُجدَّدًا. مارتين مارتين، الذي كان ينتظره، قال له عندما رآه إن محصول العنب كان رائعًا، وفي المقابل، بائسًا كان محصول الغلال. كان يؤمن بمعيار أبيه ذاته: المال يوجد في العنب. راكبًا على فرسٍ سيقانها بيضاء، كان المُستأجر يتبعه على مسافةٍ قصيرةٍ عبْر أجزاء ممتلكاته المختلفة: البراعم التي بدأت في الظُّهور، وحقول العنب خلف التِّلال، وأراضي بيابينديميا حيث الصّنوبر المزدهر. أثناء العودة إلى البيت، قام ثيبريانو سالثيدو بإخبار مارتين مارتين أن السَّيِّدة تيودوميرا قد توفيت. حينئذ تكرَّر الموقف الذي حدث في المكان ذاته قبل سبعةٍ وثلاثين عامًا بين أبويهما. مارتين مارتين، لدى سماعه الخبر السَّيِّئ، نزع القبعة عن رَأسه ورسم الصَّليب أمام وجهه: «فليمنحك الرَّبُّ صحّةً لترعى روحها»، قال. بعد ذلك تناولا الطَّعام على انفرادٍ، وقام على خدمتهما العجوز لوثيريانا وزوجة ابنها. وأخبر سالثيدو مستأجره، أنه بسبب رحيل زوجته قرَّر التَّفكير، وأنه على استعدادٍ لتقاسم الأراضي معه؛ مارتين سيقوم بالعمل، وهو سيقوم بتَحمُّل النَّفقات. كان عرضًا غير معهود وسخيًا حتَّى أن المستأجر أسقط المِلعقة في الطبق. «لا أعرف إن كنت قد فهمت جيدًا..»، قال مُتلعثمًا، لكن ثيبريانو قاطعه: «لقد فهمت ما قلت، سنتقاسم امتلاك الأراضي. أنت تُسهم بالعرق وأنا بالمال. والأرباح بالتَّساوي». وختم كلمته القصيرة بعبارةٍ كاذبةٍ:

- «كانت رغبة الرَّاحلة».

أراد مارتين مارتين أن يشكره، لكنه لم يستطع الكلام، بينما كان ثيبريانو يخبره أن عمَّه، القاضي، سوف يقوم بتنظيم العقد الجديد، وأنه

سيحسّن رواتب الأجراء وما يُدفع في يوم عملٍ في حقول العنب في بدروسا. فاكتسى وجه المستأجر بالحزن وقال: «إنها منخفضةٌ، الرَّواتب منخفضةٌ. يُمْكن للفلاح أن يربح خمسين مارابيدي، لكن العامل في العنب لم يكن يصل إلى النِّصف». يجب رفعها، من المُلح تحسين ظروف الحياة في بدروسا وهو، ثيبريانو، كأكبر الملاك، يجب أن يعطي مثلًا. تحدَّث عن مضاعفة أجور العمَّال المؤقتين، الفلاحين الذين يعملون باليومية، لكن المستأجر وضع يديه على رَأسه:

- «لكن، هل فكَّرت حضرتك في ما تسعى إليه؟ المالك الصَّغير لا يمكنه أن يتحمَّل المنافسة. ولن يرغب أحدٌ في العمل في بدروسا بأقلَّ مما ندفع. سينهار الرِّيف».

بدأ ثيبريانو يُفكِّر أن الصَّدقات ستكون مشكلةً أيضًا. لكن في الوقت ذاته، لم يكن يريد التَّراجع. يجب دراسة الأمور على مهلٍ، مع أشخاصٍ ومحامين أكفّاء. أدرك أن قراره، بالطَّريقة البسيطة التي فكّر فيها، سيصبح مرغوبًا بين الأجراء، لكن مكروهًا بين مُلَّاك الأراضي. كان من المحتّم التَّفكير والتَّصرُّف من دون عجالةٍ، وبرَأسٍ باردة.

في تلك الظَّهيرة، خرج للتَّنزُّه مع بدرو كاثايا، الذي أثنى على قراره بعمل عقدٍ جديدٍ مع مارتين مارتين. الرِّيف في حالةٍ حرجةٍ، ومن يعيشون فيه محكومٌ عليهم بالبؤس. كانوا يربحون القليل، والضرائب والكنيسة، والمكوس والعشور، تدمِّرهم تمامًا. سكان الريف بحاجة لتحسين أوضاعهم حتى لا يهجرونه. العائق الذي يشير له مارتين مارتين لا يُمْكن دحضه، لكن قضاة المحكمة العليا والمحامين الكبار في البلاط لديهم موارد كثيرةٌ للعثور على الحلِّ المناسب. من جانبه، سوف يتحدَّث في الأمر مع دون كارلوس دي سيسو، الذي لا بدّ أن يكون على علمٍ بهذه الأمور، فهو العمدة الآن. وفي بيت كاثايا، سلَّمه ثيبريانو ثلاثمائة دوكادو من أجل

احتياجات القرية العاجلة، كما أشار بشكلٍ عابرٍ إلى رصف الطريق، لكن بدرو كاثايا ردَّ أنه لا يُمْكن التَّفكير في هذا الأمر، لأن الدَّوابَّ تنزلق على الحجارة وتنكسر قوائمها. يجب التَّفكير في طريقةٍ أخرى أقلَّ خطرًا.

دخل ثيبريانو سالثيدو في مرحلةٍ من النَّشاط المحموم. كان يخاف من الوحدة. ويرهبه التَّفكير. لم يكن يعرف البقاء بمفرده، وهكذا بالإضافة إلى عمله المعتاد في المتجر وورشة الخياطة، كان يحتاج للانشغال بقية اليوم في أمور أخرى. العمُّ إجناثيو، الذي بارك رغبته الطَّيِّبة في التَّنازل عن نصف ثروته، أكدَّ له أنه سيهتم بالعقد مع مارتين مارتين. أمّا التَّفكير في مضاعفة رواتب الأجراء والعمَّال المؤقتين فإنه سيُشكِّل استفزازًا مفاجئًا. لكن يجب أن يكون هناك حلٌّ وسوف يعثر عليه. في المحكمة يوجد خبراءٌ مستعدُّون للمساعدة. على العكس، ملأ موضوع الأنشطة الصِّناعية عمَّه بالبهجة. دون إجناثيو، منذ حصل على الشَّهادة، تخصَّص في الأمور القانونية الاقتصادية. كان يقرأ كثيرًا، بنهمٍ حقيقيّ، ولا يقتصر على أحكامٍ وسوابقٍ قضائيةٍ، وإنما يقرأ مطبوعاتٍ وكتبٍ فرنسيةٍ وألمانية يوفِّرها له أصدقاؤه. وهكذا كان مُطَّلعًا على أن تنظيم الإنتاج حسب طوائف المهن يتحوَّل شيئًا فشيئا إلى أمرٍ قديمٍ لا يساير العصر. في فرنسا وألمانيا يتَّجهون إلى صيغٍ للشراكة ما زالت غير معروفةٍ في إسبانيا، وفيها لا يتشارك الرِّجال فقط، وإنما رؤوس الأموال، لكي يزداد نفوذها. إلحاق بلد الوليد بالعصر الحديث كان أحد تطلُّعاته الشَّخصية. الطوائف كانت تضمحلُّ. وعندما طلب منه ابن شقيقه صيغًا جديدةً لتجارة الصُّوف مع بورجوس وتصنيع المعاطف والصداريات المُبطَّنة، فكَّر دون إجناثيو أن بعض (الشَّركات المُساهمة) قد تفي بالغرض لحلِّ كلا الأمرين.

كُلٌّ من ديونيسيو مانريكي وفيرمين جوتيريث لن يكونا عاملَين، وسيتحوَّلا إلى شريكَين، وسيُعتبر عملهما كرَأس مالٍ. أي أنهما سيضعان

مجهودهما بينما يضع هو المال. سوف يتمُّ إنشاء شركتين مختلَطتَين حيث يحصل رَأسِ المال والجهد على أرباحٍ متساويةٍ. لكن، توجد هنا، كما في الرِّيف قضيةٌ شائكةٌ: ما العمل مع مُوَرِّدي الجلود والصَّيَّادين والدَّبَّاغين وسائقي العرباتِ وكلٍّ من لا يقوم بعملٍ في الورشة أو المصنع؟ عثر دون إجناثيو على حلٍّ في الحال: إلحاق العمالة غير المؤهَّلة بالأرباحِ. بالنِّسبة له، الصِّيغة الجديدة سوف تكون ثورةً اقتصاديةً حقيقيةً، خاصَّةً في بلد الوليد، ولهذا كان يراها أكثر عدالةً وابتكارًا. مانريكي وجوتيرث سوف يحصلان على حصصٍ مساويةٍ له، لكن العمَّال، بدلًا من رفْع أجورهم، وهو الأمر الذي يضعهم في مواجهةٍ مع المنافسين، سوف يحصلون، بعد كُلِّ دورةٍ ماليةٍ، على دُخولٍ إضافيةٍ هي حصّة من أرباح الشَّركة. هذا المال الذي سيتمُّ توزيعه بين موردِّي الجلود، والصَّيَّادين، والحائكين، والسَّائقين، والدَّبَّاغين، يُمْكن أن يأتي من القيمة الكاملة للأرباح أو من النِّسبة الخاصَّة بثيبريانو سالثيدو، كُلُّ شيءٍ يعتمد على درجة سخائه. في كُلِّ الأحوال، لم يكن نقْل الصَّوف إلى البلاد الواطئة أو تجارة المعاطف تُشكِّل قضايا لا حلَّ لها.

العمُّ وابن شقيقه كانا يقضيان أُمسياتٍ كاملةً في الحوار، فرَأس ثيبريانو لم تجد لحظة راحةٍ منذ رحيل تيو. يبدو غريبًا، لكن خلال السَّنوات الأخيرة، عندما كان التَّواصل مع تيو قد تلاشى، كان يكفي ثيبريانو أن يعرف أنها موجودةٌ في البيت، وأن يسمع حركتها من غرفةٍ إلى أخرى، لكي يشعر بصحبتها. كما قَالَ ذات مرَّةٍ لدونيا ليونور، تيو أصحبت عادةً بالنِّسبة له.

بينما كان ثيبريانو يُفوِّض عمه في تحويل تجارته، كان يوطِّد علاقته بعائلة كاثايا. دونيا ليونور أسفت لترمُّله بكلماتٍ لطيفةٍ من العزاء وقالت إنها تفهم زوجته تمامًا. فهي أنجبت عشرة أبناءٍ، لكنها كانت تحتفل بكُلِّ

حَبَلٍ كأنه الأوَّل. رغم هذا، كانت تفهم ثيبريانو أيضًا، لأن دائرة نشاط الرَّجل تفوق بكثيرٍ الدَّائرة العائلية، وأنانيته أكبر من أن تفهمها المرأة. لكن من جانبه، أكدَّ له الدُّكتور مرَّةً أخرى ثقته به. كان يشعر بالضَّعف والخوف. وتعاون ثيبريانو أصبح لا غنى عنه بالنِّسبة له. كان قد انتهى من تقريره، لكن الجماعة القشتالية الصَّغيرة كانت بحاجةٍ لرعايةٍ دائمةٍ. المشاكل الصَّغيرة كانت تُطلّ برَأسها من كُلِّ مكانٍ. آنا إنريكث أكّدت أن كريستوبال دي باديا سوف يخضع لسلطته، وأنه لن يعود للعصيان، لكن الواقع كان يقول شيئًا آخر. أنطونيا دي ميلو، زوجة بدرو سوتيلو، أخبرت الدُّكتور أن كريستوبال زارها لكي يقرأ عليها رسالةً شديدة الخطورة ، كما قال، من مُعلِّم أبيلا، ووافق على تركها لها لكي تدرسها. بعد مرور بضعةِ أيام، عاد باديا برسالةٍ أخرى، وفيما يبدو كانت من مُعلِّم أبيلا أيضًا، وهذه المرة كان قد قرأها على زوجة روبليدو. كانت تتعلق برحمة الرَّبِّ، وعندما انتهى من قراءتها، طلب منها إخبار زوجها أن يترك كفّارته لأن المسيح قام بالتَّكفير عن خطايا الجميع. وفي يومٍ آخر، دعا لاجتماعٍ خاصّ بالنساء في بيت سوتيلو وعرض عليهن كُتيِّبًا يتناول بنود العقيدة المؤدِّية إلى عقيدة الإيمان بالتَّبرير. أمام انزعاج بعضهن، اعترف أن الكُتيِّب من تأليف فراي دومينجو دي روخاس، رغم أنه قال لآخرين إنه كان مؤلف النَصِّ. اضطرَّ ثيبريانو للقيام برحلتين إلى ثامورا لكي يقنع بدرو سوتيلو ألّا يوفِّر لباديا مكانًا للاجتماعات، لأن هذا الرَّجل يزرع الشِّقاق أينما حلَّ، كما قال له الدُّكتور، الذي أصبح كُلَّ يومٍ أكثر توجُّسًا. كان الدُّكتور يهدأ مؤقتًا، لكن كُلَّ يومٍ كان يضيف أمرًا جديدًا، وذات مساءٍ أخبر ثيبريانو أن الصَّائغ خوان جارثيا لديه مشاكلُ عائليةٌ مهمةٌ، ويجب أن يتَّصل به في أسرع وقتٍ. مرَّ ثيبريانو على الورشة التي يعمل بها خوان، وهذا، من دون أن يرفع عينيه عن السِّوار الذي كان يُصلحه، بادره أنه سيزوره في السَّابعة من مساء اليوم التَّالي، لأن

الكلام في الورشة لم يكن مُستحَبًّا. فور أن اجتمعا انطلق خوان جارثيا في الانتحاب، فقد كان من أقدم المنضمِّين للطَّائفة، من أكثرهم اقتناعًا، لكن زوجته، باولا روبيريث، الكاثوليكية المُتعصِّبة، التي ارتابت من خروجه سرًّا في الليل، تبعته عبر الشَّوارع المعتمة. لحسن الحظ، انتبه في الوقت المناسب واختبأ بجانب متجرٍ، حيث رآها تمرُّ. حينئذ تحوَّل المُطَارَد إلى مُطَارِدٍ، وخلال ساعةٍ قاما بالتَّجوُّل في الشَّوارع القديمة بحي سان بابلو، هو في الخلف، وهي تائهةٌ. في اليوم التَّالي سألته باولا أين ذهب في تلك السَّاعة المتأخِّرة من اللَّيل وقال إنه مرَّ بإحدى نوبات الصُّداع المعهودة بسبب الألم في عينيه، وأنه خرج لاستنشاق الهواء. شيئًا فشيئا أخذ خوان جارثيا في الاطمئنان، لكنه عرف أن زوجته أخبرت كاهن الاعتراف بشكوكها، ولديه أسبابٌ حقيقيةٌ للخوف من قيام هذا الكاهن، إن توصَّل إلى إثبات واحدٍ، بالإبلاغ عنه لمحاكم التَّفتيش على الفور.

عمل ثيبريانو على تهدئة الصَّائغ. وقال له ألا يذهب مؤقتًا إلى الاجتماعات، وكلَّ شهرٍ، في اليوم التَّالي لعقد الاجتماع، سيَمرُّ ببيته ليعرض له تلخيصًا لما تمَّ تناوله لكي لا يفوته شيءٌ. ولمزيدٍ من الأمان، يجب عليه أن يرافق زوجته في ممارساتها الدِّينيَّة. عاد الصَّائغ للبكاء؛ كان يشعر بالتَّقزُز من الوقوع في (التُّقية)، والتَّظاهر بالإيمان في ما لا يعتقد، لكن ثيبريانو سالثيدو قال له إن الجميع، بدرجةٍ أكثر أو أقل، كانوا يقومون بهذا. هو ذاته يحضر قداسات أيام الأحد، لأنه في أوقات الملاحقة، يكون التَّظاهر، إن لم يكن النِّفاق، هو أفضل وسيلةً للدفاع.

فجأةً، قبل سبعة أيامٍ من أعياد الميلاد، قضت دونيا ليونور نحبها. في الصَّباح شعرت برعشةٍ غريبةٍ في القلب، وبعد الغداء ماتت في الكرسي الهزاز من دون أن ينتبه أحدٌ. عثر عليها الدُّكتور وكانت لا تزال دافئةً، والكرسي الهزاز يواصل أرجَحَته الخفيفة. كان رحيلها تتويجًا

لعامٍ مخيفٍ، كما وصفه الدُّكتور كاثايا. كان من المحتَّم إعداد الطُّقوس الجنائزية بالأبَّهة التي تتطلَّبها شهرة الدُّكتور، ولأن ثلاثةً من أبناء الفقيدة رجال دين. تم الدَّفن في مصلى آل فويلسالدانيا، في دير سان بينيتو. عشر فتياتٍ، طفلاتٌ تقريبًا، رافقن التَّابوت حاملاتٍ أشرطةً زرقاء، وكورال مدرسة دوكترينوس، التي أُنشئت قبل أعوامٍ قليلةٍ في المدينة، كان ينشد التَّرانيم المعهودة. فكَّر ثيبريانو سالثيدو أنه يرى اللُّقطاء القدامى، زملاء طفولته في أولئك الصِّبية، وكان يرُدُّ على تضرُّعاتهم للقدِّيسيين بورعٍ واحترامٍ: صلِّ من أجلنا، صلِّ من أجلنا، صلِّ من أجلنا، كان يقول لنفسه. ولدى مقطع يوم الغضب في القدَّاس، سجد فوق أرض المعبد الحجرية وكرَّر الكلمات بصوتٍ خفيضٍ، متأثِّرًا بعمقٍ: عندما تتحوَّل القرون إلى رمادٍ: كشهود الملك دافيد وسيبيلا.

شاركت المدينة عن بكرة أبيها في جنازة دونيا ليونور. صيت الدُّكتور ومشاركة ثلاثةٍ من أبناء الرَّاحلة في قُدَّاس الجنازة حرَّكا المشاعر الدِّينيَّة للناس. ورغم ضخامة الكنيسة، لم تتَّسع لكلِّ الحضور، ووقف كثير منهم على الباب، في ردهة المدخل، في ورعٍ وصمتٍ. أصوات الطُّلاَّب كانت تدوِّي في ميدان رينكونادا والمشاة يرسمون الصَّليب بورعٍ لدى مرورهم أمام الكنيسة. بعد انتهاء الطُّقوس تجمَّع المرافقون في صحن الكنيسة لتقديم العزاء، لكن في أكثر لحظات الهدوء والتأثُّر، ارتفع صوتٌ ذكوريٌّ، واضحٌ وقويٌّ، على غمغمة الحاضرين:

- «دونيا ليونور دي بيبيرو، إلى المحرقة!».

صدر نداءٌ هامسٌ لفرض الصَّمت، ولم تتكرَّر الإساءة. استمرَّت المراسم على الإيقاع ذاته، والجماهير المصطفّة أمام الأخوة كاثايا، وبعضهم، الأكثر قربًا أو الأكثر ثقةً، كانوا يقتربون منهم ويقبِّلونهم.

بالنِّسبة للدُّكتور، كان موت أمِّه يزيد في إحباطه. دونيا ليونور مثَّلت في حياتها السُّلطة، والعقل الرَّاجح، والنِّظام، والمَرجع الذي لا غنى عنه. ورغم إنها تركت ابنتين، كونستانثا وبياتريث، انتهى الأمر بالنِّظام الأموميِّ الصَّلد إلى التَّداعي. تدهوَر وجه الدُّكتور أكثر، كان ينحُف، ويتجعَّد، ويفقد شعرًا. صوته أيضًا كان يخبو ويكشف عن المعاناة النَّفسية التي تُثقله. في جلسات العزاء، حيث توافد العديد من المعجبين، لم يكد يتكلَّم، كان النَّاس يخرجون مُندهشين: الدُّكتور لن يتجاوز المأساة، كانوا يقولون. وفي اللَّيل، عندما يرحل الزَّائرون، كان يلجأ مع ثيبريانو إلى مكتب أمه الصَّغير يتحدَّثان عنها، ويتذكَّران شخصيتّها وما كانت تمثِّله في العائلة والطائفة. أمسكت ابنتها كونستانثا بزمام القيادة لكن كُلَّ شيءٍ اختلف. المسكينة كونستانثا ليست إلا مبتدئةً بسيطةً، كان الدُّكتور يقول مُحبَطًا. ولعدم وجود عوْنٍ أكثر قربًا، توطَّدت الصَّداقة بين الرَّجلين في وقت الأزمة. قال له الدُّكتور ذات ليلةٍ:

- «لقد سمعتَه ويُمْكنك أن تساعدني في التَّعرُّف على ذلك الصَّوت».

الصَّيحة المُطالِبة بالمحرقة لأمه كانت تقضّ مضجعه، لم تكن تسمح له بالرَّاحة. خلفها كان يرى المدينة كلَّها، العالم أجمع. ومهما تحدَّثا عن أيِّ أمرٍ، كان الحوار ينتهي دائمًا بالموضوع ذاته: الصَّوت الذُّكوريُّ المدويُّ المُطالِب بحرق الرَّاحلة. كان ثيبريانو يعمل جاهدًا على تهدئته: «إنه مجنون، قداستك، لا يعدم وجود مجنون في تجمُّعٍ بهذها الحجم». لكن كاثايا كان يعتقد أن الأمر لم يكن يتعلَّق بمجنونٍ، الصَّوت كان واضحًا، مُثقَّفًا، ومتعلِّمًا، ونبرته لم تكن وضيعةً. ثيبريانو، قال له إنه تحدَّث في ورشة الخياطة مع فيرمين جوتيرث. وسأله إن كان هو أيضًا قد سمع الصَّوت، وفي رأيه ورأي أصدقائه، أن الصوت صدَر من النَّاصية حيث تحلَّقت مجموعةٌ من الحرس المَلَكيِّ. حرَّك الدُّكتور رَأسه نافيًا بقوَّةٍ:

الصَّوت الآمر لجنديٍّ يُمْكن تمييزه على مبعدة عشرة فراسخ، قال. يجب التَّفكير في شخص أكبر مكانةً، شخص عارف بالشُّؤون الخاصَّة لعائلة كاتايا، خسيس في أعماقه، لكنه مهذَّبٌ في سلوكه.

بعد أسبوعين من من الافتراضات والتَّكهُّنات حول الصَّوت الغامض، انهار الدُّكتور ذات مساءٍ، وصارَحَه أطلعه على سرٍّ يجب أخذه في الحسبان خلال البحث. حدَّثه عن امرأةٍ غريبةٍ، ظهرت في حياته بطريقةٍ غريبةٍ أيضًا، وواجهته بعنف. كان يشير لدونيا كاتالينا دي كاردونا، المعروفة بلقب (السَّيِّدة الطَّيبة)، التي كانت في شبابها مُربِّيةً لدون خوان النمساوي[1]. وكانت تتمتَّع بشهرة قدِّيسةٍ في الدَّوائر العليا، وحلَّت على بلد الوليد مع أميرة ساليرنو، التي كانت وصيفتها، وكان زوجها دون فرناندو سان سيبيرينو، قد جاء إلى البلاط مُطالِبًا بممتلكاته التي تمت مصادرتها لمشاركة مزعومةٍ في مؤامرةٍ ضد الإسبان.

إقامة أميرة ساليرنو في المدينة أتاحت لها لقاء الدُّكتور وعقْد علاقةٍ وديةٍ معه. لكن كاتالينا، (السَّيِّدة الطَّيبة)، لم ترتَح مطلقًا لصداقة سيِّدتها مع الدُّكتور، لأن طريقة كلام هذا عن رحمة الرَّبِّ ونعمة المسيح كانت تبدو لها خاطئةً ومريبةٍ. كاتالينا دي كاردونا، المُتطفِّلة بطبيعتها، قرَّرت أن تُنصِّب نفسها ملاكًا حارسًا للأميرة، وأن تتجهَّم في وجه الدُّكتور. وفي النَّدوات المسائية كانت تعارضه وتتهكَّم عليه من دون تهاونٍ. تنطق بلسان إبليس، فخامتك، قالت للأميرة ذات يومٍ. حينئذ قرَّر الدُّكتور أن يلقِّن المُتعالمة درسًا. وفي العظة الشَّهيرة (المريمات الثلاث)، في عيد القيامة، سخر من سفه بعض النِّساء اللَّائي يعارضن رجال اللَّاهوت، وقال إنهنّ

(1) دون خوان النمساوي، 1545-1578، ابنٌ غير شرعيٍّ للملك كارلوس الأول وباربرا بلومبيرج. شغل مناصب عسكرية ودبلوماسية خلال حكم أخيه فيليب الثاني.

مُتعالمات ينطقن بالتّرهات، وسيكنَّ في مكانٍ أفضل بين قدور الطّهو. لكن (السَّيِّدة الطَّيبة) انتظرت زيارة القسِّ، وعندما ظهر هذا أمام سيدتها، قالت له إنها رأت انبعاثاتٍ ناريةً مُحاطةً بالدُّخَّان وروائح حجر الزَّعفران تخرج من فمه. ضربة (السَّيِّدة الطَّيبة) خلقت جوًّا متوترًا في الاجتماع، وعنفًا غير معهودٍ، ما دفع أميرة ساليرنو للتدخل وفرض الصَّمت على الطرفين عندما كان كاثايا يهمّ بالرَّدِّ. عندها نهض هذا بكبرياءٍ وخرج من البيت غاضبًا. أوضح كاثايا لثيبريانو:

- «لَمْ أعد لوضع قدمي في قصر الأميرة. لكن يُمْكن أن يكون الصَّوت المُطالِب بالمحرقة لأمِّي قد صدر بتحريضٍ من هناك، من صالوناتها، بسبب عِظاتي».

غرق ثيبريانو في التَّفكير. كان يجهل أن للدُّكتور عداواتٍ لها مكانةٍ عاليةٍ. لكن عندما عرف، قدَّر أن إهانة دونيا ليونور يُمْكن أن تكون قد صدرت من تلك المجموعة.

بعد يومين، وجد ثيبريانو واجهة بيت الدُّكتور مُلطَّخةً بلافتةٍ قذرةٍ، تقول ببساطةٍ: **دونيا ليونور إلى المحرقة.** تلك اللَّافتة الحقيرة، المكتوبة بطلاءٍ أحمر، أدَّت إلى انهيار الدُّكتور. فدعا لاجتماعٍ، في وسط اليوم، في مصلى البيت. لا يمكننا أن نعيش في هذه العزلة المُطلقة، قال. حتَّى الأحجار تعرفنا، إنهم يراقبوننا، ويكرهوننا. الاحتياطات التي نتَّخذها لا تفيد ما يكفي. بدا فَزِعًا، محاصرًا، وعصبيًّا. فبعد موت أمِّه، التي كان يعتمد عليها كثيرًا، وكانت تُمثِّل نموذج الشَّجاعة، يصل هذا الانتقام الدَّنيء من الطَّبقة العليا في بلد الوليد. يجب علينا الاعتراف أننا لسنا أحرَّارًا، وأننا نواجه أعداءً لا يكشفون عن أنفسهم، يجب علينا أن نتوخَّى الحذر. منذ تلك اللَّحظة تمَّ إلغاء الاجتماعات مؤقتًا، وقرَّر الدُّكتور استبدالها بزياراتٍ منزليَّةٍ، حيث يتمَّ إخبار أعضاء الطَّائفة بشكلٍ شخصيّ بمستجدَّات الأمور.

وبناءً على تعليمات الدُّكتور، سافر سالثيدو إلى تورو وثامورا ولوجرونيو لكي يخبِرِ الأنصار.

لدى عودته، وجد ثيبريانو الدُّكتور أكثر اكتئابًا وانعزالًا. المعرفة بوجود المجموعة، أو على الأقل، الشَّكُّ في وجودها، كان يقلقه كثيرًا. كان يشعر أنه مُحاصَرٌ حرفيًا. كان ثيبريانو يبقى معه حتَّى السَّاعات الأولى من الفجر. كان الأرق يلازمه، والأعشاب والمنوِّمات لم تكد تؤثِّر عليه. كان خوفه يصل إلى حدودٍ قصوى، وإلى جُبْنٍ مَرَضيّ. الشُّعور بالتَّعقُّب والعزلة كان يفوق كُلَّ ما عداه. ذات ليلةٍ طَلَيا اللافتة الحمراء، وصعد الدُّكتور إلى بيته بحالٍ أفضل، كأنه محا معها الأفكار السَّيِّئة في ضمير المذنب. كان يُروِّح عن نفسه مع ثيبريانو، فقد كان المنديل الذي يمسح به دموعه. قال له: «على الأقل كان (المُصلح) على علمٍ بوجودنا، ويشجّعنا». بعد موت لوثر، وانقطاعهم عن المركز الإشبيلي، لم يكن الدُّكتور يرى مستقبلًا للطائفة. لكن ثيبريانو لاحظ أنه يُفكِّر في أمرٍ ذات يومٍ، وفي اليوم التَّالي، يُفكِّر في النَّقيض. كان يبدو مُتردِّدًا، مُتقلِّبًا، حائرًا. ذات مرَّةٍ نظَّما رحلةً إلى إشبيلية، لكن قبل ثمانية أيامٍ تراجع الدُّكتور عنها. ماذا سيفعلان في إشبيلية؟ هل كان لدى الأندلسيين معلوماتٌ أكثر منهم؟ يجب الذهاب أبعد من هذا، إلى المنبع. هل ثيبريانو سالثيدو قادرٌ على السَّفر إلى ألمانيا من أجل المجموعة؟ لم يندهش سالثيدو للسُّؤال، فقد كان ينتظره منذ شهورٍ. كان مُقتنعًا أن لقائه مع ملانشتون والمتعاونين معه، والحصول على معلوماتٍ مباشرةٍ وكُتبٍ ومطبوعاتٍ، والوعد بمساعدةٍ وهميةٍ إن استدعى الأمر، سيُمكِّنه من رفع الرُّوح المعنوية للدكتور. سوف يذهب إذن إلى ألمانيا، قال له، سوف يمضي هناك الوقت اللَّازم، وسوف يتَّصل بالعقل المُفكِّر للتنظيم، ويتلقَّى تعليماتٍ. مجرَّد فكرة أن ثيبريانو سوف يسافر إلى ألمانيا رفعت الرُّوح المعنوية للدكتور. سوف يرشده إلى مسار الرِّحلة في

الخريطة، مدنٌ، وطرقٌ، ويزوّده بأسماء وعناوينٍ وجهات اتصال ضرورية، ومراكزٍ لا يُمْكن عدم زيارتها. كأن عقله المتعطِّل أخذ في العمل فجأة. ذات مساءٍ أعطاه توصيةً لبيرجر، هاينرش بيرجر، مهنته الملاحة، وهو أحد رُسُل المسيحية الجديدة، ويُمْكن أن يعود معه إلى إسبانيا عبر موانئ الشَّمال. عندما تذكَّر إقامته في ألمانيا، والأماكن التي زارها مع الإمبراطور، والأصدقاء القدامى، واللِّقاءات الأولى، كان وجه الدُّكتور يشرق. أخذ الاثنان في نسْج الخطط: سوف يخرج عبْر جبال البرانس ويعود عن طريق البحر، أو العكس. مِعْطَف ثيبريانو والصداريات المبطنة يُمْكن أن يفيدا كستارٍ إن اقتضى الأمر، لكن في تلك اللَّحظة يجب أن يظلَّ المشروع سرًا. هل سمع عن بابلو إيتشارين، من أهل ثيلبيتي، وهي قريةٌ صغيرةٌ في شمال نافاررا؟ لا، بالطَّبع، سالثيدو لم يسمع عن إيتشارين، ولا يعرف بوجود ثيلبيتي. أبْعَد رحلاته في الشَّمال كانت إلى ميراندا ديل إيبرو. لم يسافر حتَّى إلى بيلباو. أخبره الدُّكتور حينئذ أن إيتشارين ينقل النَّاس حتَّى الحدود مع فرنسا، هاربين، ولاجئين، ومنفيِّين، ومهرِّبين. كان أهل ثقة لكن يجب الاتِّصال معه بحذَرٍ. من الأفضل الحديث معه عن دون كارلوس. سيسو يعرفه منذ كان يقيم في لوجرونيو واستعان بخدماته عدة مَرَّاتٍ. يجب أن يقول له إن دون كارلوس دي سيسو صديقه، بل من أقربائه. وقال، «لَمْ يكن أجره ثابتًا، كان متغيرًا، يعتمد على اللَّحظة، وعلى الخطر الذي يتعرَّض له في كُلِّ رحلةٍ، وعلى احتياجاته، لكن لم يكن من السَّهل أن تقِلَّ مكافأته عن الخمسة وعشرين دوكادو ولا أن تتجاوز الأربعين». ما إن يصل إلى بيت أيتشارين، يُمْكن لبيثنتي، خادم ثيبريانو، أن يعود إلى بلد الوليد بالجياد، لأن إيتشارين يمتلك بغالًا خاصةً به تعرف الطَّريق، بغالًا صامتةً وتُعرِّضه لخطرٍ أقل. أمدَّه الدُّكتور بعنوان بابلو إيتشارين في ثيلبيتي. قبل السَّفر قام ثيبريانو سالثيدو برحلةٍ سريعةٍ على صهوة بيسباس حتَّى تورو، حيث أكَّد

دون كارلوس دي سيسو معلومات الدُّكتور وحذَّره من أن سلوك إيتشارين كانت فظَّةً أحيانًا، وشخصيته متقلِّبةٌ، لكن يُمْكن الثِّقة به، فهو عند كلمته ويفي بوعوده. أعطاه خطاب تعارفٍ للدَّليل النافاري، ولدى عودته إلى بلد الوليد مرَّ على بدروسا لكي يسلِّم مارتين نسخةً من العقد الجديد الذي حرَّره عمَّه إجناثيو في المحكمة. وكان قد أعطى مانريكي وفيرمين جوتيرث مسوَّدةَ الاتِّفاقات الخاصَّة بالشَّركات الجديدة. وبعد الانتهاء من الارتباطات التي تبقيه في بلد الولد، وبالاتِّفاق مع الدُّكتور، حدَّدا تاريخ الخامس والعشرين من أبريل للسفر. قام بيثنتي بإعداد الأمور بدقَّته المعهودة: ثيبريانو سوف يسافر ممتطيًا بيسباس، وهو على أرروجادو، الجواد البديل النَّحيف القويُّ، بينما ستقوم البغلة سولا بحمل المتاع. لم تكن هناك عجلة. مع أخذ الإيقاع البطيء للبغلة في الاعتبار، يمكنهم قطع عشرة فراسخ يوميًا ودخول ثيلبيتي في التَّاسع والعشرين أو الثلاثين من أبريل. للرَّاحة ليلًا، حدَّد بيثنتي الأماكن المُحتملة، إلا في حال وقوع أمرٍ طارئٍ، وهي النُّزُل في بيامانكو، ثالدويندو، بيلورادو، لوجرونيو وبامبلونا. بعد كُلِّ هذه التَّحضيرات، غادر ثيبريانو بلد الوليد في السَّاعات الأولى من صباح يوم 25. متاعه الخفيف كان بردعةً بجرابين تحملهما البغلة سولا. أما المال، والأوراق، وخطابات التَّعارف فكانت موزَّعةً على جيوب ملابسه. كان يوم السفر مشمسًا، لطيف الحرارة، بسحب بيضاء، كنُدف صوفٍ. وفكَّر ثيبريانو في ديبجو برنال. كلَّما سافر وهو يحمل مالًا أو أغراضًا ثمينة فكَّر في قاطع الطَّريق القديم، لكن بيثنتي طمأنه. قال، «لا توجد أخبارٌ عنه منذ ستَّة أشهر».

تحقَّق ما خططا له بدقةٍ شديدةٍ خلال أوَّل يومين. فاجأهم المطر في اليوم الثَّالث ووصلا إلى بيلورادو والماء يقطر من ثيابهما. أغرقت الأمطار قشتالة وانتظرا يومًا لكي يستأنفا مسيرهما. في الثلاثين، مع حلول المساء،

بعد إرسال بريدٍ عاجلٍ لأيتشارين، كانا يدخلان ثيلبيتي. قرية جبليَّة، بيوتها من الأحجار، وقليلة السُّكَّان. أَنزل ثيبريانو الجرابَين في ردهة بيت بابلو إيتشارين. وعاد بيثنتي إلى أورتاسون ممتطياً أررروجادو، ويجرّ خلفه بيسباس وسولا. لا توجد أسبابٌ لِلَفْت انتباه أحدٍ. من جانبه، وجد ثيبريانو أن بابلو إيتشارين أقلَّ فظاظةً مما وصفه دون كارلوس. كان قليل الحديث، ليس لانغلاقه، وإنَّما لكي لا يرهق نفسه بالكلام. قال مُوضِّحًا:

– «حضرتك تعرف أن هذه الأوقات صعبة. اليوم لا يُمكنني أن أصعد بك إلى الجبل بأقلِّ من خمسين دوكادو».

عندما غادرا لم يكن النَّهار قد طلع بعد، وعندما أخذ النُّور في الظُّهور، كانت سلسلة الجبال الدَّاكنة، المُجَلَّلة بالسُّحب تبرز في الأفق. بغلة إيتشارين المُغطَّاة بحاشيةٍ، كانت تفتح الطَّريق أمام بغلة ثيبريانو، ولومينوسا التَّي تحمل المتاع. كانا يعبران غابةً من أشجار بلوطٍ قصيرةٍ، ما زالت عليها أوراق الشِّتاء، من دون اتِّباع طريقٍ مطروقٍ. وفي أكثف مناطق الجبل، انطلق طائران مفزوعَيْن. قال إيتشارين باقتضاب:

– «ديك الغاب».

قال ثيبريانو مُتذكِّرًا أوقات لا مانجا:

– «في قشتالة، يحلُّ ديك الغاب في نوفمبر».

أوضح الدَّليل:

– «ما زالت في طريق العودة. وهذه تعشِّش هنا».

توقَّفا عندما أصبح المنحدر قاسياً. غابةٌ صغيرةٌ من الزَّان، بأوراقٍ حديثةٍ، كانت تنهض على اليمين، خلف أرضٍ مُعشبةٍ. وعلى اليسار مساحةٌ كبيرةٌ من أشجار الصّنوبر. أخرج إيتشارين من كيسه خبزًا وجبناً وسُجقًا،

وقربة فيها نبيذ. شرب قبل أن يبدأ الأكل، رافعًا رَأسه لوقت طويل، من دون أن يسكب نقطةً واحدةً.

مع عواصف منتصف النَّهار، كان زوجٌ من نوع النِّسر الملتحي مُعلَّقَين في الهواء من دون تحليقٍ. عندما استأنفا سيرهما، كانت البغال تتقدَّم بصعوبةٍ، وببطءٍ. كان المنحدر قويًا بين أشجار الزَّان. غابةٌ من أشجارٍ متقاربةٍ وساحرةٍ. من حينٍ لآخر، كان إيتشارين يُوقِف البغلة، ويُنصت بعد أن يطلب من ثيبريانو بالصَّمت. في الأعالي، رغم تعامد الشَّمس وقوّتها، كان الجوُّ أكثر برودةً. كانا يتسلَّقان الآن بين أشجار الصّنوبر. بحرٌ منها. وفوق، على قمة الجبل، تظهر جلاميدٌ عاريةٌ، وتراكماتٌ صغيرةٌ برّاقةٌ من الجليد، ومياهٌ جاريةٌ مصدرها ذوبان الجليد. في لحظةٍ ما، وقف إيتشارين، وأرشده بإشاراتٍ آمرةٍ أن يختبئ بين أعشابٍ تحيط بها أشجارٌ عاليةٌ. كان إيتشارين يفرض الصَّمت واضعًا سبَّابته على شفتيه. كانت هناك أصوات على مسافةٍ قريبةٍ. ترجَّل النافاري ونظر من بين الأوراق. تعرَّف على مظهر المسافرين، وربما على الدَّواب، لأنه التفت إلى سالثيدو وهمس:

– «مُهرِّبون».

سالثيدو، الذي كان راكبًا على بغلته، نظر بلا طائلٍ إلى الاتِّجاه الذي أشار له الدَّليل. سمع الحوار شديد القرب لكنه لم يرَهم. بعد ذلك ابتعدوا على مهلٍ وتحوَّلت أصواتهم إلى غمغمةٍ مكتومةٍ. عندما تلاشت، امتطى إيتشارين بغلته وأضاف:

– «إنه ماركوس دورو، أفضل دليل في هذه المنطقة».

– «وماذا يحملون؟».

– «ربما عنبر، وزيوت تجميلٍ، وعطورٌ ومراهم مُعطَّرةٌ. أنواع من البضائع الفاخرة تأتي من فرنسا».

كان الجبل شديد الانحدار عندما خرجا من منطقة الغابات، وبدأت النَّباتات تصبح أصغر حجمًا: أعشابٌ، ونبات الرَّتم، وشوكياتٌ. كان إيتشارين يتوخى ضبط خطواته على أماكن بين الصُّخور لكي يصبح أقلَّ عُرضةً للرُّؤية من أسفل. ذات مرَّةٍ، لدى الخروج من انحناءة، رأيا ظبيًا يقفز من حجرٍ إلى آخرٍ. تعمقا في منطقة تضاريسٍ صعبةٍ، فيها صخورٌ عاليةٌ، صعبة العبور. لكن في نهاية الجرف، على حافَّة الهاوية، في ظلٍّ تجويفٍ صغيرٍ ظهر رجلٌ يرتدي قميصًا قصيرًا وسراويل منتفخة كثيرة الكشكشات، ومعه دابتَين مربوطتَين من العنق. التفت إيتشارين إلى ثيبريانو وقال مُبتسمًا:

- «بيير، لم يجعلني أنتظر أبدا».

وأصدر صفيرًا مُنغَّمًا، كرَّره الصَّدى في الجانب الفرنسيِّ من الأخدود.

الكتاب الثَّالث

مراسم الإيمان

XV

بناءً على طلب ثيبريانو، وافق الدُّكتور على أن تحلَّ بياتريث كاثايا مكان شقيقتها كونستانثا في قراءات الاجتماعات. قبل سبعة أشهر عاد ثيبريانو من ألمانيا، وتلك اللَّيلة، في بدايات شهر مايو، قرأت بياتريث بضع صفحاتٍ من «حرية المسيحيِّ»، بذات الابتسامة الكاشفة عن الأسنان، وذات النَّبرة واللَّدغة التي كانت تُميِّز نطْق أمّها. كانت دونيا ليونور كأنما بُعِثت. في التَّوقفات، كان ثيبريانو يتأمَّل بإعجاب وجه آنا إنريكث، وجهٌ مشرقٌ وجذّابٌ تحت الوشاح الأحمر الذي يحيط برَأسها، ويديها الطَّويلتين المُزيَّنتين بالحلى فوق عارضة الدكَّة. بعد ذلك، شرح الدُّكتور الصَّفحات التي قرأتها شقيقته بياتريث بحماسةٍ، وبذات الإقناع كما عندما كانت تصحبه أمُّه. منذ عودة ثيبريانو محمَّلًا بكُتُبٍ وتقاريرٍ وأخبارٍ جيِّدةٍ، بدا الدُّكتور أجوستين كاثايا شخصًا آخر. توطَّدت قناعته الدِّينيَّة، واستعاد حماسته للتَّبشير. لكن، ما أن افتتح النِّقاش النِّهائيَّ، حتَّى سُمِعَ وقْع خطوات حصانٍ في الشَّارع، الحدوات التي تدقُّ على الحجارة كانت تقترب. كان الصَّمت في الصَّالة مهيبًا، فعندما توقَّف الجواد سُمِعَ الفارس أثناء ترجُّله وسيره ثلاث خطواتٍ حتَّى باب البيت. تردَّدت قرعتين حادَّتين وعندما أسرع خوان سانشيث نحو السُّلَّم، صار صمت الاجتماع جليديًا.

بعد ثوان، دخل دون كارلوس دي سيسو بملابس فارسٍ مُرتجلةٍ، مُشعَّث الشَّعر، والقبَّعة في يده. دخل المصلى مُسرعًا ، صعد على منصة الدُّكتور في قفزةٍ واحتضنه بعصبيةٍ، وما إن حصل على موافقته حتَّى توجَّه للحضور بنبرة تحذيرٍ:

- « تمَّ اعتقال كريستوبال دي باديا أوَّل أمسٍ في ثامورا. بدرو سوتيلو وزوجته أنطونيا دي ميلو قاما بالإبلاغ عنه لمحاكم التَّفتيش، بمناسبة مرسوم الإيمان السَّنويِّ[1]. وقد تم احتجازه في السِّجن الرَّهيب لمحاكم التَّفتيش، وليس من المُتوقَّع أن تحدُث اعتقالاتٍ أخرى حتَّى يتمَّ استجواب باديا. رغم هذا، أجد نفسي مُجبرًا على تنبيه حضراتكم باتِّخاذ الإجراءات المناسبة: يجب أن تتخلَّصوا من المستندات التي يُمْكن أن تدينكم، وأن يهرب الواحد منكم إن وجد أن حياته معرَّضةٌ للخطر. فليرعاكم الرَّبُّ».

وقع تدافعٌ. الكلُّ يريد أن يكون أوُّل من يترك بيت الدُّكتور، وواجه خوان سانشيث صعوبةً بالغةً في إخراج الحاضرين بنظامٍ، كما اعتادوا. الخطوات المُسرعة للخارجين كانت مسموعةً، وقد تخلَّت عن الحذر المعتاد. كأن الابتعاد عن البيت الرَّئيسيِّ سوف يبعدهم عن خطر الاعتقال. نظر ثيبريانو إلى آنا إنريكث أثناء خروجها، وتوَّجَّه للدكتور ودون كارلوس اللذَين كانا خلف المنصَّة. شحب دون أجوستين، ويداه البيضاوان النَّحيفتان كانتا ترتعشان قسريًا حتى بدا أنه فَقَدَ السَّيطرة على نفسه. تلك التَّغيُّرات في الحالة النَّفسية، كانت معهودةً في الدُّكتور. حاول الكلام مع

(1) بدءًا من عام 1500، أصبحت لجانٌ من محاكم التفتيش تجوب القرى والمدن سنويًا، وخلال قداس يوم الأحد تقوم بأخذ القَسَم على السكان بأن يبلغوا على المشتبه بارتكابهم أيٍّ من بنود قائمةٍ طويلةٍ من الأمور المؤدِّية للهرطقة، مثل قراءة كُتبٍ بعينها، وتناول أفكارٍ مُحدَّدةٍ، أو حتَّى الامتناع عن أداء الصلوات. وكان القَسَم يحتوي على تهديدٍ بالحرمان الكنسي لمن يحنث به.

ثيبريانو لكن الكلمات تراكمت على شفتيه ولم يفلح في ترتيبها. فبادر دون كارلوس دي سيسو لإعطائه التَّعليمات:

- «حضرتك يجب أن تهرب على الفور. الإمبراطور، من مقرِّ إقامته في يوستي، طالب المُحقِّق فالديس بعقاب سريعٍ ومخيفٍ. اهرب. لقد أصبحت عضوًا بارزًا في الطائفة منذ انضمامك، ورحلتك إلى ألمانيا ولقائك مع ميلانشتون، يجعلانك في هذه السَّاعة أكثر عرضةً للخطر. ارحل بعيدًا. أنت تعرف طريق بامبلونا. كما تعرف ثيلبيتي وبيت بابلو إيتشارين. اعتمد عليه وبعد بضعة أيامٍ سوف تصبح خارج إسبانيا».

طفرت الدُّموع من عينيِّ الدُّكتور عندما شدَّ على يده. ثيبريانو، في المقابل، كان يشعر بالثَّبات والثِّقة، وبأنه قادرٌ على كُلِّ شيءٍ. لم يكن يشعر بالإرهاق. وعندما وصل إلى بيته، أغلق المكتب خلفه وفتح المكتبة الكبيرة. كان قيامه بتخزين كُلِّ هذه الكمِّية من الأوراق خلال ثلاث سنوات أمرًا يبدو شبه مستحيل: تقاريرٌ، رسائل، ملخَّصاتٌ، توصياتٌ، رسائل صغيرةٌ، مراسلاتٌ مع الدُّكتور، ومع بدرو كثايا، وكارلوس دي سيسو، ودومينجو دي روخاس، وبياتريث كاثايا وآنا إنريكث. دفاترٌ وكتيِّباتٌ من رحلته إلى فرنسا وألمانيا. خرائطٌ وطُرُق سيرٍ. عناوين أشخاصٍ ومراكز في الخارج، وكُتُبٌ. الكثير من الكُتُب، من بينها السَّبع عشرة نسخةٍ من (نعمة المسيح)، التي كان يحتفظ بها، المُتبقِّية من طبعة أجوستين بيثريل. وضع حطبًا في المدفأة وأشعله. في البداية تخلَّص من الأوراق التي كانت تحترق بسرعةٍ، بعد أن تتلوَّى خلال بضع ثوان بين ألسنة اللَّهب؛ بعد ذلك رمى بالكُتيِّبات، والأوراق ، وفي النِّهاية الحافظات والكتب، كان يرميها في النار بصبرٍ، ومن دون تعجُّلٍ. وكانت لبعضها أغلفةٌ قويةٌ، من الجلد أو النَّسيج، وبقاياها تستغرق وقتاً في الاحتراق. وبينما كانت أكوام الورق وصفوف الكتب تختفي من الأرفف، كان ثيبريانو يشعر بالتَّحرُّر

من عبءٍ ثقيلٍ، كأنما خرج من اعترافٍ. لم يحرق ما يُمْكن أن يورّطه هو والمجموعة فقط، وإنما أخرج الرَّماد من البيت. استلقى في الرَّابعة فجرًا. وفي الثامنة صباحًا نهض، أفطر في عجالةٍ وأمر بيثنتي أن يعدَّ بيسباس في أسرع وقتٍ. بعد ساعةٍ، مرتديًا ملابس الخروج للرِّيف، وبأدنى متاعٍ، كان مُستعدًّا للرَّحيل، عندما أخبرته كريسانتا بزيارة آنا إنريكث. قال ثيبريانو لنفسه إنها الشَّخص الوحيد الذي يفتقده في هذه اللَّحظات. وصلت آنا من لا كونفلوينثيا توًّا. أتت لتعتذر عن انشقاق خادمها، ورفضه اتِّباع قواعد الحذر التي أُوصِيَ بها تكرارًا. خادمٌ آخر، وصل لتوه من تورو، لم يكن يعتقد أن الملاحقة ستكون وشيكةً. برأي مُحقِّقي محاكم التَّفتيش، فإن كريستوبال دي باديا باجتماعاته، واتِّصالاته، والزِّيارات في السِّجن، قام (بتنبيه الفريسة). يجب أن تُسرع، قالت له دونيا آنا، مُمسكةً بيديه لتجلس بجانبه على أريكة الصَّالون. شعر ثيبريانو بالبهجة لمطلب الفتاة، واهتمامها بنجاته. أبوها، الماركيز، طلب منها الذَّهاب إلى فرنسا. لم يكن يعتبر نفسه متورِّطًا، ومكانة الماركيزة في البلاط سوف تدعمه. لكن ثيبريانو يجب أن يهرب، أصرَّت دونيا آنا. أعطته قصاصةً فيها عنوانٌ في مونبيليه: مدام باربوس، سوف تستقبلك كأنها تستقبلني أنا. عادت لتضغط يده الصَّغيرة المُشعرة بين يديها المتوتِّرتين. باربوس، لا تنسَ. لكن ثيبريانو كان مهمومًا بشاغلٍ آخر: وهي؟ ماذا ستفعل هي في هذه الظروف الصَّعبة؟ ابتسمت آنا إنريكث بشفتيها الممتلئتين، وتشكَّلت غمَّازتان على وجنتيها وقالت: «في هذه المواقف، نحن النِّساء ندافع عن أنفسنا أفضل من الرِّجال. الرَّجل، حتَّى إن لم تكن له زوجةٌ وبناتٌ، فإنه يتعاطف مع امرأةٍ؛ لهذا فإن المحاكم مُكوَّنةٌ من الرِّجال، لأن بعضهم يقسو على البعض الآخر. كيف يُمْكن تقبُّل أن تصدر محاكم التَّفتيش حكمًا قاسيًا على راهبات دير بيلين؟». كان كُلٌّ منهما ينظر في عينيِّ الآخر، وكانا يتكلمان ووجهيهما يتلامسان تقريبًا.

وأضافت: «أنت مُعرَّضٌ للخطر»، فقد أخذت على عاتقك كُلَّ مسؤولية المجموعة مؤخرًا، وسافرت إلى ألمانيا باسمك الحقيقي، كيف يمكنك تفسير هذا؟ فيليبي الثّاني، لن يكون أقل تشدُّدًا من كارلوس الخامس. فالديس طلب المزيد من الصلاحيَّات من البابا، وبابلو الرَّابع لم يتردَّد في منحه إياها. إنهم يجهِّزون لمذبحةٍ كبيرةٍ، صدّقني». كان ثيبريانو يعبّر عن الاقتناع بأمرٍ كان مُقتنعًا به بالفعل. لكنه كان مُبتهجًا لإصرار آنا، ورؤيتها قلقةً على مصيره، وجهدها لكي ينفد بجلده. عندما نهضت الفتاة، أمسكت بيديه وجذبته إلى أعلى، مُجبرةً إياه على النُّهوض. أقرَّ ثيبريانو إنه كان مستعدًا للرَّحيل. فجأة، من دون أيِّ مقدِّماتٍ، انحنت عليه وقبَّلته برقّةٍ على وجنته. «اهرب»، قالت بصوت متحشرج. «لا تفقد دقيقةً أخرى، وليرعاك الرَّبُّ».

في طريقه لبورجوس، كان ثيبريانو يفكِّر فيها بينما يهمز بيسباس. سوف يسافر أقصى وقتٍ ممكنٍ حتَّى يعجز جواده عن الحركة، وإن تطلَّب الأمر، سيغيِّر الجواد. سوف يقوم بهذا خلسةً في بيوت تغيير الحيوانات، وسوف يترك بعض العملات كتعويضٍ إن وجد نفسه رابح في المقايضة. كان يسعى للرَّاحة نهارًا والسَّفر ليلًا. لا أحد يمكن أن يخبره إن كان باديا قد أطلق لسانه أم أنه ما زال صامتًا، لكن يبدو بديهيًّا أن محاكم التَّفتيش سوف تقرِّر تسيير دورياتٍ في الطُّرق في أيِّ لحظةٍ. وضع يده على وجنته اليسرى. اللَّمسة العذبة لشفتيِّ آنا إنريكث ما تزال هناك، مع رائحة عطرٍ خفيفة. هل يُمْكن أن تكون تلك الفتاة الجميلة قد اهتمَّت به؟ تذكَّر نذره قبْل بضعة أشهر، قراره الحرِّ بتقاسم ثروته والعيش في عفَّةٍ. كان قد أسرَّ للدُّكتور بهذا ذات مساءٍ، بعد عودته من ألمانيا، في مكتب دونيا ليونور. «لا تتسرَّع، أنت ما زلت واقعًا تحت تأثير وفاة زوجتك، وتُحمِّل نفسك المسؤولية». سأله ثيبريانو إن كان هذا الشُّعور بالذنب سوف يتلاشى ذات

يومٍ، ولم يتردَّد الدُّكتور «إن هذا سيحدث مع مرور الوقت»، وحينئذ سيجد نفسه في معضلةٍ قاسيةٍ بين الوفاء بكلمته وعشق امرأةٍ. أوضح له سالثيدو أن قراره كان إراديًا، وتم التَّفكير فيه قبل موت زوجته، وأن نصف ثروته لم يعد يخصُّه، وأن الرَّبَّ ابتسم له لدى قبوله هذا. وأضاف أنه يعرف أن الأعمال لم تكن لا غنى عنها لإنقاذ الرُّوح وأنه بمبادرته، لم يكن يبحث عن الخلاص، وإنما هي طريقةً لتعويض تيو عن إهماله. كان الدُّكتور يستمع باهتمامٍ. رَأسه مائل، كأن عنقه لا يقوى على احتمال ثقلها. تحدَّثا لبعض الوقت واعترف ثيبريانو بسذاجةٍ إن الرَّبَّ هبط ليجلس بجانبه، مغتبطًا لزهده. ابتسم الدُّكتور. التَّخيُّلات دليلٌ على الضَّعف العقليِّ، حذَّره، زمن المعجزات قد ولَّى. عاد ثيبريانو للاستمتاع بكلمات الدُّكتور، رجل ذي بصيرة، ذكي، استطاع تجاوز موت أمِّه. بعد عودته من ألمانيا وجده مختلفًا. رأى الدُّكتور الذي لم يعرفه من قبل، الرجل المدرك لتفوُّقه الثَّقافيِّ، ومكانته في تراتبية المجموعة. هذا الوَهَن، الذي أبداه قبل بضعة أشهر، بدا كأنه لم يوجد مطلقًا. شجَّعه ثيبريانو سالثيدو. لم يكذب عليه بخصوص تفاصيل رحلته، لكنه بالغ في بعض الأجزاء، زيَّنها. قال له إن ملانشتون يعرفه؛ العديد من الإسبان المهاجرين حدَّثوه عنه وعن المركز اللوثري الذي يتزعمه في بلد الوليد. هذه الكلمات كانت تشعل حماسة الدُّكتور، تبثُّ فيه الثِّقة. لم يتوقَّف ثيبريانو سالثيدو عند الإمعان في هذا الموقف. في الواقع، ظهر تغيُّر الدُّكتور قبيل بدء رحلته. كأن ضغطًا عجيبًا يمنعه من التَّنفس، وفجأةً، نزولًا على رغبته، أزاح شخصٌ ما الثِّقل من فوقه. في شهور غيابه لم يتوقَّف سالثيدو عن التَّفكير فيه. والرَّسائل الطَّويلة التي كان يرسلها من ألمانيا كانت تحمله إلى حدودٍ لا تُصدَّق من البهجة، هكذا أخبر ثيبريانو بعد عودته. بسببها تجاوز الدُّكتور المخاوف التي عانى منها بعد دفن أمِّه. أفاق، وعاد إلى نشاطه في الطَّائفة، كما عاد إلى عظاته

الملغزة في الاجتماعات. كان ثيبريانو يسعَد لسماعه. كان في الطَّريق الصَّائب من جديد. كان الدُّكتور مُهتمًّا بحياة ثيبريانو، وكان حائرًا بسبب زهده بالمال وسخائه. تحدَّثا كثيرًا خلال الشُّهور الأخيرة، حتَّى أن ثيبريانو بدأ يكتشف في كاثايا رجلًا جديدًا. رجلًا وقورًا وقدِّيسًا.. نعم، لكن بظلٍّ من الغرور في أفعاله. الدُّكتور يتباهى بما كانه وبما يُمثِّله. وإن كانت أفعاله سرِّيَّةً، فقد أصبح سلوكه مختلفًا. ليس لأن ثيبريانو يرى في الدُّكتور منافقًا، فهو لم يكن يعتقد إنه يتصرَّف بحثًا عن الثَّناء، لكنه أيضًا لم يكن زاهدًا في الإطراء والإعجاب.

حاد عن طريق كينتانا ديل بونتى. أخيرًا، إلى اليسار، وراء التَّلِّ ينهض جبلٌ مليءٌ بالأعشاب البرِّية، وفي سفحه بحرٌ من الغلال، نضرة وتتمايل بنعومةٍ مع النَّسيم. وفي سفح التَّل، قبْل الوصول إلى الجبلِ، رأى أرضًا صغيرةً معشبةً نضرةً، خضرتها زاهيةٌ. الماء الشَّفَّاف كان يتدفَّق بغزارة من النَّبع وينساب في المرج. أخذ بيسباس وتركه يشرب حتَّى ارتوى. محا الماء الزَّبد الأبيض عن خطمه بينما يتوقَّف ظهره عن الارتعاش. عندما شبع دخل معه في الأجمة. صغار الأرانب المولودة في الرَّبيع كانت تفرّ مُنزعجةً في كُلِّ الاتِّجاهات وتختفي في الجحور. ترجَّل ثيبريانو في منتصف المنحدر، خلع السَّرج عن بيسباس وتركه يرعى طليقًا في العشب. خادمه بيثنتى كان يروِّض الجياد جيدًا. سواء رلامباجو أو بيسباس الآن، كان لديهما سلوكٌ يشبه سلوك الكلاب أكثر من الخيول. لا يغيب السَّيِّد عن أعينهما حتَّى لو ابتعدا. يأتيان للِّقائه فور أن يسمعا صفيره. هذا كان يعطي للحيوان حريةً كبيرةً في الحركة ويبثُّ الطُّمانينة في الفارس. أخرج ثيبريانو من الكيس خبزًا بداخله لحمٌ وسجق، وقربةً فيها نبيذ. من مكانه كان يكشف الحقل الكبير حيث تتماوج الغلال وصولًا إلى التِّلال الرَّمادية المواجهة، ومياه نهر أرلانثون الجارية نحو كينتانا والطَّريق الموازي للنَّهر.

الطَّقس كان لطيفًا. بحث عن ملاذٍ في ظلِّ شجرة بلوطٍ، تمدَّد وخلال دقائق قليلةٍ كان قد غفا.

عندما استيقظ، بعد غروب الشَّمس، أوَّل ما رأى كانت رَأس بيسباس، مُترقِّبًا، على مبعدة خطوتين من مكانه، ناظرًا إليه. صهل فرحًا عندما رآه ينهض واستسلم بإذعانٍ لوضع السَّرج. هبط ثيبريانو إلى طريق بورجوس بعد الغروب، وواصل السَّفر. أخذت العتمة تلفُّه من دون أن يلحظ، لكنها لم تستطع إطفاء البريق الخفيف في الطَّريق. وهكذا كانت عيناه تعتادان على العتمة وأمكنه الإسراع من دون خطر. كان يبتعد إلى جانب الطَّريق مَنْ يشعر بخطوات بيسباس السَّريعة، لكن معظم الطَّريق كان خاليًا. مثل نيزكٍ عَبَرَ ثيبريانو مدينة بورجوس وأخذ طريق لوجرونيو الأضيق قليلًا بأرضه الوردية. كان عقله مُنصَّبًا على الطَّريق، مُفكِّرًا في العوائق التي يُمْكن أن تظهر. وفقط من آنٍ لآخر، كان يُفكِّر في كريستوبال باديبا، إن تمَّ استجوابه، وإن كان قد وشيَ بهم. مع كُلِّ دقيقةٍ تمرُّ كان يشعر أنه أكثر أمْنًا، وأكثر بعدًا عن قوات محاكم التَّفتيش التي ستتحرَّك فور أن يتكلَّم المُعتقَل. قبل الوصول لسانتو دومينجو دي لا كالثادا، قرَّر ثيبريانو سالثيدو تغيير الجواد. زبد خطم بيسباس كان يلمع في الظَّلام، ومن حينٍ لآخر كانت قوائمه تعاني من رعشةٍ قويةٍ. كان الحيوان مُنهَكًا. فثيبريانو الذي كان فكَّر أن يقطع أربعةٍ وعشرين فرسخًا به، قام بقطع أكثر من سبعةٍ وعشرين. دخل سانتو دومينجو بخطًى قصيرةٍ سريعةٍ. على جانب الطَّريق كان بيت تغيير الدَّواب فتوقَّف أمامه. ضوء خفيف لقنديلٍ كان يلمع في النَّافذة الثَّانية، وخشي أن يكون شخصٌ ما مسيتقظًا في تلك السَّاعة. ترجَّل عن بيسباس ودار حول بيت تغيير الدَّواب، فوق الأرض الموحلة المحيطة به. الإصطبل يوجد في النِّهاية، وفي الباحة توجد دابّتان. التصق بظهره إلى الجدار لكي لا يراه أحدٌ. بعد أن اطمأن اختار جوادًا بشكلٍ شبه عشوائيٍّ وأخرجه حتَّى البهو، فحصه

بدقّةٍ أكثر. كان عجوزًا نحيفًا كبير الرَّأس، لكن يبدو قويًا ومرتاحًا. غيَّر السرج وحبس بيسباس في الإصطبل مع كيسٍ صغيرٍ داخله اثنين دوكادو وملاحظة تقول: «لا أدفع من أجل الجواد وإنما من أجل المعروف». بدا له أنه سمع ضجَّة من إحدى النَّوافذ المُطلَّة على الطَّريق فالتصق بالحائط. لكن كان الخوف هو السَّبب، فالبيت كان صامتاً. ربّت على الجواد بعض الرَّبتات الحنون فوق عنقه وامتطاه. وسط العتمة الخفيفة بدا جواداً أصهباً برَأسٍ أسمر وعرف طويلٌ. كان الجواد قليل الاستجابة للمهمازين. ولكنه وجّهه إلى لوجرونيو بركضٍ منتظمٍ. قطع ثيبريانو ثمانية فراسخ أخرى قبل الشُّروق، لكن ليس كما فعل مع بيسباس، وإنما بإيقاعٍ ثابتٍ كان كانسينو يحدِّده بنفسه، غير مُتأثِّرٍ إطلاقًا بتحفيزه. كانت الشَّمس في كبد السَّماء، في مكان مُحاط بحقول عنب ناعمة الأوراق، أخذ ثيبريانو طريقًا على اليمين حتَّى وصل إلى محاذاة نهر إيراجوا. ترجَّل هناك، وربط قائمتيِّ الحصان الأماميَّتين، تناول فطورًا واستلقى تحت شمس الصَّباح الدَّافئة. استيقظ في منتصف الظَّهيرة، فأكل مُجدَّداً وألقى نظرةً على كانسينو، المستلقي على بعد بضعة أمتارٍ يقرض العشب الذي في متناوله. الآن تنبّه للمستوى الرَّديء للدابَّة. في حياته لم يرَ سوى جوادٍ واحدٍ عجوزٍ أقبح من هذا: أوبستينادو، جواد تيو، زوجته، الرَّفيق المُثير للخجل في رحلة ما بعد الزَّواج. انتظر غروب الشَّمس لكي يخرج إلى الطريق مُجدَّداً. اتَّبع كانسينو الإيقاع الثَّابت نفسه وظلّ عليه طوال اللَّيل. كانت طريقته في الخبب، وما على ثبريانو سوى الإذعان. في بيت رعاية الجياد في ألديا، بين لوجرونيو وبامبلونا، استبدله بجوادٍ آخرٍ. الجواد الجديد كان حصانًا جميلًا، يتبدَّى كبرياؤه، على وجه الخصوص، في العدْو السَّريع. لم يكن مثل بيسباس بالطَّبع، لكنه لم يكن مثل كانسينو؛ هذه المرَّة ربح في الاستبدال. كالعادة، سار طوال اللَّيل، ومع الشُّروق دخل غابةٍ من البلُّوط على مسافة فرسخين

من بامبلونا. رحلته شارفت على نهايتها، وفكَّر أنه سيتوجَّب عليه الانتظار حتى غروب اليوم التالي ليدخل ثيلبيتي ويلتقي إيتشارين.

فكّر في رفاقه في بلد الوليد، كان لديه حدسٌ أكيدٌ أن باديا قد تكلَّم. بعد بضع تجارب، صار ثيبريانو يؤمن بتواصل الأفكار. الحملة بدأت، قال لنفسه. حاول تخيُّل من حاول الهرب، وفي الحال فكَّر في دون كارلوس دي سيسو كهاربٍ مؤكَّدٍ. بل إن دون كارلوس يُمْكن أن يكون في فرنسا بالفعل. لكن، مَن أيضًا؟ كان يظن أن القسَّ ألونسو بيريث لن يهرب، وأيضًا آل كاثايا: دون أجوستين كان شديد التَّخاذل، ولم يكن يرى أن بدرو قادرٌ على القيام بمغامرةٍ شبيهةٍ. مَنْ إذن؟ كان يجهل أنه تم اعتقال آل روخاس، وفراي دومينجو وابن شقيقه لويس، واستبعد هرب الصَّائغ خوان جارثيا، الضعيف الهمَّة إلى حدٍّ كبيرٍ. ربما يكون بين الهاربين بدرو سارمينو؟ وهرريثويلو؟ من جديدٍ خَطرَ على باله وجه آنا إنريكث. كان يمكنها الهرب معه. ربما يكون مُحقِّق محاكم التَّفتيش يعتقلها في تلك اللَّحظة في لا كونفلوينثيا. لم تكن آنا امرأةً يمكن أن تدخل ذلك السِّجن الرَّهيب في شارع بدرو باروبكو، ذلك القصر الكبير المتداعي الكئيب الذي يبثُّ الخوف بمجرد رؤيته. على أي حال، ذلك السِّجن الرهيب غير كافٍ لاستقبال السِّتين مهرطقًا المفترَضين في المدينة. القانون يفرض عزل السُّجناء، لكن سجن شارع بدرو باروبكو لم يكن يحتوى على ستِّين غرفةٍ. أيُّ قرارٍ ستتَّخذه محاكم التَّفتيش؟ منذ زمنٍ بدأ إنشاء مقرٍّ جديدٍ لمحاكم التَّفتيش أمام كنيسة سان بدرو، لكن مهما أسرعوا لا يُمْكن الانتهاء منه قبل عامٍ. من الممكن أن يتمَّ سجنهم كل اثنين أو بضعة أفراد لا يعرفون بعضهم. سلطات محاكم التَّفتيش، مهما كان نفوذها كبيرًا، لن تستطيع هذه المرَّة أن تفرض عزلةً تامَّةً على السُّجناء. ذكرى آنا إنريكث دفعته لمداعبة وجنته اليسرى. بعد ثلاثة أيامٍ من السَّفر نَمَت لحيته، لكنه

يعتقد أنه لا يزال يشعر بأثر شفتيها. ماذا أرادت أن تقول عندما قبّلته على وجهه؟ أن ينتظرها؟ ربما. التَّعبير عن فرحها إزاء قراره بالهرب؟ مجرَّد بادرةٍ بسيطةٍ على الأخوية؟ تقلّب على الأوراق الجافة ورأى الحصان يقفز بقائمتيه الأماميَّين المربوطتين. لم يستطع النَّوم كما الأيَّام السَّابقة لكنه أغلق عينيه وحاول التَّواصل مع الرَّبّ. كان يُفكّر كثيرًا في آنا إنريكث، في الحقيقة كان مُعجبًا بجمالها وشجاعتها، لكن قراره بالحفاظ على عفَّته كان فوق هذا. كان بمفرده، صمت تامّ في الحقول باستثناء نعيق الغربان البعيد، لماذا لا يهبط الرَّبُّ إلى جانبه؟ هل يقصر ظهوره على المعابد؟ هل كان الدُّكتور مُحقًا عندما أكدَّ أن تلك الخيالات دليلٌ على الضَّعف العقليِّ؟ هل يُعَاني من توهُّماتٍ؟ أخيرًا غفا، وعندما استيقظ كانت الشَّمس تغرب، وكان الجواد قد ابتعد. وجده يشرب ماءً من ساقيةٍ على حافَّة الجبل. وضع السَّرج عليه وبحث عن الطَّريق، وكان الظَّلام قد حلَّ. لم يكن مُتعجِّلًا، في اليوم التَّالي توقَّف في لاراسوانيا. طعامه الأخير وقيلولته الأخيرة. مُتعمِّدًا، انتظر حتَّى الظَّلام التَّام لكي يدخل ثيلبيتي. بدت القرية مهجورةً، ورغم هذا، كان باب بيت إيتشارين مفتوحًا. والباب الخلفيُّ أيضًا. لفت نظره عدد البغال المُتجمِّعة في البهو لكنه لم يشكّ في شيء. كان يشعر أنه بعيدٌ عن أيِّ ملاحقةٍ. كيف يُمْكن لشرطة محاكم التَّفتيش أن تُفكِّر أن أحد الرِّجال الذين تبحث عنهم موجودٌ الآن في ثيلبيتي؟ ربط الجواد وصعد بحذرٍ. امرأة إيتشارين، بقنديلٍ في يدها، صحبته في صمتٍ حتَّى الصَّالة التي يعرفها. سمع غمغمة حواراتٍ وهمساتٍ في الغرفة المجاورة. وفجأةً، دخل رجلٌ يضع على صدره، فوق الوشاح، شعار رهبنة سانتو دومينجو وخلفه رجلان مسلَّحان بالبنادق يُصوِّبان السِّلاح نحوه. نهض ثيبريانو، وتراجع مندهشًا. قال الفارس:

- «باسم محاكم التَّفتيش، سلِّمْ نفسك».

لَمْ يبدِ مقاومةً. أطاع الأمر بالجلوس أمام الفارس. الجنديان المسلَّحان كانا خلفه. بعد ذلك دخل بابلو إيتشارين، بشعرٍ مُشعثٍ، مُرتديًا صدريةً، بصحبة السِّكرتير ومعه بضع أوراقٍ بيضاء وضعها فوق المائدة. نظر الضَّابط إلى إيتشارين الواقف إلى جانبه، وسأله:

- «هل هذا هو الرَّجل؟».

- «إنه هو يا سيِّدي».

من الجانب الآخر من المائدة كان الضَّابط ينظر إلى رَأس ثيبريانو الصَّغير مُتَّسق الأبعاد، ويديه المشعرتين. قال كأنه يحدِّث نفسه، بابتسامةٍ خفيفةٍ:

- «هل تذكره جيدًا؟».

كانت خصلات شعره ناعمةً ومُتَّسخةً، وتنحرف عيناه قليلًا عندما ينظر إليه. أخضعه لتحقيقٍ عاجلٍ. ثيبريانو قادمٌ من بلد الوليد، أليس كذلك؟ أحنى ثيبريانو رَأسه موافقًا. قبل شهورٍ، في أبريل 1557 قام بالعبور إلى فرنسا عبر جبال البرانس بصحبة بابلو إيتشارين. هل كانت معلوماته صائبةً؟ تحرَّكت عينا الضَّابط برضا عندما أقرَّ ثيبريانو أن هذا ما حدث، لكنه اضطرب عندما قال إنه سافر إلى الخارج عدَّة مَرَّاتٍ بسبب تجارته. تجارةٌ؟ أيُّ تجارةٍ؟ الضَّابط لم يكن يعرف مهنته، والسِّكرتير إلى جانبه كان يُدوِّن. سأله عن تجارته، إن لم يكن هذا تطفُّلًا، وثيبريانو، رغمًا عنه، وجد نفسه مُضطرًا لذِكر المعاطف والصداريات المُبطنة. الضَّابط سمع عن المِعْطَف، بالطَّبع، كُلُّ العالم يعرف ثورة المِعْطَف، مِعْطَف ثيبريانو، أليس كذلك؟ قال سالثيدو:

- «أنا ثيبريانو».

أبدى الضَّابط اهتمامًا باعتراف المُعتقل. أموال السَّجين المفترضة

خففَت من حدَّة التَّحقيق. كان السِّكرتير يدون ردوده. كانت لثيبريانو علاقاتٌ تجاريةٌ مع فلاندز والبلاد الواطئة. تجار أنفيرس هم موزِّعو المعاطف والصداريات في شمال ووسط أوربا. الآن عاد الأعور ليحني رَأسه رضا وغبطةً. لكن أهم اتصالاته كانت بالتَّاجر الشهير بونتيرفوسين، التَّاجر الأكثر مصداقيةً طوال القرن السادس عشر. واصل الضَّابط استجوابه بنبرةٍ أخرى. لقد خرج من بلد الوليد قبل ثلاثة أيام ونصف اليوم. هل كان على علمٍ باعتقال كريستوبال دي باديا؟ وباعتقال كُلِّ المجموعة اللوثرية في بلد الولِيد؟ ثيبريانو كان يجهل هذا. لا بدَّ أنه وقع بعد رحيله، قال. كان السِّكرتير يكتب ويكتب. فجأة أغلق ثيبريانو فمه، أصبح يردُّ بإجاباتٍ مراوغةٍ. - «هل تعرف الدُّكتور كاثايا؟»، - «أُفضِّل عدم الإجابة على هذا السُّؤال». أطال الضَّابط أَمَدَ التَّحقيق بضع دقائق. أشار إلى بابلو إيتشارين: «وهذا الرَّجل؟». بالطَّبع ثيبريانو يعرفه، وعلى علمٍ بمهارته، بقدراته وحسه بالاتجاهات. «من نصحك به؟». نظر سالثيدو إلى إيتشارين ولاحظ أنه كان مُقيَّدًا. وكان جوابه أن السَّيِّد إيتشارين لا يحتاج إلى توصيةٍ بالنسبة للتَّاجر الذي يسافر إلى أوربا كثيرًا. في النِّهاية كبَّلا يدي ثيبريانو أيضًا. بعد ذلك سمع ضجيج الجنود في البهو، وعندما خرج أدخلوه مع إيتشارين والجنديَّين المُسلَّحَين في عربةٍ يجرها جوادان. وخلفها، كحراسةٍ، سار الضَّابط والسِّكرتير، كُلٌّ منهما مُمتطيًا بغلته، ومعهما اثنان من موظَّفي محاكم التَّفتيش.

وصلوا إلى بامبلونا في ساعةٍ مُتأخِّرةٍ من اللَّيل، وقام بيدال، المُحقِّق، بتسليم السَّجينين إلى مأمور سجن محاكم التَّفتيش. كان السجن فارغًا تقريبًا. وتم اقتيادهما إلى زنزانتين. حاول ثيبريانو أن يتماسك فور أن استلقى على الفِرَاش الصَّغير. لقد اعتقلوه. كُلُّ شيءٍ كان سريعًا للغاية ومُرتجَلًا. زنزانته كانت صغيرةً، بالكاد تتَّسع للفِرَاش، وفيها مائدةٌ، وكرسيٌّ، وفي الركن مرحاضٌ ضخم له غطاءٌ. كان يسمع الخطوات في الطَّابق الأعلى.

خطواتٌ عسكريةٌ، واثقةٌ، كخطوات الجنود. في اليوم الثَّالث، عند الغروب، صدر من الطَّابق العلويِّ ضجيج هرولةٍ. عن طريق الحارس الذي كان يأتي له بالطَّعام، وخينارو الذي كان ينظف الحمَّام يوميًا، عرف ثيبريانو بوجود سجينين آخرين: دون كارلوس دي سيسو، وفراي دومينجو دي روخاس. لقد تمَّ الإمساك بهما، حسب الحارس، على حدود نافاررا، وقال سيسو إن سفره لم يكن هروبًا، وأنه لم يكن ينتوي الهرب، بل كان ذاهبًا إلى إيطاليا، إلى فيرونا، حيث توفِّي كُلٌّ من أمِّه وشقيقه مؤخرًا. من جانبه، اعترف فراي دومينجو دي روخاس أنه كان في طريقه للقاء الأسقف كاررانثا، فلَمْ يكن يشعر بالرَّاحة في قشتالة، وكان يحاول تفادي العار الذي يُمْكن أن يضفيه اعتقاله المُحتمل على الرَّهبنة. ظلوا محبوسين خلال ثلاثة أيامٍ في مقرٍّ مأمور محاكم التَّفتيش، حتَّى أمر أسقف بامبلونا، دون ألبارو موسكوسو، بنقلهم إلى السِّجن الرَّهيب. فوجئ دون ألبارو بملابس الرَّاهب، رداءٌ حريريٌّ أخضر، بقبعةٍ مزيَّنةٍ بالرِّيش وسلسلةٍ ذهبيةٍ في عنقه. «هذا زيٌّ مختلفٌ عن عباءة الكاهن التي كنت ترتديها في المَجْمَع»، قال له الأسقف ساخرًا، وهو ما ردَّ عليه فراي دومينجو دي روخاس: «قداستك، أحمل زيَّ الكاهن في قلبي». بعد ذلك ألمح روخاس إلى موقف كاررانثا، أسقف توليدو، الذي كان يسعى للقائه، لكن دون ألبارو دي موسكوسو نبَّهه إلى نسيان هذا الاسم، فالأسقف لم يكن له علاقةٌ بهذه القضية. أوضح فراي دومينجو أن نائب الملك في نافارا أمدَّهم بجوازات مرورٍ لكي يعبروا إلى «بيارن»، لأنهم كانوا يحملون خطابات توصيةٍ إلى الأميرة، وتدخُل محاكم التَّفتيش لم يكن مُبرَّرًا. سار معهم سيدٌ بدينٌ، كانوا يطلقون عليه إيريرا، عمدة ساكاس دي لوجرونيو، الذي تمَّ اعتقاله أيضًا، لأنه سهَّل لهم الهجرة إلى فرنسا. أقرَّ العمدة بالاتِّهام لكنه أوضح أنه لم يكن على علمٍ بأن محاكم التَّفتيش قد وجَّهت اتهاماتٍ للمعتقلين.

احتفظ دون كارلوس دي سيسو بموقفه وكبريائه. وعبر ثقب الباب رآه ثيبريانو يعبر نحو الزّنانين بكبريائه المعهود. ملابس أنيقة، وحركاتٍ واثقة، ووجه متعجرف ومتغطرس. بعد حبسه في الزّنزانة المجاورة سمعه سالثيدو يمشي، أربع خطواتٍ في اتّجاهٍ وأربعًا في الاتّجاه الآخر. عادةً لم يكن السَّجّان يزروهم كثيرًا، وكلٌّ من الحارس أو خينارو، المُكلَّف بالنَّظافة، كانا يظهران كُلَّ ظهيرةٍ، في ساعاتٍ ثابتةٍ، وما عدا ذلك كانا يسيران في الممرِّ عرضًا. في اليوم الثَّاني لحبس دي سيسو وروخاس، نادي ثيبريانو عبر كوّة الباب على الأوَّل مستفيدًا من الصدى الذي ينقله القبو. سمعه دون كارلوس واندهش لوجوده قريبًا لهذا الحدِّ. نعم، كان نائب الملك قد أخبره بوجود حملة اعتقالات واسعةٍ في بلد الوليد، وأن السِّجن الرهيب لم يكن يتَّسع لهم، وأن التَّحقيقات بدأت والدُّكتور هو محوَرَها. من جانبه، حكى له ثيبريانو عن هربه، مسافرًا في اللَّيل ومستريحًا في النَّهار، حتَّى إلقاء القبض عليه في ثيلبيتي في بيت المهرّب الذي أوصاه به، بابلو إيتشارين، المُعتقل هو أيضًا. وأخبره دون كارلوس أنهم لن يقوموا بنقلهم إلى بلد الوليد حتَّى يلقوا القبض على خوان سانشيث، خادم آل كاثايا، الهارب الوحيد الذي أمكنه الوصول إلى فرنسا.

وصل خوان سانشث إلى السِّجن الرهيب لبامبلونا بعد أربعة أيامٍ، وفي اليوم التَّالي، وكان يوم الجمعة، بدأت القافلة سيرها نحو بلد الوليد. كانت الجياد تفتح الطَّريق، ويمتطيها الأعور بيدال والحرّاس الثَّلاثة الآخرون الذين تمَّ إرسالهم للإمساك بهم؛ وخلفهم يسير السُّجناء على أقدامهم، مكبَّلي الأيدي، أوّلهم فراي دومينجو دي روخاس بقبّعته المُزَّينة بالرِّيش فوق رَأسه، ومُحاطين بجنود محاكم التَّفتيش. ويقوم على حماية المؤخِّرة اثنا عشر جنديًا مُسلَّحين بالبنادق، ويرتدون زيًّا موحَّدًا غريبًا من الصداريات، والسَّراويل الضَّيقة، وقبَّعاتٍ ذات حاجزٍ، وأحذيةً مُزيَّنةً

بالثُّقوب. كانوا مجموعةً غير متجانسة، ولافتة للأنظار، ويتمَّ استقبالهم في القرى والبلدان التي يعبرونها بالسباب والتَّهديد. يبدو أن بيدال، الضَّابط الذي ألقى القبض على ثيبريانو في ثيلبيتي، هو قائد المجموعة. والخطة هي قطْع خمسة أو ستَّة فراسخ يومياً، على أن يكون الغداء في الحقول، والنَّوم في بيوتٍ أو استراحاتٍ اتَّفق عليها مُقدَّمًا مبعوثي محاكم التَّفتيش. في البداية، استقبل ثيبريانو ضوء الشَّمس والطَّبيعة ببهجةٍ. لكن، لقلة الاعتياد على المجهود البدنيِّ، فقد وصل في اللَّيلة الأولى مُجهَدًا إلى بوينتي دي لا رينا. في اليوم التَّالي، في السَّابعة صباحًا، بعد تناول كسرة خبزٍ جافَّةٍ وبعض الجبنِ، واصلوا سفرهم. قام بيدال، الضَّابط الأعور، بتوزيعهم إلى زوجين، خوان سانشث وهو، اللَّذان كانا الأقصر قامةً، في المقدّمة، والرَّاهب الدومينيكاني ودون كارلوس دي سيسو في الخلف. قاعدة الصَّمت، التي يتم احترامها خلال السَّاعة الأولى من المسير، كانت تتراخى بعد ذلك، عندما يبدأ حاملو البنادق حكاياتهم ونوادرهم، فكان خوان سانشث يستغلّ ذلك التراخي لكي يُخبر ثيبريانو سالثيدو تفاصيل حياته ومغامرته منذ خرج من بلد الوليد، حتَّى الإمساك به في تورلينجيه. كانت الشَّمس شديدة القسوة، وفي منتصف النهار، ينتظرهم مبعوثو محاكم التَّفتيش في مكانٍ مُظلَّلٍ قريبٍ من الطَّريق، غالباً بالقرب من الأنهار. وفي مياهها، ينزل الحرَّاس للاستحمام عراه، متناوبين على المراقبة، بينما يقوم السُّجناء بغمْر أقدامهم في الماء وهو ما يسبِّب للدومينيكي راحةً كبيرةً. بعد ذلك يتناولون السُّجناء الغداء، وأيديهم مُقيَّدة، تحت نظر الحرَّاس. وبعد انتهاء الطَّعام ينامون القيلولة، بينما نار الشَّمس تحرق الحقول، ويستطيع السُّجناء الأربعة تبادل الآراء أو قراءة أوراقٍ قد تدين أحدهم. في الثَّانية، عندما يكون القيظ في أوجِه، يستأنفون السَّير بذات التَّرتيب: الضُّبَّاط الأربعة يتقدَّمون المسيرة على الجياد، ثم السُّجناء محاطون بموظَّفي محاكم

التَّفتيش، وخلفهم الإثنا عشر جنديًا المُسلَّحين بالبنادق. لدى مرورهم على القرى كانت النِّساء والصِّبية يشتمونهم، وأحيانًا يقذفون عليهم دلاء مياه من النَّوافذ. ذات يومٍ، بعد أن أصبحوا في أراضي لا ريوخا، قام الفلاحون الذين يعملون في حقول العنب بالتَّوقُّف لكي يحرقوا دميتين من القشّ على جانب الطَّريق، بينما ينادونهم بالهراطقة والموبوءين. الحقول في الطريق تتموَّج فوق ربًى وردية اللَّون، والخَضار الخفيف للكرم يضفي عليها رونقًا جذابًا. قرابة الساعة السَّابعة ينهون النَّشاط النَّهاري، فيتعشَّون في القرى التي اختارها المبعوثون ويبيتون في بيوت محاكم التَّفتيش أو بين أكوام القشّ خارج القرى. وهكذا ينسون خلال بضع ساعاتٍ لهيب الشَّمس ووخز أقدامهم المُمزَّقة.

الرفقة مع خوان سانشث أعطت لثيبريانو فرصةً ليتعرَّف إلى خادم آل كاثايا. حدَّثه عن **أستوديو**، قريةٌ في بالنسيا، حيث وُلِد، وعن دون أندريس إيبانيث، القسُّ الذي عمل كمساعدٍ له، وعن أعماله في الرَّعي والحصاد. وأخبره أنه في صباه عمل خادمًا في بيت هرنان نونيث، الشَّهير بالقائد الإغريقيّ[1]، الذي علَّمه القراءة والكتابة، وبعد عامين شعر بنداء الرَّبّ وأراد أن يصبح راهبًا، لكن فراي خوان دي بياجراثيا، قسُّ اعترافه، أخرج الفكرة من رَأسه. فرحل إلى بلد الوليد حيث خدم آل كاثايا وسادةً آخرين واعتنق العقيدة اللوثرية. في أيامٍ أخرى، حدَّثه خوان سانشث عن فراره إلى كاسترو أورديالس، على جوادٍ خائر القوى فور أن علم باعتقال باديبا. وفي بيوت استبدال الجياد كان يقوم بسرقة الدَّواب من دون الاهتمام بتعويض البَّاعة. وعلى السَّاحل اتَّصل برجلٍ هولنديّ، هو تاجرٌ على زورقٍ صغيرٍ، حمله إلى فلاندز مقابل عشرة دوكادو. عندما وصلت شرطة محاكم

(1) هرنان نونيث دي توليدو إي جوثمان 1475-1553، عالمٌ إسبانيٌ متخصِّصٌ في الدراسات الإغريقية واللاتينية. كان يُلقَّب بالقائد الإغريقي كاسم شهرةٍ.

التَّفتيش إلى الميناء، كان خوان سانشث مقد أبحر منذ ثمانٍ وثلاثين ساعةٍ في عرض البحر. في القارب كتب إلى دونيا كاتالينا دي أورتيجا، وهي امرأةٍ لوثريةٌ عمل في خدمتها يكنّ لها التَّقدير وحكى لها مغامرته. وكتب إلى بياتريث كاثايا، التي عشقها دائمًا، والتي حكى لها عن العاصفة القوية التي أوشكت على قلب الزَّوق، لكنه تحمَّل كُلَّ شيءٍ مُتَّكلًا على الرَّبِّ، «لأنه كان مُقدرًا له أن يعيش ويموت كمسيحيّ». في النِّهاية أعلن لها عن حبِّه الذي أخفاه طوال ستة أعوامٍ.

فراي دومينجو دي روخاس، الذي سمع كلماتٍ متفرِّقة من حكاية سانشث، سأله غاضبًا خلال القيلولة كيف ترك نفسه يقع في أيديهم بعد أن أصبح في الخارج، فهذا لم يكن ليحدث له ولا لأيِّ شخصٍ لديه شيءٌ من العقل. ردَّ خوان سانشث بإذعانٍ:

- «عمدة تورلينجيه أمر باعتقالي وسلَّمني للنَّقيب بدرو مينيندث الذي خرج سعيًا ورائي».

فجأة، تجادل الدومينيكي مع الخادم، لائمًا عليه تبشيره الأهوج الذي أضاع المجموعة. وحمَّله مسؤولية خداع راهبات دير سانتا كاتالينا وشقيقته ماريا. وإزاء اتِّهامٍ خطيرٍ كهذا، فقد خوان سانشث أعصابه وراح ينطق ببذاءاتٍ ويصيح بصوتٍ عالٍ، فاضطر ضابطان من محاكم التَّفتيش للتَّدخُّل لفرض النِّظام. وعندما استأنفوا السَّفر، أفضى خوان لثيبريانو أن القسَّ كان يكرهه لأن لديه دوافع أرستقراطية، ولم يثق مطلقًا في الكفاءة التَّبشيرية للعوام.

لكن، عندما كانوا يسيرون بصمتٍ. كان سانشث وسالثيدو يسمعان خلفهما جرَّ قدمَي فراي دومينجو وخطوات دون كارلوس دي سيسو الواثقة، اللَّذين نادرًا ما يتبادلان كلمةً بينهما. الدومينيكي كان مُقتنعًا

أنه فقط بادِّخار آخر نقطة لعاب، يمكنه الوصول حيًّا إلى بلد الوليد. كان ضخم الجسد، لكن رخو، وكان يشكو من تورُّم قاعدة إصبعَيْ قدميه الكبيرين، وكلما توقَّفت القافلة كان يفرك قدميه بشكلٍ مبالغٍ فيه. بخلاف الصُّعوبات، كان شاغله الأكبر، مثل باقي رفاقه، هو المستقبل. ماذا ينتظرهم؟ من دون شكٍّ محاكمةٌ، وبعدها عقابٌ. لكن، أيُّ نوعٍ من العقاب؟ دون كارلوس دي سيسو كان على علمٍ برسالة المفتِّش فالديس إلى كارلوس الخامس، المُتقاعد في يوستي، والتي يرجوه فيها التَّصدِّي لهذا الشَّرِّ الكبير ومحاكمتهم ومعاقبتهم بأقصى درجةٍ من الصَّرامة ومن دون أيِّ استثناءٍ. سيسو يرى أنه يتم الإعداد لمذبحةٍ تاريخيةٍ، لا سابق لها في إسبانيا.

عمدة تورو كان يتمتَّع بمهارةٍ كبيرةٍ في كسب الأصدقاء، ويتكلم مع هؤلاء وأولئك من دون تمييزٍ. سواء مع الضُّبَّاط أو مع الجنود، وإن اقتضى الأمر مع موظفي محاكم التَّفتيش. وكان مُطَّلعًا على كُلِّ شيءٍ، ويعرف كُلَّ شيءٍ. كان يخشى فيليبي الثَّاني، كما يخشى كارلوس الخامس. وكان مُقتنعًا أن العقاب قد يكون أخفَّ قبل العام 1558، أمّا اليوم، فإن بابلو الرَّابع لن يلين. وفي أوقات الرَّاحة في الظهيرة كان يحدِّثهم عن هذه الأمور، وعن رسالة المُحقِّق فالديس إلى الامبراطور، وعن رسائل هذا لابنته، الحاكمة في غياب شقيقها، وعن فيليبي الثَّاني، الذي طالب بالسرعةِ والحزم والعقابِ الصارمِ. فكان يقول إنه لن ينجو الكثيرون من هذا الأمر، وقد وضع خطَّةٍ للهرب لكنه لم يجد فرصةً لتنفيذها.

على العموم، كانت الأمور العارضة والوقائع اليومية هي محور اهتماماتهم وحواراتهم القصيرة بعد الطَّعام. في نافاررا كان سكَّان القرى يهاجمون السُّجناء بالحجارة. كان رجال وصبية مسلَّحون بنبالٍ، يظهرون في مفترق الطُّرق، ويرجمونهم بالحجارة، من دون رحمةٍ. وكان الضُّبَّاط

الأربعة يطاردونهم فوق جيادهم، لكن ما إن يختفوا حتَّى تظهر مجموعةً أخرى في التَّقاطع التَّالي بحماسة متجدِّدة وحجارةٍ أكبر. جُرِح جنديٌّ في جبهته، وسقط مغشياً عليه، وحينئذ أطلق زملاؤه بنادقهم مُصوِّبين على السِّيقان، وكان الأعور بيدال يصيح من فوق جواده. وطأة الاعتداءات كانت تشتدُّ أحياناً. والنِّساء كنّ يقذفن من الشُّرفات بماءٍ مغلّيّ ويقولن عن السُّجناء إنهم تيوس ومهرطقون أبناء عواهر. وبحركةٍ تلقائيةٍ، قام ثيبريانو بسحب خوان سانشث نحو سورٍ حجريّ هرباً من الماء السَّاخن. حينئذ بدأ الجيران في الصِّياح: «أحرقوهم هنا! أحرقوهم هنا!»، وأحاطوا بهم في السَّاحة، حتَّى أن الجنود اضطروا لإطلاق بنادقهم مُجدَّداً، فسقط فتى بجرحٍ في فخذه. ولدى رؤية الدَّم، اشتعل غضب الأهالي أكثر، وهاجموا الحراس بجرأةٍ أكثر. وبعد ثوانٍ سقط جريحٌ ثانٍ، ما أقنعهم بعدم جدوى جهودهم. فالضباط حملوا عليهم ما أدى إلى تفرُّقهم في النِّهاية.

بالقرب من سالدانيا دي بورجوس، أشعل الصِّبية النَّار في مخزن القشِّ حيث كانوا ينامون. فقام أحد الجنود بتحذيرهم وبفضله خرجوا سالمين. لكن، على جانبي الطَّريق، طوال الرِّحلة، تمَّ حرق دُمى من القشِّ، وعلى ضوء اشتعالها، تتأرجح خيالات المآتة المُعلَّقة من أشجار الدردار. القرية الملتهبة كانت تطالب بالمحرقة، كانت تصفهم باللوثريين، الموبوءين بالبرَص، أبناء إبليس. وفي ذروة النَّشوة الوطنية، هتف البعض: «عاش الملك!». اضطرُّوا للخروج من القرية في الثَّالثة فجرًا وفاجأهم الشُّروق في الحقول. في ريبيا بايخيرا، مجموعاتٌ من العمال، بحميرهم وجِرارهم، كانوا يحصدون الشَّعير، الذي كان أبيض وسط صُفْرة القمح. كانت صورةً ريفيةً تتناقض مع ضجيج وحماسة الفلاحين. أمر الأعور بيدال براحة منتصف اليوم في الحادية عشرة، وعسكرت الفصيلة تحت أجمةٍ على ضفاف أرلانثون. في لفتةٍ إنسانيةٍ، سمح الأعور بيدال

للسجناء بالاستحمام «من دون الابتعاد عن الضفة، لأنهم قد يغرقون بأيديهم المكبَّلة». فراي دومينجو لم يستحمّ. جلس على ضفَّة النَّهر وترك التيَّار يداعب قدميه المتورّمتين، حتَّى أن أسماك الشُّباط كانت تأتي في مجموعاتٍ صغيرةٍ لتعض أطراف أصابعه مُعتقدةً أنها طعامٌ. بالنِّسبة لثيبريانو، الاستحمام والشُّعور بالماء على جلده كانا مثل التَّخلُّص من الجسد القديم المتعب، كأن الإرهاق، والبراغيث، والحرَّ وتوتُّر الطَّريق لم توجد مطلقًا. بعد خسمة أسابيعٍ من دون استحمامٍ كان ذلك يشبه البعث. كان يعوم بظهره، دافعًا بقدميه، مثل ضفدعٍ. يروح ويجيء، مُنشغلًا فقط بحرَّاسه، على ألّا يبتعد ويثير ردَّ فعلهم تجاهه.

بدءًا من بورجوس، بينما كانوا يقتربون من بلد الوليد، أصبح استقبال القرى أكثر عدائيةً. كنذيرٍ بمصيرهم، كانت محارق كبيرة من القشَّ والأعشاب الجافَّة تملأ الغروب بالدُّخان في الأراضي المحصودة. كان الفلاحون يُظهرون بغضًا جارفًا. كانوا يسبُّونهم، ويرمون عليهم خضراوات وبيضًا. ورغم هذا، كُلَّما خلَّفوا وراءهم قريةً، كان ثيبريانو يتأقلم على الموقف، ويمتِّع عينيه بحقول القمح الشَّاسعة التي تتمايل مع النَّسيم، كان يتعرَّف على الطَّريق الذي قطعه في فراره مع بيسباس، التَّفاصيل الصَّغيرة في الطبيعة، والنَّبع الجميل حيث شرب الجواد في اليوم الأوَّل. كانت الأرض التي يطأها مألوفةً، وبمحاذاة ماجاث، عندما انفجرت عاصفة الماء وكريات الجليد، تم ربط الجياد وتمدَّد الجميع في الوحل لتفادي خطر البرق.

قضوا اللَّيلة الأخيرة في أحد بيوت قرية كوهوركوس، بعيدًا عن سكَّانها، على ضفاف نهر بيسويرجا، على مبعدة أربعة فراسخٍ من المدينة. عند الظَّهيرة وصل مبعوثٌ من محاكم التَّفتيش يأمرهم بعدم دخول بلد الوليد إلا بعد انتصاف اللَّيل. فهياج الدَّهماء جعلهم يخافون من قتل

السجناء. أجَّلّوا ساعة الخروج، ونحو الساعة الخامسة مساء توقَّفوا في كابيلدو، قبل نصف فرسخٍ من بلد الوليد، بجوار النَّهر. يجب الانتظار ثماني ساعاتٍ أخرى. فراي دومينجو دي روخاس كان يغمغم بأنهم، في النِّهاية، سوف يقتلونهم. كان يخشى عائلته، الأكثر غيرةً. لن يأخذوا عليه فقط كونه مرتدًّا، وإنما قيامه بالتَّغرير بابن شقيقه لويس، ماركيز بوثا، الذي انضمّ إلى الطَّائفة في شبابه المُبكِّر. في منتصف اللَّيل، صدر أمر للسُّجناء بأن يغتسلوا وأن يُحسِّنوا من مظهرهم، ثم أعطى الأعور بيدال الأمر بالتَّحرُّك. قام الضُّبَّاط بتزيين جيادهم، وعمل الاثنا عشر جنديًا على هندمة أسمالهم. لدى عبورهم جسر مايور، كان الشَّيء الوحيد المسموع هو قرْع حدوات الجياد على الأرض المرصوفة بالحجارة. كان القمر هلالًا والشَّوارع خاويةً. برج سانتا ماريا دي لا أنتيجوا، كان يبدو كطيفٍ. خلفه الإنشاءات الأبدية في كنيسة مايور، التي لا تنتهي أبدًا. دخلت الجياد في شارع بدرو باروبكو، حيث يوجد السِّجن الرَّهيب. فكرة العودة، والقُرْب من أعضاء الطَّائفة، ومن دونيا آنا إنريكث، كانت الآن تخفّف من إرهاق ثيبريانو. فكَّر للحظةٍ في فشل هروبه، وفي أن موقفه كان الآن مساويًا، أو أسوأ، من موقف الذين لم يهربوا، وفي لا جدوى الكثير من المتاعب التي تعرَّض لها. أمر الأعور بيدال بالتَّوقُّف أمام القصر القديم، وسأل بيدال عن المأمور. عندما خرج هذا، بوشاحه المشقوق على الجانبين، وعينين مثقلتين بالنَّوم، قام بيدال بتسليم السُّجناء الأربعة باسم محاكم التَّفتيش: فراي دومينجو دي روخاس، دون كارلوس دي سيسو، دون ثيبريانو سالثيدو، وخوان سانشث، الأسماء التي دوَّنها المأمور في دفترٍ على ضوء قنديلٍ، ثم وقّع.

XVI

كان من نصيب ثيبريانو سالثيدو تقاسُم الزِّنزانة مع فراي دومينجو دي روخاس. كان يفضِّل رفيقًا آخر أقلَّ تَجهُّمًا، لكن لم يُتَح له الاختيار. فراي دومينجو ما زال بزيِّه الدُّنيويِّ المضحك والشَّيء الوحيد الذي نحَّاه من ملابسه كانت القبعة الغريبة ذات الرِّيش. تدريجيًا أخذ ثيبريانو في التقصّي عن وضع بقيَّة السُّجناء. دون كارلوس دي سيسو يرافق خوان سانشث، وفي المواجهة توجد زنزانة الدُّكتور، وفي العمق، في زنزانةٍ كبيرةٍ، توجد خمس راهباتٍ من دير بيلين، وآنا إنريكث كانت تتقاسم زنزانةً مع السَّادسة، كاتالينا رينوسو. وكما توقَّع ثيبريانو، الجمع بين السُّجناء كان أمرًا لا مفرَّ منه. السِّجن الرَّهيب في بدرو بارويكو، الذي كان يتّسع للمعتقلين من حملاتٍ مُتباعدةٍ على المتحوّلين اليهود أو الموريسكيين، كان صغيرًا على تدفّق المعتقلين اللوثريين في ربيع 1558 العدد الكبير للاعتقالات أدهش محاكم التَّفتيش التي لا يتجاوز سجنها أربعًا وعشرين زنزانةٍ. ولَمْ يُنجز سوى أساس المبنى الذي ما زال تحت الإنشاء في حي سان بدرو. لم يكن أمام فالديس سوى التَّغاضي عن الفصل بين السُّجناء. ورغم هذا، فإن فالديس، الفطن دائمًا، أمر بأن يُؤخَذ في الاعتبار اختلاف الطَّبقة الاجتماعية والثَّقافية ودرجة العلاقة السَّابقة لدى الجمع بين

السُّجناء. لذلك وضع، على سبيل المثال، دون كارلوس دي سيسو مع خوان سانشيث، وسالثيدو مع فراي دومينجو دي روخاس.

لَمْ يتأخَّر سالثيدو في التَّكيُّف مع السِّجن الجديد. الزِّنزانة، ضِعف مساحة زنزانة بامبلونا، كانت فيها فجوتان فقط في جدرانها الحجرية: نافذةٌ محصنةٌ بشبكةٍ من الحديد، على ارتفاع ثلاث ياردات على الأرض، وتطلُّ على صحنٍ داخليّ. وفجوة الباب، قطعةٌ واحدةٌ من خشب البلُّوط، سُمكها شِبرٌ، وكانت أقفاله ومزاليجه تُصدِر صريرًا حادًا كلَّما فُتِح أو أُغلِق. الفِرَاشان كانا متقابلين في جانبَي الزِّنزانة. فِرَاش الدومينيكي تحت النَّافذة، وفِرَاش ثيبريانو في الزَّاوية المواجهة، في العتمة. على أرضٍ من الأحجار الباردة توجد حُصرٌ من الخوص، حيث بالكاد يتَّسع المكان لمائدةٍ صغيرةٍ من الصَّنوبر ومقعدين، مع إبريق للاغتسال ودلوين للفضلات. كان ثيبريانو يحسب الزَّمن من إيقاع الزِّيارات الإجبارية: زيارة ماميرتو مساعد السَّجَّان في ساعاتٍ ثابتةٍ، لإحضار الطَّعام، وزيارة المساعد الآخر، الذي كان اسمه داتو، ذي الشَّعر الأمهَق القذر والسِّروال الذي يصل حتَّى ركبتيه، وهو الذي كان يقوم عند الغروب بإفراغ وعاءي القاذورات ويمسح الزِّنزانة في عجالةٍ ظهيرة السَّبت. كان ماميرتو فتًى متجهِّمًا، رابط الجأش، يقوم لثلاث مرَّات يوميًا بوضع الوجبات الضَّئيلة في صوانٍ حديديةٍ فوق المائدة، ويقوم بحملها فارغةً في الزِّيارة التَّالية. ونظرًا لطقس تلك الفترة من العام، لم يكن يرتدي سوى صدريةٍ، وسروالٍ له أزرار من قماشٍ خفيفٍ ونعلٍ برباطٍ. لم يقم بتحيتَّهما في الصَّباح أو المساء قط، لكن لا يُمْكن القول إنَّ معاملته قاسيةٌ. ببساطةٍ كان يقوم بإحضار الطَّعام من دون تعليقاتٍ حول الشَّهية الطيِّبَة أو السَّيِّئة للسَّجينين. أمّا داتو فلَمْ يكن يلتزم بقواعد السِّجن بذات الصَّرامة. كلَّما أخذ دلوَي الفضلات أو أعادهما إلى مكانهما، كان يقوم بهذا مُرنِّمًا أغنيةً خفيفةً كأنه يحمل باقات زهورٍ بدلًا من القاذورات.

وكان فمه الخالي من الأسنان ينفتح عن ابتسامةٍ بلهاءٍ لم تكن تتغيَّر، ولا تختفي من وجهه حتَّى في ظهيرات السَّبت خلال المسح. رغم أن النِّظام يمنع تبادل الحديث مع السُّجناء، كان يقوم بتحية سالثيدو، الأكثر تجاوبًا من زميله، ويحمل له أخبارًا أو معلوماتٍ متفرِّقةً لا تفيد السَّجين بالكثير. وكان أقلَّ عنايةً بهندامه من ماميرتو، فقد كان يرتدي وشاحًا مشقوقًا من الجانبين، من الجلد الخفيف، ولم يكن يخلعه سوى أيام السَّبت لكي يمسح الزِّنزانة. حينئذ يظلُّ بالصَّدرية والسِّروال، حافيًا، من دون أن يُتَرجم التَّخفُّف من ملابسه إلى مزيدٍ من العمل.

لَمْ يكن فراي دومينجو يطيق تلقائية داتو. كان يفضِّل مجيء وذهاب ماميرتو في صمتٍ، لكن تباسُط الآخر، وابتسامته البلهاء، التي تكشف عن فمه الأهتم، وخصلات شعره الأمهق المُتدلِّية على كتفيه، كانت تخرجه عن أطواره. على العكس، كان ثيبريانو يعامله بصبرٍ وعطفٍ، ويدفعه للكلام، لأنه كان ينتظر دائمًا أيَّ خبر. كان يسأله عن شاغلي الزَّنازين المجاورة، وعلى الرَّغم من الأوصاف غير المُحدَّدة التي كان داتو يقولها بحَذَر، وصل إلى استنتاج أن بدرو كاثايا والحاصل على شهادة الآداب هرريثويلو، يقيمان على يساره، وعلى يمينه الصَّائغ خوان جارثيا وكريستوبال باديا، المُتسبِّب في معاناتهم، وفي المواجهة، كما أخبروه، في زنزانةٍ وحده، الدُّكتور. جدران وفواصل السِّجن كانت جدَّ سميكةً، حتَّى إنه لم تكن تتخلَّلها أدنى إشارة للحياة في الزَّنازين المجاورة.

كان الدومينيكي بدينًا، وله لغدٌ. مُتدثِّرًا بملابسه الخضراء وعباءةٍ غريبةٍ، يقوم بالقراءة مُستلقيًا على الفِرَاش الصَّغير، تحت النَّافذة المغطاة بالحديد. فهو في اليوم التَّالي لوصوله طلب كُتُبًا، وريشةً للكتابة وورقًا. في اليوم ذاته، أحضروا له قصص حياة العديد من القدِّيسين، ودليل

الرَّسائل[1] لجاسبار دي تيخيدا، ومجلَّدًا لفيرجيل، ومحبرةً وريشتَين. فراي دومينجو كان يعرف حقوق السَّجين ويمارسها بتلقائيةٍ. بشراهةٍ، وبالتَّركيز ذاته يمكنه قراءة كتاب عن الجياد أو كتابٍ عن حياة سان خوان كليماكو، كأن الحروف تمارس عليه سحرًا خالصًا.

كان يعرف حياة سجون محاكم التَّفتيش، وكُلَّ ظهيرةٍ، بعد القيلولة، كان يثقِّف ثيبريانو بها، ويخبره بحظوظه في المستقبل. توجد عقوبةٌ وعقوبةٌ. لا يجب خلط السَّجين المُعتَرِف بالمُعانِد أو التَّائب. الأوَّل والأخير عادةً ما يتم تسليمهم للسُّلطات المدنية لكي يموتا بكسر العنق قبل إلقاء جسديهما في النَّار. على العكس، المُعاندون، والمُرتدُّون، أو المُصِرُّون يتم حرقهم أحياء مُعلَّقين. هذه العقوبة الأخيرة كانت نادرةً حتَّى اليوم في إسبانيا، لكن الرَّاهب كان يعتقد أنه بدءًا من هذه اللَّحظة ستصبح معهودةً. حدَّثه عن التَّجريس باللَّافتات التي تحمل شياطين وألسنة لهبٍ للمُرتدِّين وصليب سان أندريس للتَّائبين. كانت العقوبات من درجاتٍ وأنواعٍ مختلفةٍ، لكن الأحكام عادة ما تكون شديدة الرَّدع. من بينها يجب تسليطُ الضوء على عقوبة السَّجن مدى الحياة، ومصادرة الممتلكات، والنَّفي، والحرمان من الزِّيِّ الكهنوتيِّ أو من الألقاب النَّبيلة، والكثير منها كان تكميليًّا لعقوباتٍ أكثر وطأةً.

كما كشف فراي دومينجو لثيبريانو عن بنْية وطريقة عمل جهاز محاكم التَّفتيش، وعن حقوق السُّجناء. كانا يتواصلان كُلٌّ فوق فِرَاشه، الكاهن بصوته الفخيم، المُتحكم في مخارجه، وثيبريانو بنبرته المتواضعة المُستفسرة. الصَّوت ذاته الذي كان يستخدمه قبل زمنٍ مع المُعلِّم ألبارو

---

(1) كان جاسبار دي تيخيدا أول من تناول فن كتابه الرسائل باللغة الأسبانية، وكتابه الذي عُرف بـ «دليل الرسائل» يضم نماذج شملت كل أنواع الرسائل (من الرسائل الموجهة للبابوات والقساوسة الى الرسائل الغرامية). وظهرت أول طبعة لهذا الكتاب سنة 1547 ثم ظهرت طبعة موسعة سنة 1553.

كابيثا دي باكا، بنتائج جدّ مُحبِطةٍ. هذه الحوارات أصبحت لا غنى عنها، لكن فيما عداها كان كُلٌّ منهما يعيش حياته على انفرادٍ، يتجاهل كُلٌّ منهما الآخر. لأن الرُّفقة الإجبارية يُمْكن أن تصبح غير محتملةٍ، فهي أسوأ عذابٍ في السِّجن برأي الكاهن.

فراي دومينجو دي روخاس كان لديه اعتدادٌ كبيرٌ بنفسه، كان يرى أنه رجل دينٍ مهم. على الأرجح أدى هذا الاعتداد الشَّديد بالذَّات إلى ريش القبَّعة التي تزيَّن بها أثناء هربه. لم يكن يمانع في الكلام عن ذاته، عن مشاركته في الطَّائفة، لكنه كان يبدو قاسيًا مع بعض الرِّفاق مثل خوان سانشث الذي قام بإقناع راهبات بيلين، كما قال، ومع شقيقته السَّاذجة ماريا. وكان غامضًا مع آخرين، مثل أسقف توليدو، بارتولوميو كارّرانثا، الذي اعتاد أن يقول عنه: لا يوجد من يستطع المَساس به. في أوقاتٍ أخرى كان يؤكد أن كارّرانثا لم يكن لوثريًا، لكن لغته كانت هكذا. كان رجلًا متذبذبًا، يحدِّث ثيبريانو عن اهتماماته الدِّينيَّة، وعن التحاقه برهبانية الدُّومينيكان، كعضوٍ في عائلةٍ كاثوليكيةٍ متحمِّسةٍ. علاقته بالطَّائفة، مثل علاقة ثيبريانو، كانت قصيرةً، لم ينضمّ إلا قبل أربعة أعوامٍ. مُبشِّرٌ مُتحمسٌ، حمل إلى اللوثرية أحد أشقائه والعديد من أبناء أشقائه. في بامبلونا، حيث تمَّ اعتقاله، لم يُخفِ هذا. على العكس، كان يفخر بكونه رجل دينٍ عصريًا، مُنفتحًا على التَّيارات الجديدة. لكن مهما كان موضوع كلامه، فإنه ينتهي دائمًا عند بارتولوميو دي كارّرانثا، أكثر شخصٍ يكرهه. فأن يتمتَّع عالم اللَّاهوت بالحرية بينما تلاميذه، كما كان يقول، يتعفَّنون في الأقبية المظلمة، أمرٌ كان يثير ضيقه بشكلٍ غير عاديّ. لكن ستصل ساعته أيضًا. فالديس يكرهه وسوف يقوم بمحاكمته. حتَّى الآن، كان الكاهن الدومينيكي ينضوي تحت حمايته، وقد تفيد مكانته العالية بشيءٍ.

بالإضافة إلى حواراته مع فراي دومينجو، كان ثيبريانو، المُتدثِّر

بالملابس الثَّقيلة رغم حرارة الصَّيف، يبقى بمفرده مُنعزلًا في العتمة، قلقًا على وضعه. كان يخصِّص جزءًا من الصباحات للتَّعود على السَّير بالأصفاد، جارًّا السَّلاسل، لكن الاحتكاكات بالكاحلين، وإزالة اللحم عن العظم، كانتا تعذِّبانه، إذ تنغرس في عقب أخيل. لهذا كان وضعاه المُفضَّلان هما الاستلقاء على الفِرَاش أو الجلوس على المقعد، مُسندًا ظهره إلى الجدار الرَّطب. كان يقرأ لبعض الوقت في الظَّهيرة، من دون فائدة، وكثيرًا ما كان يتضرَّع للمسيح مُتقربًا منه، أو طالبًا منه العون لمواجهة المحكمة. لم يكن يسعى لتمجيد ماضيه ولا التَّنصُّل من الحاضر خوفًا. بل كان يتطلع لأن يكون صريحًا، مُتَّسقًا مع عقيدته، لأن خداع الرَّبِّ لم يكن سهلًا. بعينين شبه مغمَّضتين، حيث بدأ يشعر في جفنيه ببوادر التهابٍ، كان يقول هذا للرَّبِّ، مُحاولًا التَّركيز، ونسيان المكان الذي يوجد فيه. لم يجد أن أيًا من الخطوات التي قام بها متسرِّعةً وانفعاليةً. آمن بعقيدة نعمة المسيح عن اقتناع. لم يكن دافعه إلى قراره تباهيًا ولا خيلاء ولا أنانية. آمن ببساطةٍ أن آلام المسيح وموته كانا أمرًا عظيمًا، حتَّى أنه يكفي لفداء الجنس البشريّ. مأخوذًا بحماسته، منطويًا، كان ينتظر زيارة الرَّبِّ عبثًا. ينتظر إشارةً منه، مهما كانت صغيرةً، لكي ترشده. «أرني الطَّريق، يا إلهي»، كان يئنُّ، لكن الرَّبَّ ظلَّ بعيدًا، صامتًا. «الرَّبُّ لا يُمْكن أن يتدخَّل»، كان يقول لنفسه، «أنا من يجب أن أقرِّر، بمطلق حريَّتي». لكنه كان يفتقد للعزم، وللصَّفاء. ويظلَّ في هذا الانتظار نافد الصَّبر، حتَّى يقوم بإخراجه من عزلته تعليق من فراي دومينجو، أو صرير الأقفال مُعلنًا زيارة داتو. لم يكن يتحرّك. ينظر إلى السَّجَّان بشعره الأملس المشعَّث المُتناثر خارج قبَّعته الصُّوفية الحمراء، وسرواله القذر الذي يغطي منتصف ساقه. انكسر السِّحر، وعقل ثيبريانو يعتاد على حياته الرُّوتينية من دون مقاومةٍ.

ذات ظهيرةٍ، في طريقه إلى المرحاض، اقترب داتو منه، ومن دون النَّظر إليه، أودع في يده ورقةً مطويةً في ألف طيَّةٍ. اندهش ثيبريانو. لم يأت بأيِّ ردِّ فعلٍ، رغم هذا كان يعرف أن صحبة فراي دومينجو لا تجبره على اقتسام الأخبار معه، ولا إعلامه بفساد ذمَّة السَّجان. لهذا ظلَّ ساكناً حتَّى انتهى داتو من تغيير الدِّلاء. حينئذ فتح الورقة، وفي العتمة، مُجبِرًا عينيه، قرأ:

اعتراف دونيا بياتريث كاثايا

بالأمس، الخامس من أغسطس 1558، أمام هيئة محاكم التَّفتيش، اعترفت دونيا بياتريث دي كاثايا، في التَّحقيق الذي تخضع له، أنها غرَّرت بفراي دومينجو دي روخاس. وأن كريستوبال دي باديا، من ثامورا، ضُلِّلَ على يد دون كارلوس دي سيسو. وأن شقيقها، دون أجوستين دي كاثايا، كان ضحيةً لدون كارلوس دي سيسو ولشقيقه بدرو، القسِّ في بدروسا. خوان كاثايا قام بالتَّغرير بزوجته، والدُّكتور غرّر بأمِّه، دونيا ليونور، وبهذا انضمَّت كُلُّ عائلة كاثايا -كونستانثا ستنضمّ بعد ذلك- للطَّائفة اللوثرية. وبمواصلة اعترافها الصَّريح، أكدت المُتَّهمة أن دونيا كاتالينا أورتيجا قامت بإقناع خوان سانشث، والاثنين قاما بإقناع الصَّائغ خوان جارثيا. من جانبه، قام فراي دومينجو دي روخاس بتحويل شقيقته ماريا، رغم نفيه لهذا، وتحويل جزءٍ كبيرٍ من عائلته. كريستوبال دي باديا، من جانبه، قام بإقناع المجموعة الصَّغيرة في ثامورا. وشقيقها بدرو، مع دون كارلوس دي سيسو، أقنعا مالك الأراضي في بدروسا، دون ثيبريانو سالثيدو.

ظلَّ ساكناً، حائرًا، رازحًا تحت شعور داخليّ غريبٍ بالبرد. لاحظ في معدته ما يشبه عضَّات حيوانٍ قارضٍ. لم تستطع كلماتٌ قليلةٌ من

قبل التَّسبُّبَ في هذه الجراح العميقة. الإحباط كان يغزوه. تخيَّل ثيبريانو سالثيدو كُلَّ شيءٍ عدا الوشاية داخل المجموعة. الأُخُوَّة التي حلم بها كانت تنهار، كانت وَهمًا، لم توجد مطلقًا، ولم يكن مُمكنًا أن توجد. فكَّر في الاجتماعات، والقَسَم النِّهائيُّ المَهيب للأعضاء، مُتعهِّدين بعدم الوشاية بإخوتهم إطلاقًا، حتَّى في الأوقات العاصفة. هل كان ما تقوله هذه الورقة حقيقيًا؟ هل يُمْكن أن تقوم بياتريث العذبة بالإبلاغ عن كُلِّ هؤلاء الأشخاص، من دون تردُّدٍ، بدءًا بأشقائها ذاتهم؟ هل تساوي الحياة ما يجعلها تحنث بقَسَمِها، وترسل عائلتها وأصدقاءها إلى المحرقة لكي تنفذ بجلدها؟ طفرت الدُّموع من عينيه البيضاوين عندما أعاد قراءة الورقة. بعد ذلك فكَّر في داتو. كان فراي دومينجو قد أخبره مسبقًا أن الفساد والرِّشوة راسخان في المناصب الصَّغيرة في السُّجون، لكن نَصَّ المساعد لا يُمْكن أن يكون من تأليف سَجّانٍ، ولا حتَّى من تأليف المأمور، وإنما من أحد أعضاء المحكمة، ربما يكون السِّكرتير، أو على الأرجح الكاتب. وجد وسيلة تواصُلٍ متاحة لم يكن قد عوَّل عليها في البداية، لكن بعد تأمُّلٍ سريعٍ، قرَّر ألاَّ يكشف اعتراف بياتريث كاثايا لفراي دومينجو. لماذا إثارة الضيق أكثر؟ ماذا سيربح الكاهن من معرفته أن بياتريث قد وشت به؟ وعمليًا، بكُلِّ المجموعة.

في الظَّهيرة التَّالية انتظر وصول داتو مُستلقيًا على الفِرَاش. وصل داتو مرنِّمًا أغنيةً، كالعادة، لكن عندما اقترب من الفِرَاش سأله ثيبريانو بصوتٍ خفيضٍ عما يدين به له؟ إجابة داتو لم تدهش ثيبريانو: «ما تجود به»، قال. وضع ثيبريانو في يده دوكادو، فنظر له مليًا إلى جانبٍ وآخرٍ، بعينين جشعتين. بعد ذلك سأله إن كان مُهتمًا بالمزيد من المعلومات ووافق ثيبريانو. كان يعرف أنه قد حدَّد سعرًا، ولَمْ يبد له السعر مفرطًا ولا في غير موضعه. منذ حدَّثه الدومينيكي عن العقوبات المُوقَّعة على المُهرطقين،

أدرك أن ممتلكاته ستُصادَر ذات يومٍ. حينئذ فكَّر أن الرَّبَّ ألهمه بقرار تقاسُم ثروته مع المُتعاونين معه. على أية حالٍ، لم يكن عنده مال كثير في السِّجن. بشكلٍ مثيرٍ للدَّهشة، في ثلبيتي قاموا بتفتيشه بحثاً عن سلاحٍ فقط. باستثناء الأسلحة والأوراق، لم يكن الأعور بيدال مُهتمًّا بشيء. احترم ماله. مُهمَّته كانت تنحصر في نقله سليمًا من بامبلونا إلى بلد الوليد، وهذا ما فعله: ها هو هنا، تحت تصرُّف المحكمة.

أوشك شهر أغسطس على الانتهاء ولم يتم استدعاؤه بعد إلى الجزء العلويِّ من المبني للتَّحقيق معه، ولا فراي دومينجو زميله في الزِّنزانة. ورغم هذا، يوم 27، تلقَّى مفاجأةً. دون جوميرسيندو، المأمور، بصحبة كبير السَّجَّانين، أعلن له عن زيارةٍ. «اغتسِل»، قال له، «سأعود من أجلك بعد خمس عشرة دقيقة». كان ثيبريانو أسير دهشته: من يُمْكن أن يهتم بأمره في هذه الظُّروف؟

دخل ثيبريانو صالة الزِّيارات ببصر مغشيّ وقدمين خفيفتين، بلا أصفادٍ. بعد أربعة أشهر تقريبًا من الحياة داخل الرُّطوبة المُعتمة للزِّنزانة، كان ضوء الشَّمس يؤذي عينيه، ويغشي بصره. وكان يُغمض ويفتح جفونه حذرًا على السُّلَّم، لكن عندما دخل الصَّالة الصَّغيرة، أجبرته الشَّمس اللَّامعة في زجاج النَّافذة على إغلاقهما تمامًا. كأنما داخلهما ترابٌ، مثل عينَي البيروفي في قبره. سمع إغلاق الباب وصار الصَّمت تامًا. شيئًا فشيئا أخذ يفتح جفونه، وحينئذ رأى أمامه عمَّه إجناثيو. شعر بصدمةٍ مماثلةٍ للتي شعر بها في مراهقته عندما زاره عمُّه في المدرسة. لم يكن ينتظره؛ كان عمُّه يُدهشه دائمًا. تردَّد كلاهما، لكن، في النِّهاية تعانقا، وقبَّل كُلٌّ منهما وجنة الآخر. ثم جلسا مُتواجِهين، وسأله عمُّه إن كانت عيناه مريضتين. وقال له، إنه يعيش في العتمة وقد تأذت عيناه بسبب الرُّطوبة وانعدام الضَّوء. كانت أطراف الأجفان محمرَّةٌ ومتورِّمةٌ. وعده عمُّه بإرسال أدويةٍ

عن طريق المأمور. وبعد ذلك أعطاه خبرًا جيِّدًا. لقد ترقّى عمّه إلى رئيس المحكمة العليا، وكان هذا أمرًا مُتوقَّعًا، إضافة لكونه الأقدم بين السَّبعة عشر قاضياً. المحكمة العليا ومحاكم التَّفتيش تجمعهما علاقةٌ طيبةٌ، لذلك سُمِحَ له بزيارته. عندما هنأه، كان ثيبريانو يبتسم وينظر إليه بعينين مُغطاتَين بالقذى. وكان ينتظر أن يؤنّبه عمه، وجلس مترقّبًا، لكن لم يحصل ذلك، حدَّثه عمَّه كأنهما يتحاوران في بيته، كأن شيئًا لم يحدث منذ التقيا آخر مرَّةٍ. كان قد ذهب إلى بدروسا، ووجد مارتين مارتين في غاية الحماسة، والزِّراعة منتظمةٌ. حتَّى هذه اللَّحظة لم يعترض صغار الملَّاك والفلاحين في القرى المجاورة، وهو ما يعني أن الصِّيغة المُستخدمة لتقسيم الأراضي ورفع رواتب عمال اليومية كانت صائبةً ولا تضرّ أطرافًا أخرى. حصَّته من حصاد الغلال، التي كانت كبيرةً، موجودةٌ وتحت تصرُّفه، وأيضًا يُنتظر من العنب محصولًا يفوق المعتاد. واصل ثيبريانو النَّظر إليه بدهشةٍ وبعينَين منكسرتَين. كان متأثِّرًا برؤية النافذة، والسَّتائر، والمفرش المُطرَّز حيث يستقرُّ الشَّمعدان، واللَّوحة القبيحة لصعود مريم فوق الطاولة. كأنه فتح عينيه على عالمٍ مختلفٍ، أقلَّ عدوانيةً ووحشيةً. واصل عمَّه الحديث من دون توقُّفٍ، كأنه دفع ثمن وقت الزِّيارة. حكى له عن المتجر والورشة. وأخبره أنه يزور الحيَّ اليهوديَّ بمعدّل مرَّتين في الشَّهر. بالفعل، يبدو مالويندا الجديد مجتهدًا وجديرًا بالثقة. وأنه يتبادل المكاتبات مع ديونيسيو مانريكي، وفي رسالته الأخيرة أخبره أن قافلة الرَّبيع، المحروسة، وصلت إلى أمستردام من دون مشاكلٍ. فيما يتعلَّق بالورشة، فإن فيرمين جوتيرث، بالإضافة إلى مهارته في الحياكة، أظهر أنه إداريٌّ جيدٌ. والصَّيَّادون، والسَّلَّاخون، والدَّبَّاغون، والخيَّاطون وسائقو العربات كانوا سعداء بالعقود الجديدة. ثمّ غيَّر مجرى الحديث لكي يقول له إن نظام السِّجن لا يفرض الأسمال كزِّيّ، وأنه سوف يرسل له، عبر المأمور، أرديةً جديدةً.

كان ثيبريانو متأثّرًا باهتمام عمّه. حاول أن يشكره، لكن صوته انحبس، وامتلأت عيناه بالدُّموع. وقبل أن يذهب كان يرغب في الاعتذار له، وأن يقنعه بحسن نيَّته لدى انضمامه للطائفة، لكن، عندما فتح فمه، لم يُفهم سوى كلمةٍ واحدةٍ: الدِّين. عندما سمعها عمُّه، مدَّ ذراعه ووضع يدًا حانيةً على كتفه، وقال:

- «هذا هو أكثر ثنايا الرُّوح حميميةً. احتكم لضميرك ولا تنشغل بأيّ شيءٍ آخر. سوف نُحَاسَب على هذا».

بعد عودته إلى زنزانته، تركت زيارة عمه شعورًا بعالَمٍ خياليّ، كأنه حلمٌ. رغم هذا، فإن وصول ملابس داخليةٍ، وصدريةٍ، وقميص وسراويل، ودواءٍ للعينين، أقنعه أن عمَّه كان حقيقيًا وملموسًا، مثل النَّافذة، والسَّتائر، والمفرش المُطرَّز في الصَّالة، ومثل لوحة الصُّعود.

في الظَّهيرة ذاتها، سلَّمه داتو خفيةً ورقةً أخرى مطويةً. عندما فتحها شعر بالدَّوار واضطرَّ للجلوس على المقعد ليريح ساقيه. كان مُقتَطفًا من اعتراف آنا إنريكث أمام محاكم التَّفتيش. أثناء قراءته كان من السَّهل التَّكهُّن بمعاناتها، وببحر الشُّكوك الذي غرقت فيه تلك الفتاة طيلة أشهر:

«قَدِمتُ إلى هذه المدينة بمناسبة عيد تحوُّل القدِّيس بولس وعرفت بياتريث كاثايا التي حدَّثتني عن خلاصنا، وأنه سيحدث بسبب نعمة المسيح فقط، وأن حياتي السَّابقة كلها كانت هباءً، لأن الأعمال الطَّيبة، في حدِّ ذاتها، لم تكن تفيد بشيءٍ. وحينئذ قلت لها: «هل هذا هو ما يقوله المهرطِقون؟ وردَّت هي: «الكنيسة والقدِّيسون هم المهرطقون». وحينئذ قلت: «والبابا؟» وقالت لي: «البابا مُتاحٌ لنا في الرُّوح القُدُس». وبعد ذلك أشارت إلى أن ما يجب أن أفعل هو الاعتراف للرَّبِّ عن كُلِّ حياتي السَّابقة

لأن البشر لا يمتلكون سلطة الغفران. وأنا، منزعجةً، سألتها: «والمَطهر والكفَّارة؟ . وهي قالت لي: «لا يوجد مَطهر؛ لن يفيدنا سوى الإيمان بالمسيح». لكنني اعترفت لراهبٍ، كما كنت أفعل من قبل، اعتيادًا فقط، لكنني لم أقل له أيَّ شيءٍ عن هذه الحوارات. وفي يومٍ آخر قالت لي بياتريث كاثايا إن القساوسة لم يكونوا يعطوننا في المناولة سوى نصف المسيح، الجسد وليس الدَّم، وأن التَّنَاول الحقيقيَّ يقوم على الخبز والنَّبيذ. قضيت أسابيع في ضيقٍ، حتَّى زار البيت فراي دومينجو دي روخاس، صديقٌ حميمٌ لأبويَّ، وسألته وأكدَّ لي ما قالته بياتريث. هدأت، واعتقدت في هذا حقيقةً. في تلك الأيَّام، قال لي فراي دومينجو إن لوثر قدِّيسٌ كبيرٌ، وإنه عرَّض ذاته لكلِّ مخاطر العالم ليقول الحقيقة فقط. كما قال لي أمورًا أخرى، مثل وجود سِرين مُقدَّسَين فقط، العماد وسرُّ التَّنَاول، وأن عبادة الصَّليب أمرٌ وثنيٌّ، وأنه بعد الخلاص، تمَّ إعفاؤنا من أيِّ عبادةٍ، ولا يجب أن نصوم ولا أن نقدِّم نذور العفَّة إجبارًا، ولا الكثير من الأشياء الأخرى مثل حضور القدَّاس، لأنه خلال القُدَّاس تتمُّ التَّضحية بالمسيح مقابل المال. وأنه لولا الصَّدمة التي سيُحدثها، كان سيخلع زيَّ الكاهن ويتوقَّف عن الصَّلاة».

أغلق سيبريانو عينيه. وأوَّل ما فكَّر فيه لم يكن الوشاية، وإنما المرارة التي يُمْكن أن تكون تلك الكلمات قد أحْدَثتها في روح دونيا آنا. بعد ذلك فكَّر في ريش قبَّعة دون فراي دومينجو عندما تنكَّر خلال فراره. فجأةً شعر بالنُّفور منه؛ شديد الغرور، شديد التَّعالي، وشديد البرود. قسوته مع دونيا آنا لم تكن فعلًا مسيحيًّا على الإطلاق. الدومينيكي تصرَّف بوحشيةٍ مع الطِّفلة، دمَّر عالَمها الرُّوحي من دون رحمةٍ. أدار عينيه إلى جهة النَّافذة

ورآه مسترخيًا، مُستلقيًا على الفِرَاش، يقرأ كتابًا، وشعر بالنُّفور منه. فقط بعد ذلك، استنكر ثيبريانو اعترافات آنا إنريكث، والوشاية ببياتريث كاثايا والدومينيكي، وحنثها بالقَسَم إراديًا. لأحسّ بانقباض روحه، وازدياد وحدته، والضِّيق في فوَّهة المعدة. ضيقٌ شديدٌ.

لكن السَّاعات كانت تجري في ذلك السِّجن الرَّهيب. زاره السَّجان ليخبره أنه سيمثُل أمام المحكمة في العاشرة من صباح اليوم التَّالي. على الدَّرج، من دون أصفادٍ في القدمين، كان يطير تقريبًا. لكن، كلَّما ابتعد عن القبو وازداد الضَّوء، كانت عيناه تؤلمانه، ويجد نفسه مُضطرًّا لإغماضهما بحثًا عن الرَّاحة. وقبل الدُّخول في صالة التَّحقيق مرَّ بالباب الصَّغير للغرفة التي التقى فيها بعمِّه. بعد ذلك سمع صوتًا يجهل مصدره قائلًا: «فليدخل السَّجين»، ودفعه شخصٌ نحو الباب المصنوع من خشب الجوز المشغول الذي كان أمامه. كان يسير متوجِّسًا. الشَّمس السَّاقطة على زجاج النَّوافذ كانت تغشي بصره، وزخارف السَّقف والسَّتائر الطَّويلة كانت تبثُّ فيه الخوف. السجَّان، الذي كان يقوده من ذراعه، أجلسه على مقعدٍ. حينئذ رأى أمامه هيئة المحكمة، خلف مائدةٍ طويلةٍ، فوق المنصَّة، هناك حيث ينتهي البساط القرمزيُّ الذي يغطي الصَّالة بدءًا من الباب. المشهد كان يتَّفق، بكُلِّ تفاصيله، مع ما أخبره به فراي دومينجو؛ المُحقِّق في الوسط، ملتفًّا بعباءةٍ سوداءٍ، ورَأسه مغطى بقبعةٍ رباعية الأطراف، والوجه طويلٌ متجهِّمٌ. عن يمينه السِّكرتير، رجلُ دينٍ يرتدي عباءةً أيضًا، وهو الآخر جادٌّ وجَهِمٌ. والكاتب على اليسار، مرتديًا عباءةً سوداء وقور، رجلٌ مدنيٌّ أقلُّ عمرًا بكثير من رجل الدِّين. قبل قرع الجرس لاحظ أن أذني المُحقِّق كانتا شفَّافتين وبارزتين عن رَأسه. وفجأة انحنى إلى الأمام وخَبرَ شعورًا غريبًا، كأن جسده ينقسم، ونصفه يسمع الإجابات التي يعطيها النِّصف الآخر على أسئلة رجل الدِّين. بعد قليلٍ من بدء التحقيق تلاشت وجوه المنصَّة، ولم

يتبق سوى الصَّوت القاتم للمُحقِّق، صوت مُحمَّل بالاتهام، مثير للخوف، وإجاباته المقتضبة السَّريعة من أناه الآخر في تبارزٍ لفظيّ محمومٍ، من دون توقُّفات، كأن الإسراع في توجيه الأسئلة يضمن صدق الإجابات. ورغم هذا، لم يبدُ أن ذلك الصَّوت القاس والقويَّ يؤثر على ألمعية ردود أناه الآخر، نصفه المُنفصل:

- «من غرَّر بك؟».

- «أ.. أعذِرْني فضيلتك لكن لا يمكنني الإجابة عن هذا السُّؤال؛ لقد أقسَمتُ على هذا».

- «هل تمتلك بالفعل أراضي كثيرةً في بدروسا؟».

- «هذا صحيحٌ، يا سيِّدي.»

- «ألم تتعرَّف هناك إلى دون بدرو كاثايا، كاهن القرية؟».

- «عرفته وكانت بيننا علاقةٌ. كلانا محبٌّ للرِّيف وكنَّا نتنزَّه معًا، وكان يبدي لي ملاحظاتٍ مهمة حول الطُّيور».

- «هل كان قداسته يحدِّثك عن الطُّيور؟».

- «ليس عن الطُّيور فقط يا سيِّدي. في مَرَّاتٍ أخرى حدَّثني عن العلجوم. الآن أتذكَّر حوارًا عقدناه حول العلجوم في ملَّاحات ثنجال. إنه دارسٌ نابهٌ للطَّبيعة».

- «ودون كارلوس دي سيسو؟ هل كان السَّيِّد دي سيسو يشارك في تلك الحوارات؟».

- «تعاملي مع دون كارلوس كان في أضيق الحدود. ذات مرَّةٍ التقيناه في طريق تورو، لكننا لم نتحدَّث عن طيورٍ أو عن علجومٍ. كان سيتمُّ تنصيبه عمدةً على المدينة، وذهب إلى هناك لزيارة بعض الأصدقاء».

– «هل جمعت الصداقةُ بين دون كارلوس دي سيسو وبدرو كاثايا؟».

– «كانا يعرفان بعضهما، ويتحدَّثان. لكن، إن كانت بينهما صداقةٌ، لا يمكنني أن أقول هذا، ولا أعرف درجة العلاقة».

– «ألَمْ يحدِّثك دون بدرو مطلقًا عن الدِّين في نزهاتكما؟».

– «تحدَّثنا في موضوعاتٍ شتَّى؛ بالتَّأكيد كان الدِّين أحدها».

– «هل تعتبر الدِّين أمرًا مهمًا؟».

قال ثيبريانو مُتذكِّرا تعبير عمه: «الدِّين موجودٌ في أكثر ثنايا الرُّوح حميميةً».

– «إن كنت تعتقد هذا، هل يُعْقل ألا تتذكَّر أيَّ حوارٍ حول الدِّين مع دون بدرو كاثايا؟ كيف يمكنك أن تتذكَّر ما يتعلَّق بالعلجوم ولا تتذكّر ما قَالَه حول الرَّبِّ؟»

– «فضيلتك، الإنسان حيوانٌ شديد التَّعقيد».

– «ومع دون كارلوس دي سيسو؟».

– «مع دون كارلوس دي سيسو، ماذا؟».

– «هل تحدَّثتما ذات مرَّةٍ عن الدِّين؟».

– «لقد التقيته، كما أخبرت سيادتك، في طريق تورو، كان راكبًا ونحن سائران على أقدامنا. كان يمتطي جوادًا أصيلًا عفيًا؛ وقد اهتممت بالدَّابَّة أكثر من الفارس، هذه هي الحقيقة».

– «هل تحبُّ الجياد؟»

– «الجياد نقية الدَّم تبهرني بشدةٍ».

– «ألم تقم برحلةٍ إلى فرنسا بجوادك بيسباس؟».

– «هذا ما حدث يا سيِّدي».

- «من ساعدك على عبور جبال البرانس؟».

- «الدَّليل بابلو إيتشارين، رجلٌ من نافاررا. كان أفضل من يعرف الجبل، وأظن أنه لا يزال الأفضل».

- «من أوصاك به؟».

- «إيتشارين شخصيةٌ معروفةٌ بين الذين يسافرون إلى فرنسا كثيرًا. وسأقول لكم أكثر من هذا: إنه قامةٌ كبيرةٌ».

- «هل وصلتَ إلى ألمانيا في تلك الرِّحلة؟».

- «زرت بضع مدنٍ ألمانيةٍ يا سيِّدي».

- «من أدخلك إلى ألمانيا؟».

- «أنا تاجرٌ، وأنا مخترع (مِعْطَف ثيبريانو)، الذي يُمْكن أن تكون قد سمعت عنه. لديَّ أصدقاء وممثِّلون تجاريون في الخارج، وأنا على اتصالٍ دائمٍ بهم».

- «ألم تكن هناك أسبابٌ دينيةٌ لتلك الرِّحلة؟».

- «أعتقد أن قداستك تريد معرفة ماهية عقيدتي. أليس كذلك؟ إن قلت لكم إن عقيدة نعمة المسيح قد أسرتني يمكننا أن نوفِّر بعض الكلمات. وإن قَبِلَ المرء هذه العقيدة، يجب عليه تلقائيًا أن يقبل أشياء أخرى مُستمَدَّةً منها».

- «هل تعترف إذن أنك عشت في الخطيئة خلال السَّنوات الأخيرة؟».

- «الخطيئة ليست الكلمة المناسبة يا سيِّدي. فأنا أؤمن بما أؤمن به عن طيب خاطرٍ».

- «هل تؤمن بما تُبشِّر به؟».

- «لَمْ أكن مُبشِّرًا يومًا يا سيِّدي. ببساطةٍ أتوخَّى أن أكون مُخلصًا لاعتقادي».

- «هل كنتم تلتقون شهريًا في اجتماعاتٍ في بيت دونيا ليونور دي بيبرو، والدة الأبناء كاثايا؟».

- «عرفت هذه السَّيِّدة والدُّكتور عبر صديقي بدرو كاثايا، ابنٌ وشقيقٌ، للمذكورَين آنفًا على التَّرتيب».

فجأة انفتحت برهةٌ من الصَّمت ورفع الكاتب عينيه للمرَّة الأولى. كان يخضع لاختبار تَحَمُّلٍ، وكان ثيبريانو قد سمع إجابات قرينه بعينين مغمضتين، بارتياح. إجابات كانت ستصبح إجاباته إن مُنِح فرصةً للتَّفكير. لم يكن قرينه يُحَمِّل الآخرين المسؤولية، ولم يكذب، ولم يشِ. لكنه رغم هذا لم يكن يُعرِض عن أسئلة فضيلته، رغم أن إجاباته، كما يبدو، لم ترُق لفضيلته إذ أصبح صوته أكثر تَجَهُّمًا عندما سأله:

- «أنت تحاول التَّهرُّب من أسئلتي رغم أنك لا تجهل بوجود وسائل فعالةٍ لفكِّ عُقَدِ الألسن. هل سمعت عن التَّعذيب؟».

- «للأسف، نعم، يا سيِّدي».

- «والمَطهر؟».

- «أيضًا، يا سيِّدي.».

- «هل تؤمن به؟».

- «إن كنت أؤمن وأقرُّ أن المسيح تألمَّ ومات من أجلي، لا يوجد مكان لأيِّ عقوبةٍ تاليةٍ. أمرٌ آخر ألّا أثق في تضحيته».

- «والكنيسة الرُّومانية، هل تؤمن بها؟».

- «أؤمن بشدةٍ بكنيسة الحواريِّين».

- «ألا تندم على اعتناقك العقيدة الجديدة؟».

- «لَمْ أُقبل عليها تكبُّرًا، أو طمَعًا أو تباهيًا، يا سيِّدي. ببساطةٍ وجدت نفسي فيها. لكنني لن أتردَّد في الرُّجوع عنها إن قمت فضيلتك بإقناعي بخطئي، لكنني لن أفعل هذا مطلقًا لإنقاذ حياتي».

- «ألم تراودك الشُّكوك لدى اعتناقها؟».

- «راودتني قبل ذلك، قداستك، في شبابي. وفي هذا الصَّدد، فإن العقيدة الجديدة أدخلت السَّكينة على روحي».

- «هل أنت شديد العمى لكي لا ترى تجاوزات لوثر؟».

- «قداستك والعبد الفقير نبحث عن ذات الرَّبِّ بطرُقٍ مختلفةٍ، لكن أظن أن كُلَّ تفسيرٍ بشريّ لماهية الدِّينيِّ ينطوي على أخطاءٍ».

- «للمرة الأخيرة، يا سيد سالثيدو، قبل اللُّجوء إلى إجراءاتٍ أكثر إقناعًا، هل تتكرَّم بالرَّدِّ على هذين السُّؤالين البسيطين؟ الأوَّل: من غرَّر بك؟ والثَّاني: من حثَّك على السَّفر إلى ألمانيا في أبريل من العام 1557؟».

- «تعثَّرت بالعقيدة الجديدة عَرَضًا يا سيِّدي، كما يتعثَّر المرء بامرأةٍ تصبح زوجته في الغد. أمَّا عن سؤالك الثَّاني، أكرِّر لكم أن الذي يعمل في التِّجارة يسافر إلى الخارج من آنٍ إلى آخرٍ. تجار أنفيرس هم بعض وكلائي الذين زرتهم في تلك الرِّحلة. إن شككتم في هذا، يمكنكم الرُّجوع إليهم».

في الفِرَاش، مُتمدِّدًا وهادئًا. ذراعاه مفرودتَان بجوار جسده، وعيناه مغلقتان، عاد ثيبريانو إلى نفسه. الآن كان يشعر في رَأسه بجهد التَّركيز، وبالتَّوتُّر الذي مرَّ به أمام المحكمة. فراي دومينجو، جارًا الأثقال الحديدية، كان قد اقترب منه لدى عودته إلى الزِّنزانة وابتسم بينما يسأله إن كان كلُّ شيءٍ قد جرى كما أخبره من قبل. لم يسرد الحوار عندما استعلم الدومينيكي عن التَّفاصيل. قال له ببساطةٍ إن المُحاكِمين كانوا ثلاثةً، رغم أن المُحقِّق

فقط هو من وجَّه الأسئلة، الاثنان الآخران كانا يقومان بالتَّدوين. «صوت الرَّئيس كان يسود كُلَّ شيءٍ، لكن يبدو أن تمسكي بآرائي لم يرُق له».

بعد ثلاثة أيامٍ، في الصَّباح الباكر، أخرجه المأمور والسَّجان من زنزانته. لم يُبلغاه من قبل، ولا شرحا له. لم يقولا أكثر من كلمةٍ واحدةٍ: «اتبِعنا». وتبِعهما يسير على الأحجار الباردة في الرُّدهة، عبر الممرِّ الذي تنفذ المياه من سقفه المنخفض. كان ثيبريانو يخشى على عينيه، لكن هذه المرة أخذ المأمور طريق الأقبية عبر سلَّمٍ حجريّ درجاته غير منتظمةٍ. هناك كان المُحقِّق ينتظره، بقبَّعته ذات الأطراف الأربعة وأذنيه الشَّفَّافتين. السِّكرتير والكاتب جالسان إلى مائدةٍ خلف كومةٍ من الأوراق البيضاء. وبالقرب منهما، يقف على قدميهما شخصان آخران. واستنتج ثيبريانو، تبعًا لوصف فراي دومينجو، أن الرَّجل ذا العباءة السَّوداء هو الطَّبيب، والآخر ذا الصَّدر المكشوف والسَّراويل القصيرة، من نسيجٍ خشنٍ هو الجلاد. أمامهما، في قبوٍ واسعٍ، ضوؤه الخافت يأتي من قنديلين، تلمع مجموعةٌ من الأجهزة الغريبة، كأنها أدوات سيركٍ.

قبل أن يبدأ الجلَّاد عمله، أعاد المُحقِّق سؤاله عن من غرَّر به ومن أمره بالسَّفر إلى ألمانيا في أبريل من عام 1557. ثيبريانو سالثيدو، الذي ابتهج لعتمة المكان، ردَّ بهدوءٍ أنه قال ما يعرفه حول هذا الموضوع قبل ثلاثة أيام، في التَّحقيق. حينئذ أمر المُحقِّق الجلاد أن يعُدَّ الرَّافعة المُعلَّقة من السَّقف. كان ثيبريانو يخاف من إعدادات التَّعذيب أكثر من التَّعذيب ذاته. في الحياة خاف دائمًا من المحاكاة أكثر من الواقع مهما كان هذا قاسيًا ومؤلمًا. لكن عندما ربط الجلَّاد معصمَيه إلى البكرة، ورفعه وتركه مُعلَّقًا في الهواء، اقتنع بأن الرَّافعة لن تكون مفيدةً في حالته. كانوا قد عرَّوه من الخصر فما فوق، وعلّق المُحقِّق مندهشًا على العضلات العجيبة للسَّجين. الغرض من الرَّافعة هو تفكيك أوصال الشَّخص المُعرَّض للتَّعذيب تحت

ثقل جسده، لكن الجلَّاد لم يكن يعوّل على أن جسد ثيبريانو كان خفيفًا، وأطرافه مفتولة العضلات. وهكذا، لقدرته على ثني ذراعيه بسهولةٍ، لم يأت التَّعليق بأيِّ أثرٍ. استشار الجلَّادُ المُحقِّقَ بنظرته، وأشار هذا للثِّقل الموجود على الأرض، والذي ربطه الجلاد إلى قدميه على الفور ثم عاد لتعليقه في الفراغ. وهكذا طفا ثيبريانو في الهواء، الذراعان مثنيَّتان، مثل رياضيٍّ متأرجح على العارضة، والثِّقل عديم النَّفع مربوطٌ إلى قدميه. شعر المُحقِّق بالغضب وامتعض؛ كان يشعر بالفشل. قال باقتضاب:

- «آلة المطِّ».

حلَّه الجلَّاد من الرَّافعة، وربط أطرافه الأربعة إلى ما يشبه الهيكل، حيث تقوم أربع اسطواناتٍ حديديةٍ عن طريق إدارتها بشدِّ جسد المُعَذَّب. خلال الدَّورات الأولى شعر ثيبريانو بالمتعة. ذلك الجهاز كان يساعده على تمدّد أعضائه، وبهذه الطَّريقة، يخرج من التَّيبس الذي عانى منه خلال الأشهر الأخيرة. لكن الجلَّاد الذي لم يكن يبغي متعته، واصل لفَّ اللَّولب حتَّى وصل شدُّ الذراعين والسَّاقين إلى نقطةٍ مؤلمةٍ. في تلك اللَّحظة أوقف المُحقِّق التَّعذيب وقال:

- «للمرَّة الأخيرة، هل يمكنك أن تخبرني من قَام بتحويلك إلى طائفة لوثر اللَّعينة؟».

التزم ثيبريانو بالصَّمت. كرَّر المُحقِّق سؤاله مرَّةً أخرى. لكن، نظرًا لصمته وجَّه إشارةً خفيفةً برَأسه إلى الجلَّاد. اقترب الرَّجل ذو العباءة من المُعَذَّب، بينما كان الجلَّاد يقوم بِلفِّ اللَّولب الذي يشدُّ جسد السَّجين. فكَّر ثيبريانو أن الميزة الوحيدة لهذه الطَّريقة في التَّعذيب هي الإيقاع التَّدريجيّ لوصول الألم إليه، فبين كُلِّ دورتين من الأسطوانة يشعر جسده عادةً بشيءٍ من الرَّاحة. لكن، مع تزايد الجذب، شعر ثيبريانو بألمٍ شديد

الحدَّة في إبطيه وأعلى فخذيه. كأنّ قوَّةً ساحقةً، ومتزايدةً ببطء، تحاول إخراج مفاصل عظامه من تجويفاتها، وخلعها. لكن، حسب الفلسفة القديمة، انغمس كلِّيةً في الألم، وتقبَّله. كان يعتقد أنه ما إن يصبح داخله، مهما كان شديدًا، سيبتعد الألم ويصبح أكثر وهنًا وخفَّةً. لكن، فضلًا عن الألم العنيف الأوَّليّ، أُضيفت آلام أخرى في العمود الفقريِّ، والكوعين والرُّكبتين، وفي أطراف العضلات والأعصاب. فتح جفنيه قليلًا عندما قطع الجلَّاد التَّعذيب لكي يعطي الفرصة للمُحقِّق ليوجّه سؤاله من جديد، لكن إزاء الصَّمت العنيد، عاد ذلك إلى لَفِّ الصَّمولة، وهكذا تحوَّل مجموع كُلِّ الآلام إلى ألمٍ واحدٍ، عموده الفقريُّ كان ينكسر، ويتحطَّم. وعندما وصل توتُّر الأعصابِ إلى المخِّ تسبَّب له في وخزٍ رهيبٍ، أخذ في التَّزايد تدريجيًا حتَّى وصل إلى نقطةٍ غير مُحتَملةٍ. في تلك اللَّحظة، فَقَدَ ثيبريانو التَّحكُّم في إرادته، أطلق صرخةً رهيبةً وسقطت رَأسه على صدره.

بعد ذلك، في الفِرَاش، تحت رعاية الطبيب، عاد لوعيه. لديه شعورٌ غريبٌ أن كُلَّ عظام جسده مخلَّعةٌ، وخارج أماكنها. أيُّ حركةٍ، مهما كانت خفيفةً، كانت تُتَرجم إلى ألمٍ رهيبٍ، ولهذا توخى ثيبريانو السُّكون إلى أقصى حدٍّ، وهو ما جعل ذلك الألم اللَّانهائيّ والرهيب أكثر احتمالًا.

في الأيَّام التَّالية أبدى فراي دومينجو اهتمامًا لم يتوقَّعه ثيبريانو. كان يجلس فوق المقعد، على رَأس الفِرَاش، ويحاول إقناعه بعدم جدوى مقاومته، وأن محاكم التَّفتيش تعرف يقينًا أن بدرو كاثايا ودون كارلوس دي سيسو هما من قاما بضمِّه إلى المجموعة. كان يحذِّره من أن التَّعذيب لم يكن وسيلةً عرَضيةً، وأن التعذيب كان هكذا في البداية، لكن محاكم التَّفتيش يمكنها استئناف التَّعذيب بعد أن يتعافى السَّجين. وقال: «حينئذ، من سيخرج رابحًا من صمتك؟ لماذا السُّكوت؟». ذات

ظهيرةٍ، بينما كان روخاس يلِح بهذه المبرِّرات، سأله ثيبريانو بصوتٍ ضعيفٍ للغاية:

- «أ...ألا تعتقد قداستك أن الحنث بالقَسَم؟ بالإضافة إلى خيانة النَّفس، هو خطيئة كُبيرةٌ».

فراي دومينجو لم يكن يرى الأمر هكذا. الكلمات الكبيرة كانت تثير ضيقه. كان يتوخَّى الهرب من تأثيرها بسرعةٍ. قال له: «الإنسان يجب أن يتأقلم مع الظُّروف وأن يتجنب النَّبرة البطولية، فالإمعان في قبول الاعتداء على أجسادنا يعتبر خطيئةً أخطر من الحنث ذاته». كان ثيبريانو يذكر الشُّهداء، والدومينيكي يقول إن زمن الشَّهادة قد ولّى. فالمسيحية أصبحت راسخةً في العالم، لم تعد هناك حاجةٌ لتضحياتٍ شخصيةٍ.

بعد مرور أسبوعين على التَّعذيب قام داتو، مساعد السَّجَّان، بتسليمه ورقةً من دونيا آنا إنريكث مُبَاشرةً:

«صديقي العزيز -كتبت له- سوف أطلب منك معروفًا كبيرًا. أعرف أنك تعرَّضت للتَّعذيب لعدم كشف أسماء من أقنعوك. من فضلك، لا تكن عنيدًا. تعريض الحياة، التي منحها إيانا الرَّبُّ، للخطر يكشف عن موقفٍ احتقاريّ نحو الخالق. إرضاء المُحقِّقين إلى حدٍّ ما، نطْق كلمةٍ تريحهم وتجعلهم يشعرون مؤقتًا بالانتصار، لا يعني التَّراجع. فليكن هذا حاضرًا لديك، لأن حياتك، من دون أن تدرك هذا، قد تكون يومًا مهمةً لشخصٍ ما.

أتذكر زيارتك إلى لاكونفلوينثيا، ضيعة أبي، بسبب تصرّفات كريستوبال دي باديا، التي ندفع ثمنها غاليًا كلُّنا. تلك الدَّقائق السَّعيدة، في خريفٍ ذهبيّ، في نزهةٍ بصحبتك المُبهجة في الحديقة، تركت لديَّ أثرًا عميقًا. هل سيمنحوننا فرصةً لكي

نعيش تلك السَّاعات مُجدَّدًا ذات يومٍ؟ اعتنِ بنفسك، فَكِّر أنك لا تملك سوى حياةٍ واحدةٍ، وأنك مجبرٌ على الحفاظ عليها. تُحيِّيك بتقديرٍ وإعزازٍ».

آنا إنريكث

تحسَّنت حالة ثيبريانو المعنوية عندما قرأ الرِّسالة التي قضى محتواها على طعم الرَّماد المرِّ الذي خلَّفه التَّعذيب. ماذا أرادت آنا أن تقول بأن حياته يُمْكن أن تكون مهمةً لأحدٍ ذات يومٍ؟ إلى من تشير؟ كان لديه ورقٌ وريشةٌ، وكان أوَّل ردِّ فعلٍ لديه أن يردَّ عليها، لكن المحاولة باءت بالفشل. الكلمات المناسبة لم تَرِد على عقله أو كانت تختلط عليه، كان يفتقد للألمعية الضَّرورية لكتابة جملةٍ متماسكةٍ. بعد أيامٍ، بعد أن تمالك نفسه، شعر أنه قادرٌ على خطِّ بضعة سطورٍ. أعاد قراءتها بضع مَرَّاتٍ قبل أن يسلِّمها لداتو:

«الصَّديقة العزيزة –قال- أشكرك على اهتمامك، وعلى البهجة التي يسبِّبها لي اهتمامك بصحّتي. أنا أيضًا أتذكَّر بشجنٍ تلك النُّزهة الرَّبيعية في حدائق لا كونفلوينثيا، كما أتذكَّر وجهك في الاجتماعات، وحماستك، وإخلاصك، وتلك اليد البيضاء المرفوعة تطلب الإذن للمساهمة في النِّقاشات، وعلى وجه خاصٍّ، حضورك إلى بيتي يوم فراري، وتلك البادرة غير المُتَوقَّعة والجيَّاشة، التي قلت لي بها وداعًا. صدِّقيني أن تلك اللَّحظة أسعدتني كثيرًا، أعانتني في اللَّحظات المؤلمة التي مررت بها. هل سينتهي كلُّ هذا ذات يومٍ؟ في هذه اللَّحظة أطلب منك ألّا تعاني من أجلي. الوفاء بما نعتبره واجبنا ينطوي في ذاته على مكافأةٍ. يُحيِّكم بتقديرٍ وإعزازٍ».

ثيبريانو سالثيدو

حلَّ الخريف شديد البرودة، وثيبريانو، الذي يزداد ضعفه باطِّرادٍ، كان يقضي الأيَّام مُستَلقيًا في الفِرَاش، ملتفًّا بدثارٍ السجن الرسمي. لم يأتِ المأمور للبحث عنه، وفكَّر ثيبريانو إن كانت لعمِّه علاقةٌ بتوقُّف التَّعذيب. في بدايات نوفمبر تلقَّى منه مِعْطفًا مُبطَّنًا بجلد النِّمس ووشاحًا من شقوبية. رغم هذا، لم يظهر عمّه. على الأرجح، كثرة زيارات متَّهمٍ بالهرطقة تمثّل انتقاصًا من مَكانته. من جانبه، واصل فراي دومينجو القراءة في الكتب التي تسمح محاكم التَّفتيش بتوفيرها. في منتصف ديسمبر تمَّ استدعاءه إلى صالة التَّحقيق وعاد بعد ثلاث ساعاتٍ، من دون رغبةٍ في أن يحكي له تفاصيل التَّحقيق. قال: «المُتوقَّع. ما يحدث دائمًا». تمدَّد على الفِرَاش واستأنف قراءاته كأن شيئًا لم يحدث.

عشيَّة عيد الميلاد، عندما لم يعد يتوقَّع، أعطاه داتو بضعة سطور من آنا إنريكث، تهنِّئه بأعياد الميلاد. كانت رسالةً مدحية في قسمها الأوَّل، حيث تشير إلى شجاعته، وذكائه، وحَمله مسؤولية سلامة المجموعة على كتفيه، من دون أن يطلب شيئًا في المقابل. قالت: «في تلك السَّاعات، أدركت أنك لم تكن شخصًا عاديًا بالنِّسبة لي». نبْض قلب ثيبريانو كان يسرع، كأنه على وشك الانفجار. هذا كان كثيرًا، لم يكن اعترافًا بالحبِّ، لكنها كانت تؤكد على تمييزها له عن بقيَّة أعضاء الطَّائفة. لكن، إن كان هناك مجال للشَّكِّ، فإنها في الفقرة التَّالية تواصل: «ربما تفهم الآن بشكلٍ أفضل اهتمامي بمصيرك». تأثَّر ثيبريانو سالثيدو. للمرَّة الأولى، في الحادية والأربعين من عمره، كان يعيش تجربة حبٍّ جديرةٍ بفترة المراهقة. كان يتذكَّر تفاصيل وجه آنا، وعقد اللُّؤلؤ، وعمامتها الحمراء، ويدها البيضاء المزيَّنة بالحلي المرفوعة مثل طائرٍ في الاجتماعات، وصوتها الدَّافئ، المُتحمِّس. يا إلهي، هل يُمْكن أن يكون هذا الإنسان الفريد قد وضع عينيه عليَّ. ردَّ عليها بإيجازٍ، متمنيًا لها السَّعادة والحظ الطَّيب، قائلًا إن أعياد الميلاد تلك، رغم كُلِّ شيءٍ، ستظلُّ

علامةً لا يُمْكن نسيانها في حياته. وقال إن رسالتها مشحونة بالأمل، «أنت تشعرين يا سيدتي بأمل في شيءٍ يُولد». للأسف لم يكن يستطيع مشاركتها التَّفاؤل: «لكن فكرة أن أمرًا ما يُختتَم، راسخةٌ داخلي». لكنه اعترف أيضًا أنه لم يكن غير مكترثٍ بها. «أعجبتُ دائمًا بفطنتكِ، وحرصكِ، وهدوئك، وكيف لا، بجمالكِ»، أضاف في اندفاعٍ من الصَّراحة. وفي وداعها، كان يؤكد على احترامها ومودَّتها.

أصبح داتو رجل البريد الدَّاخليّ بين آنا إنريكث وثيبريانو سالثيدو. أصبح تبادل الرَّسائل يتم بإيقاعٍ أسرع، ونقطة نورٍ وأملٍ في عتمة قبو التَّعذيب. آنا كانت سابقةً دائمًا في التَّعبير عن المشاعر والثِّقة. «كاتالينا دي رينوسو، إحدى راهبات بيلين، رفيقة الزِّنزانة، تعتقد أن فارق السِّنّ عائقٌ بيننا». تقول دونيا آنا في رسالة في 6 فبراير وتضيف: «لكنني أقول، ما أهمِّيَّة العمر أمام المشاعر هذه؟ هل الأرواح لها عمرٌ؟» رسائلها كانت تحتوي، بطريقةٍ أو أخرى، على لمحةٍ من التَّفاؤل: «ذات يوم سيتركوننا نصبح سعداء»، تقول. وأيضًا: «نزهتنا في حديقة لا كونفلونثيا ستكون الحجر الأوَّل في قصَّتنا المشتركة».

ثيبريانو سالثيدو كان يبدو أكثر تحفُّظًا. واندفاعه الأوليُّ كبَحَ نذره المَنسيّ. بدأ ضميره في تأنيبه على ضعفه، وانسياقه بسهولةٍ خلف مشاعره، مُشجِّعًا آنا إنريكث على تشييِّد قصورٍ في الهواء. تلك المرَّة تأخَّر في ردِّه، التزم الصَّمت. لم يكن لديه حقٌّ في إثارة مشاعر الفتاة بينما كان يعرف المآل. الأمور كانت مطروحةً بهذا الشَّكل، فلم تكن هناك بدائل في مستقبله. محاكم التَّفتيش لن تقبل أبدًا بصمته، لكنه أيضًا لم يكن مُستعدًا للتَّخلِّي عن هذا الصَّمت لينقذ نفسه. أعدَّ مسوَّدةً وراء مسوَّدةٍ، لكنه كان يمزِّق إحداها تلو الآخرى. فراي دومينجو كان ينظر إليه من فوق فِرَاشه:

- «هل تقوم بإعداد وصيَّتك؟».

لَمْ يرد ثيبريانو على مزحة الكاهن. في نهاية الأمر كان ما يحاول كتابته شبيهًا بدرجة كبيرةٍ بالوصيَّة. لهذا، بعد سؤال الدومينيكي، قرَّر أن يتحدَّث صراحةً، كأنها -هل كانت بالفعل هكذا؟- رغبته الأخيرة. كان يحبها. هذا كان أساسياً. كان يحبُّها أكثر من أيِّ شيءٍ. ورغم هذا، يوجد بينهما عائقان مستحيلان: نذر العِفَّة المُقدَّم إراديًا للرَّبِّ قبل أكثر من عامٍ، وقراره بعدم الوقوع في حنث القَسَم والوشاية بمن قاموا بإنقاذه. وهذا الموقف لن تغفره محاكم التَّفتيش مطلقًا.

كأنها إجابةٌ عن رسالته، أحضر له داتو في ذلك المساء تقريرًا من مصدرٍ غير معروفٍ:

«الامبراطور كارلوس الخامس قضى نحبه مؤخَّرا في دير يوستي، آسفًا على عدم قتله لوثر عندما كان في مُتناول يده في فورمس. في الرَّغبة الأخيرة لوصيته يطلب، بسلطته كأبٍ، من ابنه فيليبي أن يعاقب الهراطقة بكُلِّ حزمٍ ووفقًا لإثمهم، من دون استثناءٍ ولا احترامٍ لأيِّ شخصٍ. من جانبه، قام الملك الجديد، فيليبي الثَّاني بالثَّناء على الغيرة المُقدَّسة لأبيه».

بدءًا من تلك اللَّحظة، وكأن داتو قام بتخزين الرَّسائل انتظارًا لحلِّ الأزمة العاطفية لثيبريانو، بدأت أوراقٌ من كُلِّ نوعٍ في الوصول: اعترافاتٌ، أخبارٌ، رسائل، تقارير حول محاكمات الإخوة كاثايا، دون كارلوس دي سيسو، جاره في الزِّنزانة، فراي دومينجو، تقريرٌ من أسقف توليدو والعديد من المراسلات التي رتَّبها ثيبريانو تاريخيًا قبل أن يستلقي في الفِرَاش ويتغطَّى بدثار شقوبية. مُعتادًا على الوشايات، لم تعد اعترافات رفاقه قادرةً على مفاجأته. قرأ اعتراف صديقه بدرو كاثايا مغتمًّا:

«ذات يومٍ، التقاني دون كارلوس دي سيسو، عمدة تورو، على باب الكنيسة التي أتولّى كهانتها في بدروسا، مُفكِّرًا في نعمة المسيح، وقال لي فجأةً إنه لا يوجد مَطهر وإنه يستطيع أن يثبت هذا لي. وأبدى قدرةً كبيرةً حتّى إنه تركني مُقتنعًا بهذا رغم أن الرُّوح كانت مليئةً بالشُّكوك والضِّيق (حكى السَّجين هنا موقف زيارة سيسو إلى كارّانثا في مدرسة سان جريجوريو، وهو المشهد الذي لن نكرِّره كونه معروفًا للجميع). بعد ذلك تحدَّثت عن هذا مع الحاصل على الدبلوم هيرريثويلو، ليس لكي أُثقِّفه، وإنما كان هو من أخبرني بأمر التَّبرير بالإيمان من دون الحاجة لأعمالٍ، وأصرَّ على عدم وجود المطهر. وأيضًا زارني كريستوبال دي باديّا في بدروسا ثلاث مَرَّاتٍ وحدَّثني حول الموضوع ذاته، ورجوته ألا يكرِّر هذا. وتناول معي الموضوع خادمٌ كان يعمل لديَّ، اسمه خوان سانشث، لكنني رددته بخشونةٍ، ومتضايقًا قام بترك خدمتي، وسعدت لهذا. في النِّهاية، تحدَّثت عن هذه الأمور مع زميل دراستي فراي دومينجو دي روخاس، وقبل أن أشير إلى موضوع المَطهر، فاجأني بأنه كان مؤمنًا بعدم وجود المَطهر».

عينا ثيبريانو المريضتان كانتا تنزَّان بالدُّموع إزاء كُلِّ هذه الضّعة. كارلوس دي سيسو، على العكس، كان يحاول أن ينسب أصل الطَّائفة لكارّانثا الذي عُيِّن مؤخَّرًا أسقفًا لتوليدو، لكنه كان يحاول أن يقنع المحكمة ببراءته في موضوع المَطهر. فكان يبدِّل الوقائع لصالحه:

«غرضي من الحديث مع أيِّ شخصٍ حول عدم وجود المَطهر لم يكن إبعاده عن الكنيسة وإنما زيادة إيمانه بتضحية المسيح. لم أبشِّر بهذا مطلقًا، كما لم أعقد اجتماعاتٍ ولا لقاءاتٍ، وإنما كنت أبدي رأيي حول الموضوع إن حانت الفرصة. انتهى سيسو طالبًا

العفو عن البلبلة التي أثارها، مُشيرًا إلى أفكاره حول المَطهر، الذي قال عنه «لا يوجد بالنِّسبة لهؤلاء الذين ماتوا قريبين من المسيح، يخدمونه ويعترفون بخطاياهم». كما أشار إلى أن أفكاره اللوثرية بزغت في فيرونا خلال شبابه، عندما سمع كلمات مُبشِّرٍ معروفٍ. وفي العبارات الأخيرة من شهادته عبَّر عن رغبته بالموت في حضن الكنيسة».

اندهش ثيبريانو لنبرة عمدة تورو، وتواضعه وخنوعه. وأدهشه أن اعترافه، أو جزءًا منه على الأقل، لم يكن يتَّفق مع سلوكه. عزا رخاوة دون كارلوس للظُّروف القاسية في السِّجن، وللمرض الذي يذكره طبيبَيْ السِّجن، بارتولوميو جالبث وميجيل ساجون، في تقريرٍ منفصلٍ:

«الدُّكتور جالبث، طبيب المجلس العام لمحاكم التَّفتيش، يجد في السَّجين دون كارلوس دي سيسو، المحبوس في السِّجن الحصين لبلد الوليد، نبضًا ضعيفًا وغير منتظمٍ، وتبدو عليه نحافةٌ ظاهرةٌ. وفيما يتعلَّق بالرُّكبتين اللَّتين يشكو منهما السَّجين، لم يُلحَظ تدهورٌ خارجيٌّ، لكن لدى لمسهما، أجدهما شديدتي التَّيبس. ولكون مرضه قديمًا للغاية، ولأن حالته تتدهور كل يومٍ بسبب ثقل الأصفاد، أرى من المناسب علاجه على الفور.

الدُّكتور ساجون يشير إلى: نبض ضعيف ومزاج اكتئابيّ وحزين. السَّاقان نحيفتان مقارنةً بجسده البدين. أوتار الرُّكبتين شديدة التَّصلُّب، لهذا يُوصى بإخراجه من المكان البائس المحبوس داخله».

الطبيبان جالبث وساجون

من جانبه، بدا الدُّكتور، دون أجوستين كاثايا، مُنهارًا. كان جُبْنه يفوق عقيدته المزعومة. بقراءة شهادته، كان تشاؤم ثيبريانو يزداد بشأن مصيره. إذ يقول التَّقرير:

«في مواجهة التَّعذيب، تعهَّد الدُّكتور كاثايا بالاعتراف وهذا أنقذه من التَّعرُّض للتَّعذيب. مختنق الصَّوت، قدّم اعترافه كتابةً، بخطٍّ يده. اعترف أنه لوثريٌّ، لكنه ليس مُبَشِّرًا. وأنه لم يتحدَّث مع أحدٍ لم يكن عارفًا مُسبقًا بالعقيدة الإصلاحية. عندما طُلِبَ منه أن يتحدَّث عن نفسه وعن الآخرين، ردَّ أنه لا يستطيع أن يفعل هذا من دون الحنث باليمين. وتراجع عن موقفه بعد وعدٍ بالرَّحمة. وتعهَّد بأن يكون كاثوليكيًّا مثاليًا إن حافظت المحكمة على حياته، وأبدى دائمًا بوادر ندمٍ لا لبس فيها».

مع قراءته للتَّقارير والاعترافات، كان ثيبريانو يشعر بتزايد عزلته. ومع اقتراب الرَّبيع ازداد عدد الأوراق التي كان داتو ينقلها له. لكنه كان شديد الضَّعف لدرجة الشعور بالعجز عن جرِّ الأصفاد وكان يقضي الأيَّام واللَّيالي مُمددًا على الفِرَاش ومغطًّى بالدِّثار. هكذا كان يرفض مستنداتٍ يحملها داتو. غالبًا هي مستندات وضيعةٌ، أو زائفةٌ، أو مُشينةٌ. وصلت الثقة مع السَّجان حدّ أنه كان يسمح له بقراءة الأوراق التي يعرضها عليه بشكلٍ عابرٍ قبل أن يقرّر إن كان سيأخذها أم لا. في أعماقه، انتظر ثيبريانو دائمًا ردًّا من دونيا آنا على رسالة وداعه، لكن الردّ لم يصل. ببهجةٍ تلقى منها رسالتين كان فيهما استئنافٌ لرسائل الماضي العذبة، إنّما بجرعاتٍ أقلّ. لكن هو ذاته بتعنُّته، قام بإنهاء هذه المراسلات التي يأسف الآن على انقطاعها. آنا إنريكث، التي تراعي دائمًا مشاعر الآخرين، احترمت نذره ورغبته في عدم الوقوع في الحنث باليمين. رغم أن ثيبريانو كان يُفكِّر فيها كثيرًا، وكان مرور الزَّمن وضعف ذاكرته يجعلان تخيُّل وجهها أكثر صعوبةً يومًا بعد الآخر:

ملامحها، وخطُّ الفم الحادُّ قليلًا، وبشرتها وهيئة أذنيها، كانت تفاصيل جسدية لا يتذكَّرها. هيمن عليه شكٌّ في ما إذا كان صمت آنا يعود إلى الاحترام أم إلى النُّفور، وفي كلتا الحالتين، كانت عيناه المحتقنتان تمتلئان بالدُّموع فيتركها تنساب بهدوءٍ في تنفيسٍ عاطفيّ عن روحه.

كان مُستَلقيًا على الفِرَاش، ساكنًا، وأجفانه مغمضةً، وكانت عيناه تبحثان عن شعاع الشَّمس الأخير الذي يدخل مائلًا عبر النَّافذة، والذي يسبح فيه عددٌ لا نهائيٌّ من الجسيمات الدَّقيقة. عندما دخل داتو، بقبَّعته الحمراء، مثل قزمٍ ساحرٍ، ومعه اعتراف فراي دومينجو، المستلقي أيضًا على فِرَاشه، والمبتعدَ عن كُلِّ شيءٍ. قَبِلَ ثيبريانو التَّقرير. ويقول مُلخَّص شهادته:

«مزاجٌ غير مستقرٌّ. انضمامٌ متأخِّرٌ للوثرية، وحماسة تبشيرية. متكبِّرٌ. قدَّم المتَّهم نفسه أمام هذه المحكمة المُقدَّسة كعضوٍ قديمٍ في الطَّائفة ومناصر للتَّيارات الجديدة. عزا أفكاره إلى مُعلِّمه، أسقف توليدو، دون بارتولوميو كاررانثا، الذي ربما كان لوثريًا من دون أن يدري، أو بشكلٍ أدقٍ، باذِر اللوثرية في إسبانيا. قال إن قراءته لرسالة (إلى أهل جلاطية(1))، لوثرية اللُّغة، وأن كتاب التَّعاليم، كان جافًّا وصعب الهضم للأشخاص البسطاء، «الذين لا يمتلكون أسنانًا لمضغه ولا معدةً لهضمه». وقال إن هذه الأمور لا يجب تركها في يد الجهلاء، وإنما في يد الدَّارسين واللَّاهوتيين.

وعندما دعاه المُحقِّق لعدم التَّجاوز، أصر على أن بارتولوميو

(1) (رسالةٌ إلى أهل جلاطية)، إحدى رسائل العهد الجديد، وتُنسَب لبولس الرسول. تتناول الرسالة التي يرجَّح أنها كتبت بين عامي 50 و56 بعد الميلاد، تأثير العادات اليهودية على العقيدة المسيحية لأهل جلاطية (مدينة في آسيا الصغرى حاليًا)، بعد هجرة العديد من اليهود اليها. والإشارة في نص الرواية إشارة إلى دراسة قدمها كاررانثا لهذه الرسالة.

كاررانثا يُمْكن أن يكون كاثوليكيًا، لكن لدى سماعه يتكلَّم لا يبدو هكذا. وفي مناورةٍ بلاغيةٍ جديرةٍ به، أكدً فراي دومينجو أن «هذا كان التِّرياق الذي استخدمه الأسقف لكي يضمَّني إلى القضية». في المجمل، ترك السَّيدُ أسقف توليدو في موقفٍ شديد الحرج.

كما وشى بخوان سانشث، الذي قام بتحويل راهبات بيلين وشقيقته ماريا. إزاء تناقضاته تمَّ تهديده بالتَّعذيب، لكن خوفًا من تعليقه في الرَّافعة، توسَّل أن يموت قبل أن يُعَذَب. وافقت المحكمة على رغبته بشرط أن يقول الحقيقة. وفي النِّهاية قَام بتبرئة الكثير من المُتَّهمين، لكن ليس الأسقف كاررانثا».

طوى ثيريانو الورقة مُجدَّدًا بشعورٍ من الضِّيق إزاء توافق العديد من المُتَّهمين في نسب المركز اللوثري في بلد الوليد لكاررانثا. لا بدَّ أنهم كانوا يُفكِّرون أنهم بتوريطه، باعتباره قامةً في الكنيسة، لن يكونوا مذنبين بشكلٍ ما. كان كاررانثا يُمَّثل إذن ضمانًا للنَّجاة، كبش الفداء، المسؤول الأعلى. من دون عظاته، وكلماته الغامضة، لم تكن البروتستانتية قد تجذَّرت في قشتالة مطلقًا. لكن حتَّى هذه اللَّحظة يبدو أن لكاررانثا حُماة نافذين.

سمع نداءً هامسًا من فراي دومينجو. وعندما التفت إليه سأله الدومينيكي إن كان سيسمح له بقراءة تلك الورقة. انزعج سالثيدو وسأله إن كان يعرف بمَ تتعلَّق. ردّ فراي دومينجو كان مباشرًا: «إنها شهادتي، أيُّ شيءٍ آخر يُمْكن أن تكون؟ لقد نظرت نحو فِرَاشي مرَّتين قبل أن تبدأ بقراءتها». نهض ثيبريانو، مُعَذِّبًا نفسه، سار خطوتين مُتعثِّرتين نحو فِرَاشه ومدَّ له الورقة بيده اليسرى قائلًا:

– «ربما لن تسعد قداستك بالمكتوب فيها».

– «وما أهمِّيَّة ذلك؟ يجب أن نعرف ما يُنسَب لنا، وليس فقط ما نفعل».

قرأ الدومينيكي التَّقرير بصمتٍ، من دون انزعاجٍ ولا تعليقاتٍ. لم يتوقَّف سالثيدو عن النَّظر

إليه، عندما أخذ يطوي الورقة من جديدٍ سأله:

- «هل تتَّفق قداستك مع ما جاء بها؟».

ردَّ الدومينيكي بشيءٍ من السُّخرية:

- «نعم، مع ما تقول، وليس ما مع تغفل».

في منتصف إبريل انفجرت في المدينة قرعاتٌ مُدوِّيةٌ، كانت تبدأ مع أوَّل ضوءٍ في النَّهار ولا تتوقف حتَّى دخول اللَّيل. كانت قرعات بدرجاتٍ مختلفةٍ، في كُلِّ الأحوال حادّة ووحشيّة. كانت تصدر من ساحة السُّوق، وتنتشر بقوَّةٍ متباينةٍ، في كُلِّ أحياء المدينة. بدا هذا القرع الغريب وكأنه يحفِّز من نشاط السِّجن، ويسرِّع من إيقاعه. الحياة الاعتيادية للسجن الحصين تحوَّلت فجأةً إلى شيءٍ محمومٍ ونشطٍ. رجالٌ فرادى أو في مجموعاتٍ كانوا يذهبون ويرجعون عبر المدخل وفي الممرَّات، يُدخِلَون أو يُخرِجُون أشياء، ويعطون تعليماتٍ للسُّجناء. على أيّ حالٍ بدا أن النَّشاط غير المعهود يتصادف مع لهفة داتو على إمداده بالأخبار والرَّسائل. في اللَّيلة الأولى من القرع الرَّهيب أوضح له السَّجان:

- «إنهم ينصبون المنصَّات».

- «من أجل تنفيذ الحكم؟».

- «بالفعل، نعم يا سيِّدي، ينصبونها في السَّاحة، من أجل تنفيذ الأحكام».

في اليوم التَّالي، أحضر له داتو تقريرًا عاجلًا، استبدله ثيبريانو بدوكادو. العجلة كانت مُبرَّرةً:

سيسو يتراجع

هكذا يقول العنوان. وتمت الإشارة إلى أنه مكتوبٌ بعجالةٍ، مدفوعًا بالتَّطورات الأخيرة، رغم أن الخطَّ مُنسَّقٌ، ومقروءٌ تمامًا، لكاتبٍ محترفٍ. كان واضحًا أن صاحب التِّجارة متعجلٌ على نشر الورقة. ألقى ثيبريانو رَأسه إلى الخلف، بحثًا عن مجالٍ للرُّؤية بين أجفانه المُتورِّمة. كانت المذكِّرة مقتضبة لكنها قاطعة، دالَّةٌ على أن عقوبات المُتَّهمين بدأت تُعرف. تمَّ الحكم على سيسو بالمحرقة، وإزاء هذا الحدث، كان يقوم الآن بتصريحٍ عقائديّ جديدٍ. فمبرِّراته، وإطنابه، وتلاعبه، والكلام عن رغبته الصَّريحة في الموت في حضن الكنيسة، لم تفده بشيءٍ. كان يتراجع إذن. في المذكِّرة الجديدة كان يتحدَّث مباشرةً، مقتنعًا بأن العقوبة نهائية، ولم يكن هناك استئنافٌ مُمْكنٌ لها:

«لدى إخباري أن حضراتكم قد حكمتم عليَّ بالمحرقة، وهو الأمر الذي لم أصدِّقه مطلقًا، لكي أريح ضميري وأساعد على الحقِّ أريد أن أقوم بهذه الشَّهادة النِّهائية: التَّبرير بالإيمان يكفي للخلاص. وهكذا، فإن المسيح هو مَنْ يفدينا، وليست أعمالنا. من يموتون في رحمته لا يتعرَّضون لمَطهرٍ ولا عقابٍ مؤقّتٍ من أيِّ نوعٍ: السَّماء هي مصيرهم. لن يكون من العدل بعد آلام المسيح أن يضطرَّ البشر للتَّطهّر من شيءٍ. هذا يعني أنني أتراجع عما قلته بوجود المطهَر. أنا مؤمنٌ وأعتقد بما كان يعتقد به الرُّسل، وبالكنيسة الكاثوليكية، القرينة الحقيقية للمسيح عيسى، وبكلمة الكنيسة، التي تنحصر في الكتابات المقدَّسة».

قرأ ثيبريانو الاعتراف القصير لدون كارلوس دي سيسو ثلاث مرَّاتٍ. تذكَّر الأسباب التي أعطاها له يومًا ليبرهن على عدم وجود المطهَر، وكيف قَبِلها من دون نقاشٍ. الآن، نظر إلى فراي دومينجو المُتمدِّد على فِرَاشه وقال له بصوتٍ مختنقٍ:

- «دون كارلوس دي سيسو، عُوقِب بالمحرقة».

لكن الأحداث توالت في دوَّامةٍ لا نهاية لها، بينما ترعد دقَّات الميدان بقرعٍ مكتومٍ. في اليوم التَّالي، أعلن المأمور شخصيًا عن زيارةٍ لسالثيدو، لكن ثيبريانو لم يعد قادرًا على المشي، كان عاجزًا عن الحركة. بدا وكأنّ مفاصله قد صدئت. أحضروا له وعاءً فيه ماءٌ دافئٌ وملحٌ، ونزعوا أصفاده وجعلوه يغسل قدميه. رغم هذا، حول العقبين يوجد جرحان على اللَّحم الحيِّ، والرّبلتان مُتورِّمتان. تبع المأمور مترنِّحًا، مُعتمدًا على ذراع السَّجَّان. كانا يميلان إلى جانبٍ وآخر مثل ثورَين مربوطَين معًا. أغشى ضوء السُّلَّم بصره، كأن شيئًا غريبًا يوجد داخل عينيه. أغلقهما وترك نفسه يُقاد. القدمان، من دون الثِّقل المعتاد، كانتا خفيفتين. لكن ساقيه الضَّعيفتين لم تقويا على تحمُّل ثقله. فتح عينيه قليلًا عندما توقَّف السَّجَّان وسمع دويَّ الباب، رفع رَأسه ونظر عبْر الفرجة الضَّيِّقة التي تتركها أجفانه المنتفخة. عندما أمسك بيديه نظر له العمُّ إجناثيو غير مُصدِّقٍ، وجزعًا. كان العم يسرع في الكلام. لا يريد أن يصمت ولا ثانيةٍ واحدةٍ تفاديًا لاستجواب ثيبريانو له.

- «هاتان العينان لم تتحسنا يا ثيبريانو. لماذا لم تخبِر الطبيب؟».

- «إنها العتمة يا عمِّي، والرُّطوبة والبرد. تتورّم الأجفان، كأن بداخلها ترابًا».

أصرَّ العمُّ إجناثيو:

- «يجب علاجها. يوجد طبيبان في السِّجن. إنهما هنا من أجل هذا».

وسرعان ما انطلق مكملًا، وقال له إن الأسقف كاررانثا يخضع للمُحاكمة، ويُعتقد أنها ستكون مُحاكمةً طويلةً ومثيرةً. ربما أكثر من خمس سنوات. أسرَّ له بوجود هجومٍ كبيرٍ عليه سواء داخل السِّجن أو خارجه. كان يرفع رَأسه ليرى عمَّه، جالسًا على الأريكة المُتقشِّفة، تحت

اللَّوحة الرَّديئة لصعود العذراء، مُعتمدًا بكوعيه على فخذيه، أصابع اليدين متشابكة، والأظافر نظيفةٌ للغاية. واصل حديثه عن كاررانثا، كان مُتألمًا لشهادات دي سيسو، وروخاس، وبدرو كاثايا، التي يراها مُخالفةً للحقيقة. أخبره أن المفتِّش العام وصل إلى بلد الوليد، وأنه قال إن الأمر لو كان يتعلَّق بشخصٍ آخر، لكان ألقى القبض عليه من دون تردُّدٍ. أخبره أن النُّقطة المفصلية هي لقاء دي سيسو مع كاررانثا بعد قيام الأخير بتحويل بدرو كاثايا. كان العمُّ مُطَّلعًا وبالكاد يتيح له وقتًا لكي يردَّ؛ كان جليًا أنه لا يرغب في ترك فرجةً يُمْكن أن تتسرَّب منها أسئلة ابن أخيه. كاررانثا يؤكد أن دي سيسو خدعه كما خدع محاكم التَّفتيش، وجعلهم يعتقدون أن تفسيره للأمور مستقى من الأسقف. لكن حذَر الرَّئيس الجديد للمحكمة لم يكن كافيًا. استغلّ ثبريانو توقُّفًا صغيرًا من عمه لكي يوجه له السُّؤال المخيف:

- «هــ.. هل تعرف الأحكام يا عمِّي؟».

نظر دون إجناثيو له عاجزًا، العينان مبلَّلتان، وشفته السُّفلى مرتعشةٌ. قال باذلًا جهدًا كبيرًا:

- «أطلعوني عليها بالأمس. بسبب منصبي يجب عليهم أن يقوموا بهذا».

لا يزال ثيبريانو يرفع رَأسه، لكي لا يهرب عمُّه من مجال بصره. رآه متردِّدًا، شاحبًا. رغم هذا لم يعمل على تخفيف سؤاله:

- «ما مصيري؟».

لَمْ يرد إجناثيو سالثيدو على الفور. اكتفى بالنَّظر بعمقٍ، وبشفقةٍ إلى عينيه المريضتين، لكن عندما حاول أن يتكلَّم تعثَّر الكلام في حلقه مرَّتين. قام ثيبريانو بمساعدته وسأل:

- «ربما هي المحرقة؟».

صمت العمُّ، وأحنى رَأسه موافقةً. قال في النِّهاية.

- «ستذهب مع عشرين آخرين».

ابتسم ثيبريانو لكي يخفِّف من توتُّر الحوار، ولكي يوحي لعمِّه بأن الخبر لم يفاجئه، ولا يفزعه؛ وأنه لم يكن ينتظر شيئًا آخر:

- «هل سيكون من غير اللَّائق أن أسألك من هم هؤلاء العشرون؟».

ابتسم دون إجناثيو وقال:

- «هذا المعروف الصَّغير يمكنني أن أسديه لك. اسمع: آل كاثايا، من ضمنهم الشَّقيقة بياتريث ورفات دونيا ليونور. وفراي دومينجو دي روخاس، ودون كارلوس دي سيسو، وخوان جارثيا، وثلاث نساء من بدروسا، وهيرريثويلو، وخوان سانشث.. مَنْ أيضًا؟».

- «هذا يكفي يا عمي».

- «على أيّ حالٍ القائمة ليست نهائية. هذه اللَّيلة سوف يزورك كاهن اعتراف، وغدًا، أثناء المراسم، ستكون لديك فرصةٌ لتغيير مصيرك: الشَّنق بدلًا من المحرقة. آه، أمرٌ آخر، رفات دونيا ليونور سيتمُّ إخراجها، وأرض بيتهم سيتمُّ بذرها بالملح لترويع الأجيال القادمة».

بدا دون إجناثيو سالثيدو أكثر هدوءًا. راح يتحدّث بحماسة في الأمور الصَّغيرة، مُحاولًا شغل رَأس ثيبريانو عن الفكرة الرَّئيسية. لكن ثيبريانو لم يكن يُفكِّر في نفسه. في ارتعاشه فقد وجه عمِّه من مجال بصره، واستوجب الأمر أن يريح رَأسه مرَّةً أخرى لكي يلتقطه. سأل بصوتٍ خفيضٍ:

- «و... وماذا سيحدث مع دونيا آنا إنريكث؟».

- «سيُطلق سراحها بعد عقابٍ خفيفٍ. صيام بضعة أيامٍ، لا أتذكَّر عددها. إنها مخلوقٌ شديد الجمال على أن تُحرق».

فكَّر ثيبريانو أن إبقاء عمِّه لوقتٍ أكثر يعني زيادة معاناته. نهض مترنِّحًا. كان عمُّه محقًّا: آنا إنريكث شديدة الجمال على أن تُحرق. بالإضافة إلى هذا كانت مخدوعةً. كانت في سنٍّ صغيرةٍ للغاية عندما قام كُلٌّ من بياتريث كاثايا وفراي دومينجو بتحويلها. كانت ضربات النَّجَّارين تدوِّي في الميدان، ضرباتٌ متواصلةٌ، مثيرةٌ للجنون. كان عمُّه قد نهض أيضًا وأمسك بيديه بقوَّةٍ، مثل كفيفٍ.

– «لا أريد أن أضيِّع وقتك أكثر من هذا يا عمِّي. أشكرك على كُلِّ ما فعلت من أجلي».

جذبه دون إجناثيو سالثيدو نحوه، قبَّل وجنتيه واحتفظ به برهة بين ذراعيه. همس في أذنه:

– «ذات يومٍ، سوف تُعتبر هذه الأشياء اعتداءً على الحرية التي جلبها لنا المسيح. صلِّ من أجلي يا بني».

لَمْ يستطع ثيبريانو تناوُل الطَّعام. حمل مارميتو صينيته بغير أن تُلمس. بدأت الاعترافات في المساء. فراي لويس دي لا كروث، دومينيكي مثل فراي دومينجو، طاف بالزَّنازين ووصل إلى زنزانة ثيبريانو عندما كانت الشَّمس تغيب، رغم أن القرع المتناغم في السَّاحة لا يزال يدوِّي بكُلِّ قوَّةٍ. رفض فراي دومينجو مساعدة فراي لويس دي لا كروث عندما اقترب هذا متودِّدًا نحو فِرَاشه. قال فراي لويس دي لا كروث عندما لاحظ إشارته:

– «أبتِ، فقط اطلبُ من الرَّبِّ أن تموت على العقيدة ذاتها التي مات عليها المُبجَّل سان توماس. سأكون مستيقظًا طوال اللَّيل. يمكن لقداستك أن تطلبني عندما تريد».

ثيبريانو، المُتمدِّد على الفِرَاش، استقبل كاهن الاعتراف بلطفٍ. شكر له حضوره وقال له إن في حياته ثلاث خطايا لن يكون ندمه عليها كافيًا

مطلقًا، ورغم أنه اعترف بها من قبل، فقد أسرّ بها للكاهن كدليلٍ على تواضعه: كرهه لأبيه، وغواية مرضعته مستغلًّا عطفها الأموميَّ، وبغضه لزوجته، وهجرانها، الذي حملها إلى الموت مجنونةً في مستشفى. كان فراي لويس دي لا كروث يحني رَأسه مُوافقًا ومُبتسمًا، قال له إن اعترافه عمومًا يزيده نبلًا، لكن في هذه اللَّحظة، عشية (مراسم الإيمان)، كان ينتظر بضع كلماتٍ عن ندمه على الانضمام لعقيدة لوثر. في وسط عتمته، إذ بالكاد كان ثيبريانو سالثيدو يستطيع تمييز ملامح الكاهن، ردَّ عليه أنه اعتنق نظرية (رحمة المسيح) من قلبه، وعن رضا، أي أنه تصرَّف واعيًا، والآن لم يكن ضميره يؤنبه. وكأنه لم يسمع ما قاله، سأله فراي لويس دي لا كروث عن من قام بالتَّغرير به، وردَّ ثيبريانو أنه لا يُمْكن أن يخبره، لأنه أقسَم على هذا، كما لم يثبت لديه أن مرشده فعل هذا بِنيَّةٍ سيئةٍ. الكاهن، الذي كان متعبًا، بدأ في إظهار الجفاء، فتعنُت ثيبريانو يفقده صبره. قال إنه لا يُمْكن أن يمنحه الغفران، لكن الوقت لم يفت بعد. بدءًا من منتصف اللَّيل، سيكون الأب تابلاريس، اليسوعيُّ، تحت إمرة السُّجناء. ثم بتواضعٍ، راح يوصيه بأن يُفكِّر. وقبل أن يرحل، أمسك بيديه برهةً طويلةً وناداه أخي.

لَمْ يكد يغادر الزِّنزانة، حتَّى وقعت ضجةً كبيرةً في الزِّنزانة المواجِهة، زنزانة الدُّكتور. فوق الأصوات الهادئة التي تحاول تهدئته، وكان من بينها صوت فراي لويس دي لا كروث، ارتفعت الصَّيحات المُتضرِّعة للدكتور، طالبًا الرَّحمة من الرَّبِّ، متوسِّلًا إياه أن ينير بصيرته برحمته، وأن يساعده على بلوغ الخلاص. كانت صيحات حادَّة متوتِّرة، وفي لحظات الصَّمت القصير، يُسمع صوت فراي لويس دي لا كروث الهادئ، وصوت السَّجَّان، وصوت المأمور الذي انضمّ إليهم بعد سماعه الجلبة. لكن الدُّكتور، في حالة هذيانٍ، لم يتوقَّف عن الصُّراخ بأنه يقبل الحكم كحُكم عادلٍ ومنطقيّ،

وأنه سيموت راضياً لأنه لم يكن يستحق الحياة التي وُهِبها، وكان مُقتنعًا أنه بإهداره حياته السَّابقة، لن يكون ما تبقَّى له مُختلفًا.

كان القرع قد توقَّف في السَّاحة وكلمات الدُّكتور المنطوقة بصوتٍ صارخٍ، عند باب الزِّنزانة، كانت تصل بوضوحٍ إلى الزَّنازين المُجاورة، ومعها محاولات التَّهدئة من المسؤولين: المأمور، والسَّجَّانين، والطَّبيب. كان الممرُّ الأوَّل يطفو في حالةٍ من التَّوتُّر، عندما استأنف الدُّكتور خطابه حول لافتة التَّجريس التي جاؤوا بها إليه مؤخَّرًا، والملابس التي سيرتديها عن رضا كبير، لأنها كانت مناسبةً للقضاء على تغطرسه والتَّطهُّر من خطاياه. بعد ذلك عاد إلى فكرة النَّدم، وأنه يتراجع عن أيِّ عقيدةٍ خاطئةٍ منحرفةٍ كان قد صدَّقها، سواء كانت ضد العقيدة أم ضد الكنيسة، وأنه يدعو كُلَّ السُّجناء ليحذوا حذوه. لا بدَّ أن طبيب محاكم التَّفتيش قام بإجراءٍ ما، لأن النَّبرة الزَّاعقة للدكتور بدأت في التَّراجع، وانتقل، خلال ثوانٍ قليلةٍ، إلى نبرةٍ أهدأ، وبعد ذلك، إلى غمغمةٍ خافتةٍ، توقَّفت بعد فترةٍ قصيرةٍ.

لَمْ ينَم ثيبريانو سالثيدو في ليلته الأخيرة داخل السِّجن. كان يشعر بالضِّيق من تفاصيل مراسم تنفيذ الحكم، وليس من تنفيذ الحكم. كانت تشغله الإجراءات: الضَّوء، والحشود، والصُّراخ، والحَرّ. كان يُعاني من غثيانٍ وضغطٍ في البول يدفعه لزيارة المرحاض كُلَّ بضع دقائق. عند الساعة الواحدة بدأ قرع الأجراس. دقَّاتٌ بطيئة مُحتضرةٌ. كان قد حدَّثه فراي دومينجو عن هذا. كُلُّ كنائس وأديرة المدينة لم تنم تلك اللَّيلة، كانت تدعو إلى قدَّاس الأرواح من أجل المُدانين. كانت الأجراس قد حلَّت محلَّ المطارق، أصواتٌ مختلفةٌ، لكنها أيضًا مشوّومةٌ ومرعبةٌ. عندما توقَّف رنينها صارت تُسمعُ غمغمة الدَّهماء، وقرع حدوات الدَّواب على حجارة الطَّريق، وصرير عجلات العربات. كُلُّ شيءٍ بدا جاهزًا. كان اليوم الكبير قد بدأ، حتَّى قبل بزوغ النَّهار.

في الرَّابعة فجرًا دخلوا لإيقاظهم. قدَّم مارميتو لهم إفطارًا غير عاديٍّ: حساء ثومٍ، وبيضٌ مع لحم الخنزير، ونبيذٌ من ثيجالس. لم يتذوَّق لقمةً. كانت عيناه تؤلمانه، ويشعر بالتَّورُّمات داخل مقلتيه، وغثيانه يزداد. سادت في السِّجن حالةٌ من الفوضى غير المعهودة. أشخاصٌ يدخلون ويخرجون، ويوزِّعون على الزَّنازين قبَّعاتٍ ورقيةً ولافتات تجريسٍ، بينما كان موظفو محاكم التَّفتيش ينتظرون في البهو بقبَّعاتهم البُنِّية العالية، مُتحدِّثين في حلقاتٍ، حتَّى يتم تنظيم الموكب. في أكثر لحظات الاضطراب حضر داتو إلى الزِّنزانة، سلَّم ثيبريانو ورقةً مطويةً، وأطلق صفيرًا عندما تلقى دوكادين مقابل خدمته. الرِّسالة، كما كان ثيبريانو يتوقَّع، كانت من آنا إنريكث، ولا يُمْكن أن تكون أكثر إيجازًا:

«تشجع»، كانت تقول هذا فقط، وفي الأسفل توقيعها: آنا.

XVII

في فجر الحادي والعشرين من مايو 1559، بعد عامٍ تقريباً، انتهى حبس أكثر من ستّين مُعتقلًا في السّجن الحصين في شارع بدرو باروريكو، مُتَّهَمين بالانتماء للبؤرة اللوثرية في بلد الوليد. سوف يُطلق سراح جزء ضئيل من السُّجناء بعد انتهاء موكب (مراسم الإيمان)، بينما سيلقى كثيرون آخرون جزاء انحرافهم الدِّيني، أو عنادهم، موتًا على المخنقة أو في المحرقة. وكما يحدث عادةً في تلك التَّجمُّعات غير العادية، الخاضعة لقواعدٍ صارمةٍ، فإن أوّل علامةٍ على اقتراب النِّهاية هي انهيار النِّظام. موظَّفو محاكم التَّفتيش كانوا يتحدَّثون في مجموعاتٍ صغيرةٍ في فناء السِّجن، مرتدين حرملاتهم وقبَّعاتهم العالية، في انتظار المُذنبين، بينما كان السَّجَّانون، ومساعدو السَّجَّانين والمأمور ذاته، يروحون ويجيئون، ويقدِّمون لأولئك آخر خدماتهم، ويعطونهم إرشاداتٍ للحفاظ على نظام الموكب الذي سينطلق من السِّجن قبل ساعةٍ من الفجر. لكن، بخلاف المعفوِّ عنهم، الذين كانوا يستمدُّون قوَّةً من ضعفهم ويتعاملون بودٍّ احتفاليّ مع سجَّانيهم، كان بقيَّة السُّجناء، المصعوقين لصرامة العقوبات، بعد حبسٍ طويلٍ وقاسٍ، في حالة اكتئاب وغَمٍّ، منتظرين أمر التَّحرُّك منهارين في أسِرَّتهم، بينما يُصلُّون أو يتأمَّلون.

داتو، مساعد السَّجَّان الأبله، كان من ضمن سكَّان بلد الوليد غير القادرين على إخفاء سعادتهم بالاحتفال القريب. مُعترفًا بسخاء ثيبريانو، جلس أمام فِرَاشه، وأمضى معه الدَّقائق الأخيرة من إقامته في السِّجن، كان يحدِّثه عن الاستعدادات للموكب بحماسةٍ شديدة، كأن سالثيدو غريبٌ في زيارةٍ للمدينة وليس أحد الضَّحايا. داتو مثل بقيَّة العاملين في السِّجن، ارتدى ملابس جديدة، واستبدل سرواله القذِر من الخيش، ببنطلونٍ زاهٍ مليءٍ بالكشكشات.

بالنِّسبة لمساعد السَّجَّان كانت كلُّها مُستجدَّاتٌ جديرةً بأن تُعرف، بدءًا بالمنادين الرَّاكبين فوق جيادٍ، الذين يقفون عند النَّواصي، يُعلنون تفاصيل تنفيذ الحكم، ويطالبون بحضور كل مَنْ تجاوز الأربعة عشر عامًا، مع وعدٍ بالغفران طيلة أربعين يومًا. وقد مُنِع ركوب الجياد وحمْل السِّلاح، الأبيض أو النَّاريِّ، خلال الوقت الذي يستغرقه الاحتفال.

عينا داتو الزَّرقاوان الشَّاحبتان كانتا تلمعان، وخصلات شعره الأمهق ترتعش تحت قبَّعته الصُّوفية الحمراء بينما يتكلَّم عن التَّدفُّق الكبير للأجانب على المدينة. كُلُّ قشتالة جاءت إلى بلد الوليد، قال، بالإضافة إلى هذا يوجد ممثِّلون عن أقاليم أخرى، ومجموعاتٌ كبيرةٌ من الأجانب الذين يتحدَّثون لغاتٍ غريبةً. أكثر من مائتي ألف نفسٍ، أُقسِمُ لك بروح أمي المباركة، قال بينما يرسم الصَّليب أمام وجهه. حتَّى أن كثيرين لم يجدوا مبيتًا في النُّزل والفنادق والخانات، وآلاف الأغراب اضطروا لقضاء اللَّيلة في القرى والضِّياع القريبة، أو في الهواء الطَّلق، منتهزين الطَّقس الطَّيِّب، في الحقول وبساتين العنب المحيطة أو في الشَّوارع غير المطروقة والبعيدة عن وسط المدينة. وقد جاء سيدنا الملك، برفقة الأمراء والبلاط، لكي يترأَّس الحدث.

كان داتو مُنبهرًا بتحوُّل ميدان مايور إلى مسرحٍ خشبيٍ كبيرٍ، فيه أكثر

من ألفَي مقعدٍ على المدرجات، يتراوح سعرها بين عشرةٍ وعشرين ريالًا، ويحرسه الجنود المُسلَّحون بالمطارد، وقد تم تشديد الحراسة في ساعات اللَّيل، بعد محاولتين لإشعال النِّيران بالمسرح من طرف عناصرٍ مخرِّبةٍ.

بعينين مطبقتين، مع نبضٍ قويّ في الجفن العلويِّ، أسلم ثيبريانو روحه وطلب من الرَّبِّ نورًا ليستطيع أن يميِّز بين الخطأ والصَّواب، بينما كان يسمع شاردًا آخر الأخبار من شفتي داتو: سيكون يومًا خانقًا، جديرًا بأغسطس أكثر من مايو، والكثير من أهل المدينة، الذين لم يجدوا مقعدًا في المدرَّجات، أعدوا مواقع على أسطح البيوت، تحت سقائف من الخيش، محاطة بحواجز خشبيةٍ. في انتظار سيِّدنا الملك والأمراء، سهر أكثر من ألفَيْ شخصٍ في الميدان على أضواء المشاعل والقناديل. «لا يُمْكن لحضرتك أن تتخيَّل. يبدو كأنّه يوم القيامة»، قال داتو وهو في قمَّة الإعجاب.

قبل أن يُكمل السَّجَّان وصفه، سُمعت هرولةٌ في الممرَّات، وطَرقاتٌ عجول على أبواب الزَّنازين وأصواتٌ معتادةٌ على إعطاء الأوامر تصرخ: «صفوف، في صفوف!». فراي دومينجو نهض بمفرده، جادًا ورابط الجأش، مرتديًا القميص الجديد؛ ثيبريانو وقف بمساعدة داتو. كانوا قد حرَّروه من الأصفاد ويشعر بساقيه طليقتين، لكن من دون القوَّة اللَّازمة لكي يقف على قدميه. في الممر أسلمه داتو إلى موظَّفَيْن من محاكم التَّفتيش، وكانا يرتديان قميصين من الصُّوف تحت الحرملتين، رغم الحرارة المتوقَّعة في ذلك اليوم. تجمَّع المدانون الذُّكور، الذين ساعدهم حرّاسهم على ارتداء ملابسهم ونِعالهم. وبدا ذلك الاجتماع العَرَضيُّ كأنه وجه آخر للاجتماعات السِّرِّية. الرِّجال ذاتهم، لكن من دون الشُّعور الأخويِّ الذي كان يجمعهم في الماضي. على العكس كانوا غارقين في الشَّكِّ والرَّيبة، إن لم يكن العداء والبغض. رفع ثيبريانو رَأسه، مُحاولًا العثور على مجال

الرُّؤية. اكتشف الدُّكتور إلى جانبه، منحنيًا، شاحبًا، زائغ العينين، منطويًا على ذاته. وخلفه دون كارلوس دي سيسو، الذي حوَّلته المعاملة السَّيِّئة وعامٌ من السِّجن إلى شحَّاذٍ عجوزٍ متداعٍ، غير قادرٍ على السيطرة على حركة رَأسه، نحيفٌ، كتفيه ساقطين، وكانَ يمسك بذراع أحد الموظَّفِين مثل غريقٍ ممسكٍ بلوح خشب. ساقيه لا تتحمَّلان ثقله، واعتداده القديم بذاته، وأناقته ونبله، كلها اختفت. على الجانب الآخر، موظفان يُدخِلان هرريثويلو في القميص الجديد ويضعان قدميه المُتورِّمتين في حذاءٍ برباط. كان فمه مُكمَّمًا ومُقيَّد اليدين وعيناه الرَّماديتان، تحت الحاجبين الكثيفين، تنظران بجنونٍ في كُلِّ اتِّجاه بلا توقُّف. اقترب ثيبريانو من خوان جارثيا، الصَّائغ، وسأله عن سبب تكميم الحاصل على الدِّبلوم. وهذا لم يتعرَّف إلى من يُكلِّمه في عتمة الممرّ، وأجاب أنه أُصِيب بالجنون، وأنه منذ خرج من الزِّنزانة يصرخ مجدِّفًا بحق الرَّبِّ. كانت الحوارات تدور بصوتٍ خفيضٍ، كأنَّ غمغمةً مُتشابهةً تُهيمن على الممرّ. من أحد الأركان كان خوان سانشث ينظر إلى ثيبريانو سالثيدو برَأس مرفوع، مُتحسِّسًا مكانه في ارتباكٍ، مثل كفيفٍ. اقترب منه جزعًا وسأله إن كانت عتمة الزِّنزانة أفقدته بصره. لكن ثيبريانو قلَّل من أهمِّيَّة مرضه وقال: «إنها الأجفان، لقد تورَّمت ولا يمكنني أن أنظر سوى عبر فرجةٍ صغيرةٍ، في خطٍّ مستقيمٍ فقط». تبادلا الابتسام، ولاحظ ثيبريانو أن الخادم لم يتغيَّر خلال العام الأخير: رَأسه كبير، وبشرته كالورق القديم لا تزال كما هي صفراء متجعدةً. خوان سانشث دخل السِّجن في المائة من عمره، وخرج وعمره قرنٌ. كانت هذه ميزة الرِّجال الضَّامرين، النُّحفاء، الفاقدين الحُسن.

لَمْ يكن لديهما موضوعٌ للكلام تقريبًا. لم يكن أيٌّ منهما يرغب في تسميم الجوّ ولا زرع الشِّقاق. حينئذ، قام خوان سانشث، في إحدى مداخلاته غير اللَّائقة، بالإشارة بإصبعٍ إلى لافتة تجريس ثيبريانو، ثم

إلى لافتته وقال بسخريةٍ إنه تمَّ إرسالهما إلى الجحيم ذاته. ضحكته، المكتومة وغير المناسبة، زادت من التَّوتُّر. جزءٌ كبيرٌ من الموجودين قاموا بالوشاية على بعضهم بعضًا، وحنَثوا بالقَسَم، وحاولوا النَّجاة على حساب الآخرين، وكانوا يتهرَّبون من التَّواصل، ومن النَّظرات والتَّفسيرات. بدرو كاثايا تفاداه أيضًا. عندما رأى ثيبريانو بحث عن منطقةٍ مظلمةٍ في الممرِّ حيث لا يُمْكن رؤيته. شهادة بدرو، كما أخته بياتريث، كانت قاسيةً. قاما بالوشاية بدستةٍ من السُّجناء. رغم هذا، كان بدرو كاثايا أيضًا يضع لافتة التَّجريس التي عليها اللَّهب والشَّيطان، المُميِّزة للمحكوم عليهم بالموت. كان وحيدًا يتململ في الرَّكن المظلم، مُحاطًا بحارسَيْن، ورَأسه محنيّ. ربما كان هو وشقيقه أجوستين، زعيما الطَّائفة، أكثر الممقوتين في ذلك الجحيم من الحَذَر والشَّكِّ.

عينا هرريثويلو الجاحظتان كانتا تتقافزان بينهما باحتقارٍ لا نهائيّ. لم يكن باستطاعته البصق عليهما ولا صَفْعهما، لكن نظرته المجنونة كانت تقول كُلَّ شيءٍ. كانت يداه مُقيَّدتين خلف ظهره لكي لا يستطيع خلع الكمّامة. لكن كلَّما وضع الموظَّفان القبَّعة الورقية على رَأسه، كان يهزُّها بعنفٍ من جانبٍ لآخر حتَّى يسقطها. أحد الموظَّفَين، الأكثر صبرًا وحنكةً، فكَّر في استخدام شريطٍ لتثبيتها تحت الذَّقن، لكن هرريثويلو اشتعل غضبًا، وراح ينطح المُخترع حتَّى أفلت القبّعة وسقطت على الأرض مُتجعِّدةً. أثناء الصِّراع انفلتت الكمامة أيضًا وبدأ هرزيثويلو، مثل ممسوسٍ، في سبِّ كاثايا والتَّجديف بحقِّ الرَّبِّ والعذراء، حتَّى استطاع الموظَّفان إسكاته بالانقضاض عليه وإسقاطه.

بدا أن الأمور تهدأ في الشَّارع، عندما بدأ السُّجناء في تشكيل الموكب في صفوفٍ مزدوجةٍ، بصحبة موظَّفي محاكم التَّفتيش. أمام ثيبريانو سار دون كارلوس، الذي كان يجتهد لكي يتقدَّم مُنتصبًا، ولا يفقد كبرياءه.

وكان الدُّكتور يسبقه، ضئيلًا، بظهرٍ محنيٍّ، كأنه يحمل صليبًا على كتفيه، وعلى رأس المسيرة كان فراي دومينجو دي روخاس، باللَّامبالاة ذاتها الهادئة التي عاش بها عام السِّجن.

لم تكن الساعة قد بلغت الخامسة صباحًا، لكن ضوءًا شاحبًا كان يعلن عن بدء النهار. يتقدَّم الموكبَ المُدَّعى العام للمملكة فوق جواده، رافعًا راية محاكم التَّفتيش بشعار القدِّيس دومينجو مُطرَّزًا، ويتبعه السُّجناء التَّائبون بشموعٍ في أيديهم وعلى صدورهم صليب سان أندريس. وخلفهم راهبان من طائفة الدومينيكان، يحملان علم البابَاوية القرمزيَّ والصَّليب الأسود لكنيسة سلفادور، ويتقدَّمان السُّجناء المُعترفين المحكوم عليهم بالمحرقة، بلافتاتٍ عليها الشَّياطين وألسنة اللَّهب، وعلى رؤوسهم قبَّعات ورقية مزينة بالرُّموز ذاتها. وفي وسطهم، تصطف دمى تصوِّر المُدانين، في تقليدٍ ساخرٍ للأصل، بملابسٍ شبيهةٍ، مُعلّقةً على عصيّ طويلةٍ. إحداها كان يمثل دونيا ليونور دي بيبرو، التي يحمل أربعةٌ من موظَّفي محاكم التَّفتيش جسدها المنبوش داخل تابوتٍ، والذي سيتم إلقاؤه في النَّار أيضًا.

بقية الموكب، وهم المحكوم عليهم بعقوباتٍ بسيطةٍ، كانوا يسيرون في المؤخرة، يتقدَّمهم أربعةٌ من حاملي الرِّماح فوق الجياد، مُعلنين عن الطوائف الدِّينيَّة في المدينة ومجموعة المُرتِّلين التي كانت تسير مردِّدة بصوتٍ خفيضٍ أنشودة (رايات المُلك)، الجديرة بمهابة أسبوع الآلام.

ممسكًا بذراعَيْ مرافقَيه، كان ثيبريانو سالثيدو يتحرَّك على غير هدى، ورغم أنه كان يشعر بالنَّهار تدريجًا، لم يكن يرى إلا عندما يرفع رَأسه وتنظر حدقتاه إلى الشَّيء في خطٍّ مستقيمٍ. وبهذه الطَّريقة ميَّز السُّورَين البشريَّيْن الكثيفَين اللَّذَين يحفَّان بالطَّريق، عامَّة مغمومَين وصامتَين، لكن لم يُعدم صوتٌ صارخٌ لفتى، منتهزًا الاختباء في الزِّحام لكي يسبَّهم.

في آخر شارع أوراتيس، كان على موكب السُّجناء أن يتوقَّف ليفسح الطَّريق لمرور الموكب الملكيِّ. على رأس المسيرةَ الحرسُ على الجياد، بالأبواق والطُّبول، وخلفهم مجلس قشتالة وأصحاب المناصب العليا في البلاط مع السَّيِّدات شديدات التَّأنُّق، لكن بلباس حدادٍ كاملٍ، تقوم على حمايتهن دستتان من حاملي الصَّولجان وأربعةٌ من رُسُل الملك بدلمطيق[1] من الجوخ. بعد ذلك، ظهر كونت أوربيسا على جواده، مُمتشقًا سيفه، مُستبقًا الملك المَهيب الذي يلبس حرملةٍ بطقم أزرارٍ من الجواهر، ومعه الأمراء الذين استقبلتهم الجماهير بالتَّصفيق. ويختتم الموكب جمعٌ كبيرٌ، يتقدَّمه ماركيز أستروجا، ويضمُّ الكثير من النُّبلاء، وأسقفا إشبيلية وسانتياجو وأسقف مدينة رودريجو الذي قام بتثقيف غزاة البيرو.

في الصَّف الأوَّل رأى ثيبريانو مرور كُلِّ هذه الأبَّهة باحثًا عن زاوية الرُّؤية المناسبة. الفم مبتسمٌ، من دون حنقٍ، مثل طفلٍ أمام عرضٍ عسكريّ. بعد مرور موكب الملك، استأنف موكب السُّجناء سيره ودخل بين حاجزين من الألواح العالية. الجماهير الهائجة، التي كانت تحاول الاقتراب من الموكب، أخذت في إطلاق صيحاتٍ وصراخٍ غاضبٍ. سار السُّجناء بصعوبةٍ، مُرهَقين، جارّين أقدامهم، كانوا يشكلون موكبًا بائسًا غريبًا، لافتات التَّجريس معوجّةٌ، الأقماع الورقية مائلةٌ، على وشك الوقوع دائمًا. مدَّ ثيبريانو نظرته فوق الميدان مُحرِّكا رَأسه كالعادة لكي لا يفقد مجال الرُّؤية وتأكد له أن تقارير داتو كانت مُقصِّرة. تحوَّل نصف الميدان إلى مسرحٍ كبيرٍ، فيه مدرَّجاتٌ ومقصوراتٌ، ويمتدُّ أمام دير سان فرانثيسكو، ويواجه المجمع المُزَيَّن بالأعلام والدِّيباج المُطرَّز بخيوط

(1) قطعة من الملابس تشبه العباءة المفتوحة الصدر، من دون أكمام.

الذَّهب والفضَّة. النِّصف الآخر ومداخل الشَّوارع المجاورة كانت مكتظَّةً بجمهورٍ هائجٍ وكثير الصُّراخ. صوحب مرور السُّجناء أمام الملك بالصَّفير.

أمام المقصورات، في الجزء السُّفليِّ من المدرجات، تنهض ثلاثة منابرٍ، أحدها لقارئي الأحكام، الثَّاني للصَّادر الحكم بحقِّهم، والثَّالث للأسقف ميلتشور كانو الذي سيلقي العظة وينهي المراسم. على المسرح، في مستوى أكثر انخفاضًا من المنابر، أُجلِسَ السُّجناء، بالنِّظام ذاته الذي أتوا به خلال الموكب، على أربع دكك متدرِّجةٍ، بحيث أن دون كارلوس دي سيسو أصبح على يمين ثيبريانو وخوان جارثيا، الصَّائغ، كان على يساره خائر القوى، مكروبًا، متوتِّرًا. كان ثيبريانو ينتظر وصول السُّجناء المعفوّ عنهم، وينظر بهوسٍ إلى سلالم الصُّعود إلى المنصَّة، حتَّى ظهرت دونيا آنا إنريكث مُمسكةً بيد دوق جانديا. كانت تضع رداءً داكنًا، وتتحرَّك بالرَّشاقة الطَّبيعية ذاتها كما في حدائق لا كونفلوينثيا. لم يبدُ أن السِّجن أثّر عليها، ربما يكون جعلها أكثر نحافةً، ما أفاض في رشاقتها، لكن لم يمسَّ نضارة وتألق وجهها. كانت تصعد الدَّرجات بكبرياءٍ، وعندما مرَّت أمام الصَّف الأوَّل من السُّجناء نظرت إليهم وحدًا تلو الآخر بشوقٍ، وحطَّت عيناها غير مُصدِّقةٍ، للحظةٍ، على عيني ثيبريانو. بدا عليها الشَّكُّ، نظرت إلى بقيَّة شاغلي الدِّكة وعادت إليه، ساكنٌ، رَأسه الصَّغير منتصب، والعينان مغمضتان، كأنه أعمى. ثم واصلت طريقها وصعدت حتَّى الصَّفِّ الرَّابع من المنصَّة، تاركةً ثيبريانو في شكٍّ إن كانت قد تعرَّفت إليه.

الضَّوء القاسي، الذي يغشي البصر، أخذ يهيمن على السَّاحة، ويؤذي عينيه باطِّرادٍ. بعد تأمُّل آنا إنريكث أغلقهما وقتًا طويلًا ليحميهما. غمغمةٌ مكتومةٌ لحواراتٍ كانت تصل إلى أسماعه بينما

يلقي أسقف بالنثيا، ملتشور كانو، عظته حول مُدَّعي النُّبوَّة ووحدة الكنيسة. وعندما عاد ثيبريانو لفتح عينيه، اندهش من جديد للحشد الكبير المتواجد أمام عينيه، جماهير غفيرة، محتشدة وشديدة الغضب، حتَّى إنها احتجزت عربتين فاخرتين يشغلهما أشخاصٌ من الأعيان لِصق الأسوار الخشبية.

التزم الجمهور الصَّمت خلال العظة، رغم أن الصَّوت الواهن الضَّعيف للواعظ لم يكن يصل إليهم. لكن بعد قليلٍ، عندما قام أحد قارئي الأحكام بأخذ القَسَم على الملك، والنُّبلاء والشَّعب، ووعد جميعهم بالدِّفاع عن محاكم التَّفتيش وعن مُمثِّليها حتَّى لو كَلَّفهم هذا الحياة، صدرت صيحةٌ مدوِّيةٌ (آمين). بعد ذلك، ما إن دعا قارئ الأحكام المُدان الأوَّل للمُثول، حتَّى عاد الصَّمت. الدُّكتور كاثايا. وعاونه المساعدون حتى استطاع الوصول إلى المنصة بصعوبةٍ شديدةٍ. ضعفه، وشحوب وجهه، والوجنتان الغائران، ونحافة جسده المفرطة، بدا أنها تثير تعاطف الجمهور معه. كان ثيبريانو ينظر له كأنه شخصٌ غريبٌ، مجهولٌ، وعندما عدَّد القارئ اتِّهاماته وأعلن بصوتٍ جهيرٍ الحكمَ بالموت على المخنقة قبل أن يتمَّ إلقاؤه في النَّار، انفجر الدُّكتور في البكاء، ونظر ناحية مقصورة الملك بنيَّة الحديث معه. لكن على الفور منعه حرّاسٌ وأحاط به جنودٌ. أورتيجا وبيرجارا، قارئا الأحكام، بدآ حينئذ في القراءة بالتَّناوب. كلَّما صعد المدانون بأقدامهم أو بمساعدة الموظَّفين، ليحلَّ كُلٌّ منهم محلَّ الآخر على المنصَّة، من دون تنظيم. على الرَّغم من بشاعته ووحشيته، كان الطقس ينحو إلى الرُّوتين المُملِّ، الذي لا يقطعه سوى استهجان أو تصفيق الجمهور الذي يُوَدَّع به المدانون بالموت لدى عودتهم إلى المسرح:

بيتاتريث كاثايا: مصادرة الممتلكات، والموت بالمخنقة ثم

الإلقاء في المحرقة.

خوان كاثايا: مصادرة الممتلكات، وسجنٌ وتجريسٌ أبديان[1]، مع الإجبار على التَّناول في الأعياد الثَّلاثة سنويًا.

كونستانثا كاثايا: مصادرة الممتلكات، وسجنٌ وتجريسٌ أبديان.

ألفونسو بيريث: خلع الرُّتب الكهنوتية، والموت بالمخنقة ثم الإلقاء في المحرقة.

فرانثيسكو كاثايا: خلع الرُّتب الكهنوتية، والموت بالمخنقة ثم الإلقاء في المحرقة.

خوان سانشث: الموت في المحرقة.

كريستوبال دي باديا: مصادرة الممتلكات، والموت بالمخنقة ثم الإلقاء في المحرقة.

إيزابيل دي كاستيا: التَّجريس، وسجنٌ أبديٌّ ومصادرة الممتلكات.

بدرو كاثايا: مصادرة الممتلكات، والموت بالمخنقة ثم الإلقاء في المحرقة.

آنا إنريكث:

قبل صعود الفتاة إلى المنبر عاني القارئ من التَّردُّد، وترقَّبت الجماهير في صمتٍ. خشية إغماءٍ، أو لمجرد البحث عن عونٍ في وحدتها، صعدت

(1) عقوبة «السجن مدى الحياة» التي كانت توقِّعها محاكم التفتيش لم تكن تُطبَّق بشكلٍ حرفيٍّ. خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت عقوبة «السجن الأبدي» تعني عمليًا قضاء أربعة أشهر في السجن، وفي حالاتٍ نادرةٍ، قضاء ثلاثة أعوامٍ أو أكثر. أما عقوبة «السجن مدى الحياة» فكانت تعني السجن لمدة عشر سنواتٍ. وتسجل بعضُ قرارات محاكم التفتيش عقوباتٍ نصها «سجنٌ أبديٌّ لمدة عام».

السُّلَّم يمسك بيدها دوق جانديا. لكن، عكس المتوقع، ما إن أصبحت في الأعلى حتَّى واجهت القارئ بحزمٍ ونظرةٍ متحدِّيةٍ. رابطة الجأش سمعت خوان أورتيجا يردِّد اسمها والعقوبةَ الرَّمزية التي وُقِّعت عليها:

آنا إنريكث: ستخرج من السِّجن بلافتة تجريسٍ وحجابٍ، وسوف تصوم ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ، وتعود إلى السِّجن بملابس راهبةٍ، وعندما تصل إلى هناك يُطلق سراحها.

ساد الميدان صفير استهجانٍ عامٍ. هبط من الأسطح والشُّرفات، وارتفع في المدرَّجات. لم يكن الجمهور يستطيع التَّغاضي عن تفاهة العقوبة، المظهر المتعالي للتَّائبة، ومَكانتها، وجَمالها، واعتدادها بذاتها. ثيبريانو سالثيدو، برَأسه المرفوع، وبعينيه الدَّاميتين، كان ينظر لها مرتعشًا. كان ردُّ فعل الجماهير يثير ضيقه، وبالقدر ذاته لهفةُ دوق جانديا، بهيئته الحامية، وقُربُه منها. رآها تهبط من المنصَّة بتعالٍ مصطَنَعٍ، يدها اليمنى في يد الدوق اليسرى، ممسكةً بتنورتها، وظاهريًا غير مكترثةٍ باستهجان الشَّعب. أسرع الحاجب بيرجارا في استدعاء السَّجين التَّالي مُحاولًا إسكات اعتراضات الجمهور، الذي التزم بصمتٍ مُتحفزٍ عندما رأى كمامة هرريثويلو، ويديه المُقيَّدتين خلف ظهره، وعجزه. صاح الحاجب:

أنطونيو هرريثويلو: مصادرة الممتلكات والموت في المحرقة.

خوان جارثيا: مصادرة الممتلكات، والموت بالمخنقة ثم الإلقاء في المحرقة.

فرانثيسكو دي ثونيجا: تجريسٌ وسجنٌ أبديٌّ.

ثيبريانو سالثيدو:

فجأة انقطع توافد المُدانين السَّريع على المنبر. ثيبريانو برَأسٍ منتصبٍ، وبنبضٍ في أجفانه، ساعده موظَّفٌ من محاكم التَّفتيش على النُّهوض. رغم أنه كان يعتمد على ذراعه، لم يقوَ على الحركة. السَّاقان الضَّامرتان لم تكونا ثقيلتين، لكنهما أيضًا لم تطيعاه. بدأ صمتٌ متوتِّرٌ في السَّاحة. إزاء تصلُّب السَّجين، نظر الموظَّف إلى الجنديِّ، وتقدَّم موظَّفٌ ثان تجاههما. سلبيًا، خفيف الوزن، استسلم ثيبريانو سالثيدو لرفعه عن الأرض. وممسوكًا من إبطيه، تم حمله إلى المنصَّة. ووقف هناك بين الموظَّفَيْن بقبعتَيْهما العاليتَيْن، شائهًا، رثًّا، والقبَّعة الورقية مائلة على رأسه. كانت الشَّمس القاسية تجرح عينَي المُدان فأغلقهما ضاغطًا على الأجفان. ترنَّح، وكان رجلا مُحَطمًا، وراحت ترتفع غمغمة الشَّفقة الصَّادرة من الجمهور. فرفع الحاجب صوته ليكرِّر اسمه:

ثيبريانو سالثيدو: مصادرة الممتلكات والموت في المحرقة.

غمغمة الجماهير كانت ترتفع، وتهبُّ مثل هدير البحر. لم يبدُ أن المُدان تأثَّر بالعقوبة. كان يوحي بأنه لن يكون قادرًا على العودة للحياة، حتَّى لو حصل على العفو. مُعتمدًا على ذراع الموظَّف، ظلَّ ساكنًا، متداعيًا، وبائسًا، وأجفانه مغمضة. نهض الموظف الثَّاني مرَّةً أخرى، ورفعه كلاهما فوق حاجز السُّلَّم وحملاه إلى مكانه على الدِّكة. أجفانه لا زالت مغمضة، لكن عينيه المريضتين ممتلئتان بالدُّموع. كان مغمومًا، مضطربًا، مُهانًا. أمِتْني الآن يا إلهي، تضرَّع. لكن امتهانه أشعل الفضول المرضيَّ للجمهور. كانت تلك الحوادث هي التي تحيي الاحتفال، وفي الحقيقة كان الاحتفال بالكاد قد بدأ. سمع ثيبريانو النِّداء على فراي دومينجو دي روخاس وحسده على قوَّته، وسلامته الجسمانية.

قال الحاجب:

فراي دومينجو دي روخاس: خلع الرُّتب الكهنوتية والموت

في المحرقة.

كان الجمهور يتململ قلقًا ومتحفزًا. خطوةً فخطوة كانت المراسم تدخل في المرحلة الدِّرامية التي ينتظرها. بعد ذلك استدعى الحاجبان كُلًا من أوفروسنيا ريوس، المُعاقَبة بالموت في المخنقة، وكاتالينا دي كاسيتيا، وعقابه التَّجريس والسِّجن الأبديّ، قبل أن يصل الدَّور إلى دون كارلوس دي سيسو، عمدة تورو. بإرادته العنيدة صعد سلَّم المنبر بمفرده بصعوبةٍ بسبب وَهَن ساقيه، لكن منتصبًا ونبيلًا. قال الحاجب بيرجارا:

كارلوس دي سيسو: مصادرة الممتلكات والموت في المحرقة.

أتى دون كارلوس بإيماءة إذعانٍ، مُنحنيًا باحترامٍ، وتظاهر بالتَّراجع بصحبة الموظَّف. لكن، ما إن أصبح في مقابل المقصورة الملكية حتَّى توقَّف، نظر إلى الملك، أتى بانحناءةٍ أخرى بسيطةٍ وقال بشيءٍ من السُّخرية:

- «كيف يُمْكن لكم، يا سيِّدي، أن تسمحوا بهذا الاعتداء على حياة أحد خَدَمكم؟».

وهو ما ردَّ عليه الملك في الحال، مقطبًا حاجبيه:

- «إن كان ابني شرِّيرًا مثلك، لقمتُ بنفسي بجمع الحطب لحرقه».

لكن، بسبب السُّلوك أكثر من الكلمات التي لم تصل إلى أسماع الغالبية، قام الجمهور، الذي يكره العزَّة، بالصَّفير استهجانًا وراح يشتم السجين. بينما كان موظَّفو محاكم التَّفتيش، غير المُحبِّين للأخذ والرَّد والتَّعليقات، يبعِدونه ويعزِّزون الحراسة بحَمَلة المطارد أمام المقصورة الملكية لمنع المزيد من التَّجاوزات. واصل الحاجبان قراءة الأسماء والعقوبات، لكن الجمهور الذي وجد متعةً في الحوادث الخارجة عن العرض، فتر اهتمامه، تحت وطأة السَّأم والقيظ.

بعد ذلك، تحت أشعّة الشمس التي تزداد سخونة، شرع أسقف بالنثيا في تجريد رجال الدِّين المُدانين. وهو ما أثار اهتمام الجماهير مُجدَّدًا. أمام مقصورة جلالة الملك، بردائه الكهنوتيِّ، دلمطيق وزنار وقلنوسة بيضاء على رَأسه، اقترب الأسقف من السُّجناء الخمسة الرَّاكعين، المُرتدِين عباءاتٍ من المخمل الأسود، وفي أيديهم كؤوسٌ وأطباق قربانٍ كأنهم سيتلون قُدَّاسًا. وواحدًا تلو الآخر، راح يأخذها منهم، مُستبدلًا ملابسهم الدِّينيَّة بقمصان تجريسٍ عليها ألسنة نارٍ وشياطين، بينما يقول:

- «باسم السُّلطة التي منحتني إياها الكنيسة المقدَّسة، أمحو علامات رتبتك الكهنوتية، التي دنَّستها بجريمة الهرطقة».

ثم شرع في مسح أفواههم، وأصابعهم وراحات أيديهم بنسيجٍ مُبلَّلٍ، وأمر الحلاَّق أن يحلق رؤوسهم لوضع الأقماع الورقية عليها. في ركوعه كان الدُّكتور كاثايا شاحبًا، نحيفًا وقذرًا، بالقمع الورقيِّ كقبَّعةٍ. استمد قوَّةً من ضعفه وصرخ فجأةً ثلاث مرَّاتٍ:

- «مبارك الرَّبّ، مبارك الرَّبّ، مبارك الرَّبّ!».

ورغم اقتراب حارسٍ منه، ودفعه نحو المنصَّة، واصل الدُّكتور صراخه، باكيًا، يتساقط منه المخاط:

- «فلتسمعني السَّموات والبشر، افتخروا باسمه القُدُّوس، وليكن الكلُّ شاهدًا على أنني عاص ونادم، أعود إلى الرَّبِّ وأعد بالموت على دينه، لأنه أنعم عليَّ بالكشف عن الطَّريق القويم».

كلمات ودموع الدُّكتور سبَّبت للحضور ردَّي فعل مختلفَيْن: أكثرهم رقَّةً كانوا ينتحبون معه، بينما أكثرهم قسوةً يقفون في المدرَّجات، مُتَّقدين بالغضب، ويسبُّونه ويطلقون عليه لقب المجدِّف. عندما هدأ ردُّ الفعل، ارتقى أسقف بالنسيا المنبرَ الذي ألقى من فوقه العظة مُجدَّدًا وأعلن

أنه بقراءة العقوبات، وخلع الرُّتب الكهنوتية عن رجال الدِّين، تكون المحاكمة قد انتهت، في الرَّابعة من مساء يوم الحادي والعشرين من مايو 1559. وأضاف أن السُّجناء المُعاقبين بالسِّجن سوف يُقادون في موكبٍ إلى السِّجن الملكي وسجن محاكم التَّفتيش لقضاء العقوبة، بينما سينتقل السُّجناء الآخرون على ظهور الحمير إلى المحرقة التي أُقيمت خلف بوَّابة كامبو، لتنفِّذ العقوبة.

راحِ الجمهور يغادر المقاعد بصخب. الوجوه مُتقلِّصةٌ ومبلَّلةٌ بالعرق، وهم يعلِّقون صارخين على وقائع المحاكمة. النِّساء، برؤوسٍ محنيةٍ، العيون محمرّةً. والرِّجال بمنديلٍ على العنق، والقِرَب مُرتفعةً في الهواء، يشربون منها حسب تقاليد ذلك العصر. في أكثر لحظات الاضطراب وقعت مشادَّةٌ في منصة السُّجناء، اجتذبت العديد من المشاهدين. هيرريثويلو، الذي حُرِّرَ من كمامته، التفت ناحية المدرّجات، حيث كانت زوجته ليونور دي ثيسنيروس، بلافتة تجريس التَّائبين، وسبَّها بكلماتٍ بذيئةٍ، قائلًا إنها غادرةٌ، وعاهرةٌ وابنة عاهرة. ولما رأى أن أحدًا لم يتحرَّك، صعد المدرجات التي تفصلهما في ثلاث قفزاتٍ وصفعها مرَّتين. تدخل بينهما حرَّاسٌ، موظَّفون وجنودٌ، وفي النِّهاية أمكنهم تحجيمه، وكمَّموه مرَّةً أخرى، بينما كان الدُّكتور كاثايا الذي استولت عليه مُجدَّداً حمّى الوعظ، يدعوه للتَّعقُّل، وللتَّفكير. وقال له: «كم من الكتب درستَ وكنتَ واقعًا في الخطأ!». بتلك المفردات أخذ يعظ الحاصل على شهادة الآداب بصوتٍ عالٍ، بدا مستحيلًا أن يصدر بمثل هذه القوَّة عن جسدٍ بهذا الضَّعف. فقام هيرريثويلو، الذي لم تكن يداه قد قُيِّدتا بعد، بنزع الكمامة من جديد وردَّ عليه بنبرةٍ ساخرةٍ بين حماسة الحضور:

– «دكتور، دكتور، كم أحتاج الآن للشجاعة التي أبديتها في أوقاتٍ أخرى».

بعد تكميم وتقييد هرريثويلو، تم تقسيم المُعاقَبين إلى مجموعتين، وفصلوهم تحت المسرح. المعفوُّ عنهم، مصطفون ومحاطون بموظَّفي محاكم التَّفتيش، بدأوا طريق العودة إلى السِّجن بين الحواجز، وعليهم لافتات تجريسٍ عليها صليب سان أندريس ومعهم شموعٌ خضراء موقدةٌ. بينما المُدانون بالموت، يصعدون واحدًا تلو الآخر على حميرٍ مُعدَّةٍ لهم، كي يُساقوا إلى منصة الإعدام، عبر الممرِّ الضَّيق الذي يفتحه الجنود بين الحشود بوضع مَطَاردهم أفقيًا. الأوَّل الذي امتطى الحمار كان الدُّكتور، ثم فراي دومينجو دي روخاس وعندما كان ثيبريانو سالثيدو يستعدُّ لهذا لمح عمَّه إجناثيو مُتَّشحًا بالحداد، عصبيًا، يتجادل مع الموظَّفين والحراس في نهاية السُّلَّم. ارتعش ثيبريانو لرؤيته قريبًا إلى هذا الحدِّ. برَأس منتصب، وبابتسامة، أراد أن يُحيِّيه، لكن عمَّه اتجه إلى الموظَّف الذي يقود الحمار من دون الالتفات إليه، أبعده عن الموكب ووضع في مكانه امرأةً على رَأسها غطاء ألمانيّ لطيفٍ، ومع أنها طاعنةً في السِّنِّ كانت نحيفةً وجميلة القوام بوجهٍ حسنٍ. اقتربت المرأة من سالثيدو بعينين مغرورقتين بالدُّموع وداعبت وجنته المغطاة باللِّحية بحنانٍ وقالت:

- «طفلي. ماذا فعلوا بك؟».

رفع ثيبريانو رَأسه، بحث عن نطاق الرُّؤية، ورغم الزَّمن الذي مَرَّ، تَعَرَّف إليها في الحال. لم يستطع الكلام لكنه حاول أن يمسك بيدها، لكي يُعبِّر لها عن مشاعره، لكن موجةً من الجمهور فصلتهما. وجاء مساعدان ضخما الجثَّة حملاه إلى ظهر حمارٍ رماديٍّ، بينما يسير فراي دومينجو في الممرِّ الضَّيق بين الجنود. ربّت جنديٌّ على كفل الحمار الذي يحمل ثيبريانو وضمَّ هذا ركبتيه على الدَّابَّة متأرجحًا. ومن مكانه المرتفع نظر بحنانٍ إلى الوجه العذب الذي يسبقه. برقَّةٍ، كانت مينرفينا تجذب الحبل المُعلَّق بعنق الحمار وتبكي بصمت، محاولةً اللِّحاق بحمارَيْ فراي

دومينجو والدُّكتور. كان الميدان بحرًا من الفوضى. على جانبي ثيبريانو تمتَّد الحشود المُتقلِّبة والمُتردِّدة، رجالٌ غاضبون يقطعون عليهم الطَّريق، ونساءٌ مشفقةٌ وباكيةٌ، وأطفال يتنقَّلون هنا وهناك. القيظ كان رطبًا، والرَّائحة المُنبعثة من السَّاحة كانت شديدة الوطأة، بعد أن خلع رجالٌ ونساءٌ، بإبطهم المُبلَّلة، ملابسهم الاحتفالية لأنهم ما عادوا قادرين على تحمُّل شمس الظَّهيرة، واكتفوا بالصداريات أو القمصان.

ثيبريانو، المُتأرجح بسبب تمايل الحمار، لم يكن يشعر بالحرِّ لرؤية مينرفينا تجرّ الحمار. كان يشعر أنه هادئٌ بشكلٍ غريبٍ، محميٌّ، كما كان في طفولته. كانت تتقدَّم برشاقةٍ وثقةٍ فلا يُمْكن لأحدٍ أن يُفكِّر أنها تحمله للقاء الموت. كانت المرأة الوحيدة بين الذين يقودون الحمير. ورغم عمرها، كان قوامها ممشوقًا، حتَّى أن فلاحين نصف ثملين، قدموا للمدينة لحضور المراسم، كانوا يغازلونها، ويتحرَّشون بها بعباراتٍ لاذعةٍ. لكن موكب الحمير، رغم بطئه، كان يتقدَّم بين الجماهير من دون توقفٍ. ثمانيةٌ وعشرون حمارًا في طابورٍ، يمتطيها عددٌ مماثلٌ من الكائنات الغريبة. مع الحبال وقد علّقت فيها لافتات تجريسٍ تُصوِّر الشَّيطان على الصَّدر وأقماع ورقيةٍ على الرَّأس، كانوا يشكِّلون قافلةً عجيبةً تعبر الممرَّ الضَّيِّق الذي يفتحه حاملو المَطَارد. لكن، ما إن لحق ثيبريانو بفراي دومينجو، حتَّى دخل في مجال عظات الدُّكتور، الذي كان يسير في المقدِّمة، مطلقًا كلماته المُعبِّرة عن النَّدم، وتوسُّلاته المطالبة بالشَّفقة. كان ثيبريانو ينظر إلى جسده المتداعي، بكتفيه المتهدّلَين، والقُمع المائل، مُتمايلًا فوق الحمار، ويسأل نفسه، ما علاقة ذلك الرَّجل، بالرجل الآخر الذي كان يخطّط معه رحلته إلى ألمانيا قبل شهور. كان يسمع توسّلاته وتضرعاته بجفاءٍ، ومن دون تأثرٍ:

- «فلتفهموا وتؤمنوا أنه لا توجد على الأرض كنيسةٌ غير مرئيةٍ[1]، وإنما هي كنيسةٌ مرئيةٌ هي الكنيسة الكاثوليكية، الرُّومانية والعالمية. المسيح أنشأها بدمه وآلامه، وخليفته ليس شخصًا آخر سوى الحبر الأعظم. وليكن مؤكَّدًا لديكم، رغم أن روما تلك قد شهدت كُلَّ الخطايا والرَّذائل، ولكن لأن خليفة المسيح يقيم فيها فإن الرُّوح القُدُس هناك».

كان الجمهور يصفه بالمهرطق، والمخرِّف، والعجوز المجنون، لكنه كان يبكي، وأحيانًا كان يبتسم معتبرًا أن مصيره خلاص. بعض النِّساء كنّ يرسمن الصَّليب وينحبن معه، لكن بعض الرِّجال كانوا يبصقون عليه ويعلِّقون: الآن يشعر بالخوف، لقد بلل سرواله ذلك التَّيس. على مبعدة خطواتٍ، كان ثيبريانو يتلقَّى الشَّتائم والسباب الذي كان معظمه ردًا على الدُّكتور.

على هذا الحال دخلوا شارع سانتياجو، حيث كانت كتلة الجماهير أكثر كثافةً مما سبق، ويكاد لا يُمْكن اختراقها فكانت الحمير تتقدَّم ببطءٍ بين حاملي المَطارد. مجموعاتٌ من النِّساء كنّ يظهرن من النَّوافذ والشُّرفات على جانبيِّ الشَّارع ليرين مرور الموكب ويعلِّقن على الوقائع بأصواتٍ صارخةٍ. الصِّغار كانوا يتقافزون ويتمرَّغون على الأرض، ويعوِّقون المسيرة البطيئة، ويثيرون الفزع بنفخ صافراتهم من بذور المشمش الفارغة. بين هذا الصَّخب، والعبارات المبتورة للدُّكتور في مناجاته اللَّانهائية. كان اهتمام، عقل ثيبريانو الضَّعيف يميل إلى مينرفينا. إلى قوامها الممشوق، الواثق، بينما تفتح الطَّريق بين الجماهير والحبل في يدها اليمنى. كان يستمتع برشاقتها،

---

(1) يشير إلى المفهوم البروتستانتي عن وجود بُعدَين للكنيسة. الأولى هي (الكنيسة غير المرئية)، وتقوم ببساطةٍ على انتماء كل المؤمنين بالمسيح لها، في مقابل المفهوم الكاثوليكي للكنيسة المقدَّسة. والبعد الثاني للكنيسة في البروتستانية هو المادي أو (الكنيسة المرئية)، وهو يشير إلى الكنيسة كمكانٍ يتجمع فيه المصلُّون.

وعيناه المتألمتان تمتلآن بالدُّموع وهو يتأمَّلها. من دون شكٍّ كانت مينرفينا هي الشَّخص الوحيد الذي أحبَّه في الحياة، والتي أحبَّها باتباع الأمر الإلهيّ بحبِّ الأغيار. أغلق عينيه خدرًا بتأرجح الحمار واستدعى اللَّحظات المفصلية لحياته معها: دفئها، في مقابل النَّظرة الثَّلجية لأبيه، نزهاتهما في الممشى، العربة إلى سانتوبينيا، حنانها وهي تسهر عليه، استسلامها العفويّ في بيت عمِّه. بعد طردها، اختفت مينا من حياته. تبخَّرت. لم تفد مساعيه للعثور عليها بشيءٍ. والآن، بعد عشرين عامًا تعود للظُّهور، بشكلٍ غامضٍ، لكي ترافقه في اللَّحظات الأخيرة كملاكٍ حارسٍ. هل كانت مينا بالفعل هي الشَّخص الوحيد الذي أحبّه؟ فكَّر في آنا إنريكث، مشروعٌ لم يكد يبدأ؛ عمه إجنائيو، العبد للتَّقاليد؛ تيو، والفشل الذي انتهى إليه. جيش الظِّلال الذي عبر حياته عندما اعتقد أنه وجد الأُخُوَّة في الطائفة. لكن، ماذا تبقَّى من تلك الأخوية المتوهَّمة؟ هل وُجِدَت الأخوية بالفعل في أيِّ مكانٍ في العالم؟ من بينهم جميعًا، أيهم كان أخاه في لحظة الشِّدَّة؟ لم يكن الدُّكتور بالطَّبع، ولا بدرو كاثايا ولا بياتريث. مَن؟ هل يكون دون كارلوس دي سيسو رغم تناقضاته؟ لم لا يكون خوان سانشث؟ أقلُّ الأخوة مكانةً وأكثرهم بساطةً وقُبحًا. فكرة الحنث بالقَسَم والوشاية السَّهلة لا تزالان تعذِّبانه. حياتي حياةٌ بلا دفءٍ، قال لنفسه. مهما بدا مدهشًا، كان النَّشاط الخافت لعقله يتجنَّب فكرة الموت لكي يقوم بالتَّأمُّل في السِّرِّ الكبير لمحدودية البشر. لدى اقتناعه بنعمة المسيح لم يكن مُتكبرًا ولا مباهيًا، لكنه أيضًا لم يكن هكذا في ساعة الإصرار. أمرٌ من اثنين، يجب عليه أن يتمسَّك بعقيدته أو يرجع لعقيدة أسلافه، بيقينٍ أنه على حقٍّ. لكن، أين يُمْكن العثور على هذا اليقين؟ ذهنيًا كان يطلب من الرَّبِّ مساعدةً صغيرةً: كلمة، أو إشارة، أو إيماءة. لكن الرَّبَّ ظلَّ صامتًا، وبسكوته كان يحترم حريته. لكن، هل الإنسان بذكائه وحده يمكنه حلُّ هذه المشكلة العويصة؟

شعر بالنَّفحة الإلهيَّة أثناء قراءته نعمة المسيح، لكن مع الوقت، انهار كُلُّ شيءٍ، ابتداءً بكلمات آل كاثايا. إذن، هل كان كل هذا الطَّريق الذي قطعه بلا قيمةٍ؟ آه، يا إلهي -قال مُنقبضًا- امنحني إشارةً. ثقل عليه صمت الرَّبِّ الطَّويل، وقصور عقله، والحاجة الرَّهيبة لاتِّخاذ القرار بنفسه، بمفرده، في هذه القضية الحيوية.

تمايُل الحمار الصَّغير في ذلك البحر الهائج كان ينعسه. عندما فتح عينيه رأى عشرات العباءات محلِّقةً مثل الذباب حول فراي دومينجو دي روخاس، مُسايرةً لخطى الحمار. كانوا يتوجَّهون إليه صائحين، بينما يتفادون نصال المَطارد. هم أيضًا كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه كلمةً، وربما إيماءةً فقط. كانوا يلحّون عليه. لكن، ما الذي كان يدفعهم في الحقيقة؟ إنقاذ روحه أم سمعة الرُّهبانية الدومينيكانية؟ لِماذا هذه الرفقة الصَّاخبة في مقابل عزلة بقيَّة المُدانين؟ بدا الدومينيكي متماسكًا، «لا، لا»، كان يُردِّد. ومرافقوه، الذين يختلطون بالمشاهدين، كانوا يتبادلون النَّبأ السَّيِّئ: «قال لا، ما زال عنيدًا، لكن يجب إنقاذه». ويستأنفون حصارهم، واقترب أحدهم حتَّى لمسه ودعاه للموت على عقيدة قدِّيسنا العظيم سان توماس، لكن فراي دومينجو كان يبدي تماسكًا مُدهشًا. «لا، لا»، كرَّر، حتَّى قام فراي أنطونيو دي كاريراس، الذي أمضى اللَّيلة بجواره، وتلقَّى اعترافه وساعده على امتطاء الحمار، بإبعاد المزعجين، وتموضع بجانبه، وأخذ يحميه، متحدِّثًا معه حتَّى المحرقة.

خارج بوَّابة كامبو كان الحضور أكبر، لكن اتِّساع الخلاء سمح بمرورٍ أكثر سيولةً. وسط العامة توجد عرباتٌ فاخرةٌ، وبغالٌ مزيَّنةٌ تحمل أصحاب مهن، وحتَّى امرأة بدينة تركب على حمار وترتدي قبَّعةً من الرِّيش ووشاحًا مُذهَّبًا، كانت تدفع حمارها لكي يظلَّ بمحاذاة السُّجناء لتستطيع سبَّهم. لكن مع وصول هؤلاء إلى بوَّابة كامبو زاد

التَّرقب والصَّخب. الفقرة الختامية في الاحتفال كانت تقترب. سيداتٌ ونساءٌ من العامة، ورجال يحملون على أكتافهم أطفالًا صغيري السِّن، مطيّاتٌ وعرباتٌ أيضًا كانت تتَّخذ مواقعها، تنتقل من عمودٍ إلى عمود لتسأل عن صاحبه، كانوا يتسلَّون خلال دقائق الانتظار بالتَّنقُّل بين أكشاك الرَّخائص، وألعاب التصويب أو صيد سمك السلور. كان آخرون قد توقَّفوا قبل فترةٍ أمام الأعمدة ويدافعون عن أماكنهم بأظافرهم وأسنانهم. على أية حالٍ، كان دخان قلي الفطائر والحلوى ينتشر في محيط المحرقة عند وصول الحمير. الفقرة الأخيرة كانت على وشك البدء: حرق الهراطقة. تشنُّجهم وتقلُّصات وجوههم بين ألسنة اللَّهب، وعواؤهم لدى الشُّعور بالنَّار فوق جلودهم، والتَّعبيرات الغبية على وجوههم التي تشي بآثار الجحيم.

من فوق الحمار، رأى ثيبريانو صفَّ القوائم الخشبية، وتحتها أكوام الحطب، والسَّلالم، والسَّلاسل الحديدية لتثبيت السُّجناء، والذهاب والمجيء العصبيّان للحرَّاس والجلَّادين تحت الأعمدة. انفجر الجمع المحتشد بالصراخ لدى وصول الحمير الأولى. ولدى سماع صراخهم، أخذ من كانوا ينتظرون على مبعدةٍ في الجري بسرعةٍ نحو أقرب الأعمدة لهم. واحدًا تلو الأخر، كانت حمير السُّجناء تنفصل، كُلٌّ منها يبحث عن مكانه. نظر ثيبريانو سالثيدو بسخطٍ إلى بدرو كاثايا المُقيَّد فوق الحمار إلى جانبه، وقد أعيته نوبات قيئ مهولةٌ، حتَّى أن الحراس أسرعوا لإنزاله من فوق الحمار لإعطائه ماء. يجب أن يتعافى. احترامًا للمشاهدين يجب تفادي حرق شخصٍ ميتٍ. بعد ذلك، رفع رَأسه ونظر بعينيه الهائجتين إلى المحرقة. الأعمدة كانت ترتفع كُلٌّ عشرين ذراعًا، أقربها لحي كورتيدورس مُخصَّصٌ للتائبين، والأخرى، على الطرف الآخر، لمن سيُحرقون أحياءً بنظامٍ مُحدَّدٍ سلفًا: كارلوس دي سيسو، خوان سانشث،

ثيبرِيانو سالثيدو، فراي دومينجو دي روخاس وأنطونيو هرريثويلو. عمود دون كارلوس كان مجاورًا لعمود الدُّكتور، الذي سيتمّ خنقه قبل حرقه. وقبل أن يقوم الجلَّاد بإعدامه حاول التَّوجُّه للجماهير من جديد، لكن العوام التي أدركت نيَّته، انفجروا في صراخٍ وصفيرٍ. كانوا يضيقون بالنَّدم المُتأخِّر، الذي يؤجِّل أو يقضي على أكثر ما في العرض من جاذبيةٍ. بينما كانوا يثبِّتون مسمار المخنقة على عنق الدُّكتور، قام حارسان بحمل ثيبريانو سالثيدو من ذراعيه لإنزاله من فوق الحمار تفاديًا لسقوطه. لم يكن قادرًا على الوقوف على قدميه، لكنه رأى مينرفينا قريبةً للغاية حتَّى إنه قال لها همسًا: «أين اختفيت يا مينا فلم أستطع العثور عليك؟». لكن الحارسَيْن كانا قد حملاه واتجها به نحو العمود، حيث قيداه. إلى جانبه، حول عمود فراي دومينجو، ما يزال تحليق العباءات مُستمرًا، كهنةٌ يصعدون ويهبطون السَّلالم، ويتحدَّثون فيما بينهم أو يهرولون بحثًا عن رجال دينٍ أعلى مكانةً لإنقاذه. حينئذ عاد الأب تابلاريس اليسوعيُّ للظُّهور، وصعد السُّلَّم بصعوبةٍ، وتحدَّث لوقتٍ طويل مع السَّجين. جلَبة الجماهير لم تكن تسمح بسماع صوتيهما، لكن لا بدَّ أنه قال له أمرًا مهما، لأن فراي دومينجو لان، والأب تابلاريس، في أعلى السُّلَّم، صرخ في الكهنة الواقفين تحت السُّلَّم طالبًا أن يذهبوا للبحث عن الكاتب، وظهر الكاتب بعد عدَّة دقائق ممتطيًا بغلةً سوداء. كان رجلًا متوسط العمر، قصير اللحية، ولاعتياده على مهنته، أخرج ورقةً بيضاء من حافظته بينما كاهنٌ شابٌ يحمل له المحبرة. فراي دومينجو كان ينظر إلى هذا الجانب ثم إلى الآخر، كأنه حائرٌ، مُغيَّبٌ. لكن عندما حدَّثه الأب تابلاريس مُجدَّدًا في أذنه أحنى رَأسه موافقةً وأعلن بصوتٍ قويّ واضحٍ، أنه يؤمن بالمسيح وبالكنيسة، ويرجع علانيةً عن كلِّ أخطائه السَّابقة. الكهنة والقساوسة الشُّبان استقبلوا تصريحه بصرخاتٍ وإيماءاتٍ

حماسيةٍ، وكانوا يقولون لبعضهم بعضًا: «تخلّى عن عناده، لقد نجا». بينما كان الكاتب، الواقف بثباتٍ تحت العمود، يدون كُلَّ هذا، والحشد الغاضب يعترض على تدَخُّلهم.

ثيبريانو، المُقيَّد إلى حلقةٍ في العمود، بعينيه المريضتين المركَّزَتَين على مينرفينا، كان يشعر بتدافُع الجماهير، ونشاط الجلَّادين والحرَّاس، وتحرُّكاتهم، وأصواتهم. أين جلَّاده؟ لم لا يظهر؟ فزع من عواء الجمهور، والدَّويّ المكتوم الصَّادر عن جسد فراي دومينجو لدى سقوطه بجانبه مخنوقًا غادرته الحياةِ، والحركة السَّريعة لجلادٍ ضخمٍ بدفعه نحو اللَّهب، وانطلاق الشَّرر في البداية. الحشد المُحبَط من حرق جسدٍ ميتٍ كان يحاول الآن الانتقال إلى اليسار، إلى السُّجناء الأربعة الذين ينتظرون الإعدام. لكن الواقفين من قبل، اشتبكوا معهم ووقعت بعض المشاجرات الصَّغيرة. الجلَّاد، غير المكترث بمشاكلهم، انتهى من إشعال محرقة خوان سانشث الذي كان يحترق بضراوةٍ، وتصدر عنه رائحةٌ لاذعةٌ للحمٍ محترقٍ. لكن النِّيران أتت على قيوده قبل جسده، وعندما شعر خوان سانشث أنه حرٌّ، أمسك بالعمود وتسلَّقه بخفَّة قردٍ، صارخًا بصوتٍ عالٍ، وطالبًا الرَّحمة. كان الجمهور يصفق ويضحك أمام حركته القردية. كان الجانب الأيسر لخوان سانشث محترقًا، الجلد مُتجعِّدٌ ورماديٌّ. مُمسكًا بطرف القائم، سمع نصائح الراهب الدومينيكيّ التي جعلته يتردَّد للحظة. لكن، عندما أدار رَأسه، ورأى الشَّجاعة التي يستقبل بها دون كارلوس دي سيسو العذاب، ترك نفسه يحترق من دون اعتراضٍ، قام بقفزةٍ كبيرةٍ وألقى بنفسه مُجدَّدًا إلى ألسنة اللَّهب بينما تصدر عنه تشنجاتٌ، حتَّى فقد الوعي ومات.

الجماهير الموجودة أمام الأعمدة كانت تزأر بحماسة. بكى الأطفال وبعض النِّساء. لكن رجالًا كثيرين، مُتَّقدين بفعل الكحول،

كانوا يضحكون على ركلات وتشنّجات خوان سانشث. «مجذوم، حقير»، وكانوا يقلّدون حركاته وقفزاته أمام الجماهير. كبرياء وإيماءات هرريثويلو أطلق ضحكات ودموع الحضور. مكمَّم الفم، تسلَّقت النِّيران بين فخذيه، وتمدَّدت حتَّى أحرقته. صرخةٌ غير إنسانيةً صدرت عن حنجرته بعد أن أكلت النِّيران الكمامة وحرَّرت فمه. الكثير من النِّساء أغلقن أعينهن فزعًا، وأخرياتٌ كنَّ يُصلِّين بيدين مضمومتين ونظرهنّ إلى الأرض، لكن بعض الرِّجال كانوا يصيحيون ويسبُّون. لم تكن لدى ثيبريانو سوى فكرةٍ غائمةٍ حول رؤيته موت سيسو، وخوان سانشث وحامل شهادة الدبلوم بجانبه. ألسنة اللَّهب أتت على حيواتهم بسرعةٍ، والرَّائحة الكريهة الثَّقيلة للّحم المحترق كانت تحطُّ على الحقول. رأى الجلَّاد متَّجهًا إلى العمود، والشُّعلة التي يتصاعد منها الدُّخان في يده اليمنى، وحينئذ، عاد لإغلاق عينيه المريضتين وطلب إشارةً من الرَّبِّ. كان كاهنٌ يجرى الآن باتجاه الجلّاد، عباءته مرفوعةٌ إلى خصره، ويتوسّل بإشاراتٍ عنيفةٍ أن يؤجِّل الجلّاد تنفيذ الحكم. كان الأب تابلاريس. وصل إلى السُّلَّم لاهثًا، حمل يدًا إلى صدره وتوقف على الدَّرجة الأولى. بعد ذلك صعد بسرعةٍ ولصق وجهه الشَّفوق بوجه سالثيدو المحتضِر. كان يلهث. لكنه انتظر بضع دقائق لكي يتكلَّم. قال في النِّهاية:

– «أخي ثيبريانو، لم يفُت الوقت. تراجع وأكِّد إيمانك بالكنيسة».

كان الرِّجال يصفِّرون. فتح ثيبريانو جفونه المتورِّمة قليلًا، ورسم ابتسامةً خجولًا. كان فمه جافًا وعقله مشوَّشًا. رفع رَأسه ونظر إلى أعلى وقال:

– «أ...أؤمن بكنيسة المسيح والرُّسل المُقدَّسة».

قرَّب الأب تابلاريس شفتيه من وجنة ثيبريانو وقبَّله في وجهه، وتوسَّل:

- «أخي، قُل الرُّومانية، هذا فقط. أطلبه منك من أجل آلام سيِّدنا المُباركة».

كان صبر النَّاس ينفد. صفيرٌ ولعناتٌ. وثيبريانو، بقفاه مستندٍ على العمود، كان ينظر بامتنانٍ إلى الأب تابلاريس. لم يكن يريد السُّقوط في التُّقية بأيِّ حالٍ. نظر إليه الجلَّاد نافد الصَّبر، والشُّعلة في يده اليمنى، بينما الكاتب يحمل ريشته وينتظر اعتراف السَّجين تحت العمود. عاد ثيبريانو لإغلاق عينيه، لطلب إشارةٍ من الرَّبِّ. شعر بالنَّبض المؤلم لأجفانه وغمغم بتواضعٍ، كأنما يعتذر عن عناده:

- «يا أبتِ، إن كانت الرُّومانية هي الرَّسولية، أؤمن بها من كُلِّ قلبي».

غضَبُ الجمهور المُطالِب بالمحرقة واستعداد الجلَّاد لإرضائه كانا يضغطان على الأب تابلاريس، الذي قام في لفتَّةٍ أبويةٍ برفع يده اليمنى وداعب وجنة السَّجين وقال:

- «يا بني، يا بني، لماذا تضع شروطًا في هذه السَّاعة؟».

أحنى الأب تابلاريس رَأسه يائسًا. لم يعد هناك المزيد من الوقت. كان المُشاهدون يطلبون الأضحية صارخين: كانوا يهتفون، ويتقافزون، ويرفعون أذرعتهم. صفير الأطفال كان يثير الرُّعب. الدُّخان يُدمِع الأعين. امرأةٌ بدينةٌ كانت تأكل فطائر مقلِّية بهدوءٍ بجوار مينرفينا. الأب تابلاريس، مدركًا لفشله، نزل السُّلَّم ببطءٍ، ورأى مينرفينا باكيةً بجوار الجلَّاد، وهذا ينظر إليه باهتمامٍ. حينئذ أتى بإشارةٍ، حركةٍ خفيفةٍ من اليد اليمنى مشيرًا إلى كومة الحطب فوق أوراق البلُّوط الجافَّة. قرَّب الجلَّاد الشُّعلة من الحطب الصَّغير، وبزغت النِّيران فجأةً مثل زهرة خشخاش، وانبعث منها الدُّخان، أحاطت بثيبريانو بطقطقةٍ هادرةٍ وغطَّته. اندفع الحشد في صراخٍ مبتهجٍ عندما أحاطت ألسنة لهبٍ ضخمةٍ بالسَّجين.

«يا إلهي، استقبلني لديك»، غمغم هذا. شعر بألمٍ شديد الحدَّة في الوجه الدَّاخلي لفخذيه، وفي كُلِّ جسده، كأنما ينزعون جلده سلخًا. شعر بحدةٍ خاصَّةٍ في أطراف الأصابع. ضغط أجفانه بصمتٍ، من دون أن يُحرِّك عضلةً واحدةً. مذعنًا. أصيب الجمهور بالصَّمت، اندهش لتماسكه، لكنه في الحقيقة أُحبط. حينئذ كُسِر الصَّمت بنواح مينرفينا. سقطت رَأس ثيبريانو جانبًا والتهمت أطراف ألسنة اللَّهب عينيه المريضتين.

شهادة مينرفينا كابا

في مدينة بلد الوليد، في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو من العام ألفٍ وخمسمائةٍ وتسعةٍ وخمسين، أمر السَّيِّدان المُحقِّقان، دون تيودورو رومو ودون ماوريثيو لابرادور، في الجلسة المسائية، أن تمثُل أمامهما مينرفينا كابا، ذات السِّتة والخمسين عامًا، من مواليد سانتوبينيا دي بيسويرجا، والقاطنة في توديلا، والتي أقسمت القَسَم المعهود على أن تقول الحقيقة.

بسؤالها عن سبب حضورها في المحرقة في مساء الحادي والعشرين من مايو من 1559 وعلاقتها بالمذنب ثيبريانو سالثيدو، ذكرت الشَّاهدة أن المذكور كان طفلها، منذ موت أمِّه في العام 1517، وأنها قامت بإرْضَاعه من صدرها، وقامت بتلبية احتياجاته. كما ذكرت الشَّاهدة أنها بعد انتهاء الرِّضاعة ظلَّت في خدمة دون برناردو سالثيدو، أرمل، ووالد الصَّغير، حتَّى قرَّر إلحاق الطِّفل بمدرسة الأطفال اللُّقطاء لإتمام دراسته، وهو القرار الذي آلَم الشَّاهدة كثيرًا.

وبسؤالها عن واقعة قيادتها للحمار حتَّى العمود، أوضحت الشَّاهدة أن السَّجين كان يعاني من مرضٍ شديدٍ في عينيه وساقيه، وأن فكرة قيادتها للحمار صدرت عن عمِّه ووليِّ أمر المذكور، دون إجناثيو سالثيدو، رئيس المحكمة المَلكية العليا، والذي أمر بالبحث عنها في كُلِّ القرى المتاخمة

عن طريق المُنادين. وعثر عليها في النِّهاية، في توديلا دي دويرو حيث تعيش منذ زواجها من المزارع إيزابيلينو أورتيجا، والذي أنجبت له ولدين، أصبحا الآن صبيَّين. وعندما طلب منها دون إجناثيو سالثيدو أن ترافق ابن شقيقه إلى المحرقة، أوضح لها أن الأمر إن لم يتمّ هكذا، فإنه سوف يشعر بالوحدة الشَّديدة في ذلك المساء الحزين. وفي تلك اللَّحظة وافقت الشَّاهدة على مرافقته، كما كان يمكنها القبول أن تموت بدلًا منه إن طُلبَ منها هذا.

بسؤالها عن الأشخاص الذين تحدَّثوا مع السَّجين مُقيَّدًا إلى العمود، وإن كان قد كَلَّفها بوصيةٍ طلب تنفيذها بعد موته، وإن كانت قد رأت أو سمعت أيَّ شيءٍ متعلِّقٍ بالهرطقة كان يجب أن تخبر بها محاكم التَّفتيش، أقسَمت كما ينص القانون، أنها لم تلحظ ولم ترَ في يوم المراسم شيئًا في المحرقة بخلاف ما ستقول فيما يلي: كان عدد كبير من رجال الدِّين وأتباع الصَّليب المُقدَّس قد أحاطوا بأكثر المُذنبين بدانةً. راهبٌ محمرّ الوجنتين، كانوا يطلقون عليه فراي دومينجو، وحسبما قالوا، كان عنيدًا. لكن، لم يستطع نصحه وإقناعه سوى الأب تابلاريس فقط. وبعد الانتهاء من مساعدته، كان الأب تابلاريس ذاته هو من جاء إلى طفلها وقال له: «أخي ثيبريانو، لم يفُت الوقت. تراجع وأكد إيمانك بالكنيسة الرُّومانية». لكن طفلها فتح عينيه المريضتين قليلًا وقال له: «أؤمن بكنيسة المسيح والرُّسُل المُقدَّسة». وتؤكِّد هذه الشَّاهدة أن المدعو الأب تابلاريس أصرَّ على أن ينطق المُذنب بكلمة (رومانية)، وهو ما ردَّ عليه السَّجين إن كانت الرُّومانية هي كنيسة الرُّسل، كما يجب أن يكون، فإنه يؤمن بها. كما قالت لا بدَّ أن الرَّاهب قال شيئًا آخر لطفلها، لأنهما ظلَّا للحظات طويلةٍ بوجهين متلاصقين، لكنها لا تتذكر ما قال، وربما لم يمكنها سماعه لأن الصَّخب والاضطراب في المحرقة كانا كبيرين.

بسؤال الشَّاهدة في النِّهاية إن كانت قد رأت أو سمعت أيَّ أمرٍ آخر، لسببٍ أو لآخرٍ، تعتقد أنها يجب أن تكشف عنه لمحاكم التَّفتيش، ردَّت الشَّاهدة أن فوق كلِّ شيءٍ، كانت شجاعة طفلها في استقبال الموت أكثر ما أثَّر فيها ذلك المساء. وأنه تحمَّل اللَّهب منتصباً وواثقًا، فلَمْ تهتز شعرةٌ منه، ولم تصدر عنه شكوى واحدة، ولم يذرف دمعةً، ونظرًا لشجاعته، يمكنها أن تقول إن الرَّبَّ أراد أن يصنع به معروفًا ذلك اليوم. بسؤال الشَّاهدة إن كانت تؤمن عن اقتناعٍ بأن الرَّبَّ يُمْكن أن يصنع معروفًا لمهرطقٍ، ردَّت أن عين الرَّبِّ ليست من طبيعة عين البشر ذاتها، وأن عين الرَّبِّ لا تتوقف أمام المظاهر وإنما تذهب مباشرةً إلى قلوب البشر، ولهذا لَم يكن يخطئ مطلقًا. لكن الشَّاهدة ختمت أنها لم تلحظ، ولَمْ ترَ، ولم تسمع شيئًا تحتفظ به ذاكرتها بخلاف ما ذُكِر.

أُوصِيتُ بالحفاظ على السِّرِّ، تحت التَّهديد بالحرمان الكنسيِّ.

كنت حاضرًا، خوليان أثيبس، كاتبٌ.

(شهادة مينرفينا كابا، من سانتوبينيا دي بيسوريجا، في تقرير الأشخاص الذين حضروا تنفيذ الأحكام يوم 21 مايو 1559).

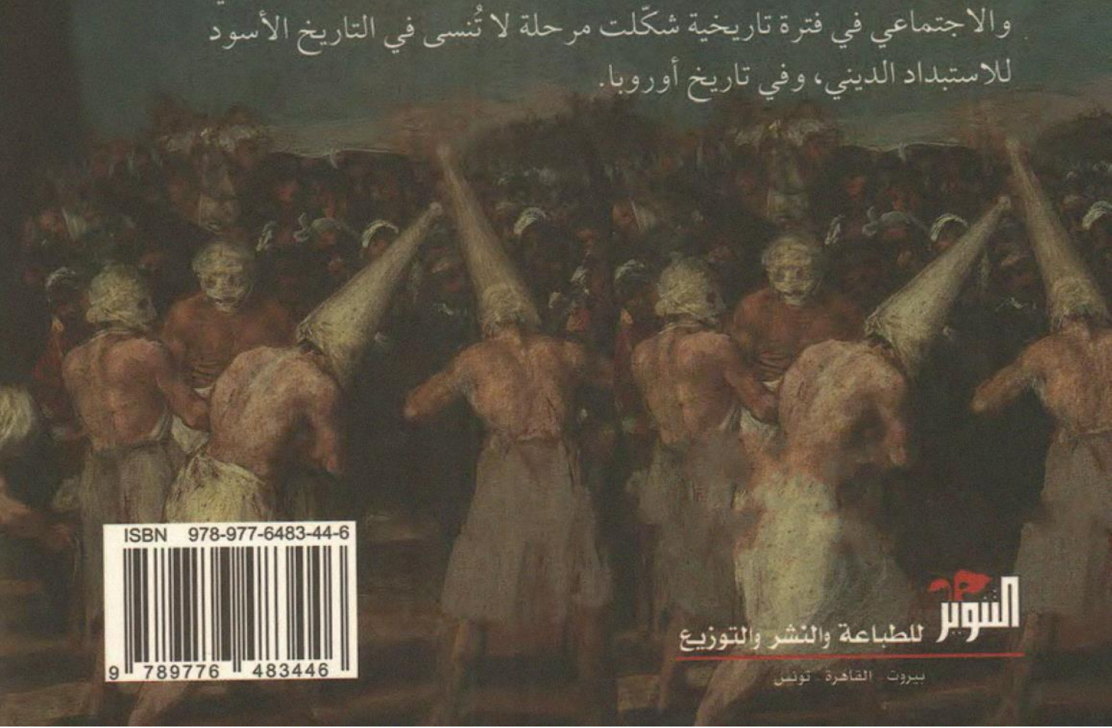
بخلاف الكُتب والمؤلِّفين المذكورين صراحةً في الرِّواية، يوجد مؤرِّخون مثل خيسوس. أ. بورجوس، بارتولوميو بن نصار، كارمن بيرنيس، خيرمان بلايبيرج، تيوفانيس إخيدو، إيسّيدورو جونثاليث جاييجو، مارثيلينو منيندث بلايو، خوان أورتيجا أي روبيو، أناستاسيو روخو بيجا، ماتياس سانجرادور، خ. إجناثيو تيشيا، وفيدريكو فاتينبرج، والذين ساعدوني بأعمالهم في إعادة بناء وتشكيل عصر (القرن السَّادس عشر). لهم جميعا أعبر بهذه السُّطور عن امتناني.

هذه الرواية أنشودة عن التسامح وتحرير الوجدان، رواية الهرطوقي قصة رجل وشغفه الذي دفعه للانخراط في الحياة.

في هذه الرواية الحائزة على جائزة بريميو الدولية، وهي أرفع جائزة أدبية في إسبانيا، يأخذنا ميجيل ديليبس إلى القرن السادس عشر في إسبانيا. حين علَّق مارتن لوثر أطروحاته الخمس والعشرين على باب إحدى الكنائس، وأطلق حركة ستقسم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. في تلك اللحظة وُلد طفل تحدَّد مصيره بالثورة السياسية والدينية التي نمت جذورها في ذلك الوقت في أوروبا. توفيت أمه أثناء ولادته واعتبره أبوه مسؤولًا عن موتها فنفر منه وانفصل عنه. كان مصدر العاطفة الوحيد لسالثيدو هي مرضعته وحاضنته مينرفينا. كبر الطفل في ظروفٍ قاسية، لكنه أصبح تاجرًا ناجحًا وانضمّ إلى حركة الإصلاح الديني، التي كانت تنتشر سريًا في شبه جزيرة أيبيريا، المعقل التاريخي للكنيسة الكاثوليكية، حيث أُنشِأت محاكم التفتيش الإسبانية التي قامت بأعمال مرعِبة في ملاحقة الإصلاحيين والتنكيل بهم.

من خلال قصة سالثيدو يرسم ديلييبس صورة قويّة لتلك الفترة من تاريخ إسبانيا، ويعيد بدقّة ملفتة وحِرَفية فنية عالية، خلق جو أوربا الثقافي والاجتماعي في فترة تاريخية شكّلت مرحلة لا تُنسى في التاريخ الأسود للاستبداد الديني، وفي تاريخ أوروبا.

لوحة الغلاف للرسام الإسباني جويا
تصميم الغلاف نجاح طاهر



ISBN 978-977-6483-44-6
9 789776 483446

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت القاهرة تونس